الإسلام دين ودنيا

الإسلام دين ودنيا

تأليف
الدكتور محمد شامة

ابوللو للتوزيع

الطبعة الأولى ١٩٨٨ م ــ ١٤٠٨ هـ

رقم الايداع ٨٥١٥ / ٨٧
الترقيم الدولي ٣ ــ ٠٩ ــ ١٥٦٠ ــ ٩٧٧ ISBN

الناشر

ابوللو للنشر والتوزيع
١٦ شارع البورصه ــ التوفيقية ــ
ص . ب : ٢٥١٥ القاهرة ت : ٧٥٢٢٢٤
عمارات أبو الفتوح ــ عمارة ٣٩
شقة ٤ الهرم ت : ٨٥٩٥٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

○ مقدمة ○

أثبتت الأحداث التاريخية أن مرحلة التحول من أخطر المراحل التى تمر بها المجتمعات البشرية ، لأنها مرحلة الصراع الحاد بين التيارات الفكرية المختلفة فى منابعها ومصادرها ، والمتنافرة فى مضمونها وأشكالها ، والمتباعدة فى أهدافها وغاياتها ، ذلك أن نظام الكون قائم على مبدأ الحركة والنمو ، وأساس ديناميكية الحياة منحصر فى التغير ، فإن غاب ذلك عن أذهان الناس توقف نبض الوجود ، وسكنت حركة الحياة إلى الأبد . لكن تعود الناس على المألوف ، وخوفهم من المستقبل ، دفعهم إلى الاعتقاد بأن كل جديد يحمل فى طياته خطرا داهما ينقض الأسس التى استقرت عليها حياتهم ، ويزعزع الاستقرار الذى ألفوه وتعودوا عليه ، حتى وإن كان سببا فيما هم فيه من انحطاط وتخلف ، فهم يرضون بما وجدوا عليه آباءهم ، وشبوا وترعرعوا فى ظله ، وإن كان فى بعض جوانبه مايعوق مسيرة تقدمهم ، ويعجزهم عن الوصول إلى مايزيل عنهم أثقالهم ، ويخفف عنهم آلامهم . ومن هنا يبدأ الصراع بين : من ينادى بالتخلص من آثار الماضى ، ويدعو إلى فتح الذراعين لكل ماهو جديد ، وقبول كل مستحدث ، لأن ذلك — فى رأيه — يدفع عجلة الحياة إلى التقدم ، ويساعد على التخلص من آثار الماضى حيث التخلف والانحطاط فى جميع مجالات الحياة .

ومن يرفض التجديد ويصر على التمسك بالقديم مهما كانت قيمته وأثره فى الحياة ، فهم يرون أن الجديد لاوزن له ، فلا يجوز قبوله ، ولا جذور له تثبت وجوده فى المجتمع ، وتحمل الانسان على التعامل معه ، فهو **«بدعه»** تضل من يتبعها ، فتقوده إلى واد سحيق ، يفقد فيه هويته ، وتذوب ملامحه فى خضم الصور والأشكال الجديدة ، فتتلاشى ذاته ، ويتفكك كيانه بصيرورته تابعا من توابع هذا الوافد الجديد .

وبين هؤلاء وأولئك فريق لايتحمس للجديد ، بل تضطره ظروف الحياة إلى التعامل معه ، ولا يتنكر للقديم ، ولكنه يغمض الطرف عنه تحت ضغط الظروف المعيشية ، ويبتعد عنه أمام معطيات العصر ومتطلبات الحياة ، ولذلك تراه مضطرب الفكر ، مشوش الفؤاد ؛ تتنازعه الاتجاهات المتعددة ، وتتقاذفه التيارات الفكرية من كل صوب وحدب ، يسمع لمن يتمسكون بالقديم فيميل كلية إليه ، وتستأنس عواطفه بما يرددونه من حجج وبراهين ، لأن جذور القديم تمتد فى أعماقه ، وتتشعب فى أحاسيسه وعواطفه . ويصغى إلى الذين ينادون بالتجديد فلا ينكر لهم صوتا ، ولايرفض لهم حجة أو دليلا ، لأن واقع الحياة يؤيدهم ، والرغبة فى التقدم والرق تصدقهم ، والأمل فى التخلص من سيطرة من ملكوا زمام تكنولوجيا العصر تساندهم ، وتحمل المترددين إلى الانحياز لصفوفهم .

فإذا كان موقف المجددين والمحافظين واضحا ، فإن موقف سواد الأمة يظل متأرجحا ، فهو يتذبذب بين هؤلاء وأولئك ، وأحيانا يميل كل الميل إلى جانب المجددين ، وذلك عندما تتغلب المصلحة الدنيوية ، ويتضح أثر الحضارة وبريقها فى العيون والأسماع ، وأحيانا أخرى يتعصب للقديم ، إذا تغلبت المشاعر ، واتقدت العواطف ، وتأججت الأحاسيس .

هذه هى صورة المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، إذ عندما اتصلت اتصالا مباشرا بالحضارة الغربية ، تفتحت أعين المسلمين على أنماط من الحياة ، ونماذج من السلوك ، لم يعرفوها من قبل ، وليست لهم دراية بكنهها وأبعادها ، اللهم إلا ماوقر فى أذهانهم بأن ماعليه تلك الأمم من تقدم ورقى فى مجال الانتاج بجميع فروعه ، راجع إلى اختيارهم لهذه الأساليب فى تنظيم شئون الحياة ، وتوجيه سلوك الأفراد فى المجتمع ، فاندفع فريق من المسلمين ينادى بالتخلص من كل آثار الماضى ، واتخاذ نماذج الحياة الغربية أساسا لنا فى تنظيم حياتنا ، وتشكيل سلوكنا حتى نستطيع اللحاق بهم فى مسيرة التقدم والرقى . ومن بين مااشتملت عليه هذه الدعوة : المناداة بأن نقتفى أثرهم فى كل المجالات ، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، ويستلزم هذا أن نحرر هذه المجالات من سيطرة الدين ، بحجة أن الاسلام لم يعد مناسبا للحياة فى العصر الحديث ، ولذا

ينبغى أن ينحصر فى مجال العبادات فقط ، أى لابد أن يكون هناك فصل بين الدين والدولة ، وهو مايطلقون عليه اسم : **«العلمانية»** ، فالدولة العلمانية هى التى لايكون للدين فيها سلطان على أمور الحياة ، بل ينحصر فى دور العبادة ، تاركا شئون الحياة ، يسيرها الناس بالطريقة التى يرونها صالحة لهم .

وكان من الطبيعى أن يعارضهم فريق آخر ، يرى أن الاسلام دين ودنيا ، مسجد ومؤسسات للحياة فى جميع مجالاتها ، مستدلين على ذلك بما روته كتب التاريخ من نماذج أثبتت أن الاسلام قاد أمة مترامية الأطراف ، ومتعددة الأجناس والأعراق بصورة يعجز أى نظام عن بلوغ مثلها فى تحقيق : الحرية ، والعدل ، والكفالة الاجتماعية ، وفى تهيئة الظروف التى تساعد على التقدم والابتكار والاختراع . فإذا أردنا الاسراع فى ركب الحضارة فالاسلام يحقق لنا تفوقا على جميع الأمم فى هذا المجال ، لو طبقناه كما ينبغى ، وكما أراد الله لنا فى ظله .

لم يصل كثير من المتحدثين باسم الاسلام فى هذا العصر إلى درجة من الثقافة والمعرفة تمكنهم من فهم واقع المجتمعات الانسانية المعاصرة ، أو التفريق بين مايتحتم الأخذ به فى الظروف الراهنة ، وماينبغى رفضه ، فلا يجوز السماح بوجوده فى المجتمعات الاسلامية . بأى حال من الأحوال ، مما دفعهم إلى رفض كل مايتعلق بالحضارة الحديثة ، حتى ولو لم يكن له تأثير سلبى على الجانب الدينى .

أنكروا التعامل مع كل مظهر حضارى ، حتى وإن لم ينكره الدين أو يحرمه .

وضعوا قيودا على سلوك الناس اعتمادا على رأى فقيه ، وليس استنادا إلى نص صريح .

اتسمت فتاواهم بالتضييق وتقييد حرية الناس ، على الرغم من النصوص الصريحة التى تبين أن الله لم يجعل على الناس حرجا فى الدين ، بل هو تهذيب وتقويم فى إطار السهولة واليسر .

كان هذا الموقف من بعض رجال الدين سببا فى تمسك الداعين إلى علمانية

الدولة بموقفهم ، إذ أعطاهم الدليل على أن الدين لايصلح للحياة المعاصرة التى اتسمت بسرعة المتغيرات ، وكثرة المستحدثات فى جميع المجالات ، فلا يمكن التوفيق بين التمسك بصيغ قديمة تعوق حركة التقدم ، أو تقف حائلا بين المجتمع وبين الانطلاق فى طريق الرقى والحضارة . ومما دعم به هؤلاء موقفهم مااشتهر بين المتطرفين من مواقف يعتبرها صفوة الأمة من المثقفين غير مقبولة على الاطلاق فى المجتمع المعاصر ، وخاصة فيما يتعلق بمجال السياسة والحكم . ومن أشهر هذه المواقف مايراه بعض رجال الدين من أن الشورى التى نص القرآن الكريم على أنها من الصفات اللازمة للمجتمع الاسلامى غير ملزمة للحاكم ؛ إذ يعتبر العلمانيون هذا الموقف منافيا للديمقراطية التى تعارفت المجتمعات فى العصر الحديث على أنها الأسلوب الأمثل فى إدارة شئون الحكم ، فإذا جاء من يجردها من مضمونها الأساسى ، ويبطل مفعولها الأصلى ، فإن من الطبيعى أن يجد معارضة قوية ، حتى ولو تدثر رأيه بثياب الاسلام ، فما بالك برأى ليس له وزن فى مجال الفقه الاسلامى ، حتى وإن تمسك به من يصف نفسه بأنه فقيه . لكن العلمانيين تلقفوا هذا الرأى ورفعوه سلاحا يخيفون به من يفكر فى الدعوة إلى تطبيق الشريعة الاسلامية فى مجال الحكم ، إذ ارتفعت أصواتهم بأن هذا معناه ديكتاتوريه دينية ، مادام الحاكم ليس ملزما برأى الذين يستشيرهم .

ومن بين مايعارض به العلمانيون سيادة الدين فى مجالات الحياة تخوفهم من عدم وجود معارضة — أو مجال لنقد أولى الأمر — فى ظل الحكم الدينى ، إذ يتستر الحاكم وراء قدسية الدين التى لايجوز لأحد أن يعارضها ، وبذلك يموت الرأى الآخر ، وينفرد من بيده السلطة بالحكم بلا منازع ، فليس هناك من يجرؤ على نقده خوفا من أن يتهم بالخروج عن الدين . ولايوجد من يعترض على قراره ، وإلا كان متمردا على تعاليم الدين .

ومن الغريب أن بعض الذين يرفعون هذه الأسلحة فى وجه المنادين بالحكم الاسلامى لاصلة لهم بحرية الرأى فى مجال الحكم ، وبينهم وبين مبدأ إفساح المجال للمعارضة عداوة سجلها التاريخ فى صفحاتهم ، وليس فى مبادئهم أو برامجهم السياسية مايشير إلى أنهم دعاة ديمقراطية ، أو أنهم يؤيدون وجود معارضة فى المجتمع ، أو يسمحون بممارسة النقد للأجهزة الحاكمة ؛ فجذورهم ديكتاتورية ، وقد مارسها بعضهم فى فترة من فترات التاريخ ، ومازال أئمتهم

وأساتذتهم يمارسونها على نطاق واسع ، فكيف يتخذون مايسمونه « ديكتاتورية رجال الدين » سلاحا يخيفون به عامة الناس ، وجماهير الشعب فى المجتمع الاسلامى .

إن هذه مغالطة كبرى ، فتعاليم الاسلام قسمان :
قسم يتعلق بالعبادات ، وهذه مفصلة ، ومحددة ، فلايجوز لأحد تغييرها ، أو تحويرها ، فعلى المسلم أن ينفذها كما وردت بدون زيادة أو نقص فى الأصول المتفق عليها فيها .

أما القسم الآخر : وهو ماعدا العبادات ـــ أى مايتعلق بشئون الحياة ـــ فقد أباح الاسلام للمسلمين أن يجتهدوا فيها . وإن اقتضى الأمر تطويرها ، فلهم ذلك ماداموا ملتزمين بالاطار العام . ومما يوضح هذا الاتجاه ماقرره الاسلام فى مجال الحكم ، فقد اشترط أن يكون الأمر شورى ، أى لابد من إفساح المجال لكل امرىء أن يبدى رأيه ، وماعدا ذلك من شكل أو هيئة الحكم فمتروك أمره للناس ، فلهم أن يختاروا مايناسبهم ، ولهم أيضا أن يغيروا ماطبقوه إن رأوا فيه نقصا ، بشرط أن يكون النظام الذى يقرونه ـــ أيًّا كان نوعه وشكله ـــ قائما على أساس الشورى ، ومشتملا على مبدأ إتاحة الفرصة لكل فرد أن يبدى رأيه .

هذا هو المنهج الاسلامى الذى يبيح الانفتاح على كل الأفكار والتجارب السياسية والاقتصادية فى العالم ، ويسمح بالأخذ منها بما يمكن الدولة الاسلامية من الانطلاق والتقدم ، والأخذ بكل عناصر الرقى العلمى والسياسى والاقتصادى . فإذا نودى بتطبيق الشريعة الاسلامية ، فينبغى أن يفهم كل ذى عقل راجح ، أن مبدأ الشورى أساسها ، ففى ظله يمكن أن تطبق الديمقراطية بمعناها الليبرالى ، أى بتعدد الأحزاب ، وقيام المؤسسات الدستورية ، إن كان فى ذلك مصلحة للمجتمع ، إذ أن من بين القواعد العامة فى الفقه الإسلامى : « حيث توجد المصلحة فثم شرع الله » ، فلو تعددت آراء الفقهاء فى مسألة ما ، فلا يُقر منها ويصبح قانونا يلتزم به الجميع إلا مايحقق مصلحة الناس ، بناء على ماترتضيه الأغلبية طبقا لمبدأ الشورى ، وبهذا ينتفى مايلوح به العلمانيون من الحيرة أمام كثرة آراء الفقهاء حول المسألة الواحدة ، ويتلاشى خوفهم من فرض المتشددين آراءهم بالقوة . فمبدأ الشورى الذى قرره الاسلام يتنافى مع

فرض الرأى بالقوة ، ويتيح الفرصة للآراء التى تحقق مصلحة الناس للتغلب على الآراء الأخرى ..... حتى وإن كان أصحابها يتدثرون بثياب الاسلام ، ويضعون على رءوسهم قلنسوته أو شارته .

أما مايتعلل به العلمانيون من أن فترة ازدهار الحكم الاسلامى — حيث سادت العدالة كل جنبات الدولة ، وتمتع الناس بحرية الرأى ، وطبق مبدأ المساواة بينهم ، فاختفت العصبية القبلية ، والطائفية العرقية — كانت قصيرة ، إذ لم تتعد عصر الخلفاء الراشدين — باستثناء النصف الثانى من حكم الخليفة الثالث — وعصر عمر بن عبد العزيز ، الذى لم يتجاوز ثلاث سنوات ، ثم ظهرت العصبية فقضت على حرية الرأى فى اختيار الحاكم ، ومحت كل — أو على الأقل معظم— ماينادى به الاسلام فى مجال الحكم والسياسة فلا نريد أن ندخل معهم فى مناقشات بيزنطيه حول معالم الحكم الاسلامى فى عصور مابعد الخلفاء الراشدين ، لأن ذلك سيقودنا إلى متاهات لا آخر لها ، ويكفى فى هذا المقام القول : بأننا إذا سلمنا جميعا بأن الاسلام قد أرسى قواعد دولة ديمقراطية ، وأمكن تطبيقها فى ذلك العصر ، حيث كان تحقيق الديمقراطية حلما بعيد المنال ، بل إنه كان من المستحيل تحقيق ذلك فى وسط عالم تسيطر عليه الديكتاتورية بجميع ألوانها ، سواء كانت عرقية أو طائفية أو دينية ، فإن ذلك دليل على سهولة التطبيق فى عصرنا الذى تغلبت فيه — أو كادت تتغلب فيه — نغمة الديمقراطية على ماعداها . فالمبادىء التى أثبتت وجودها فى عالم الظلمات الحالكة قادرة على أن تثبت فعاليتها بشكل أفضل فى وقت خفت فيه حدة هذه الظلمات .

ويرى بعض المعارضين لمبدأ سيادة الدين على توجيه وتنظيم الحياة فى المجتمع أن أساليب الحياة قد تغيرت تغيرا جذرياً ، بحيث أصبح من المتعذر تطبيق مبادىء وتعاليم العصور القديمة فى المجتمع المعاصر ؛ إذ كيف يمكن أن يتعامل إنسان العصر الحديث بأسلوب يتنافى مع طبيعة حياته المعاصرة ؟ وكيف يخضع إنسان القرن العشرين لأحكام صيغت لتنظيم حياة إنسان القرون الأولى حيث البداوة والبساطة وعدم التعقيد . وبالاضافة إلى ذلك فإن ماكان مقبولا لدى المجتمعات البدائية ، فإنه أصبح غير مستساغ لدى الانسان المعاصر ، بل إن من القضايا التى كانت من المسلمات الأولية التى لاتقبل الشك فى الماضى ترفضها العقول الآن رفضا باتا ، ولا تتجاوب معها المشاعر والأحاسيس ، لأنها لاتتفق

مع درجة الحضارة الحالية ، ولا تلبى مطالب الحياة المعاصرة ، ولاتتناغم مع معطيات العصر ، بل تنفر منها ولا تستسيغها .

وينقسم الرد على هذه الحجة إلى قسمين :

قسم يتعلق بقضية المتغيرات . والقسم الآخر يتناول الركائز التى تقوم عليها الحضارة ، ويبنى عليها تقدم الأمم والشعوب .

أما قضية المتغيرات فإنه مما لاشك فيه أن الله خلق الكون ، وجعل الحركة مبعث الحياة فيه ، فلو توقفت هذه الحركة لانعدمت الحياة كلية ، ومن لوازمها التغير الدائم ، إذ لايستمر شيء على وجه الأرض على حالة واحدة فى لحظتين ، بل هو فى تفاعل مستمر وتغيير مطرد ، ولهذا نرى المجتمعات التى لاتدرك هذا القانون الالٰهى يصيبها الشلل عندما تبطىء حركتها ، أو تتجاهل حتمية الحركة التى هى أساس التطور والتقدم ، ومنبع الرقى وبناء الحضارات .

ولما كان هذا المبدأ هو أساس التقدم المطرد ، فإن من المحتم ألا يبقى مظهر من مظاهر الحياة ثابتا ، وإلا كان عائقاً يعوق سير الحياة فى مجراها الطبيعى ، لذا كان لابد للانسان أن يغير فى أسلوب حياته كى يتلاءم مع سنة التطور ، ويعدل فى قوانينه لتنسجم مع صور الحياة المتجددة ، وتلبى احتياجات المجتمع ، التى تنشأ عن التفاعلات المستمرة فى الظواهر الاجتماعية ، فإن تقاعس أبناء الأمة عن القيام بهذا العمل ، أو اعتقدوا أن ماخلفه الأجداد لهم أمر لاينبغى تغييره ، لأنه من الأمور المقدسة التى لايجوز محوها أو الاستغناء عنها أو تعديلها ، فقد حكموا على أنفسهم بالجمود ، وضربوا بينهم وبين التقدم سياجا يحول بينهم وبين مشاركتهم فى بناء الحضارة العالمية .

ولكن لاينبغى أن يفهم المرء من هذا القانون الكونى أن كل شيء فى حياة المجتمع فى حالة تغير وتجدد مستمر ، لأن ذلك يؤدى إلى الاضطراب وعدم الاستقرار ، فللنظم والقوانين المتغيرة جوانب ثابتة لاتتغير حتى يكون للحياة استقرارها . كما أن لحياة الناس وسلوكهم الاجتماعى أسساً لاتتغير ، ومبادىء لاتتبدل ، إذ لو خلت الحياة من عناصر ثابتة ومبادىء مستقرة لأصيب المجتمع بحمى التغيير السريع والتبديل المستمر الذى لايهدأ ولا يستقر ، فترتبك الحياة وتضطرب ، وتختلط الأمور وتتشابك ، فتقع العقول فى حيرة ، وتصاب الأمة

بالشلل ، إذ تعجز عن تحديد مفاهيم مايدور حولها ؛ فما كان بالأمس صالحا ، أصبح اليوم طالحا ، وماتمكست به فى الماضى القريب لاعتقادها أنه مناسب لحياتها ، تستنكره اليوم وتنظر إليه بعين الاستهزاء والسخرية .

غير أن قدرة الانسان تعجز عن وضع مبادىء تحافظ على الاستقرار ، وفى الوقت نفسه لاتعوق التغير الذى تتطلبه حركة التقدم والتحضر ، ولاتمنع التجديد اللازم لمسيرة الحياة على طريق التطور الحتمى فى محيط الانسان ، لأنه مهما بلغت كثرة الصور الفكرية فى ذهنه عن الماضى والحاضر فى مجال المتغيرات والثوابت ، فإنه لايستطيع معرفة المتغيرات المستقبلية بصورة تمكنه من وضع مايلائمها فى القوانين التى تنظم حياة المجتمع وتحدد سلوك أفراده . فإن استطاع التنبؤ بما يحدث على الساحة الاجتماعية فى المستقبل القريب استنتاجا من الظواهر المشاهدة ، فلن يكون تقديره سليما بالنسبة لما سيحدث بعد قرنين أو ثلاثة قرون . فالعقل البشرى عاجز عن أن يضع قوانين ونظما ترتكز على مبادىء كلية ثابتة لاتتغير ، حتى يكون للحياة استقرارها ، وفى الوقت نفسه تسمح بالتغيير اللازم لحركة التقدم والرقى ، لأن إمكاناته الذهنية مرتبطة بعصره ، ومحددة باقليمه ، لذا كان لابد لتحقيق هذين العنصرين ــ وهما : الثبات فى المبادىء الكلية ، وإمكانية التغيير فى التفاصيل الفرعية لمواجهة التغيير المستمر ــ من أن تكون قدرة واضع هذا القانون غير محددة الزمان والمكان ، ليستطيع وضعه كاملا دون أن يصيبه خلل أو ضعف ، أو يطرأ عليه فى وقت ما عدم ملاءمته للظروف المتغيرة . ولايقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

ولهذا وضع الله تشريعات تضمنت قواعد كلية تصلح لكل الأزمنة والعصور ، وتتمشى مع ماينبغى أن تكون عليه الحياة من الاستقرار ، وتتفق مع الظواهر التى يشترك فيها جميع الأجناس البشرية . أما التفاصيل والتفريعات فقد تركها الله لعقل الانسان يستخلصها حسب عصره وبيئته ، ويستنتجها طبقا لمتطلبات ظروفه المحيطة به ، بحيث يلبى احتياجات العصر ، وفى الوقت نفسه لاتخرج عن الخط الرئيسى الذى رسمه الاسلام كمبدأ عام يلتزم به الجميع ، أو كدستور يتخذه الناس قاعدة أصلية للتشريع ، ينبثق عنها كل مايقررونه من قوانين ، ومايرسمونه لأنفسهم من لوائح ونظم .

ويكفى نظرة واحدة إلى مايشغل المجتمعات من قضايا كبرى — وهى على سبيل المثال لا الحصر : الشور فى مجال الحكم ، وحرية النقد فى جميع مجالات الحياة ، وقضية المساواة بين الناس على أساس القدرة الذاتية لا على أساس عرق أو لون أو أى مظهر من مظاهر الحياة المادية ، والعدل فى توزيع الثروة القومية ، وغير ذلك من الأمور الأساسية التى تقوم عليها حياة المجتمعات ، وتؤثر تأثيرا بالغا فى رقى الأمم والمجتمعات — وموقف الاسلام منها ، تبين أنه جاء موافقا فيها — وفى غيرها من القضايا الأساسية — لقوانين الحياة ، فرسم قواعد ثابتة ، وترك التفصيلات والتفريعات للفقهاء ، لتكون مجالا للاجتهاد والاستنباط ، سعيا وراء الصيغ القانونية التى تلائم بيئاتهم وعصورهم .

وعلى هذا الأساس وجهت الدعوة إلى كل من على وجه الأرض ليدين بالاسلام ، لأنه النظام الذى يوافق طبيعة الحياة وحركتها المستمرة ، ويتلاءم مع ماتتطلبه من قواعد ثابتة ، تقوم عليها المتغيرات كيلا تنهار ، أو تتبدد معالمها وسط هذا السيل الجارف من الأحداث المتجددة .

فمن يتخذ المتغيرات فى الكون وفى الحياة دليلا على عدم ملاءمة الاسلام للحياة المعاصرة ، لأن معطيات العصر تختلف كلية عما كان موجودا فى القرن السادس الميلادى ، فإنه لايعرف خصائص التشريع الاسلامى ، ولايدرك ركائزه ، لأن المبادىء الأساسية فى حياة المجتمعات البشرية لاتتغير ، وتلك هى مانصت عليها الشريعة الاسلامية ، أما مايلائم المتغيرات من الفروع والتفصيلات فقد تركها الاسلام لاجتهاد الفقهاء والمشرعين ، يصوغونها حسب متطلبات العصر وظروف البيئة مما أعطى للاسلام صلاحية التطبيق فى جميع العصور ومختلف البيئات .

ومايدعيه المعارضون لتطبيق الشريعة الاسلامية من أن سيطرة الدين تعوق حركة التقدم ، وتعرقل مسيرة الرقى الحضارى ، بما يفرضه رجال الدين على الفكر من قيود ، وما يمارسونه — بحكم موقعهم الروحى — من تسلط فكرى على قوى الابداع والابتكار لدى الانسان ، مستدلين على صحة رأيهم بما حدث فى أوروبا فى عصر النهضة ، إذ لم يتمكن الأوروبيون من بناء حضارتهم إلا بعد أن تخلصوا من سيطرة الكنيسة ، وتحرروا من أفكار رجال الدين التى

كانت تحرم عليهم كل جديد ، وتمنعهم من ممارسة النقد ، وإلا حكم عليهم بالكفر والزندقة ، فإن هذا الادعاء يحتاج إلى وقفة متأنية نناقش فيها بهدوء ماعلق فى أذهان هؤلاء الناس عن التسلط الدينى وتحكم المؤسسات الدينية فى حركة الفكر ومسار الحضارة .

لم يعط الاسلام أحدا ــ مهما كان مركزه ــ الوصاية فى الفكر على الآخرين ، كما كان وضع البابا فى المجتمع المسيحى قبل عصر النهضة . كما أنه لم يبرىء أحدا من الخطأ ــ أو بالتعبير الاصطلاحى : لم يعصم أحدا من الخطأ ــ بحيث يفرض رأيه على المجتمع ، بحجة أنه لايجوز نقده ، لأن النقد لايوجه إلا لمن يخطىء ، ومادام خطأه مستحيلا ، فنقده جريمة يعاقب عليها من يتجرأ على مخالفته كما هو وضع البابا بالنسبة للمسيحيين . فإذا انتفت الوصاية الفكرية فى الاسلام ، فإنه يحق لكل فرد فى ظله أن يفكر بحرية ، ويعبر عن تفكيره دون حجر عليه ، ومن غير قيود تفرض على حرية التعبير عن رأيه . وكان لمبدأ انتفاء العصمة عن الانسان أثر فى اتساع حركة النقد ، إذ أنه أجاز نقد أى فكر مهما كان مركز صاحبه ، فليس هناك من يتمتع بحصانه ضد الآراء المخالفة له ، حتى وإن علا شأنه فى المناصب الروحية ، فتقلد أعلى مناصبها الرسمية ، أو تربع فى مقام من يعتقد العامة فى قداسته لقربه ــ حسب مايعتقدون ــ من صاحب الرسالة نسبا ، أو علما ، أو تقوى وصلاحا .

فإذا نظرنا إلى ركائز النهضة فى أى مجتمع إنسانى ، لوجدنا أن حرية الفكر ــ وعدم الوصاية عليه ــ تحتل المركز الأول ، لأن استمرار التقدم لايتحقق إلا إذا كان المجتمع قادرا على التجديد والتطور فى الفكر ، وفى ظروف تمكنه من معرفة الصالح من الطالح ، وتضمن له حرية تطبيق مايساعده على دفع عجلة التقدم إلى الأمام ، ويعينه على استمرار الفاعلية فى البناء والرقى . ولما كان الاسلام قد هيأ للمسلم هذه الظروف ــ بما قرره من مبدأ حرية الفكر لكل إنسان ، وبما بينه للناس من عدم وجود انسان معصوم من الخطأ ــ فإن مايدعيه المعارضون من أن تطبيق الشريعة الاسلامية يعوق حركة التقدم ، ويعرقل مسيرة الرقى والحضارة ، يصبح غير قائم على دليل سليم ، بل إن النصوص تكذبه ، وروح مبادىء الاسلام ودعائمه تنكره ؛ فهناك آيات عدة تدعو إلى البحث والنظر والاستكشاف ، كقوله تعالى : **﴿قل سيروا فى**

الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾[1] وقوله : **﴿أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت﴾**[2] . ولم يحجر الاسلام على الفكر حتى ولو أدى إلى الكفر به ، فلم يجبر أحدا على اعتناق مايرفضه ، فقد قال الله تعالى : **﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾**[3] وقال : **﴿لا اكره فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾**[4] . ومما لاشك فيه أن دينا يدعو إلى النظر والبحث ، ويعطى الحرية للانسان فيما يعتقد ، لايمكن أن يكون حجر عثرة فى طريق التقدم ، بل يدفع الانسان دفعا إلى الاسراع فى البناء والرقى بما هيأ له من ظروف الحرية فى الفكر والتعبير .

ومما يزيد هذا الجانب وضوحا أن الاسلام لم يلزم المسلم بالعبادة إلا بمقدار مايؤهله لعمارة الأرض ، يقول تعالى : **﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾**[5] ولا تكون العمارة إلا نتيجة للعمل والانتاج وظاهرة من ظواهر الرقى والتقدم .

فليست العبادة فيه مقصودة لذاتها ، بل لما يترتب عليها من تأهيل الفرد على نحو يجعله قادرا على الخلق والابداع ، ومُهيئاً للتأثير والتأثر فى مجال الحضارة ، تأمل قوله تعالى : **﴿مايريد الله ليجعل عليكم من حرج * ولكن يريد ليطهركم ..﴾**[6] . فالطهارة لها جانبان : ظاهرة ، وباطنة ، فمعالمها الظاهرة هى أن يبدو الانسان جميل الهيئة ، حسن الهندام ، مرتبا فى كل مايتعامل به ، منسجما مع من حوله .

أما الوجه الآخر من الطهارة فهو : أن يكون حسن الخلق ، طاهر القلب ، نقى السريرة ، لايخدع أحدا ، ولايحقد على إنسان ، يحب لأخيه مايحب لنفسه .

---

(١) العنكبوت ٢٠
(٢) الغاشية ١٧ ــ ٢٠
(٣) الكهف ٢٩
(٤) البقرة ٢٥٦
(٥) هود ٦١
(٦) المائدة ٦

ولاشك أن الجانب المعنوى — وهو الباطنى — إذا التقى مع القدرة والعطاء فإن انتاجه فى مجالات الحياة المختلفة هو قاعدة الرقى والحضارة ، وتلك هى التى تظهر آثارها على الانسان .

ومن هنا ينبغى على المعارضين لتطبيق الشريعة الاسلامية أن يضعوا نصب أعينهم الحقائق التالية :

أولا : الاسلام يدعو إلى العمل فى المجال الدنيوى ، « فلا رهبانية فى الاسلام » ، فمن يدعى أن التواكل والاهمال فى المجال الدنيوى من سمات الاسلام ، بحجة أنه يطلب من المسلم أن يكثر من العبادات ولو على حساب الانتاج ، فليس هذا صحيحا ، فقد قال الله تعالى : **﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض﴾**(٧) ولايوجد أبلغ من هذا فى الحث على العمل الدنيوى .

ثانياً : بيَّن الاسلام أن غاية وجود الانسان هو استعمار الأرض ، ولا يتحقق الاستعمار فيها إلا بالرقى والتقدم ، فمن يكن غاية وجوده بناء الحضارات ، فلا ينبغى أن يقف سلبيا فى ساحة معركة البناء والتقدم ، فضلا عن إعاقة حركة التقدم وعرقلة المسيرة الحضارية .

ثالثاً : لم يحرم الاسلام الاستمتاع بنتاج الحضارة ، طالما لاينتج منه ضرر ، بل إنه أنكر قول من يحرمون ذلك، فقال تعالى: **﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق * قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾**(٨) .. بل أمر الانسان أن يستمتع بما فى الدنيا من طيبات فقال تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم﴾**(٩) فمن يرى حرمة استخدام ماتنتجه الحضارة ، فلا ينبغى أن ينسب رأيه إلى الاسلام ، لأن نصوص القرآن الكريم لاتحرم التعامل مع أى شىء تنتجه الحضارة ، إلا إذا ترتب عليه ضرر للفرد ، أو فساد فى المجتمع .

---

(٧) الجمعة ١٠
(٨) الاعراف ٣٢
(٩) البقرة ١٧٢

وعليه فمن يعرف هذه الحقائق ، فليس له أن يعارض فى تطبيق الشريعة الاسلامية ، اعتمادا على ماشاع بين العامة من المثقفين من أن الاسلام يعرقل مسيرة الحضارة ، أو يحد من سرعة عجلة التقدم ، فقد أصبح واضحا الآن مدى تأثير العقيدة فى دفع ركب الحضارة ، فلو استخدمت فى قيادة الأمة لأسرعنا الخطى على طريق البناء الحضارى .

وليس موقف الاسلام من قضايا الحرية والديمقراطية والحضارة ، هو كل مايجعله صالحا لكل زمان ومكان ، ومناسبا لكل البيئات والمجتمعات ، بل إن منهجه كله ـــ سواء فى مجال السياسة والحكم ، أو فى أروقة الاقتصاد والمال ، أو فى قاعات البحث والدراسة .. و .. الخ ـــ وضع على أساس عدم التقيد برقعة زمانية أو مكانية ؛ إذ جعل الله الانسان فى هذا كله محور مبادئه وقواعده ، وهدف أوامره ونواهيه ، وغاية تطبيق أحكامه وتشريعاته ، فلم يكن مافيه من عقائد وعبادات وأخلاق وأحكام إلا للعناية بالانسان والمحافظة عليه ، حتى لاتدمره عواصف الضلال والبهتان ، ولاتهدم كيانه ، وتمحو ذاته ريح الحقد والعدوان ، ولاتزلزل أركان مجتمعه ، وتضعف بنيانه أنانية فردية أو عصبية عرقية . فمبادىء العقيدة فى الاسلام متفقة مع فطرة الانسان ، ولذا فهى منسقة لعواطفه ومشاعره ، ومنظمة لحياته واتجاهاته ، وموجهة لسلوكه وعاداته ، بحيث ينسجم داخليا مع نفسه ، وخارجيا مع من حوله وماحوله فأينما وليت وجهك فى البستان الاسلامى وجدت كل مافيه من عقيدة وعبادة ، ومعاملات وأحكام فى خدمة الانسان والحياة ، ويؤدى ـــ إن طبق كما أراده الله ـــ إلى تناسق فى نغم الحياة كلها ، ويؤثر تأثيرا إيجابيا فى دفع عجلة التقدم والرقى .

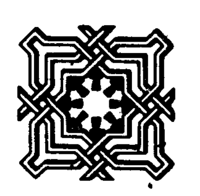
وما تناولناه فى هذا الكتاب هو محاولة لالقاء الضوء على بعض الجوانب فى المبادىء الاسلامية ، لنوضح هذه المعانى ، فمن طريق عرضنا للعقيدة ومنهجها ، والدعوة إليها ، ومجال الحرية فيها ، والدفاع عنها ، وأثرها فى الحياة ، وخاصة فى مجال حقوق الانسان يتضح للقارىء أهميتها للمجتمع ، ومدى صلاحيتها لهذا العصر .

والله أسأل أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه ، وأن ينير به قلب كل من

يقرؤه ، فيضم صوته إلى الداعين لتطبيق الشريعة الاسلامية ، حتى يكتب الله لنا الصلاح والفلاح إنه سميع مجيب .

محمد عبد الغني شامة

الدوحة في ٧ رجب سنة ١٤٠٧ هـ
٧ مارس سنة ١٩٨٧ م



الفصـل الأول

الفطرة والعقيدة

الفطرة والتوحيد

يتردد على ألسنة الناس كثير من الصفات الانسانية ، التى لايعرف أحد حقيقتها ولايدرك معناها على وجه الدقة ، مثل : النفس ، والروح ، والفطرة ، وغير ذلك من الصفات التى كثرت الآراء حول شرحها ، سواء كان ذلك : فى مجال الفلسفة والأبحاث النظرية ، أم تعداها إلى مجال البيولوجيا ومعامل التجربة والاختبار .

وعليه فقد تعددت تصوراتها فى ذهن الناس تعددا ، يكاد يكون متناقضا غير أن المرء مطالب إزاء كثرة الشروح المتشابهة حينا ، أو المتناقضة أحيانا ، بأن يركن إلى أكثر المصادر ثقة ، وأقربها إلى حقيقة الأشياء وكنهها ، وأغزرها معرفة بأسرار الكون وحقائق الوجود . بل واجب عليه أن يتلمس معناها ممن تخصصوا فى هذا المجال ، أو ممن لهم صلة بمن يوثق به ثقة لاتتزعزع ولا يعتريها شك ، أو يخالطها ريب يهز الثقة فى هذا المصدر ، أو يمحو ماأثر عنه فى مجال الفكر من عصمة ، أو على الأقل من بعد عن الوقوع فى الخطأ بعدا يكاد يكون من المستحيل طيه .

فإذا أردنا معرفة كنه الفطرة فى الإنسان وحقيقتها وجدنا أنفسنا وجها لوجه أمام مصدرين يمكن الركون إليهما فى فهمها والكشف عن ماهيتها :

الأول : الفلاسفة :

لأن طبيعة عملهم فى مجال البحث عن حقيقة الأشياء أضفت على نتائج أبحاثهم ثوبا يعكس فى معظم الأحوال صورة الحقيقة ، ويوحى لمن يطلع عليها إحساسا بأنهم لم يخطئوا

فى تصورهم لحقيقة الأشياء وكنهها ، وإن جانبهم الصواب فى بعض الحالات فإن أبحاثهم لازالت تحتل الصدارة فى قائمة تصنيف المعلومات طبقا لموافقتها للواقع .

الثاني : الأنبياء :

لأنهم يبلغون وحى الله ، ومعروف أن الوحى حين يخبر بحقيقة شيء ما ، فإنه يكون مطابقا للواقع تمام المطابقة ، ومايشاهد من آراء متعددة فى مجال الفكر الدينى فليس إلا مظهرا لاختلاف مفاهيم العلماء لنص الوحى .

غير أننا لانجد فى مجال تفسير كلمة : «**الفطرة**» اختلافا كبيرا بين مفهوم الفلاسفة لها ، وبين ماأخبر به الوحى عنها ، فالفلاسفة يرون أن الفطرة : هى أن الطفل يكون عند ولادته صفحة بيضاء خالية من كل أثر وصورة ، ثم لايلبث أن تتوارد على حواسه آثار منبعثة من الأشياء الخارجية فتنطبع صورها فى لوحة الذهن كما تنطبع صورة الخاتم على قطعة الشمع .

فهذا المعنى لايختلف كثيرا عما جاء فى حديث رسول الله ﷺ حيث يقول : «**كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه ، إما شاكرا ، وإما كفورا**» وفى رواية : فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه .

وهذا هو المعنى الذى توصل إليه الفلاسفة من أن الطفل يولد صفحة بيضاء ثم يتشكل حسب ماتمليه عليه بيئته .

ويمكن أن يقال : إن الله خلق الطفل على طبيعة الحق ، التى هى لا إله إلا الله . أى أن فطرته تميل إلى التوحيد ، لأن خالقه واحد ، ومن غير المعقول أن يخلقه على هيئة بعيدة عن توحيده سبحانه وتعالى ، فالفطرة على هذا المعنى : هى التوحيد ، فالطفل يخلق موحدا ربه ، وإنما يطرأ الشرك عليه من المجتمع الذى ينشأ فيه . ومما يؤيد هذا قوله تعالى : ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله * ذلك الدين القيم * ولكن أكثر الناس لايعلمون**﴾[1] .

ولايبعد هذا المعنى عن قولهم : « إن الطفل يولد صفحة بيضاء » لأن هذا تعبير عن معنى الخير فى الانسان ، والدين الحنيف هو الخير كله .

---

(١) الروم ٣٠

يؤمن الانسان العادى ـــ مثله فى ذلك مثل العالم ـــ بأن له وجودا ، وبأن للكون حوله ، بما فيه من نبات وحيوان وجماد وجودا أيضا ، فإذا آمنا بوجود الكون ، فلا بد أن نؤمن بإله هذا الكون منطقيا ، إذ لامعنى لأن نؤمن بالمخلوق ونرفض وجود خالقه ونحن لانعلم شيئا جاء إلى الوجود من العدم دون أن يخلق ، فكل شيء مهما بلغ حجمه ـــ عظم أو صغر ، جل أو دق ـــ وراءه علة ، فكيف نؤمن بأن كونا عظيما ـــ مثل كوننا ـــ جاء إلى الوجود ذاتيا دون خالق ؟؟

اهتدى الانسان بفطرته إلى هذه الحقيقة ، فاعتقد بوجود الله ، غير أنه ضل الطريق فى تحديد كنه الإله ، وصورته ، فكان منهم من عبد الأشجار والأحجار والكواكب لأنه اعتقد أن روح القوة التى تسيطر على العالم قد حلت فيها ، ومنهم من اعتقد بوجود آلهة متعددة ، فصوَّر القوى المسيطرة على الكون بآلهة ، يسيطر كل إله على جانب من جوانب الكون ، فهذا إله المطر وذلك إله الريح ، وثالث إله النبات .. و .. و .. الخ . كما وجد من اتخذ التثليث عقيدة له فآمن بأن القوة المسيطرة على العالم عبارة عن أب وابن وروح قدس .

فأرسل الله رسله ليصححوا للناس عقيدة التوحيد ، فكانت دعوتهم الأولى لقومهم أن اعبدوا الله وحده لاشريك له ، فقال نوح عليه السلام لقومه : ﴿**اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾[٢] وقال هود عليه السلام لقومه ﴿**اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾[٣] . وكذلك قال صالح وشعيب وغيرهما من الأنبياء نفس المقالة ، فكل رسول طلب من قومه الإقلاع عن عبادة غير الله ، والاتجاه إلى عبادة الله وحده سبحانه وتعالى ، يقول تعالى : ﴿**ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾[٤] .

كما أخبر رسوله محمدا ﷺ بأنه أوحى إلى كل رسول أنه لا إله إلا هو ، حيث يقول : ﴿**وماأرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾[٥] .

---

(٢) الاعراف ٥٩
(٣) الاعراف ٦٥
(٤) النحل ٣٦
(٥) الأنبياء ٢٥

ولهذا كان أول مايكلف به العبد هو شهادة أن لا إله إلا الله ، أى لامعبود سواه ، هو الله الذى لا إله إلا هو ، فلا عبادة لصنم أو حجر أو شجر ، ولا خضوع لسحاب أو شمس أو قمر ، ولاشريك له من ابن أو ند ، أو روح قدس ، فهو الواحد الأحد الذى لانظير له ، ولا وزير ، ولاند ، ولاشبيه ، ولاعديل ، فهو السيد الذى كمل فى سؤدده ، والشريف الذى كمل فى شرفه ، والعظيم الذى كمل فى عظمته ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمته ، وهو الذى قد كمل فى انواع الشرف والسؤدد ، هو الله سبحانه ، ليس له كفء ، وليس كمثله شيء ، سبحانه هو الله الواحد القهار : ﴿**قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد**﴾[٦] .

وتتضمن شهادة التوحيد الاعتراف ــ عن اقتناع ــ بأن الله واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته ، وبأنه هو الذى خلق هذا الكون كله ، فيعلم كل صغيرة وكبيرة فيه . فهو المستحق للعبادة . فينبغى على المؤمن أن يتوجه إليه بالدعاء وأن يخصه وحده بالتعظيم والاكبار ، فلا يسأل غيره ، ولا يقدس سواه ﴿**هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس**﴾[٧] ﴿**خالق كل شيء وهو الواحد القهار**﴾[٨] . وقد دعا الأنبياء أقوامهم إلى توحيد الله ، وتبرءوا مما أصر عليه المعاندون من عبادة غير الله ، أو إشراك أحد معه فى الألوهية ، فقال إبراهيم لقومه : ﴿**إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين**﴾[٩]. وقال : ﴿**إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين**﴾[١٠] .

فعلينا أن نقتدى بإمام الانبياء إبراهيم عليه السلام فنقطع كل صلة تربطنا بمن يشرك بالله ، يقول تعالى : ﴿**قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده**﴾[١١] .

فيجب على كل إنسان الايمان بأن الله واحد ، ليس كمثله شيء ، فهو الأول والآخر ،

---

(٦) الأخلاص ١ ــ ٤
(٧) الحشر ٢٣
(٨) الرعد ١٦
(٩) الزخرف ٢٦
(١٠) الانعام ٧٨ ــ ٧٩
(١١) الممتحنة ٤

أى قديم فى ذاته وصفاته ، فلم يحدث له اسم من أسمائه ولا صفة من صفاته ، بل الذات بما لها من أسماء وصفات قديمة لا أول لها .

وقد خاض العلماء فى مسألة الصفات واختلفوا فيها ، غير أن المقام يقتضينا أن نذكر فقط ماتوصلوا إليه من أن هناك فرقا بين ماسموه صفات الذات ، وصفات الفعل ، فكل صفة يوصف بها الله تعالى ، ولا يوصف بضدها فهى صفة ذاتية كالعلم والحياة والكلام . وكل هذه الصفات قديمه . أما صفة الفعل فهى التى يوصف الله تعالى بضدها كالخلق والرزق ، وقد اعتبرها ابو حنيفة قديمة ايضا .

والصفات الذاتية — وتسمى أيضا بالصفات المعنوية — سبع ، وهى : الحياة والقدرة والعلم ، والكلام ، والسمع ، والبصر ، والإرادة . أما الصفات الفعلية فلا حصر لعددها . وصفات الذات قديمة وباقية ، أى أن الله مع صفاته وأسمائه كلها أزلى لامبدأ له ، وأبدى لانهاية له ، لأنه لو حدثت له صفة من صفاته ، أو زالت عنه لكان قبل حدوث تلك الصفة ، وبعد زوالها ناقصا ، وهذا محال ، فهو لم يزل عالما بعلمه الذى هو صفته الأزلية ، وقادرا بقدرته الأزلية ، ومتكلما بكلامه الذاتى ، والكلام صفة الأزل ، وهكذا فى كل صفاته الذاتية .

وينبغى ألا ندعو الله إلا بأسمائه الحسنى ، يقول تعالى : ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ماكانوا يعملون**﴾(١٢) . وهى كما وردت فى الصحيحين تسعة وتسعون اسما . غير أن بعض العلماء يرى أن الأسماء الحسنى غير منحصرة فى هذا العدد ، بدليل ماروااه الامام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**ماأصاب أحد قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك بن عبدك بن أمتك ناصيتى بيدك ، ماض فىّ حكمك عدل فىّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحا**» .

وجمع بعضهم من الكتاب والسنة ألف اسم لله سبحانه وتعالى .
كما ينبغى أن نصفه بكل صفات الكمال ، وننزهه عن كل وصف يلحق به نقص ، أو

---

(١٢) الاعراف ١٨٠

يوهم تشبيهه بشيء ، إذ أنه ليس كمثله شيء ، وماورد من صفات له يوصف بها الانسان كاليد والوجه وغيرهما ، فيجب أن يحمل فى حق الله على المجاز حتى يكون توحيده خالصا لايشوبه شائبة أو تشبيه وقانا الله من الوقوع فى ذلك إنه سميع مجيب .

القرآن والفطرة

تعارف الناس فى مجالات الصناعة والآلات على أن لكل شيء طريقة خاصة فى تشغيله والاستفادة منه على الوجه الأكمل ، لأن كل آلة صنعت لتؤدى مهمة معينة فلابد أن تستعمل بطريقة خاصة لتؤدى هذه المهمة . فإذا أخطأ الإنسان فى تشغيلها أصابها العطب ، وقد يؤدى هذا إلى هلاكها .

وينسب الجهل إلى من يستعملها استعمالا سيئا فى حالة عدم علمه بطبيعتها كما يرمى بسوء النية ، أو عدم القدرة على حسن التصرف — وأحيانا بالميل إلى التخريب — إذا كانت له خبرة بالتعامل مع هذه الآلات ، ومع ذلك يضع فيها مواد غير مناسبة بقصد تخريبها أو اتلافها .

ولاشك أن التعامل على هذا النحو مع الآلة يعد نقصا فى الانسان المتعامل معها ، بل إنه — أحيانا — يجلب له الاحتقار والاستهزاء ، كما أن أكثر الناس قدرة على تشغيل الآلة هو مَنْ صنعها ، لأنه عالم بجزئياتها ، فهو يعرف سر تشغيلها مما يجعله يستطيع أن يفرق بين ماهو صالح لها ، وبين مايؤثر عليها تأثيرا سيئا ، ويميز بين ما يدفعها إلى التشغيل بطريقة لاتضرها وبين مافيه هلاكها وخرابها . فهذه قضية يسلم بها كل من يتمتع بذرة من التفكير من بنى الانسان . فإذا أدركنا هذا جيدا ، فيجب ألا يخالجنا أدنى شك فى أن القرآن الكريم نزل موافقا لطبيعة الإنسان وفطرته ، ذلك أن الله هو الذى خلق الانسان فهو عليم بطبيعته ، خبير بما يناسبه من قوانين وتشريعات ، وإلا لحقه — تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا — النقص الذى يلحق الإنسان الذى يجهل حقيقة الآلة ، فيستعملها استعمالا فيه هلاكها .

ومحال أن يكون الله جاهلا بما يتفق وفطرة الانسان ، وعليه فإن كل ماجاء فى القران الكريم يتفق مع هذه الفطرة ، لأن تشريعاته تحمل من المرونة ، واليسر مايجعلها صالحة لفطرة الناس جميعا ، رغم مابين الجماعات البشرية من اختلاف فى الألوان والأجناس ،

وتعدد فى الظروف والبيئات . فما فيه من أحكام تتفق وطبيعة الانسان الفكرية يؤكد أنه من العليم الخبير الذى يعرف فطرة الناس ، ومارکب فیها من اختلاف فى المناهج والمشارب ، فهى صالحة لكل المستويات الفكرية ، فلا تقتصر — فيما وراء العقيدة الأصلية وأصول التشريع — على لون واحد من التفكير ، أو منهج واحد من التشريع لأن صياغتها جاءت على نحو يتسع ليشمل جميع الثقافات الصحيحة ، والحضارات النافعة التى يتفق عليها العقل البشرى فى صلاح البشرية وتقدمها ، مهما ارتقى العقل ، ونمت الحياة ، فلم تكن تعاليم القرآن الكريم حجر عثرة فى طريق تقدم البشرية ، بل على العكس من ذلك ، كانت باعثة على التقدم والبحث ، والتفكير فيما حول الانسان ، وتلك فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وهى فطرة التفكير والبحث والاستقصاء لما حوله من مظاهر الكون . سئل اعرابى : لماذا آمنت بمحمد ؟ فقال : مارأيت محمدا يقول فى أمر : أفعل ، والعقل يقول : لاتفعل ، ومارأيت محمدا يقول فى أمر : لاتفعل والعقل يقول : افعل .

وكيف لايكون الأمر كذلك . وهو يتلقى الوحى ممن يعلم طبيعة الإنسان ، ويدرك ماهيته وفطرته ، يقول الله تعالى : ﴿**ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾(١٣) .

حتمية العقيدة فى الحياة

تحتاج المجتمعات البشرية إلى عناصر أساسية تقوم عليها حياتها ، ويستقيم بها أمرها ، وترتكز عليها عجلة الزمن ، وحركة التاريخ فى دورانها ، فإذا غاب عنصر ما من هذه العناصر اختل التوازن فى المجتمع ، واضطربت أمور المعيشة ، فلا يجد الفرد مأمنا يركن إليه ، ولا مستقبلا يسعى له ، ولاهوية يعرف بها ، فتنقطع الروابط الاجتماعية وتتلاشى الصلات الانسانية ، فيصبح الأفراد فى المجتمع وحدات مستقلة بعضها عن بعض لايشعر أحد بأى صلة تقربه من الآخر ، ولايحس بأدنى شعور يجذبه إلى أخيه الإنسان فى المجتمع الذى يضمهم بين جنباته ، لأن عنصر التوحيد والتجميع قد فقد ، فلا أثر له بينهم ، إذ لا وجود له في حياتهم .

ومن أولى هذه العناصر التى هى عصب الحياة الاجتماعية ، والعمود الفقرى الذى يجمع

---

(١٣) ق ١٦

شتات الأمة ، ويوحد بين أفرادها : العقيدة ، فهى أهم العناصر اللازمة فى حياة المجتمعات والأفراد ، إذ حياة الفرد بدون عقيدة أقرب إلى الحيوانية منها إلى الإنسانية ، لأنها تنحصر فيما يملأ البطن ، ويلبى غريزة الجنس ، ولهذا مال الانسان بفطرته إلى العقيدة ، فآمن بقوة تفوق كل مايقع تحت حواسه من قوى ، وتعلو فوق كل مايتصوره خياله من صور تتمتع بالسيطرة والتحكم فيما حولها ، غير أنه عند ماحاول تمييز معالمها وتحديد أبعادها عجز فكره ، وكَلَّ عقله ، فهوى إلى التجسيم الحسى والتصور المادى الذى قاده إلى عبادة الأوثان والأصنام ، وتقديس كل مايظن أنه مصدر خير ، رغبة فيه ، أو شر ، اتقاء له ، سواء كان ذلك ظواهر طبيعية ، أو شكلا من الأشكال الحيوانية والنباتية ، وأحيانا كتلة من الجماد ، ظن أن بها سرا يمكن أن ينال منه خيرا ، أو يتقى بها شرا .

جاء الأنبياء برسالات السماء ليصححوا هذا التخبط الذى وقع فيه الإنسان فى رحلة البحث عن المعبود ، ونجحوا — بعد جدال ومحاورة مع أقوامهم — فى تربية الكثير من معاصريهم تربية دينية ، بحيث أصبح تصورهم للمعبود تصورا صحيحا ، وعبادتهم له خالية من شوائب الشرك ، ورواسب الكفر والضلال ، غير أنهم مالبثوا — بعد رحيل الأنبياء عنهم — أن ضلوا عن الطريق المستقيم ، فدخل الشرك فى عقيدتهم وتغلغلت الصور الزائفة فى عبادتهم ، فطمست معالم العقيدة التى بلغها الأنبياء لهم ، وانمحت صور الإيمان من حياة المجتمع ، فأصبحت العقيدة تصورات شتى عن المعبود : وثنى ومجوسى ، كافر بالله ، ومشرك معه إله غيره ، زنديق وملحد إلى أن جاء محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة ، فبين للناس بطلان هذه الصور كلها ، حيث اعلن لهم أن مايعبدون من أوثان ، يتنافى مع ابسط مايتصوره عقل ، إذ لو امعن الانسان النظر فيما يعبد ، لرآه عاجزا لايدفع عن نفسه ضرا ، ولايملك لنفسه نفعا ، وصدق الله إذ يقول على لسان إبراهيم عليه السلام لقومه : **﴿إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين﴾**(١٤) .

وضح لنا مما سبق ضرورة العقيدة بالنسبة للمجتمع والأفراد ، وتخبط الانسان فى البحث عنها ، وتصحيح الأنبياء لما وقعت فيه البشرية فى مجال المعبود والعبادة ، ثم الضلال الذى وقع فيه الإنسان إلى أن جاء محمد ﷺ بخاتم الرسالات ، فواجه كل صور الضلال

(١٤) الانبياء ٥٢ — ٥٤

مبينا مافيها من فساد ، كما بين إبراهيم عليه السلام لقومه ماهم فيه من ضلال ، حيث يعبدون اصناما لاتضر ولاتنفع .

وبعد حوار إبراهيم مع قومه عمد إلى أصنامهم فكسرها ، وحين سألوه عما إذا كان قد فعل بآلهتهم مايرونه من إهانة لها وإذلال ، قال فى معرض اجابته لهم : ﴿**أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون**﴾(١٥) . فكان هذا أبلغ حجة فى توجيه الناس إلى التفكير فيما يعبدون ، لأن من شأن المعبود أن يحمى العابد ، فإذا كان عاجزا عن حماية نفسه ، فهو أشد عجزا فى مجال حماية من يتوجه إليه بالعبادة .

وفى مجال وقوع الإنسان فى عبادة الظواهر الطبيعية يحكى القرآن الكريم حوارا بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه ، فيقول : ﴿**فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لاأحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين**﴾(١٦) .

وفى معرض المحاورة مع عبدة الأصنام من أهل مكة يقول : ﴿**ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ماقدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز**﴾(١٧) .
ويقول : ﴿**واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولاحياة ولانشورا**﴾(١٨) .

أما من أشرك بالله ، أو رفع انسانا إلى مرتبة الألوهية ، فقد وجه إليهم الحديث متمثلا فى خطابه للنصارى ، لأنهم اشتهروا فى هذا الجانب ، فقال تعالى : ﴿**لقد كفر الذين**

---

(١٥) الانبياء ٦٦ ــ ٦٧
(١٦) الانعام ٧٦ ــ ٧٩
(١٧) الحج ٧٣ ــ ٧٤
(١٨) الفرقان ٣

قالوا إن الله هو المسيح بن مريم * قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه * ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض ومابينهما يخلق مايشاء والله على كل شىء قدير﴾[19] .

وقال : **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة * وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم﴾**[20] .

ومن هذا يتبين أن القرآن الكريم واجه كل صور الباطل التى شاعت فى المجتمعات البشرية بأسلوب يخاطب العقل ، فيوجهه إلى التفكير فيما يعبد ، فإن كان متغيرا عدل عن عبادته ، لأن المعبود لايتغير ، وإن كان لايرد عن نفسه ضرا ، ولايملك لنفسه نفعا . فيجب على كل عاقل أن يكف عن عبادته ، لأنه إذا لم يقدم لنفسه نفعا ، ولا يستطيع أن يدفع عنها ضرا ، فكيف لو استغاث به العابد فى محنته أو سأله العون فى مسيرته فى الحياة ، قطعا لن يسمع استغاثة ، ولن يتحرك عند طلب معونة منه ، ولهذا يجب على كل عاقل أن يقلع عن التوجه إلى مثل هذا فيعبده لأنه لاينفعه ولايضره ، ويتوجه إلى من خلق السموات والأرض ، ومن شق الأرض فأنبت فيها النبات الطيب ، ومن هو قريب إليه يجيب دعوته ، ويدفع عنه مايؤلمه يقول تعالى : **﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾**[21] .

فالعقيدة الاسلامية ترتكز على أسس عدة ، أولاها : الإيمان بالله ربا واحدا لاشريك له ، ولا ولد ، ولا والد **﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد﴾**[22] .

أركان العقيدة

ترتكز الأبنية والهياكل المادية على قواعد ثابته راسخة ، ضاربة فى أعماق الأرض ، إذ بدونها لايرتفع بناء ، ولايستقر شكل على هيئة واحدة أكثر من لحظات فكلما كانت القواعد مثبتة ، ارتفع البناء وثبت فى مكانه ، لاتزعزعه العواصف ، ولاتهزه الأعاصير ،

---

(١٩) المائدة ١٧

(٢٠) المائدة ٧٣

(٢١) البقرة ١٨٦

(٢٢) الاخلاص ١ — ٤

بل ولا ينال منه طول الزمن ، وتقلبات الأحداث ، حتى النظام الكونى لايخرج عن هذه القاعدة ، فهو ثابت بقواعده ، مستقر بأركانه التى جعلها الله رواسى له ، يقول الله تعالى : ﴿**وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم**﴾[٢٣] .

فإذا تركنا الجانب المادى ، لنلقى نظرة على الجانب المعنوى ، أدركنا أن الصورة لاتختلف ، فكل نظام فكرى لابد له من أسس يقوم عليها ، وإلا كان صورة من الخيال الذى لامضمون لها ، ونوعا من الهيولى الفلسفية ، التى يعجز الدارسون عن فهمها ، فكلما كانت أسس النظام الفكرى واضحة ، ظهر أثرها جليا فى حياة من يتخذونه أساسا لحياتهم وكذلك الحال إذا كان مرتبطا بالعقيدة ، بل إن مايرتبط بالعقيدة يكون أشد رسوخا وأقوى ثباتا فى ضمير وكيان الأفراد والمجتمعات .

فالعقيدة ــ بوجه عام ــ لها سلطان على الفرد ، كما أنها بمثابة العقل ، الذى يكبح جماح الأمة ، فيمنعها من الزلل ، أو السقوط فى متاهات الهلاك والدمار ، والاسلام ــ بوجه خاص ــ يحتل مكان الصدارة فى مجال توحيد الإنسان ، وفى ساحة تقويم المجتمعات البشرية ، إذ هو يقوم على قواعد أصلية ، راسخة رسوخ الجبال وواضحة وضوح الشمس فى يوم خال من الغيوم والسحب . وأولى هذه القواعد : وحدة المعبود ، أى الاعتقاد بأن الله واحد لاشريك له ، وقد وفينا هذا الجانب حقه فى الفقرة السابقة .

وثانيها ، أو بتعبير آخر : الركن الثانى من العقيدة الإسلامية هو : تصديق محمد ﷺ ، أى الإيمان بأنه رسول من الله ، بعثه إلى الناس ليبلغهم شرعه وأحكام دينه ، يقول الله تعالى : ﴿**ياأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم * وإن تكفروا فإن لله مافى السموات والأرض وكان الله عليما حكيما**﴾[٢٤] وقال تعالى : ﴿**قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون**﴾[٢٥] .

فالايمان بأن محمدا هو رسول الله ، بعثه إلى الناس كافة هو الركن الثانى من العقيدة

---

(٢٣) النحل ١٥
(٢٤) النساء ١٧٠
(٢٥) الأعراف ١٥٨

الاسلامية ، فمن لم يؤمن بذلك لايكون مسلما ، ولهذا كان النطق بالشهادتين هو أول مايطالب به من يريد اعتناق الإسلام دينا ، أى من يريد الدخول فى الإسلام ، إذ جاء فى الحديث أن جبريل عليه السلام حين سأل الرسول ﷺ عن الإسلام أجابه قائلا : **«أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله»** .

وعليه فمن يريد الدخول فى الإسلام عليه أن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وبذلك يكون مسلما ، قد خطا الخطوة الأولى فى ساحة الاسلام ، ثم يسأل بعدها عما يراد منه فى دائرة العقيدة ، وسوف نشرح له ذلك فى الفقرات القادمة ، حيث نتناول بيان بقية أركان العقيدة فى الاسلام .

★ ★ ★

بينا فى الفقرتين السابقتين أن الإسلام يقوم أساسا على الاعتراف بوحدانية الله والتصديق بأن محمدا رسول ، أرسله الله إلى الناس كافة ، ويقتضى هذا التصديق الايمان بوحى الله ، الذى أنزله على نبيه محمد ﷺ ، وهو المتمثل فى القرآن الكريم ، فمن أنكر حرفا واحدا منه لايكون مسلما ، فعلى من يشرح الله صدره للإسلام فيشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، أن يؤمن ويصدق بأن الله أنزل وحيا على محمد ، وهو القرآن الكريم بلفظه المحفوظ بين دفتيه ، يبدأ بفاتحة الكتاب ، وينتهى بسورة الناس ، ومجموعه مائة وأربع عشرة سورة ، يشتمل على العقائد والعبادات ، والمعاملات ، وكذا التشريعات القضائية .

ومادام المسلم مطالبا بالإيمان بما اشتمل عليه القرآن الكريم من عقائد ، فقد لزم الإيمان بكل مانزل فيه عن الرسالات السابقة ، لأن الإيمان بالرسل السابقين وبالكتب التى نزلت عليهم هو ركن أساسى من أركان العقيدة الإسلامية ، يقول الله تعالى : **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله * لانفرق بين أحد من رسله﴾**(٢٦) .

فالمسلم مكلف بالإيمان بكل الرسل السابقين الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فمن أنكر واحدا منهم لايكون مسلما ، يقول الله تعالى : **﴿يأيها الذين آمَنُوا آمِنُوا بالله ورسوله * والكتاب الذى نزل على رسوله * والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر**

---

(٢٦) البقرة ٢٨٥ .

بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾(٢٧) .

كذلك يجب الإيمان بالغيبيات التى أخبر بها القرآن الكريم ، ومنها : الإيمان بوجود الملائكة ، لقوله تعالى : **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته﴾**(٢٨) .

فمن لم يؤمن بوجود الملائكة فهو كافر ، لأنه أنكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة . غير أن العلماء اختلفوا فى طبيعتهم ، فذهب الجمهور إلى أنهم مخلوقون من النور اعتمادا على حديث ورد فى صحيح مسلم ، وفى مسند الامام أحمد بن حنبل وذهب آخرون إلى أن النور لايمكن أن يجسد ، لأنه أثر للنار ، وعليه فالملائكة مخلوقة من النار ، واعتمدوا فى ذلك على قوله تعالى : **﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾**(٢٩) فقالوا : إن الله خلق طبيعتين : الانسان من الطين ، والجان من النار وفسروا الجان بأنه : ماجن أى استتر ، ولما كانت الملائكة مستترة لاترى بالعين فهى من الجان . ولكن لم يلق هذا الرأى قبولا بين المسلمين ، وظل الرأى السائد هو أن الله خلق الملائكة من نور ، كما خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار ، والجان : هم الجن الذين ذكرهم الله فى كتابه بقوله تعالى : **﴿قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به * ولن نشرك بربنا أحدا﴾**(٣٠) .

ولا يعقل أن يكون هؤلاء ملائكة ، لأن الملائكة مفطورون على العبادة فلا يحتاجون إلى رسالة .

وعليه فيجب الإيمان بالطبيعة الثالثة ، وهم الملائكة الذين خلقهم الله منّ نور ، كما يجب الإيمان بأن الله فضل بعضهم على بعض ، فجعل منهم ملائكة مقربين وهم : جبريل ، وهو الموكل بابلاغ الوحى إلى الأنبياء والرسل كما قال تعالى : **﴿نزل به الروح الأمين﴾**(٣١) .

---

(٢٧) النساء ١٣٦
(٢٨) البقرة ٢٨٥
(٢٩) الحجر ٢٧
(٣٠) الجن ١ ــ ٢
(٣١) الشعراء ١٩٣

وميكائيل ، فقد ذكر فى قوله تعالى : ﴿ **من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل * فإن الله عدو للكافرين** ﴾(٣٢) . وإسرافيل ، وهو الموكل بالنفخ فى الصور يوم القيامة .

كما يجب الإيمان بمالك خازن النار ، لقوله تعالى : ﴿ **ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون** ﴾(٣٣) .

وخازن الجنة ، وقيل : إن اسمه رضوان ، كما يجب الإيمان بخزنة النار ، لقوله تعالى : ﴿ **عليها تسعة عشر * وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة** ﴾(٣٤) وبالحفظة لقوله تعالى : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة** ﴾(٣٥) . وقوله : ﴿ **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾(٣٦) . والكتبة لقوله تعالى : ﴿ **وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين** ﴾(٣٧) .

وجملة القول : أنه يجب الإيمان بمن ورد اسمهم من الملائكة فى القرآن الكريم كما يجب الإيمان بأن هناك ملائكة آخرين ، لحملة العرش ، ولقبض الأرواح وغيرهم .

والدليل على وجود الملائكة ، ووجوب الإيمان بهم ذكرهم فى آيات عديدة فى القرآن الكريم ، وأمر الله المؤمنين بأن يصدقوا بوجودهم جملة وتفصيلا ، فمن يكفر بهم ، فقد تنكب الطريق المستقيم ، يقول الله تعالى : ﴿ **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فقد ضل ضلالا بعيدا** ﴾(٣٨) .

كذلك ورد الإخبار بهم فى أحاديث رسول الله ﷺ ، منها مارواه مسلم أن النبى ﷺ كان يقول فى دعائه ، عندما يقوم لصلاة الليل « **اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما أختلف فيه من الحق باذنك إنك تهدى من تشاء إلى**

(٣٢) البقرة ٩٨
(٣٣) الزخرف ٧٧
(٣٤) المدثر ٣٠ — ٣١
(٣٥) الأنعام ٦١
(٣٦) الرعد ١١
(٣٧) الانفطار ١٠
(٣٨) النساء ١٣٦

صراط مستقيم» . وقوله : «**أطت السماء ، وحق لها أن تئط ، مافيها موضع أربع أصابع ، إلا وعليه ملك ساجد**» .

أضف إلى ذلك أن العقل لايحيل وجود الملائكة ، خاصة وأن لهم آثارا تدل على وجودهم ومن هذه الآثار .

(١) وصول الوحى إلى الأنبياء والمرسلين ، إذ كان غالبا مايصلهم بواسطة الروح الأمين ، جبريل عليه السلام ، وهو الملك الموكل بالوحى .

(٢) وفاة الناس بقبض أرواحهم ، فإنه أثر ظاهر ، كذلك هو دال على وجود ملك الموت وأعوانه يقول تعالى : ﴿**قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم**﴾[٣٩] .

وأخيرا : إجماع الناس على أن عدم رؤية الشيء لضعف البصر ، أو لفقد إمكانية الرؤية ، لاينفى وجوده ، فهناك الكثير من الأشياء المادية لم تر إلا بعد اختراع المنظار ، فكذلك عدم رؤية الملائكة لاينفى وجودها ، لأنه ليس لدينا من الامكانات مايساعدنا على رؤيتها . ومادام الوحى قد أخبرنا بوجودها فيجب الإيمان بها .

وخلاصة ماسبق بيانه مما يجب الاعتقاد به فى الإسلام : وحدانية الله ، والتصديق بأن محمدا رسول ، أرسله الله بالوحى ، وهو القرآن الكريم ، ويقتضى التصديق بالقرآن الإيمان بكل ماورد فيه من الرسل السابقين وكتبهم ، والإيمان أيضا بالملائكة ، لأن الله أخبرنا بوجودهم فى القرآن الكريم .

كما أخبر الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا ﷺ بأنه قد أعد يوما يحاسب فيه الناس على ماقدموا من أعمال فى حياتهم الدنيوية ، فمن عمل صالحا فله جزاء الحسنى ، ومن عمل شرا فسوف يعاقب على مااقترف من سيئات فى حق نفسه ، وحق غيره من أفراد المجتمع الذى عاش فيه ، ولهذا يجب على المسلم الإيمان بيوم الحساب . الذى سيكون بعد أن يحشر الناس من قبورهم ، يقول الله تعالى : ﴿**ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون * فاليوم لاتظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ماكنتم تعملون**﴾[٤٠] .

---

(٣٩) السجدة ١١

(٤٠) يس ٥١ ــ ٥٤

فالإيمان باليوم الآخر من أركان العقيدة فى الإسلام ، فمن لم يؤمن به فإسلامه ليس صحيحا ، إذ ورد فى القرآن الكريم مايفيد بأن الإيمان هو : أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فالاعتقاد بأن هناك يوما سيحاسب فيه الناس على أعمالهم ركن أساسى من أركان الاسلام ، فيجب الاعتقاد بأن الأرواح ستعود إلى الأجساد ، فيقوم الناس من قبورهم حفاة ، عراة ، وتنصب الموازين ، لتوزن بها أعمال العباد ، يقول الله تعالى : ﴿**فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون**﴾(٤١) .

ومن أخبار هذا اليوم أن الله يأمر بأن تنشر الصحف التى سجلت فيها أعمال العباد ، قال تعالى : ﴿**وإذا الصحف نشرت**﴾(٤٢) . أى إذا الصحف التى كتبت فيها أعمال العباد نشرت للحساب ، فيأخذ كل كتابه ، أو صحيفته ، يقول الله تعالى : ﴿**فأما من أوتى كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حسابا يسيرا * وينقلب إلى أهله مسرورا * وأما من أوتى كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثبورا * ويصلى سعيرا**﴾(٤٣) .

وروى أحمد والترمذى عن أبى موسى الأشعرى أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**يعرض الناس ثلاث عرضات ، فعرضتا جدال ومعاذير ، وعرضة تطاير الصحف ، فمن أوتى كتابه بيمينه وحوسب حسابا يسيرا ، دخل الجنة ، ومن أوتى كتابه بشماله دخل النار**» .

وعليه فيجب الإيمان بالبعث ، والنشر من القبور ، كما يجب الإيمان بيوم الحساب وهو اليوم الذى تعرض فيه أعمال العباد على الله ، فيتقرر مصير كُلٍّ بناء على ماقدم فى الدنيا ، فإن كان قد فعل خيرا ، أخذ كتابه بيمينه ، ودخل الجنة ، وإن كان قد فعل شرا أخذ كتابه بشماله ودخل النار .

ومن أنكر شيئا من هذا فهو كافر ، لأنه أنكر أمرا ثبت بنص القرآن الكريم فقد جاءت آيات كثيرة تثبت وجود اليوم الآخر ، والحساب فيه ، منها قوله تعالى : ﴿**وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه** (والمراد بالطائر : ماطار عنه من عمله من خير وشر فهو ملزم به ،

---

(٤١) المؤمنون ١٠٢ ــ ١٠٣
(٤٢) التكوير ١٠
(٤٣) الانشقاق ٧ ــ ١٢

ويجازى عليه ﴿**ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا**﴾[٤٤] .

وقد أقسم الله بهذا اليوم فقال : ﴿**لا أقسم بيوم القيامة**﴾[٤٥] .

وأخبرنا بما يجرى فيه فقال : ﴿**ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر**﴾[٤٦] .

وقال : ﴿**يأأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة** (وهى يوم الحساب) **شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد**﴾[٤٧] .

ويتضمن اعتقاد المسلم بيوم القيامة ، حيث يكون الحساب على ماقدم من أعمال فى الحياة الدنيا ، التصديق بوجود الجنة والنار ، وهذا التصديق واجب بمقتضى الايمان بما جاء به الرسل ، إذ من بين ماجاءوا به من عند الله ، وأمروا بتبليغه أن الله أعد للمتقين جنات نعيم ، وللعصاة نار الجحيم ، وذلك تحقيقا للعدالة فى مجال الثواب والعقاب ، فقال تعالى : ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين**﴾[٤٨] . ويقول مخبرا عما أعده للعصاة : ﴿**قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد**﴾[٤٩] . ويقول : ﴿**إن جهنم كانت مرصادا * للطاغين مآبا * لابثين فيها أحقابا * لايذوقون فيها بردا ولا شرابا * إلا حميما وغساقا * جزاء وفاقا * إنهم كانوا لايرجون حسابا * وكذبوا بآياتنا كذابا * وكل شىء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا**﴾[٥٠] .

وقد وردت فى القرآن الكريم عدة أسماء للجنة ، منها : دار السلام يقول تعالى : ﴿**لهم دار السلام عند ربهم**﴾[٥١] . ويقول : ﴿**والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء**

(٤٤) الاسراء ١٣ — ١٤
(٤٥) القيامة ١
(٤٦) القيامة ١٣
(٤٧) الحج ١ — ٢
(٤٨) آل عمران ١٣٣
(٤٩) آل عمران ١٢
(٥٠) النبأ ٢١ — ٣٠
(٥١) الانعام ١٢٧

إلى صراط مستقيم﴾(٥٢) . وأطلق عليها دار الخلد ، لأن نعيمها باق لايفنى ، يقول تعالى : **﴿إن هذا لرزقنا ماله من نفاد﴾**(٥٣) . ويقول : **﴿أكلها دائم وظلها﴾**(٥٤) . ويقول : **﴿وماهم منها بمخرجين﴾**(٥٥) . كما اشتهرت باسم الفردوس ، أو دار المقامة ، يقول تعالى : **﴿الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾**(٥٦) . ويقول : **﴿جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير * وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور * الذى أحلنا دار المقامة من فضله لايمسنا فيها نصب ولايمسنا فيها لغوب﴾**(٥٧) .

كذلك أطلق على النار أسماء عدة منها : سقر ، يقول تعالى : **﴿يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مسّ سقر﴾**(٥٨) . ويقول : **﴿سأصليه سقر * وماأدراك ماسقر * لاتبقى ولاتذر * لواحة للبشر * عليها تسعة عشر﴾**(٥٩) .
كما أطلق عليها السعير ، يقول تعالى : **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾**(٦٠) . ويقول : **﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع ، لاريب فيه فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير﴾**(٦١) . كذلك اشتهرت بالنار ، وجهنم والجحيم وغيرها من الأسماء التى لايتسع المقام لحصرها كلها .

وقد اختلف العلماء فى خلق الجنة والنار قبل يوم القيامة فأنكره جماعة من المعتزلة زاعمين أنه لافائدة من خلقها قبل يوم الثواب والعقاب وحملوا قوله تعالى : **﴿أعدت للمتقين﴾** على أنه من باب التعبير عن المستقبل بالماضى لتحقق وقوعه .

---

(٥٢) يونس ٢٥
(٥٣) صٓ ٥٤
(٥٤) الرعد ٣٥
(٥٥) الحجر ٤٨
(٥٦) المؤمنون ١١
(٥٧) فاطر ٣٣ ــ ٣٥
(٥٨) القمر ٤٨
(٥٩) المدثر ٢٦ ــ ٣٠
(٦٠) فاطر ٦
(٦١) الشورى ٧

وذهب أهل السنة إلى أن الجنة موجودة مخلوقة . واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿**ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾(٦٢) .

فقد روىّ أن ابن مسعود سألّ عن هذه الآية ، فقيل له : إنه لما أصيب إخوانكم فى أحد ، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد فى أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل فى ظل العرش . كذلك روى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «**إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وأغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين**» . فهذه وغيرها من الآيات والأحاديث تثبت وجود الجنة والنار الآن .

غير أن بعض العلماء سئل عن ذلك فقال : « السكوت عن هذا أفضل » وهذا جواب سديد فى هذا المقام ، لأن ذلك من الغيبيات التى لايستطيع العقل البشرى أن يبحث فيها ، بل عليه أن يسلم بالنص كما هو ، دون أن يحاول شرحه ، أو التعليق عليه لأن ذلك فوق طاقته .

مركز العقيدة

اقتضت طبيعة الأشياء أن يكون هناك عنصر يمثل المركز الرئيسى فيها ، بحيث لو غاب عن الوجود ، فقدت باقى العناصر قيمتها ، فالقلب هو مركز حياة الإنسان ، فلو توقف توقفت معه الحياة ، والعقل مركز التفكير ، فلو عجز عنه ، اختل سلوك الانسان واضطربت تصرفاته ، كذلك الحال فى عالم الأفلاك ، فكل مجموعة سيارة لها مركز تدور حوله وترتبط به بروابط تحفظ التوازن بين الأفلاك الدائرة حوله فلو انقطعت هذه الروابط انهارت المجموعة كلها ، وتلاشت فى الجو .

فما هو ياترى مركز العقيدة الاسلامية ؟

تمثل كلمة التوحيد العنصر الرئيسى فى الاسلام ، فإذا لم توجد فى عقل وقلب الإنسان لايكون مسلما ، ولو عمل بكل ماجاء فى الاسلام من أوامر ووصايا ، واجتنب كل مانهى عنه فى القرآن الكريم ، فكلمة التوحيد ، وهى قول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . هى الأساس الذى يعلو فوقه البناء الاسلامى — فى ضمير الفرد والأمة وسلوكهما — المتمثل فى أداء العبادات ، والالتزام بكل مانهى الله عنه فى كتابه ، وعبر عنه رسول الله ﷺ فى الأحاديث الصحيحة . فمن لم ينطق بها لايعتبر فى نظر المجتمع الاسلامى مسلما ،

(٦٢) آل عمران ١٦٩

بل هو كافر ينبغى على المجتمع أن يعامله معاملة غير المسلمين ، ومن لم يصدق بها فى قلبه ، لايقبل الله منه عملا ـــ وإن عامله المجتمع معاملة المسلم باعتبار أنه نطق بكلمة التوحيد بلسانه ، أى ظاهرا فقط ـــ ولا يعتبر عند الله من الناجين من عذابه الذى أعده لمن كفر به ، أو أشرك معه إلٰها غيره .

فأول مايطلب من الإنسان الذى يرغب اعتناق الاسلام دينا له ، أن يصدق بقلبه بأن الله واحد ، ويشهد بأن محمدا هو رسول الله ، أرسله ليبلغ الوحى للناس ، ويأمرهم باتباع ماجاء به من أوامر ، واجتناب مانزل فيه من نَوَاهٍ ، ثم ينطق بكلمة التوحيد وهو التلفظ بها عن اقتناع ، أى يقول : « أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » ، وبذلك يكون قد دخل فى دين الإسلام ، له ما للمسلمين ، وعليه ماعليهم وكان لكلمة التوحيد مركز الصدارة فى الإسلام لما تحتويه من معان ، جمعت كل القيم الهامة ، التى يجب أن يتحلى بها المسلم ، ويتصرف فى المجتمع على أساس ماتدعو إليه ، ذلك أن قول الإنسان : « لا إلٰه إلا الله » هو بمثابة نفى الولاء التام عن أى إنسان فى الوجود ، مهما كان مركزه ، وعلى أى وضع كان سلطانه فى عالم الأحياء وتوجيهه إلى الله وحده ، فهو رب الإنسان وخالقه ، والمتصرف تصرفا مطلقا فى رسم حياته وتحديد رزقه ، فإليه يرجع الأمر كله ، لايصيبه شيء إلا كان قد قدره الله له فى الأزل ولاينال شيئا من متاع الدنيا إلا بإذنه ، وعليه فلا يكون خضوعه إلا له ، ولايسأل إلا هو ، ولايتوجه بالرجاء إلا إلى خالق الكون ، وموزع الرزق ، وحافظ الإنسان من كل شر ، ومانع عنه كل ضر ، وبذلك يتحقق الولاء الكامل لله سبحانه وتعالى ..

فإذا نطق بالجزء الثانى من الشهادة وهو الاعتراف بأن محمدا هو رسول الله فمعنى ذلك أنه مصدق بكل ماجاء به من عند الله ، أى أنه ممتثل لما فى القرآن الكريم من أوامر ونَوَاهٍ ويتضمن هذا التصديق بالرسل السابقين ، وبكتبهم التى أنزلت عليهم كما يتضمن الإيمان بالملائكة وباليوم الآخر ، ومافيه من ثواب وعقاب ، وبذلك يكون عضوا من أعضاء الأمة الاسلامية ، يقول الله تعالى : ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر** ﴾(*) .

فكلمة التوحيد ، أو بتعبير آخر : النطق بالشهادتين يتضمن الاعتراف بأركان العقيدة الإسلامية ، وتنفيذ كل ماجاء فى القرآن الكريم من عبادات وسلوكيات .

(*) البقرة ٢٨٥

الفصـل الثاني

منهج الاسلام في بناء العقيدة

توحيد خالص

خلق الله الانسان فى أحسن تقويم ، إذ أودع فيه من الصفات الظاهرة والمستترة ماجعله متميزا عن سائر الكائنات الحية ، التى تشترك معه فى الحياة على هذه الكرة الأرضية ، ومن أهم ماحظى به هذا المخلوق : الميل إلى الاعتقاد فى قوة أعلى منه لها السيطرة عليه فهو يتوجه إليها عند السراء والضراء ، يسألها الحفظ من المخاطر والأهوال ، التى قد تقابله فى هذه الحياة ، ويرجو منها العطاء ، سواء كان ذلك فى المال أو البنون .

ولما كانت قدرته العقلية محدودة ، وعاجزة عن تصور هذه القوة التى لايستطيع رؤيتها ليحدد هيئتها فقد طاف به الخيال العقلى فى كل صوب ، وذهب به الفكر كل مذهب ، فطفق برسم لهذه القوة صورة مادية ، يحدد بها هويتها ، ويبين من خلالها معالمها لنفسه . ومن هنا نشأت الصور والأشكال التى اتخذها الإنسان أصناما وأوثانا يتوجه إليها بالعبادة ، ويسألها الرحمة والعفو ، ويطلب منها الرزق له ولمن يعوله ويستغيث بها مما يخافه أو يخشاه .

كثرت صور هذه المعبودات الحسية فى المجتمعات البشرية ، وتعددت أشكالها بتعدد درجات الفكر ومستوى الثقافة فى جميع مناطق الكرة الأرضية ، واختلف مضمونها باختلاف قرب التجمعات البشرية ـــ مكانا وزمانا ـــ عن منبع التوحيد ، ومصدر الوحى الالٰهى ، ذلك أن الأنبياء حينما أرسلهم الله لتصحيح مفهوم العقيدة فى الله الواحد القهار عند الناس ، لم تكن استجابة قومهم ـــ والأجيال من بعدهم ـــ لهم على درجة واحدة ، إذ أن منهم من شرح الله صدره للرسالة ، فنبذ كل صور الجاهلية عن مفهوم المعبود كلية ، ومنهم من اختلط عليه الأمر ، فخلط بين الصورة الواضحة التى بلغها

الأنبياء للناس ، وبين رواسب عهود الجاهلية ، التى تخللت فترات بعثة الأنبياء ، فصارت العقيدة عند بعضهم توحيدا مشوبا بالوثنية ، أو اعترافا بالواحد القهار مع الالتجاء إلى الأصنام والأوثان كوسيلة يتقربون بها إليه .

وكل هذا باطل لايقبله الله سبحانه وتعالى ، يقول فى كتابه العزيز : ﴿**ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون**﴾(٦٣) . ويقول فى حق من اتخذوا آلهة غيره ، مبينا لهم أن هذه الآلهة لاتملك لنفسها نفعا ولا ضرا : ﴿**واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولانفعا ، ولايملكون موتا ولا حياة ولانشورا**﴾(٦٤) . كما بين أن هذه الأصنام التى عبدت من دون الله لاتستطيع دفع الضرر عن نفسها ، فكيف تدفعه عن غيرها : ﴿**ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز**﴾(٦٥) .

كذلك هناك من رفع منزلة بعض الناس إلى مرتبة الألوهية ، فظن أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وقد بين القرآن الكريم خطأ هذا الاتجاه فقال : ﴿**وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون**﴾(٦٦) .

فالعقيدة الاسلامية قائمة على التوحيد الخالص الذى لايشوبه شرك ، فلا إله إلا الله ، هو الحق الذى لايدانيه مخلوق ولايشاركه أحد . هذا هو المفهوم الأول للمنهج الاسلامى فى بناء العقيدة الاسلامية : « توحيد خالص ، بعيد كل البعد عن صور وأشكال الوثنية » . إذ لايقبل فى الإسلام أى شكل من أشكالها حتى وإن تغلف بغلاف التوحيد ،

---

(٦٣) الزمر ٣

(٦٤) الفرقان ٣

(٦٥) الحج ٧٣ — ٧٤

(٦٦) التوبة ٣٠ — ٣١

أو تلفع برداء وحى إلهى .
﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد﴾ .

اقناع لا إكراه

ميز الله الإنسان على سائر الكائنات الحية بالفكر ، فهو الكائن الحى الذى استطاع بفكره أن يسيطر على قوى الطبيعة ، ويسخر ما فيها لخدمته ، ومن هنا ظهر اعتزاز الانسان بنفسه ، واعتداده بشخصيته ، إذ هو لايقبل الخضوع لغيره عن طريق القوة والإجبار إلا ظاهريا فقط ، وذلك عند العجز عن المقاومة ، أو عدم القدرة على الإفلات من الوقوع فى دائرة هذه القوة .

وعندما يقتنع بفكرة يسلم بها ، ويخضع خضوعا كليا لمقتضياتها ، بحيث يصبح عنده الاستعداد التام للتضحية فى سبيلها بكل مايملك ، حتى وإن فقد حياته دفاعا عنها . ولهذا سلك الإسلام معه طريق الإقناع لا الإجبار ، حتى لايكون خضوعه نفاقا ، أو رياء ، خوفا من سلطان ، أو رغبة فى نيل مال أو جاه ، إذ لاتكون العقيدة — فى نظر الاسلام — إلا عن اقتناع ، وإلا صارت مظهرا لامضمون له ، وصورة لاأصل لها ، وبناء لا أساس له ، وهيكلا لا أضلاع فيه يعتمد عليها ، فيهوى عند أول لمسة ، ويتكسر من هبوب النسيم قبل أن تأتى الريح العاتية .

قامت العقيدة الإسلامية على أساس الإقناع العقلى ، فيرفض الإسلام التقليد الأعمى ولايقر الإكراه على الدخول تحت لوائه ، فقد جاء فى القرآن الكريم مايفيد ذم هذا التقليد ، لأنه يصرف الإنسان عن التفكير بحرية ، وأخذ قرار نابع من الذات ، يقول الله تعالى : **﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين﴾**(٦٧) .

ويقول : **﴿قل ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ولاتتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل﴾**(٦٨) .

---

(٦٧) الانبياء ٥١ — ٥٤

(٦٨) المائدة ٧٧

فهذه الآيات تشير إلى أن العقيدة لاينبغى أن تكون تقليدا أعمى للآباء أو اتباعا بدون تفكير لأى اتجاه من اتجاهات المجتمع ، بل لابد أن تكون نابعة من الذات نتيجة تفكير مستقل عن أى اتجاه فكرى قد يحيط بالإنسان فى مجتمعه .

فالجمود فى الفكر فى مجال العقيدة مرفوض فى الإسلام ، لأنه ينبغى أن تكون عقيدة الفرد نابعة من اقتناعه بفكره هو ، لا تقليدا لغيره . كذلك نفى القرآن الكريم أن يكون الإكراه وسيلة لاعتناق الإسلام ، فقال تعالى : ﴿**لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**﴾(٦٩) . وقال : ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾(٧٠) . بل إنه عاب على النبى ﷺ حرصه الشديد على أن يدخل الناس فى دين الله ، حرصا قارب حدود الاكراه ، أو فهم منه على أنه يريد إكراه الناس على اعتناق الاسلام دينا ، فقال تعالى : ﴿**ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾(٧١) . وقال تعالى : ﴿**فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمصيطر**﴾(٧٢) .

فليس من مهمة الرسول أو الداعية إكراه أحد على الدخول فى الإسلام ، إذ لايتعدى واجبه عرض مبادىء الإسلام والدعوة إليها ، أما الدخول فيه فلا يكون إلا بناء عن اقتناع الشخص نفسه به ، وإيمانه بمبادئه إيمانا لايشوبه إكراه أو إجبار ، فالإسلام هو دين العقيدة القائمه على أساس الإقناع العقلى ، لا التقليد ، ولا الإكراه بالقوة ، لأن ذلك يدعو إلى التجمد الفكرى ، وهو أمر يتنافى مع طبيعة الإنسان الذى خلقه الله على نحو كان الفكر هو محور وجودها ، وسر بقائها على هذا النحو الذى نراه فى المجتمعات البشرية .

أساس التفاضل

إذا كان المنهج الإسلامى فى العقيدة قد قام على أساس التفكير الذاتى ، لا على تقليد الغير ، وعلى حرية الفكر فى اعتناق الإسلام دينا ، لا على الإكراه والإجبار فإنه يستفاد من ذلك أن الإسلام يجعل العقل فى المقام الأول ، من حيث الهداية إلى وجود الله ، والتسليم بوحيه ، والامتثال لأوامره ، واجتناب نواهيه .

---

(٦٩) البقرة ٢٥٦
(٧٠) الكهف ٢٩
(٧١) يونس ٩٩
(٧٢) الغاشية ٢١ ــ ٢٢

وكيف لا ، وقد تميز الإنسان به عن سائر الكائنات الحية ، وكيف لا ، وهو الذى مكن الإنسان من السيطرة على ماحوله واستخدامه لضمان عملية الاستمرارية فى الحياة إذ لولاه لصار الإنسان كائنا مثل الكائنات الأخرى التى يستخدمها ، بل ربما وقع هو تحت سيطرة كائن يتفوق عليه فى مجال الفكر وآفاقه .

ومن هنا جعله الإسلام مقياس التفاضل والتكريم للانسان فقال تعالى : ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم * وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾[٧٣] . ولم يكن هذا التفضيل إلا بالعقل ، لأن الانسان لم يركب البحر ولم يقطع الفيافى والصحارى ، ويتغلب على وعورتها إلا بالعقل ، ولم يستخرج الطيبات من الأرض والبحار إلا باستخدام عقله ، فمن لم يستخدم عقله ، فقد وضع نفسه فى مرتبة أقل مما ينبغى له ، بل قد يصل إلى أدنى من مرتبة الدواب الأخرى ، يقول الله تعالى : ﴿**إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون**﴾[٧٤] . فمن لم يفكر انحط قدره ، وضاع شأنه بين قومه ، فتنزل مرتبته بين الناس وتضيع منزلته بين أقرانه .

فالكمال العقلى هو أساس تفضيل شخص على آخر فى الإسلام ، إذ المنهج فى العقيدة الاسلامية ، قائم على أن الناس يتفاضلون ويتمايزون بالعقل لا بالمال والجاه ، ولا بالعرق والنسب، يقول الله تعالى: ﴿**فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا انفسهم فى جهنم خالدون**﴾[٧٥] . ولاتثقل الموازين إلا إذا فكر العقل — بعيدا عن تأثير الأقارب والأصحاب ، ومستقلا عن تيارات الهوى والشيطان التى تهب فى كثير من المجتمعات — فاهتدى إلى طريق الحق ، فسلكه ونفض عنه رواسب الجاهلية ، وتخلص من براثن الشيطان ، فعمل عملا صالحا يرضى الله عنه ، وفى هذا المجال يكون التفاضل أيضا ، إذ على أساس مايبذل المرء فى مجال العمل الصالح تكون درجته عند الله سبحانه وتعالى : ﴿**ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير**﴾[٧٦] .

---

(٧٣) الاسراء ٧٠
(٧٤) الانفال ٢٢
(٧٥) المؤمنون ١٠١ — ١٠٣
(٧٦) الحجرات ١٣

أى عليم بما فى قلوبكم من الإيمان وخبير بها ، ومطلع على ماانطوت عليه قلوبكم أثناء مباشرتكم الأعمال الصالحة ، فهو يحاسب على مافى القلوب ، ويجازى على العمل بالنوايا وعلى هذا الأساس يفضل بعضكم على بعض ، ويقدم أحدكم على الآخر تبعا للاخلاص والنوايا الحسنة .

فلا يعترف الإسلام بالدعاوى التى تملأ جوانب الأرض شرقا وغربا ، القائمة على نظرة الإكبار والإجلال لمن يملك مالا كثيرا ، أو يتمتع بجاه أوسع ، أو يبسط نفوذه وسلطانه على رقعة جغرافية أكبر ، أو على عدد أكبر من البشر وتنظر إلى هذا كمقياس للتفاضل بين الناس .

كذلك يرفض الإسلام تفضيل عنصر من البشر على آخر ، فلا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، فالناس سواسية أمام مبادىء الإسلام ، لاينفع أحدهم انتماءه لعنصر ما أو كونه منسوبا إلى عرق كذا ، وإنما ينفعه فقط عمله ، الذى جاء نتيجة التفكير السليم ، واقتناعه بمبادىء الاسلام . عمله الذى قام به ابتغاء وجه الله ، لانفاقا ولا رياء ، ولا محاولة لكسب مادى دنيوى ، يقول الله تعالى : ﴿ **لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه اجرا عظيما** ﴾[٧٧] .

توازن بين الطبيعتين

يفهم كثير من الناس عندما يسمعون كلمة . « رجل متدين » ، أنه ذلك الرجل الذى انقطع عن الدنيا فزهد فيها ، ورفض طيباتها ، فحبس نفسه فى صومعة صائما النهار ، قائما الليل . فإذا خفت هذه الصورة عندهم قليلا ، تصوروه معرضا عن ملذات الحياة بكل أنواعها ، رافضا الاشتراك فيما يعود على النفس من ترويح ، ويضفى على الحياة ثياب الفرح والسرور ، فهو ذاهب إلى عمله مقطب الجبين ، رافضا مشاركة زملائه فى الأحاديث الدنيوية البريئة . فإذا سار فى الشارع خفض رأسه بحيث لايرى منه إلا ما أمام قدميه ، ولا يدرك ماحوله إلا كما يدخل إلى آذان شارد الذهن من أصوات ومايتراءى أمام عينى المذهول من صور لاحدود لها ، ولا هوية تفصل بعضها عن بعض وهو يظن أنه

---

(٧٧) النساء ١١٤

بذلك يتبع تعاليم الإسلام ، ويلتزم بأحكامه ، وإن لم يفعل ذلك على هذه الطريقة وبهذا الأسلوب سيناله عقاب الله ، بل إنه يحكم على من لم يفعل مثله بأنه من الهالكين فى نار جهنم .

ونسى هذا أن الله خلق الانسان من مادة وروح، وأن استمرارية الحياة على نحو سليم لاتتحقق إلا إذا حصل التوازن بين هاتين الطبيعتين ، فلو اختل هذا التوازن بأن انكب الانسان على الملذات المادية فقط تاركا الجانب الروحى هلك المجتمع وهوى فى قاع سحيق لايخرجه منه إلا الرجوع إلى مايحفظ التوازن ، ولو قصر الانسان حياته على الجانب الروحى فقط تسرب الضعف إلى المجتمع ، فأصبح فريسة لأعدائه لأن الجانب المادى له تأثير كبير فى قوة المجتمعات وصمودها أمام من يريد الفتك بها أو السيطرة عليها .

جاء الإسلام موافقا لهذه الطبيعة الانسانية ، ففرض من العبادات مايطهر الفرد من خبائث النفس ، ويحفظه من وساوس شياطين الإنس والجن ، ومع ذلك أمره بألا ينسى الجانب المادى فقال تعالى : **﴿يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾**[٧٨]. وقال : **﴿يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾**[٧٩] .

بل إنه أنكر على من يصوم النهار ويقوم الليل فعله ، لأنه مخالف لروح الاسلام ، فقد روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : **«ياعبد الله ، ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ فقلت : بلى يارسول الله ، قال : فلا تفعل ، صم وافطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقا وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ..»** .

وماهذا إلا لأن الإسلام يريد للمسلم أن يكون قويا ، بحيث يستطيع أن يسهم فى بناء تقدم الدولة الإسلامية ، لأن تقدمها وسيلة من وسائل المنعة ضد أعدائها ، فكلما كانت قوية اقتصاديا ، استعصى على الأعداء السيطرة عليها .

---

(٧٨) الجمعه ٩ — ١٠

(٧٩) الاعراف ٣١ — ٣٢

بل لم يهمل الإسلام دعوة المسلمين إلى الأخذ بأسباب القوة ، أيًا كان نوعها حتى يردوا أعداءهم عن ديارهم ، فقال تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم ، الله يعلمهم** ﴾(٨٠) .

فالاسلام دين العزة والقوة لادين الضعف أو الهروب من الحياة ، فمنهجه يربى المسلم على الالتزام بأداء العبادات ، كما يأمره بالأخذ بأسباب القوة المادية وذلك بالنزول إلى معترك الحياة فى جميع مجالاتها التى تساعد على تمكين الإسلام فى الأرض ، ورفع رايته عالية خفاقة تعلن للناس قوة المسلمين وسلطانهم .

ثبات صلاحية عامة فى الأصول

تختلف ظروف الحياة فى كل عصر وقطر ، وتتجدد الأحداث وتتشعب عبر الأيام والسنين ، فتتنوع صور الحياة من إقليم لإقليم ، ومن عصر لآخر ، ولذا فلا يمكن أن يوضع قانون يصلح لكل هذه الأزمان والصور على اختلاف الظروف والبيئات ، وتباين أساليب الحياة من شعب لآخر ، فما يصلح لقوم ، قد لايناسب آخرين ، لتنوع صور المعاملات وتعدد الاتجاهات فى أسلوب العلاقات التى تحكم المجتمعات الإنسانية ، وهذا هو السبب الرئيسى فى التغيير المستمر فى الدساتير التى تنظم حياة الأمم والشعوب حتى تواكب العصر ، وتتلاءم مع مايجد من أحداث ، ومايظهر فى حياة المجتمعات من متغيرات ، وعليه فلا يوجد نظام على وجه الأرض — ولن يوجد — يمكن أن يسجل فى قوانينه ولوائحه التى تنظم الحياة ، وتحكم العلاقات الانسانية ، بنودا ومواد تشمل كل ماعلى الأرض من نشاط إنسانى ، على اختلاف أنواعه ومناحيه ، ولذا فمن المسلم به أن الدساتير دائمة التغيير والتبديل ، والقوانين ليست ثابته ، إذ تعمل فيها عقول المشرعين بالحذف والتجويد ، ليستطيع المجتمع أن يواجه المتغيرات بما يوافقها ويسد الثغرات التى تظهرها تجدد الأحداث ، واختلاف العصور والبيئات ، حتى لاتصاب الأنظمة بالجمود ، ولاتنتشر الفوضى ، ويشيع التسيب فى مجال الحياة الاجتماعية ، أو تنتهك العدالة ، فيفترس القوى الضعيف عن طريق ثغرات الضعف فى اللوائح والقوانين .

وقد تكون ضرورة التغيير فى القوانين تحت ظروف العصر وتغير الأحداث بابا ينفذ منه

---

(٨٠) الأنفال ٦٠

كل من له غرض فى السيطرة على الشعب فيفرض مايساعده على ذلك باسم القانون ولن يكون المخرج من هذا إلا باتباع قانون السماء ، فهو الذى لايحمل فى طياته تمييز عنصر على آخر ، وليس فيه مايساعد انسانا ــ أيا كان وضعه فى المجتمع ــ على التحكم فى رقاب الآخرين .

كذلك يلبى قانون السماء كل مايحتاج إليه الأفراد ، وتستلزمه حياة المجتمعات فهو يتلاءم مع طبيعة البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، وعلى تباين مشاربهم وظروفهم البيئية والزمنية ، إذ هو لم يحدد التفصيلات التى تختلف من عصر لعصر ولم يبين أحكام الفروع التى تتفاوت هيئاتها وأشكالها من بيئة لأخرى ، بل وضع الخطوط العريضة ، والمبادىء العامة ، والقواعد التى تصلح لكل المجتمعات الانسانية ويمكن تطبيقها أيضا فى كل أقطار الأرض على اختلاف أساليب حياة من يسكنونها ، وتباين معيشتهم ، ثم ترك الفروع ــ وهى مركز الاختلاف بين سكان المناطق المختلفة ــ وعلاج مايجد من أحداث ــ وهى لازمة من لوازم الحياة الانسانية ــ للفقهاء ، يستنبطون أحكامها من الأصول العامة ، قياسا ، أو حملا للخاص على العام ، أو حملا للمطلق على المقيد ، أو غير ذلك من طرق استنباط الأحكام داخل الإطار العام للأحكام الإسلامية .

وبذلك تصبح الشريعة الإسلامية صالحة لكل المجتمعات الإنسانية فى جميع الأقطار ، وفى كل العصور ، إذ يمكن أن تطبق على الناس جميعا على اختلاف أساليب حياتهم ، ونظمهم المعيشية ، فالاختلاف بين المجتمعات ليس إلا فى أمور فرعية أما الشكل العام للحياة ، فالناس جميعا فيه سواء ، ولهذا جاءت شريعة الله دقيقة ومحددة فيما يتعلق بهذا الجزء الذى لايختلف فيه الناس .

أما الفروع التى يتناولها التغيير بسبب اختلاف المناطق ، أو بسبب تجدد الزمن وتعاقب العصور ، فقد ترك أمر استنباط أحكامها للفقهاء بشرط ألا تخرج عن الاطار العام للتشريع الإسلامى .

وهذا مايطلق عليه : الاجتهاد .

اجتهاد واختلاف فى الفروع

بينا فى الفقرة السابقة أن اختلاف أساليب الحياة فى المجتمعات البشرية وتجدد الأحداث

على امتداد العصور والأزمان ، كان السبب الرئيسى فى أن التشريع الإسلامى بين الخطوط العريضة للأحكام ووضع أحكام المسائل التى يشترك فيها الناس جميعا ، وفصل فى بيان أحكام مالا يلحقه تغيير أو تجدد ، مهما طال الزمن وامتد ، أما ما يختلف فيه الناس ، ومايعتريه التغيير والتجديد بمرور الأحقاب والسنون فقد ترك أمر استنباط أحكامه للفقهاء ، وأطلق على عملهم فى هذا المجال اسم : الاجتهاد .

فالاجتهاد فى الاسلام أمر ضرورى حتمته ظروف الحياة الانسانية ، وطبيعة اختلاف أساليب المعيشة فى المجتمعات البشرية ، وضرورة تجدد الأحداث على اختلاف العصور والأزمان ، واستحالة تسجيل أحكام جميع الأحداث التى تتجدد كل يوم فى الوحى السماوى بطريقة شاملة لكل ماسيحدث على وجه البسيطة ، وعليه فقد أباح الإسلام للمسلمين أن يجتهدوا فى استنباط الأحكام لما يحدث فى المجتمع من القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، فإن لم يجدوا فيها مايناسب الحدث بحثوا عن مثيل له ، وإلا استحدثوا له حكما جديدا ، بحيث يتفق مع روح التشريع الاسلامى .

وقد جاء فى القرآن الكريم والحديث النبوى مايبين للمسلمين أن هذا النوع من العمل التشريعى مسموح به من وجهة النظر الإسلامية ، يقول تعالى : **﴿ياأيها النبى لم تحرم ماأحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾**(*) . فهذه الآية تبين أن النبى ﷺ اجتهد فى أمر ما ، وأصدر حكمه فيه بالتحريم ، غير أن الوحى صحح له هذا الحكم . كذلك روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه ، أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت : إن أمى نذرت أن تحج ، ولم تحج حتى ماتت ، أأحج عنها ؟ قال : نعم ، حجى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء .

فهذا الجواب من رسول الله ﷺ قياس ، إذ قاس الحج على الدين فى الوفاء ، والقياس اجتهاد .

وكذلك مارواه أحمد بسنده إلى عبد الله بن عمر فيما يتعلق بأسرى بدر عندما استشار أصحابه فى أمرهم ، إذ أشار عليه أبو بكر باستبقائهم وقبول الفدية منهم ، لعل الله أن يتوب عليهم ، وأشار عمر بضوب أعناقهم ، فمال إلى رأى أبى بكر وقبل الفداء وأطلقهم ، فعاتبه الله على ذلك بآية فى القرآن الكريم ، وهى قوله تعالى : **﴿ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة والله**

(*) التحريم ١

عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾[٨١] .

فكان قبول الفداء منهم اجتهادا منه ﷺ ، ولم يكن وحيا بدليل أن الله عاتبه عليه . وكذلك ماكان منه ﷺ من إذن لمن استأذنه فى التخلف عن غزوة تبوك لأعذار انتحلوها ، فقد كان اجتهادا منه ، عاتبه الله عليه بقوله : **﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم ، حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾**[٨٢] .

وغير ذلك كثير ، دونته كتب السنة ، فأصبحت اجتهاداته ﷺ بعد إقرارها من الوحى سنة يجب اتباعها ، ولا يجوز معها اجتهاد . وليس لأحد أن يعترض بأن هذه الاجتهادات من رسول الله ﷺ سنة واجبة الاتباع فخرجت عن دائرة الاجتهاد ، لأن ابتداءها كان اجتهادا للتشريع ، أى لتعليم المسلمين أن طريق الاجتهاد — عندما لايكون هناك نص — أسلوب أحله الاسلام للوصول إلى حكم مايستجد من أحداث .

فمنهج الاسلام فى الاجتهاد دليل على أن التشريع الاسلامى نزل ليكون دستورا لجميع الناس ، إذ الاختلاف فيما بينهم ليس عائقا للتطبيق ، لأن الفروع — التى هى مدار الاختلاف — متروكة للفقهاء ، فمهمتهم المواءمة بين الظروف وبين القواعد العامة فى التشريع ، كما أن فى الاجتهاد علاجا للمتغيرات والأحداث التى تظهر فى كل عصر وبذلك لايكون هناك نقص مخل فى مجال التشريع .

كان عمل الرسول ﷺ فى مجال الاجتهاد توجيها للمسلمين لممارسة هذا الجانب فى مجال التشريع ، للوصول إلى أحكام إسلامية لما يجد من أحداث ومن أمثلة هذا التوجيه مارواه الإمام أحمد بسند صحيح قال : جاء خصمان إلى رسول الله ﷺ يختصمان ، فقال رسول الله ﷺ قم ياعقبة فاقض بينهما ، فقلت بأبى أنت وأمى يارسول الله ، أنت أولى بذلك ، قال : وإن كان ، اقض بينهما ، فقلت : على ماذا ؟ قال : اجتهد ، فإن أحسنت فلك عشر حسنات ، وإن اجتهدت فأخطأت فلك أجر واحد .

كما سأل رسول الله ﷺ معاذا حين بعثه إلى اليمن قاضيا فقال له : كيف تقضى ، إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله . قال : فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : أقضى بسنة رسول الله قال : فإن لم تجد فى سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو . فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله إلى

(٨١) الأنفال ٦٧ — ٦٨

(٨٢) التوبة ٤٣

مايرضى الله ورسوله .

فهذا دليل على أن الاجتهاد واجب للوصول إلى أحكام الأحداث التى لامثيل لها فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ﷺ . وهو وإن كان من لوازم الحياة فى كل زمن ، فهو فى عصرنا الحالى أشد إلزاما ، لأن أساليب الحياة العصرية فى المجتمعات الإنسانية ، انقلبت انقلابا كليا بحيث أصبحت بعيدة الشبه عما كان عليه حالها فى عصور الإسلام الأولى ، إذ أصبحت المسائل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تختلف فى كثير من جوانبها عما كانت عليه فى العصور الماضية ، فقد ظهرت صور من المعاملات ، وأنواع من السلوك ، ونماذج من العلاقات الاجتماعية لم يرد عنها شيء فى كتاب الله ، ولم تدون فى كتب السالفين ، فلم تعرف لها أحكام ، ولم تستقر فى نفوس الناس من الوجهة الدينية .

ومن هذا يتبين أن الاجتهاد لازم لكل المجتمعات الإنسانية ، وضرورة من ضرورات الحياة ، فيجب على المسلمين أن يمارسوه ، وإلا كانوا مذنبين فى حق رسول الله ، لأنه حثهم عليه ، وفى حق أمتهم ، لأنهم بتقاعسهم عنه يسهمون بطريق غير مباشر فى تخلفها عن ركب الحضارة ، فإن قام به مجموعة من فقهائهم فقد سقط التكليف عن الباقين . وليس لأحد أن يدعى الاجتهاد إلا إذا كانت لديه المقدرة على ذلك وقد وضع العلماء لها معالم ، إذا وجدت لدى الشخص ، كان بامكانه استنباط الأحكام ، ومن هذه المعالم :

١ ــ العلم بنصوص الكتاب والسنة التى تتعلق بالأحكام .

٢ ــ العلم بما عليه جمهور الفقهاء من الأحكام حتى لايخالفه .

٣ ــ العلم بلسان العرب ، بحيث يمكنه فهم ماجاء فى الكتاب والسنة على اختلاف أساليبها . والمطلوب فى ذلك أن تكون له ملكة لغوية تثبت له بطول الممارسة ، وكثرة الملازمة .

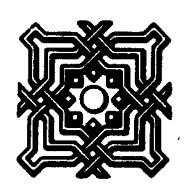
٤ ــ العلم بأصول الفقه وقواعده ، لأن عماد الاجتهاد وأساسه الذى يقوم عليه بناؤه والمراد من ذلك أن يكون المجتهد على علم بما عرض له الأصوليون من أسس وقواعد تهدى المجتهد إلى النظر الصحيح ، والاستنباط السليم ، وتجنبه الخطأ فيها .

وأضيف إلى ذلك أنه يجب أن يكون المجتهد على علم ــ ولو بصورة إجمالية ــ بالتيارات الفكرية المعاصرة ، والمذاهب السياسية والاقتصادية العالمية والاتجاهات الدينية المختلفة ، والنظم الاجتماعية المتعددة ، والأسس النفسية المتشابكة حتى يأتى استنباطه للاحكام ، وتقييمه للأحداث ذات المصادر المتعددة غير بعيد عن واقع الأحداث ، ولا

متنافرا مع المسلمات البديهية .

كما أنه ينبغى أن تكون لديه ملكة الاستنباط ، لأن من العلماء من يكون ملما بكل ما تقدم ، ولا يستطيع استنباط حكم ، أو توجيه قضية تشغل بال المسلمين بما يرضيهم نفسيا ، مع توجيههم فيها إلى سلوك طريق يتفق ومبادىء الاسلام فهذا عمل لايقدر عليه إلا ألمعى وهبه الله بصيرة شفافة .

ولا يخفى بعد هذا العرض أن فى منهج الاسلام فى الاجتهاد على هذا النحو اعترافا بوظيفة العقل الانسانى ، وتأكيدا لإباحة النظر العقلى فى كل أمر ، بحيث لايخرج عن أصول الكتاب والسنة ، وفى ذلك رد على كل الفلسفات والأديان التى تسلب العقل أهم مايتصف به ، وهو النظر فيما حوله ، والتفكير فى كل شئونه بمالا يخرج عن الاطار العام للتشريع الإسلامى ، لأن هذا الإطار هو بمثابة معالم للعقل ، حتى لايضل ، أو يجنح إلى مسالك تدمر المجتمعات الإنسانية .



الفصـل الثالث

الإسلام والإيمان

حقيقة الإسلام

تستعمل كلمة الإسلام فى عبارات وتراكيب لغوية ، ويفهم من كل عبارة معنى يخالف معناها فى العبارة الأخرى ، فهل تدل كلمة الإسلام على معان متعددة ، بمعنى أنها تستعمل استعمالات مختلفة ، فيكون معناها فى استعمال يخالف معناها فى الاستعمال الآخر ، أم أن بين الاستعمالات المتعددة جانبا مشتركا .

إذا أردنا أن نبحث عن معنى كلمة ما . فلا بد أن نلاحظ استعمال الفعل المشتق منها ، فالفعل من كلمة الاسلام هو : أسلم يسلم ، ومعناه : انقاد ، فتقول : أسلمت وجهى لله ، أى أطعت الله ، أو انقدت لأمر الله ، فالإسلام على هذا النحو هو : الانقياد والخضوع والطاعة لله سبحانه وتعالى ، يقول القرآن الكريم حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين**﴾[٨٣] .

فإذا فهم الإسلام على أنه الخضوع والانقياد والطاعة ، فلربما يتبادر إلى الذهن أنه يدعو إلى أن يكون المسلم متواكلا ، لأن معنى كلمة الانقياد : هو التسليم بما يجرى ويحدث دون الاعتراض ودون محاولة التأثير على مجرى الأحداث ، وهو مايسمونه بالجبرية أى أن الانسان خاضع للمشيئة ، دون محاولة التأثير على مجرى الأحداث ، فهو كريشة معلقة فى الهواء ، إذ تسيرها الريح حيث شاءت ، فالمسلم قد استسلم للأحداث بانقياده ، فلا يتدخل فى تغييرها وذلك مايلاحظ عند عامة المسلمين فهم متواكلون بل متكاسلون فإذا

---

(٨٣) البقرة ١٣٠ ــ ١٣١

حاولت دفعهم إلى العمل قالوا لك : « خليها على الله ، ماكان لك سوف يأتيك » ألا يكون سبب هذه السلبية هو ما يفهم من كلمة الإسلام من أنه هو الانقياد والخضوع المطلق ؟

يخطىء من يفهم أن الإسلام يدعو إلى الكسل أو السلبية ، فإنه يحث على العمل والمثابرة . يقول الله تعالى : ﴿**وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله**﴾(٨٤) ويقول : ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون**﴾(٨٥) .

ولو أحصينا الآيات التى وردت فى القرآن الكريم فى معرض الحث على العمل وجزاء العاملين لضاق بنا الوقت ، وهذا يدل على أن الإسلام لايحب أن يكون المسلم سلبيا ، بل يدفعه دفعا إلى العمل ، ويعده بثواب على أعماله الطيبة . فلا يوجد أدنى اختلاف على أن الإسلام يدعو المسلمين إلى الاكثار من الأعمال الطيبة فى مجال العبادات من ذكر وتسبيح وصلاة وغير ذلك ، ولكن الخلاف فى الأعمال الدنيوية ، أى فى السعى إلى مايعود على الإنسان بالخير المادى ، فكثير من المسلمين يلتزمون بأداء العبادات ويتواكلون فيما يعود على المجتمع بالرفاهية والتقدم الحضارى اعتقادا منهم بأنهم سوف ينالون ذلك فى الآخرة . أما فى الدنيا فلا بأس عليه أن يعيش فقيراً محروما ، ولذلك تسمع كثيراً منهم من يقول : « لنا الآخرة » أى أنه وإن فاتته الدنيا بسبب كسله وتواكله فسينال فى الآخرة ماحرم منه فى الدنيا .

* * *

ذكرنا فى الفقرة السابقة أن الاتجاه الخاطىء هو الذى يرى أن كثرة الأعمال فى مجال العبادات مطلوبة ، أما العمل الدنيوى فلا ، إذ لابأس أن يعيش الانسان فقيرا محروما ، مادامت له السعادة الأخروية ، ويتواكل أصحابه فى هذا الاتجاه ويتكاسلون فى مجال العمل الدنيوى . ويتضح خطأه عندما نلاحظ هاتين النقطتين :

الأولى : كما حث الإسلام على العمل فى مجال العبادة ، حث على العمل فى المجال الدنيوى فقال تعالى : ﴿**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله**﴾(٨٦) .

---

(٨٤) التوبة ١٠٥
(٨٥) النحل ٩٧
(٨٦) الجمعة ١٠

وقال : ﴿**هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه**﴾(٨٧) .

وقال : ﴿**قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة**﴾(٨٨) .

وقال ﷺ : «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره ، فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**» .

فهذه النصوص تدل على أن الإسلام ، وإن كان معناه الخضوع والانقياد كما شرحنا فى الفقرة السابقة ، إلا أنه خضوع لله فقط ، وليس خضوعا للظروف المادية التى تحيط به ، أى أن المسلم لايجوز له أن يستسلم للعقبات التى تعترض طريقه فى الحياة الدنيوية ، بل عليه أن يتخطاها بالاجتهاد ، والمثابرة فى العمل الذى يدر عليه وعلى أولاده رزقا يعيشون منه ، وفى ذلك أيضا فائدة للمجتمع لأنه بإنتاج أبنائه يقوى على مواجهة التيارات المعادية له .

النقطة الثانية : التى ينبغى أن نلاحظها : هى أن الخضوع لله يتطلب تلقائيا العمل والجد فى الأعمال الدنيوية ، لأن معنى الخضوع لله أن ننفذ كل ماأمرنا به وقد أمرنا بالسعى على الرزق ، والعمل فى مجال الإنتاج ، لتقوى الأمة ، فمن يتكاسل فى عمله فقد فرط فى جانب رئيسى من جوانب خضوعه لله ، أى أن إسلامه يكون ناقصاً لأنه لم يقم بما يتحقق به الاسلام .

ولكن إذا كان معنى الإسلام هو الخضوع والطاعة . فهل كل من خضع لله وأطاعه يعتبر مسلما ؟

نعم ، ولذا قال الله تعالى :

﴿**ماكان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفا مسلما**﴾(٨٩) .

أى أنه كان فى سلوكه منفذا ماأمر الله به ، طائعا له ، ولم يتبع ماأدخل على دين الله بواسطة الأحبار والرهبان ، فكل إنسان سار على هدى الله . ونفذ مانزل به الوحى من

---

(٨٧) الملك ١٥

(٨٨) الأعراف ٣٢

(٨٩) آل عمران ٦٧

عند الله يعتبر مسلما ، فيوسف عليه السلام يقول : ﴿**رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين**﴾(٩٠) . وقالت بلقيس : ﴿**رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين**﴾(٩١) .

إذاً فمعنى الإسلام هو دين الله من لدن آدم حتى الآن ، فمن لم يؤمن به فقد اتبع طريق الشيطان ، وسارع إلى ماشرعه له الرهبان والأحبار ، يقول الله تعالى : ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ .

أى هو مانزل على محمد ﷺ ، لأنه هو الدين الوحيد الذى سلم من التحريف والتبديل ، وهو دين الله من لدن آدم حتى محمد ﷺ .

حقيقة الإيمان

تحدثنا فى الفقرة السابقة عن الإسلام ، فبينا أنه هو الخضوع والانقياد والطاعة لله ، وشرحنا أن هذا المعنى لايكون سببا فى أن يتواكل المسلم أو يتكاسل لأن الإسلام يحث على العمل ، سواء أكان فى مجال العبادة أو كان متعلقا بالمسائل الدنيوية : من تجارة وزراعة وصناعة وغير ذلك ، ولكن بقى جانب آخر يبدو غير واضح وهو أنه ورد فى الحديث الشريف أن النبى ﷺ قال : «**بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا**» فهل إذا فعل المسلم هذه الأركان الخمسة فقط يعتبر مسلما ؟

نعم ، لأن هذه الأركان ، إذا أديت تدفع بمن يؤديها إلى أن يفعل الخير ويتجنب كل أعمال الشر ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والزكاة تربى فى المسلم غريزة حب الخير والعطف على المحتاجين ، والصوم يهذب أخلاق المسلم ، فيحرره من غرائز الشهوات الجسمانية . والحج يعمق فى قلوب المسلمين الشعور بالوحدة ، وفوق هذا كله فالشهادة تحرر المسلم من سيطرة البشر عليه ، فهو لايخضع إلا لله .

فإذا كان المسلم يتصف بهذا كله ، أو تنفيذه لهذه الأركان يؤدى إلى أن يكون مسلما مطيعا لله ، منفذا تعاليمه ، فلماذا قال الله فى كتابه الكريم ردا على الأعراب الذين جاءوا

---

(٩٠) يوسف ١٠١
(٩١) النمل ٤٤

يعلنون إيمانهم للنبى ﷺ بأنهم ليسوا مؤمنين ، بل مسلمين ، فقال : **﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾**(*) .

فهل الإيمان غير الإسلام ؟

يجب أن نعرف أن الإسلام هو الخضوع والانقياد الظاهرى ، فإن صاحبه تصديق بالقلب يكون إسلاما صحيحا ، لأن الإيمان هو التصديق بالقلب ، والتعبير عنه باللسان — كأن ينطق المرء بالشهادتين — أو بالعمل — كأن يقوم بأداء العبادات — إنما هو علامة على مافى القلب من الإيمان ، فإذا كان هذا التعبير صدى لما فى القلب من إيمان كان إسلاما حقيقيا ، وإلا فيكون تظاهرا فقط كما كان حال المنافقين ، فقد تظاهروا بالإسلام ولم يدخل الإيمان قلوبهم ، كذلك الحال مع الأعراب الذين تحدثت عنهم الآية فقد جاءوا خاضعين ، ولكن لم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم بعد .

ولهذا لايمكن الحكم على إنسان بأنه مؤمن أو غير مؤمن ، لأن ذلك الأمر يتعلق بالقلب ، ولا يطلع عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، وإنما نقول : فلان مسلم ، وهذا هو السبب فى شيوع استعمال كلمة « المسلمون » وقلة استعمال كلمة : « المؤمنون » ، فاطلاق الإيمان على المسلمين لايكون إلا من الله سبحانه وتعالى فهو الذى يعلم مافى القلوب .

ومن هنا جاء تعبير : « الذين آمنوا » فى القرآن الكريم أكثر من مائتى مرة ولم يأت تعبير : « الذين اسلموا » إلا مرة واحدة ، حيث يقول تعالى : **﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا﴾**(٩٢) .

أى يحكم بها الذين أطاعوا الله ، ولم يسيروا وراء شريعة وضعها البشر للمجتمع اليهودى .

* * *

بينا فى الفقرات السابقة أن الإسلام هو الخضوع والانقياد الظاهرى ، وأن الإيمان هو التصديق بالقلب ، فمن آمن بلسانه ، ولم يصدق قلبه فهو بالنسبة لنا مسلم ، لأنه بحسب

(*) الحجرات ١٤
(٩٢) المائدة ٤٤

الظاهر أعلن خضوعه لاحكام الاسلام لكن إسلامه لايكون حقيقيا لأن الجزاء لابد فيه من تصديق القلب ، والله الذى بيده الجزاء يعرف إن كان فى القلب تصديق أم لا ، فالإنسان مسئول عن هذا التصديق أمام الله فقط لأنه هو الذى يعلم ماتكنه القلوب ، فهو علام الغيوب .

إذن ، فالإيمان هو تصديق بالقلب ، والإسلام نطق باللسان ، وعمل يقوم به العبد تنفيذا لما جاء به القرآن الكريم . وقد يكون هذا العمل ظاهريا فقط كما كان حال المنافقين ، فإنهم تظاهروا أمام المسلمين بأنهم آمنوا ، ولم يدخل الإيمان قلوبهم وقد يكون عمل المسلم تعبيرا صادقا عما فى القلب من إيمان .

فكيف نفرق بين العملين ؟

من الصعب جدا التفريق بين عملين : عمل قام به صاحبه تظاهرا ، وآخر نابع حقيقة من القلب ، فذلك لايقدر عليه إلا العليم بأسرار القلوب وهو الله سبحانه وتعالى لكن المرء غالبا مايلحظ — إن واتته الظروف ، أو كان ملازما للشخص فى جميع الأوقات — صدق العمل الذى يقوم به صاحبه ، وذلك إذا كان سلوك الشخص طبقا لما يظهره من تقوى ، وحرص على تأدية العبادات .

وتوضيحا لهذين المعنيين للإسلام والإيمان وصف مايتعلق بالقلب بأنه الإيمان ومايظهر على الجوارح بأنه الإسلام ، فيقول الله تعالى فى وصف المؤمنين : ﴿ **آمن الرسول بما انزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾[٩٣] .

لأن التصديق لا يتحقق فى هذا إلا بالقلب ، فسمى إيمانا .

أما ماله جانب ظاهرى فقد وصف بالإسلام ، فقد جاء فى حديث رسول الله ﷺ حين سأله جبريل عن الإسلام قوله : « **الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا** » فالنطق بالشهادة له جانب ظاهرى وكذلك الصلاة والصوم والزكاة والحج .

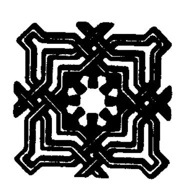
إذن ، فالإسلام : هو مايتعلق بالظاهر والايمان : هو مايتعلق بالقلب وإن كان الإسلام لايكون صحيحا إلا إذا كان مصاحبا للإيمان بالقلب ، فإن انتفى الإيمان بالقلب أصبح

---

(٩٣) البقرة ٢٨٥

العمل الظاهرى نفاقا ، وليس اسلاما ، ولا يطلع على هذا إلا الله لأنه أعلم بالقلوب . ولذلك لايصح أن ننفى الإيمان عن مسلم التزم بأداء الأعمال الظاهرية فنصفه بالكفر أو النفاق ، لأن هذا خارج عن قدرتنا ، والأولى أن نطلق عليه وصف مسلم فقط .

أما وصف المؤمن فندعه لله سبحانه وتعالى ، فهو وحده الذى يعلم مافى قلبه .



الفصل الرابع

ظواهر العالمية فى الإسلام

فى الاسم

خلق الله الناس جميعا من أصل واحد ، فهم متساوون فى مصدر الخلق ، وفى العناصر التى تتكون منها أجسامهم يقول الله تعالى : **﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾**(٩٤) .

لذا اشترك الناس فى الخصائص الإنسانية العامة وفى الصفات الأصلية التى يقوم عليها مفهوم الانسانية .

غير أن حكمة الله اقتضت أن يكون لاختلاف التضاريس ، وتباين المناطق الجغرافية . أثره على ملامح المجموعات البشرية ، فتمايزت كل مجموعة عن الأخرى : فى الحجم والشكل واللون ، واختلفت مشارب كل منطقة عن الأخرى ، فتنوعت أساليب حياتهم وكثرت أشكال عاداتهم وتقاليدهم ، واختلف تبعا لذلك انتماءاتهم ، سواء أكان ذلك على مستوى المجموعات الكبيرة كالأمم والشعوب ، أو فى حدود التجمعات الصغيرة كالقبائل والأسر ، أو فى إطار الذاتية كالأفراد والأشخاص .

ولولا هذه الاختلافات ، لأصبح من العسير تمييز شخص عن آخر ، أو تحديد ملامح سكان منطقة ما ، وفصلها عن غيرها من سكان المناطق الأخرى ، فتختلط الأمور وتتشابك ، إذ يصبح كل شبيه بالآخر ، ويصير الجميع نسخة مكررة ، لا ملامح للتمييز ولا معالم للتفريق . وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى فى قوله تعالى : **﴿ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾**(٩٥) .

---

(٩٤) النساء ١

(٩٥) الحجرات ١٣

أى ليعرف كل منكم الآخر ، عن طريق الملامح المميزة له ، والعادات والتقاليد التى تفصله عن الآخر على هيئة شعوب وقبائل ، أى ليعرف كل منكم أن هذا ينتمى إلى هذا الشعب أو ذاك ، وأن ذاك فرد من أفراد هذه القبيلة أو تلك . غير أن هذا الاختلاف أوحى إلى بعض المفكرين ودعاة المذاهب الفكرية بالتفاضل بين الأجناس ، لدرجة أنهم نسوا أن الناس خلقوا من أصل واحد ، فدعوا إلى نظرية تعدد أصول الأجناس البشرية ، وتأثر بهذا بعض رجال الدين فاعتقدوا أن الله فضل جنسهم على سائر الأجناس البشرية .

فإذا كانت مبادىء الدين واتجاهاته التشريعية تحمل هذه المظاهر المحلية وتعامل الناس على أساس الفروق البيئية ، فتعالج مشاكل قبلية أو إقليمية فقط ، دون أن تتجاوزها إلى المشاكل العالمية التى لاتختص بإقليم دون آخر ، وتنحصر داخل حياة طائفة من الناس دون أخرى ، فهو دين محلى يختص بإقليم دون آخر ، أو يخاطب شعبا دون غيره من بقية الشعوب .

ولو استعرضنا الأديان المعروفه والمشهورة لتبين لنا من أول وهلة أنها أديان لاتحمل صفة العالمية ، ويظهر ذلك واضحا لو لاحظنا — على سبيل المثال — الأسماء التى عرفت بها تلك الأديان ، فالنصرانية نسبة إلى قرية الناصرة ، وهى تسمية توحى بالانحصار فى الإقليمية ، واليهودية نسبة إلى يهودا ، وهو تحديد بشخص معين وكذلك البوذية والمانوية ، والزرادشتية ، وغيرها من الأديان الأخرى .

أما الإسلام فهو عالمى فى تسميته ومبادئه وأحكامه وتشريعاته ، فهو لم يتخذ اسما خاصا بأحد ، ولم ينسب إلى فئة معينة أو قبيلة خاصة فيقول الله تعالى : ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾(*) .

ويقول : ﴿**ماكان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما**﴾(**) .

فهو دين التسليم لله ، وهى صفة لاتخص مجموعة دون أخرى من الناس ، بل هى عامة عند الجميع ، فيقول الله تعالى : ﴿**أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون**﴾(***) .

وهكذا نرى من النظرة الأولى فى الأديان نظرة الاقتصار على مجرد التسمية أن تسمية الإسلام توحى بأنه دين عام للمخلوقات كلها وللناس كافة .

(*) آل عمران ١٩ (**) آل عمران ٦٧ (***) آل عمران ٨٣

ذكرنا فى الفقرة السابقة أن تسميته توحى بأنه عام لكل المخلوقات ولكل الناس ، فإذا انتقلنا من التسمية إلى الوحى وهو أساس كل رسالة دينية لوجدنا أن الوحى الذى أنزل على محمد ﷺ قد اشتمل على خصائص كل ماأنزل على الرسل من قبله ، يقول الله تعالى : **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك﴾**(٩٦) .

فالتعبير بالنبيين من بعد نوح يشير إلى أن القرآن الكريم جمع كل صفات الكتب السابقة التى أنزلت على الأنبياء جميعا ، مما صيره تشريعا عاما لجميع الناس .

كذلك التفصيل ثم الاجمال فى قوله تعالى : **﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾** إلى أن قال : **﴿ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك﴾** يؤكد عموم رسالة الإسلام ، لأنها جمعت كل الخصائص التى اشتمل عليها كل وحى سبق على الإسلام . وبناء عليه فهى لجميع البشر على اختلاف أقاليمهم ، وتنوع عاداتهم وتقاليدهم ولهذا جاء التعبير فى آيات القرآن الكريم بكلمة «**الإنسان**» التى يندرج تحتها كل أجناس البشرية ، يقول الله تعالى :

﴿إقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم﴾(٩٧) .

ولو أحصينا الآيات التى ورد فيها ذكر هذه الكلمة التى تطلق على البشرية جمعاء وهى «**الانسان**» لوجدنا أنها ذكرت فى أكثر من ستين آية .

وأهم من هذا فى مفهوم عموم دعوته ﷺ أنه أكد مسئولية الفرد واستقلاله عن الارتباط بالخصائص التى تفصله عن الهيكل الكلى للمجموعة البشرية كالقبيلة أو العشيرة ، فليست المسئولية تابعة لخصائص عرقية أو إقليمية ، وإنما ترجع إلى الإنسان كفرد ، وهو يشترك فى هذا التخصيص مع كل إنسان فى أى إقليم ، وداخل أى مجموعة

---

(٩٦) النساء ١٦٣
(٩٧) العلق ١ ــ ٥

عرقية أو إقليمية يقول الله تعالى : ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان**﴾[98] . ويقول : ﴿**وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورة * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا**﴾[99] .

فالمسئولية تقع على عاتق الفرد وحده ، بعيدا عن أهله الذين تميز بهم عن غيره من أفراد الإنسانية ، وبعيدا عن إقليمه الذى فصله عن غيره داخل حدود معينة ، وعادات وتقاليد مختلفة عن غيرها من تقاليد الأقاليم وعاداتهم ، فهى قد حملته من داخل هذا الإطار الضيق إلى فضاء واسع ، وهو العالمية ، حيث يشعر بأنه أخ لكل إنسان على وجه الأرض .

وطبيعة الأمور تقتضى بأنه مادام الاسم عاما وهو : « الإسلام » والوحى يتضمن كل خصائص الوحى السابق ، والمسئولية فيه تقع على عاتق الإنسان باعتباره إنسانا لابكونه فردا من قبيلة أو شعب . فالإسلام بناء على هذا هو : رسالة الله للناس كافة . وللإنسان الذى استخلفه الله فى الأرض ، أينما كان ، وحيثما وجد ، فهو دعوة عالمية ، فى طبيعتها ومفهومها .

وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى فى كثير من آياته ، يقول الله تعالى :

﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لايعلمون**﴾[100]

﴿**هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾[101]

﴿**تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**﴾[102]

﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾[103]

﴿**إن هو إلا ذكر للعالمين**﴾[104] .

﴿**إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين**﴾[105] .

---

(٩٨) الأحزاب ٧٢
(٩٩) الاسراء ١٣ — ١٤
(١٠٠) سبأ ٢٨
(١٠١) الصف ٩
(١٠٢) الفرقان ١
(١٠٣) الأنبياء ١٠٧
(١٠٤) ص ٨٧
(١٠٥) يس ٦٩ — ٧٠

فكل هذه الآيات توضح مفهوم العالمية فى الإسلام ، وهى دليل يؤكد مابيناه من خصائص من تقع المسئولية على عاتقه ، وهى خصائص عامة يندرج تحتها كل إنسان على وجه الأرض .

فى الملاءمة

تموج أقطار الأرض بتيارات فكرية مختلفة المنابع والأصول ، ومتعددة المذاهب والاتجاهات ، ومتلونة الأشكال والأحجام . وليس هذا قاصرا على المذاهب ذات الصيغة المادية ، بل هو أيضا بين الأديان والمذاهب الروحية ، سواء منها ماكان بشريا أرضيا فى أصله ومساره ، وماكان منها سماويا فى مبدئه ، ثم تحول إلى مسار بشرى عن طريق ماعلق به من أفكار الإنسان واتجاهاته الخاضعة لظروف مختلفة . ومؤثرات متعددة فإذا بحثنا فى هذه المذاهب الفكرية ، والاتجاهات الدينية عن مدى القدرة فيها على استيعاب ظروف الإنسان فى كل مكان على وجه الأرض ، لتبين لنا أن ماكان منها موافقا لطبيعة الإنسان فهو القادر على تهذيبه وتقويمه ، دون أن يكلفه بما لايطيق ، ومن غير أن يلقنه أشياء بعيدة عن واقعه الإنسانى .

ولما كانت قدرة الإنسان غير متساوية،وإمكاناته متفاوته،فينبغى أن يكون الدين الذى ينظم حياته مشتملا على برنامج تربوى واضح ، يتسع لكل الظروف الإنسانية ، ويعالج كل المشاكل التى تعترض طريق الإنسان ، وفى الوقت نفسه يكون سهل التطبيق يسيرا على النفس الإنسانية ، مطابقا لقدرات الإنسان العقلية والجسمية ، مراعيا الظروف الطبيعية المحيطة به ، فإذا وجد هذا التكامل فى أى دين فهو دين عالمى ، لأنه يصلح للتطبيق مع كل إنسان ، وتحت كل الظروف النفسية وفى كل الأجواء المناخية .

ولا يجتمع هذا كله إلا فى الإسلام ، ففيه الوضوح واليسر والسهولة ، إذ أنه خلا من التعقيدات الفلسفية ، التى لايفهمها إلا مجموعة قليلة جداً من العلماء أطلقوا على أنفسهم كلمة « الخاصة » أى المتخصصون فى هذا الفن ، وليس فيه المبهمات والمعميات التى كثرت فى الأديان المنتشرة فى بعض مناطق الكرة الأرضية ، وفى الوقت نفسه جاءت أحكامه وتشريعاته سهلة ميسرة ، بحيث يستطيع كل إنسان الالتزام بها ، دون مشقة أو عناء لأنه موافق لطبيعته ، ومنسجم مع متطلبات تكوينه الفسيولوجى والنفسى ، فالإسلام مناسب لفطرة الإنسان ، وغير مناقض للمسلمات العقلية التى يعتنقها ، ولا يتصادم مع

حريته الإنسانية التى تبنى كيانه ولا تدمره ، وتحافظ على وحدة مجتمعه ولا تمزقها .

فمن يقرأ القرآن الكريم يجده سهل المنال ، إذ يستطيع أن يجد فيه متعته النفسية والروحية ، ويفهم منه مايحتاج إليه فى تنظيم حياته مع نفسه ومع الآخرين الذين يعيشون معه سواء أكانوا مشاركين له فى تجمعات بشرية معينة كالأسرة والأمة ، أو متعاملين معه فى الحياة فى دائرة أوسع من هذا التقييد الأسرى . أو الوطنى ..

ففى مجال التيسير على المؤمنين نجد القرآن الكريم يشير إلى أن الله لم يرد من التكليف إلا تهذيب الإنسان ، دون أن يصيبه عنت أو حرج ، يقول الله تعالى : ﴿**ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم**﴾(١٠٦) .

ويقول : ﴿**ياأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون*وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وماجعل عليكم فى الدين من حرج**﴾(١٠٧) .

ويقول عقب بيان فرض الصيام : ﴿**يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر**﴾(١٠٨) .

ولم يفرض الحج إلا على المستطيع يقول تعالى : ﴿**ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا**﴾(١٠٩) .

وهكذا فى كل ماأمر به المسلمين ونهاهم عنه ، فلم تكن أوامره فوق طاقتهم كما لم تكن نواهيه ضد طبيعتهم ، وتلك خاصية عمومية الإسلام لجميع الناس .

---

(١٠٦) المائدة ٦
(١٠٧) الحج ٧٧ — ٧٨
(١٠٨) البقرة ١٨٥
(١٠٩) آل عمران ٩٧

ولم يقتصر أمر التيسير على الفرائض المكتوبة المتعلقة بالعبادات فقط ، بل هو القاعدة فى كل مايطلبه الإسلام من الإنسان ، يقول الله تعالى : ﴿**لايكلف الله نفسا إلا وسعها**﴾(١١٠) .

كذلك وافقت تعاليمه فطرة الإنسان ، فأحكامه جاءت لصالحه ، من حيث إنه إنسان ، وهذا يعنى أن تكون هى شريعة الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، يقول تعالى فى بيان طبيعة الإسلام : ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون**﴾(١١١) .

فالمقصود بالفطرة فى هذه الآية هى طبيعة الإنسان الجامعة بين العالمين : المادى والروحى ، بما أودع فيها من غرائز ، أى أن الإسلام راعى هذه الفطرة فى بناء التكاليف عليها ، بحيث لاتكون مصطدمة معها ، أو مهملة لمقتضياتها المادية والروحية ، يقول الله تعالى : ﴿**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا**﴾(١١٢) .

فهو ليس دينا مغرقا فى الروحانية ، وليس مذهبا تسيطر عليه المادية ، بل هو فطرة تتمشى مع طبيعة الإنسان ، وبهذه الميزة كان ملائما لجميع الأجناس البشرية فتقبله النفوس على اختلاف مستوياتها ، وتباين طرق حياتها ، لأنه يلبى مطالب الحياة بالقدر الذى يصلحها ، ويجعل النشاط فيها ذا أثر فعال فى جميع مجالات الإنتاج الذى يعود على الإنسان ــ بوصفه إنسانا ــ بالخير والسعادة ، والأمن والأمان .

ومن الجوانب التى أكسبت الإسلام صفة العالمية ، قيام أحكامه وتشريعاته على أسس عقلية يفهمها كل إنسان يتمتع بهذه الميزة التى ميز الله بها الإنسان على سائر الكائنات الحية ، وأكبر دليل على ذلك أن أول آية نزلت من القرآن الكريم خاطبت العقل ، وحثته على التفكير فى نفسه ، وفى كيفية خلقه ، يقول تعالى : ﴿**إقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم**﴾(١١٣) .

كما أنه حث على إستعمال العقل فيما حول الإنسان فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ،

---

(١١٠) البقرة ٢٨٦

(١١١) الروم ٣٠

(١١٢) القصص ٧٧

(١١٣) العلق ١ ــ ٥

نذكر منها قوله تعالى : ﴿**كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون**﴾[(١١٤)] . وقوله : ﴿**قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون**﴾[(١١٥)] . وقوله : ﴿**أو لم يتفكروا فى أنفسهم**﴾[(١١٦)] . وقوله : ﴿**فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**﴾[(١١٧)] .

وغير ذلك من الآيات التى تثير فى الإنسان غريزة التفكير فيما يحيط به ، وهى عامة لدى جميع البشر . ويترتب على هذا ذم التقليد ، لأنه يشل تفكير الإنسان ، ويحط من قدره ، ويجعله عالة على غيره ، وذلك ضد طبيعة الإنسان ، وقد نزلت آيات كثيرة تسفه أحلام الذين ساروا ضد هذه الطبيعة ، فالغوا عقولهم ، وساروا مع كبرائهم دون أن يستخدموا عقولهم التى وهبهم الله إياها لتقودهم إلى مافيه الخير والسعادة . يقول الله تعالى : ﴿**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين**﴾[(١١٨)] .
ويقول : ﴿**وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا**﴾[(١١٩)] .

وبناء على حث الإسلام على استخدام العقل لاتوجد حقيقة دينية فيه مخالفة للحقائق العقلية ، مما جعله صالحا لكل إنسان على وجه الأرض ، لأنه يخاطب العقل الذى يشترك فيه جميع البشر ، فليس فى القرآن الكريم حقائق تختص بجنس دون آخر وتناسب قوما دون غيرهم من أقوام الأرض ، فالكل مشترك فى الأداة التى يتوجه إليها القرآن الكريم بأوامر الله ونواهيه ، ألا وهى : العقل .

وخلاصة القول : إن الإسلام دين عالمى ، بما فيه من يسر وسهوله . تمكن كل الناس مهما اختلفت قدراتهم العقلية والجسمية ، من تأدية فرائضه وأحكامه ، وتهيىء الظروف لكل مجتمع بشرى لتطبيق شرائعه ، دون حرج أو مشقة فى هذا التطبيق لأنه يلائم الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، كما يخاطب العقل ، الذى يشترك الناس جميعا فى استخدامه كأداة تهديهم سواء السبيل فى معترك الحياة .

---

(١١٤) البقرة ٢١٩
(١١٥) الانعام ٥٠
(١١٦) الروم ٨
(١١٧) الاعراف ١٧٦
(١١٨) الأنبياء ٥١ — ٥٤
(١١٩) الأحزاب ٦٧

فى موقفه من الحرية

تشغل قضية الحرية حيزا كبيرا فى الفكر الإنسانى ، إذ مازالت تتصدر قائمة مبادىء كل مذهب فكرى على أساس أن حرية الإنسان يجب أن يكفلها كل نظام يريد لنفسه البقاء ، وتحافظ عليها كل « أيديولوجية » تنشد الانتشار بين الناس ، ويدعو اليها كل المفكرين المشتغلين بقضايا الإنسان والمجتمع ، ذلك أن الحرية هى إحدى الدعائم الرئيسية التى يقوم عليها بناء الإنسان بوصفه عضوا صالحا فى مجتمع قوى متماسك ، فإن لم توجد فى المجتمع البشرى ضعف أفراده ، وانحلت عقدة التماسك فيما بينهم ، فتناثروا فى مهب الريح ، لايجمعهم هدف ، ولايمسكهم مبدأ يرون فيه كيانهم ووجودهم .

ولهذا قدس الإسلام الحرية فدعا إلى كفالتها ، ولو أدى ذلك إلى عدم الاعتراف به دينا ، يقول الله تعالى : **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾**(١٢٠) . ويقول : **﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾**(١٢١) .. **﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾**(١٢٢) .

فيبين الله لرسوله ﷺ فى هذه الآيات أن الإيمان متروك لحرية الإنسان ، فلا ينبغى أن يمارس الاكراه لحمل الناس عليه ، لأنه لو شاء الله لأكرههم على الإيمان ، ولكنه تركهم بحريتهم ليكون الإيمان نابعا من ذات الشخص نفسه حتى يثمر إيمانه ، لأن العمل لايكون نافعا إلا إذا فعله الإنسان وهو فى كامل حريته .

ولهذا نظر الإسلام إلى المجتمع نظرة شمولية ، فهو لايفرق بين الناس على أساس معتقداتهم بحيث يسلبهم حريتهم بسبب هذه المعتقدات ، بل كفل لهم أسس العيش فى سلام واطمئنان داخل المجتمع الإسلامى ، وأعطاهم حرية كاملة فى ممارسة بناء المجتمع فلا زال قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : **«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»** . ناقوسا يرن فى آذان كل المجتمعات البشرية ، معلنا أن المسلمين طبقوا قواعد الحرية كما أمرهم الإسلام ، واستنكروا كل مامن شأنه أن يسلبها من المجتمع لأنها أساس كيان الإنسانية ، ودعامة استقرار المجتمع على قواعد ثابتة لاتتزعزع أمام عواصف الدهر ، وتقلبات الأيام .

---

(١٢٠) البقرة ٢٥٦
(١٢١) الكهف ٢٩
(١٢٢) يونس ٩٩

ومما يدل على سماحة الإسلام ، أن الرسول ﷺ عقد مع نصارى نجران عقدا يبيح لهم بقاءهم فى أماكنهم وإقامتهم فى ديارهم دون أن يكون معهم أحد من المسلمين ، وقد تضمن هذا العهد حمايتهم والحفاظ على حرياتهم الشخصية والدينية ، وإقامة العدل بينهم ، والانتصاف من الظالم . وقام الخلفاء من بعده على تنفيذه حتى عهد هارون الرشيد ، فأراد أن ينقضه ، فمنعه محمد بن الحسن صاحب الإمام أبى حنيفة ، وفى هذا دلالة واضحة على روح التسامح فى معاملة غير المسلمين ، إذ حافظ على حرياتهم فى العبادة ، وفى إقامة شعائرهم الدينية من غير تضييق عليهم ، ولا تعكير لصفو الجو الروحى لطقوسهم الدينية ، لأنه احترمها ، واتخذ من الاجراءات مايحمى قداستها .

فتقديس الإسلام للحرية من أهم معالم العالمية ، لأنه فتح بذلك الباب على مصراعيه لكل الناس ، لينضووا تحت لوائه دون خوف أو وجل ، ويستظلوا بظله ، من غير أن يشعروا بالغربة أو يحسوا بأن مبادئه تصطدم مع طبيعتهم ، فكل إنسان يجد مبتغاه مادام ملتزما بالقواعد الاجتماعية ، ومنفذا للقوانين التى تحافظ على الفرد والمجتمع ، لافرق فى ذلك بين من آمن به ، ومن ارتضى العيش فى ظل دولته ، إذ لايضار أحد فى نفسه أو أهله ، أو مايملك ، ولا يحجر على أحد فى إبداء رأيه ، أو فى التعبير عن فكره مادام فى إطار المصلحة العامة ، أو فى المجال الخاص الذى لايؤثر على الدولة أو الذى لايلحق ضررا واضحا بالمواطنين .

فكان هذا من أهم معالم عالميته ، إذ أظل بظله كل أصحاب الكتب السماوية السابقة ، فضمن لهم حريتهم فى العقيدة والعبادة ، وفى كل مايتعلق بشئون الحياة . وقد فهم المسلمون هذه الروح الاسلامية فعاملوا غير المسلمين معاملة طيبة فى جميع العصور ، من بدء ظهور الإسلام حتى اليوم ، وكتب التاريخ مليئة بالأحداث التى تظهر هذا الجانب من معاملة المسلمين لغيرهم ممن بقوا على عقائدهم القديمة ، فقد روى أن عمّر بن الخطاب مر بباب قوم وعليه سائل يسأل ، وكان شيخا ضرير البصر ، فضرب عمر عضده وقال له : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى . قال : فما ألجأك إلى ماأرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله وأعطاه مما وجده ، ثم أرسل به إلى خازن بيت المال ، وقال له : انظر هذا وضرباءه .. فو الله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ، ثم نخذله عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين . والفقراء هم فقراء المسلمين ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ، ثم وضع عنه الجزية .

وقد سار أمراء المسلمين على هذا الدرب فى معاملة أرباب الأديان الأخرى الذين كانوا يعيشون فى الدولة الإسلامية ، فأحاطوهم بالرعاية والعناية ، وحافظوا على حقوقهم وأموالهم ، وكرموهم واستعانوا بهم فى مجالات الدولة المختلفة حتى وصل الاكفاء منهم إلى مرتبة الوزارة ، وتلك ظاهرة لم تحدث مع غيره من الأديان ، وماذاك إلا لأنه دين عالمى فتح صدره لكل الناس على اختلاف مذاهبهم وأديانهم فأعطى الحرية للجميع فى التفكير ، وسمح لهم بممارسة طقوس عبادتهم فى ظل دولته ، وتركهم ومايعتقدون ماداموا ملتزمين بالخط العام الذى رسمه الإسلام للدولة .

وأكبر دليل على سماحة الإسلام مع أهل الأديان الأخرى قوله تعالى : ﴿**قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾(١٢٣) .

فلم يجبرهم على اعتناق مبادئه بالقوة ، كما فعل ذلك أرباب الأديان الأخرى فى حمل مخالفيهم على الإيمان بعقائدهم ، بل تركهم واكتفى بأن يدركوا أن المسلمين قد اسلموا الوجه لله لا لغيره ، أى أنهم أطاعوه فنفذوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، لعل فى هذا مايوقظ فى أنفسهم جانب الخير ، فيتبينوا أن المسلمين على صواب فى دعوتهم لهذا الدين ، وذلك أقصى درجات الحرية فى أن يختار الإنسان بنفسه مايريد ، ومايراه صوابا بعد أن تظهر أمامه الحقيقة واضحة .

وأهم من هذا كله فى مفهوم عالمية الإسلام تقبله للثقافات الأخرى الغريبة عنه مما يدل على سعة أفقه ، ونظرته العالمية الواسعة إلى الأديان والأجناس الأخرى فأقام حضارة كبرى ساهم فيها أهل هذه الأجناس والأديان فى كل ناحية من نواحى الحياة والفكر والفلسفة والأدب والفن والطب واللغة والتصوف ، وكانت تلك الحضارة تأليفا وتوحيدا لكل الحضارات قبلها فى الصين والهند وفارس والروم واليونان .

بنى المسلمون على كل هذه الأسس بناء حضاريا ضخما ، اشترك فيه العلماء من جميع الأجناس والأديان ، فكانت بحق حضارة لجميع أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ، ثم انتقل هذا التراث الحضارى إلى الأجيال اللاحقة ، فكان مصدرا للحضارة الحديثة ، وقد عبر أحد العلماء عن دور المسلمين فى بناء الحضارة الإنسانية بقوله : « إن

---

(١٢٣) آل عمران ٦٤

المسلمين لم يحرصوا فقط على أن يكونوا ورثة الأنبياء ، بل ورثة الفلاسفة كذلك » .

فالإسلام دين عالمى ، لأنه لم يغرس فى نفوس المسلمين حقدا ضد أى طائفة أخرى من البشر تعتنق دينا آخر ، ولم يحرم عليهم التزود بأى نوع من أنواع الثقافات الإنسانية ولم يفرض عليهم شيئا يعزلهم عن غيرهم من أجناس البشرية ، ولم يأمرهم بإجبار أحد على اعتناق الإسلام ، فكان بذلك ساحة ضمت جميع الناس ، وبوتقة صهرت جميع الثقافات ، ووادياً أمن فيه الناس على أنفسهم وعقائدهم ، وأفكارهم ، واطمأنوا على سلامة أموالهم وممتلكاتهم ، فنظروا إليه غير خائفين ، وفكروا فى مبادئه غير وجلين ودرسوا أحكامه فى جو من الحرية والديمقراطية ، فجاء اعتناق من اتخذه دينا عن رغبة واقتناع ، وعاش فى ظل دولته من بقى على دينه آمنا مطمئنا ، يسعى إلى رزقه ، ويشارك فى مجالات الدولة المختلفة تحت راية الإسلام التى ترفرف معلنة أنها مظلة الإنسان من حيث هو إنسان ، لأنه عبد الله ، الذى أنزل هذا الدين على محمد ﷺ .

فى الثوابت والمتغيرات

خلق الله الكون ، وجعل الحركة مبعث الحياة فيه ، فلو توقفت هذه الحركة لانعدمت الحياة كلية ، ومن لوازمها التغيير الدائم ؛ إذ لايستمر شىء على وجه الأرض على حالة واحدة فى لحظتين ، بل هو فى تفاعل مستمر ، وتغيير مطرد .. ولهذا نرى أن المجتمعات التى لاتدرك هذا القانون الآلهى يصيبها الشلل عندما تبطىء حركتها ، أو تتجاهل حتمية الحركة ، التى هى أساس التطور والتقدم ، ومنبع الرقى ، وبناء الحضارات .

ولما كان هذا المبدأ هو أساس التقدم المطرد ، فإن من المحتم ألا يبقى مظهر من مظاهر الحياة ثابتا ، وإلا كان عائقا يعوق سير الحياة فى مجراها الطبيعى لذا كان لابد للإنسان أن يغير فى أسلوب حياته ، كى يتلاءم مع سنة التطور ، ويعدل فى قوانينه لتنسجم مع صور الحياة المتجددة ، وتلبى احتياجات المجتمع التى تنشأ عن التفاعلات المستمرة فى الظواهر الاجتماعية . فإن تقاعس أبناء الأمة عن القيام بهذا العمل أو اعتقدوا أن ماخلفه الأجداد لهم أمر لاينبغى تغييره ، لأنه من الأمور المقدسة التى لايجوز محوها أو الاستغناء عنها أو تعديلها ، فقد حكموا على أنفسهم بالجمود وضربوا بينهم وبين التقدم سياجا يحول بينهم وبين مشاركتهم فى بناء الحضارة العالمية .

وإن كان جمودهم على القديم بسبب عجزهم عن فهم طبيعة الحياة ، وتخاذلهم عن

الإسهام فى حركة التقدم الإنسانى ، وقصورهم الفكرى عن التأثير فى مجالات الحياة الفكرية ، فتلك آفة تصاب بها المجتمعات الانسانية من حين لآخر ، ومرض يفتك بالحيوية الخلاقة التى أودعها الله فى الإنسان ، ليقوم بمهمة استخلافه فى الأرض .

ومن رحمة الله بالمجتمعات أن هيأ لها ظروفا تساعدها على التغلب على مثل هذه الآفات ، وتعينها على الشفاء من هذه المرض ، لتأخذ مكانها الطبيعى الذى خلقها الله لتؤدى دورها فيه .

وعلى الرغم من قانون التغيير الذى هو طابع الحياة ، فإن هناك ظواهر ثابتة تتحرك بهيئتها وطابعها داخل عجلة الزمن التى لاتتوقف عن الدوران ، فهى بمثابة الأعمدة التى تحتل المركز الذى يجمع بأطراف المتغيرات المستمرة فى الظهور والعدم ولولا ذلك لانهار كل ماعلى الأرض أثناء هذه التحولات المستمرة .

ويبدو ذلك واضحا فى النظم والقوانين التى ترسم للمجتمعات طريقها فى الحياة وتحافظ على كيان الأمة من أن يصيبه الانهيار والدمار ، وتحفظ طابع الحياة التى يتمثل فى الاستقرار والأمن والسعادة لبنى البشر ، ذلك أنه لو اصيبت هذه القوانين بالجمود لجمدت الحياة وتخلف ركب الحضارة الانسانية ، ولو خلا كلية من عناصر ثابتة ومبادىء مستقرة لأصيب المجتمع بحمى التغيير السريع ، والتبديل المستمر ، الذى لايهدأ ولا يستقر ، فترتبك الحياة وتضطرب أو تختلط الأمور وتتشابك ، فتقع العقول فى حيرة وتصاب الأمة بالشلل ، إذ تعجز عن تحديد مفاهيم مايدور حولها ، فما كان بالأمس صالحا أصبح اليوم طالحا ، وماتمسكت به فى الماضى القريب لاعتقادها أنه مناسب لحياتها تستنكره اليوم ، وتنظر إليه بعين الاستهزاء والسخرية .

ولهذا كان لابد من أن تشتمل النظم والقوانين على مبادىء كلية ثابتة لاتتغير حتى يكون للحياة استقرارها ولسلوك الناس فى حياتهم الاجتماعية أسس لاتتغير ، ومبادىء كلية لاتتبدل ، ولايمكن للعقل البشرى أن يضع مثل هذه النظم والقوانين ، لأن إمكاناته الذهنية مرتبطة بعصره ، ومحددة بإقليمه ، لذا كان لابد لتحقيق هذين العنصرين — وهما عنصرا الثبات فى المبادىء الكلية ، وإمكانية التغيير فى التفاصيل الفرعية لمواجهة التغيير المستمر — من أن يكون قدرة واضع هذا القانون الذى يشتمل على هذين العنصرين غير محدودة الزمان والمكان ليستطيع وضعه كاملا دون أن يصيبه خلل أو ضعف ، أو يطرأ عليه فى وقت ما عدم ملاءمة الظروف المتغيرة ، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه

وتعالى ..

فقد أنزل الله التشريع الإسلامى على محمد ﷺ متطابقا مع نظام الكون منسجما مع كل مايطرأ من تغييرات ، أو يظهر على سطح الحياة من ظروف متجددة ، ذلك أنه تضمن قواعد كلية تصلح لكل الأزمنة والعصور ، وتتمشى مع ماينبغى أن تكون عليه الحياة من الاستقرار أو تتفق مع الظواهر التى يشترك فيها جميع الأجناس البشرية .

ولا يستطيع ذلك إلا الله ، فقط أنزل التشريع الإسلامى مشتملا على قواعد كلية . تصلح لكل الأزمنة والعصور ومع ذلك فقد تركت التفاصيل والتفريعات لعقل الإنسان يستخلصها حسب عصره وبيئته ، ويستنتجها طبقا لمتطلبات ظروفه المحيطة به ، بحيث يلبى احتياجات العصر ، وفى الوقت نفسه لاتخرج عن الخط الرئيسى الذى رسمه الإسلام كمبدأ عام يلتزم به الجميع أو كدستور يتخذه الناس قاعدة تشريعية أصلية ينبثق عنها كل مايقررونه من قوانين ، ومايرسمونه لأنفسهم من لوائح ونظم .

فالقضايا الكلية فى الإسلام هى قواعد التشريع الأساسية التى تصلح لكل شعب وتلبى احتياجات كل المجموعات البشرية على اختلاف ألوانها وأجناسها ، وتتناسب مع كل عصر وبيئة إذ يتخذها الجميع أساسا يستنتج منه أحكام لكل القضايا ، وعلاج لكل المشاكل التى تواجه الإنسان والمجتمعات ، فكانت هذه المبادىء الرئيسية فى التشريع أساساً للاجتهاد فى مجال الأحكام الشرعية ، الذى بمقتضاه تكونت المذاهب الفقهية فزخرت بالأحكام والتفريعات التى كانت منها فروض مقدرة الحدوث فى الأزمان المستقبلة .

فكان هذا العمل فى مجال التشريع دليلا على مرونة الفقه الاسلامى وصلاحيته لمواجهة الأحداث التى تظهر نتيجة لديناميكية الحركة فى مجالات الحياة المختلفة ، وعنصرا جوهريا فى مفهوم عالمية الإسلام .

فقد جاء فى القرآن الكريم آيات كثيرة رسمت قضايا كلية في مجالات الحياة المتعددة نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى : **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾**(١٢٤) .

فهذه قضية توضح أن الإسلام يحث على ألا يكون الأمر فى المجتمع ديكتاتوريا ، بل ينبغى أن يقوم على أساس الشورى ، ولم يحدد لهذه الشورى صيغة معينة . بل تركها

---

(١٢٤) الشورى ٣٨

لظروف كل عصر وطبيعة كل بيئة . كذلك لم يحدد فى قوله تعالى : ﴿**قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة**﴾(١٢٥) . أنواع الزينة ، أو اشكالها وهيئاتها ، بل ترك ذلك لمقتضيات الزمان والمكان ، بشرط ألا يكون فى ذلك اقتراف لمعصية أو تناول خبيث ، كما فى قوله تعالى : ﴿**ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث**﴾(١٢٦) .

فهذه وأمثالها أمور كلية وضعت الأساس الذى يحفظ كيان المجتمع ، وحددت الاطار الذى يتحرك بداخله الفقهاء والمشرعون لمواجهة متطلبات العصر والبيئة .

وخلاصة القول : إن الإسلام جاء موافقا لقوانين الحياة ، فرسم قواعد ثابتة ، وترك التفصيلات والتشريعات للفقهاء ، لتكون مجالا للاجتهاد والاستنباط ، سعيا وراء الصيغ القانونية التى تلائم بيئاتهم وعصورهم ، وعلى هذا الأساس وجهت الدعوة إلى كل من على وجه الأرض ليدين بالإسلام ، لأنه النظام الوحيد الذى يوافق طبيعة الحياة ، وحركتها المستمرة ، ويتلاءم مع ماتتطلبه من قواعد ثابتة ، تقوم عليها هذه المتغيرات ، كى لاتنهار أو تتبدد معالمها ، وسط هذا السيل الجارف من الأحداث المتجددة .

فدعا رسول الله ﷺ الناس كافة إلى الدخول فى الإسلام قائلا : ﴿**ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا**﴾(١٢٧) .

كما بعث بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، فقد ورد أن رسول الله ﷺ لما رجع إلى المدينة من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست أرسل رسلا إلى الملوك فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد ، وذلك فى المحرم سنة سبع ، فبعث كتابا إلى النجاشى ملك الحبشة ، وإلى هرقل عظيم الروم ، وإلى المقوقس عظيم القبط ، وإلى كسرى عظيم فارس .

وأرسل كذلك إلى غيرهم على حدود الجزيرة العربية ، فأرسل إلى أهل نجران وسائر من ينتحل دين النصرانية فى أنحاء الجزيرة يدعوهم إلى الإسلام وأنه رسول الله إلى الناس كافة ، وبهذا وجه الأمة من بعده إلى فكرة الدعوة إلى الإسلام ماوجدوا إلى ذلك سبيلا .

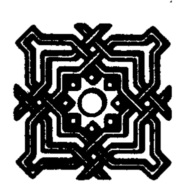
وسار المسلمون من بعده على هذا المنهج ، فحملوا الإسلام إلى الناس قاطبة فى جميع

---

(١٢٥) الأعراف ٣٢
(١٢٦) الأعراف ١٥٧
(١٢٧) الأعراف ١٥٨

أركان المعمورة ، ومازالوا ينادون الناس فى كل مكان مبينين لهم أن الإسلام لايختص بجيل دون آخر ، وليس لطائفة دون غيرها من الطوائف ، ولم يكن دين شعب بعينه بل هو دين الناس كلهم .

ولهذا جاء مطابقا للقانون الأساسى فى حياتهم ، وملائما لأسلوب معيشتهم فى كل زمان ومكان .



الفصل الخامس

التطور والتجديد

دين الله الإسلام

خلق الله الإنسان ليكون خليفة له فى الأرض ، قال تعالى : **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾**(١٢٨) ولذا ميزه الله بالعقل على سائر الكائنات الحية ، ليستعين به فى الانتفاع بما سخره الله له ، إذ أن الله سخر له مافى السموات ومافى الأرض ، وكثيرا مما يسبح بينهما يقول الله تعالى : **﴿وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار﴾**(١٢٩) .

ويقول : **﴿ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض﴾**(١٣٠) .

ويقول : **﴿الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**(١٣١) .

ولكى تكون له الحرية فى التفكير والسلوك لم يجبره على سلوك طريق معينة ، بل ترك له الخيار فى أن يسلك مايشاء فى الانتفاع بما أعطاه الله ، وكان من الطبيعى أن يعجز هذا

---

(١٢٨) البقرة ٣٠
(١٢٩) إبراهيم ٣٢ — ٣٣
(١٣٠) الحج ٦٥
(١٣١) الجاثية ١٢ —١٣

العقل عن الوصول إلى كنه الوجود ، وإلى معرفة مايحدث له بعد الموت ، بل قد ثبت عجزه عن التوصل إلى نظام ثابت للحياة يحفظه من الدمار ، ويساعده على بناء مجتمع سليم متماسك .

ومن هنا أرسل الله له رسلا ليبينوا له ماعجز عقله عن إدراكه ، وليوضحوا له ماخفى عليه من أحداث مابعد الموت ، فكان لكل قوم رسول .

يقول تعالى : ﴿**لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾(١٣٢) .

ويقول : ﴿**ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين**﴾(١٣٣) .

ويقول : ﴿**وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم إعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولاتبخسوا الناس أشياءهم**﴾(١٣٤) .

ويقول : ﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم**﴾(١٣٥) .

ويقول : ﴿**وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون**﴾(١٣٦) .

ويقول : ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين**﴾(١٣٧) .

ويلاحظ من هذه الآيات أن كل رسول كان يبعث إلى قومه ، فهل كانت الرسالات واحدة باعتبار أنها من مصدر واحد ، وهو الله ، أم أنها كانت متعددة باعتبار تعدد الأقوام واختلاف درجة حضارتهم ، وتنوع تقاليدهم وعاداتهم .

---

(١٣٢) الأعراف ٥٩
(١٣٣) الأعراف ٨٠
(١٣٤) الأعراف ٨٥
(١٣٥) الأعراف ٧٣
(١٣٦) الأعراف ٦٥
(١٣٧) الزخرف ٢٦ ، ٢٧

أدلة التطور

يرى بعض الباحثين أن الجنس البشرى مر بمراحل فى تطوره ، ثم يعقد مقارنة بينه وبين تطور نمو الطفل فيقول : إن الجنس البشرى بدأ كما يبدأ الطفل ، أقرب إلى البدائية والبساطة ، ثم نما الجنس البشرى ، وتمت أفكاره فوصل إلى مايمكن أن يسمى مرحلة صبا البشرية ، ثم نما مرة أخرى فوصل إلى مرحلة يمكن أن تعد مرحلة شباب البشر ويستنتجون من هذه النظرية أن الرسالات كانت مختلفة ، إذ أن كل رسالة كانت تناسب كل طور من هذه الأطوار .

سيطر هذا الرأى على جمهور العلماء قديما وحديثا حتى أصبح من المسلمات التى لاتنقض ، وكثيرا مايستشهد المحدثون على هذا الرأى بنص للامام محمد عبده فى رسالة التوحيد يقول فيه :

إن الأديان خاطبت الحس يوم كانت الإنسانية فى دور الطفولة لايعرف الإنسان فيها إلا مايقع تحت حسه ، ولا يتناول بذهنه من المعانى مالا يقرب من لمسه ، فلما سار ركب الإنسانية ، وجربت ، وكسبت ، وتخالفت ، واتفقت ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياما وأياما ، ونما بها الوجدان ، وبدت العواطف ، جاء دين يتحدث عن الزهادة ، وعن الصفاء ، وملكوت الله ، ولكن الإنسانية فى صراعها لم تستطع أن تعيش على الإيثار ، ولم يطل مقامها فى الصفاء ، فراحت تتعارك ، وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان المسالمة ، فجاء دين ينظم الشئون كلها ، ويرعى الحس والعاطفة ، ويدرس العقل والقلب ، وينظم للناس شئون دنياهم وآخرتهم ، وهذا هو الاسلام .

ويرى أصحاب نظرية التطور فى الرسالات السماوية ـــ وطبقا لما عليه الجنس البشرى من درجة التطور ـــ أن كل مرحلة لها سمات خاصة تتفق مع درجة حضارة من أرسلت إليهم الرسالة ، وعليه فقد قسموا الرسالات السماوية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وهو ماكان فى مرحلة الطفولة البشرية ، وتبدو ملامحه فى :

١ ـــ أن الدعوة كانت محدودة بقوم الرسول ، إذ أن كل رسول كان يبعث إلى قومه فقط .

٢ ـــ أن ماتضمنته من مبادىء كان فى حدود ضيقة ، دون تنظيمات وتفريعات فى جوانب الحياة المختلفة ، اللهم إلا ماكان من مرض اجتماعى تفشى فى المجتمع حتى أصبح

ظاهرة عامة ، فكانت الدعوة تنهى عنه وتحاربه .

٣ ـ أنه لم يكن للدعوة فى تلك المرحلة كتب واضحة ، إنما هى بضع نصائح ، وقد توجد بعض الواح أو صحف عامة .

٤ ـ أننا لم نعرف لأديان هذه المرحلة تواريخ ، إذ لم يحدد ـ مثلا ـ العصر الذى أرسل فيه نوح ، أو هود ، أو إبراهيم .. الخ .

القسم الثانى : وهو ماكان فى مرحلة «صبا البشرية» ، وكانت ملامحه أكثر تعقيدا وشمولا ، وتبدو مظاهره فيما يلى :

١ ـ دخلت الدعوة بعض التفاصيل والتشريعات ، ففى سفر التثنية : « لايقتل الآباء عن الأولاد ، ولايقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل »(١٣٨) .

« إذا كانت خصومة بين أناس ، وتقدموا إلى القضاء ، ليقضى القضاة بينهم فليبرروا البار وليحكموا على المذنب »(١٣٩) .

« إذا سكن إخوة معا ، ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبى ، أخو زوجها يتزوجها ، والبكر الذى يلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من إسرائيل »(١٤٠) .

٢ ـ أصبح للدعوة كتاب هو التوراة أو الإنجيل ، ولكن معانيهما فقط هى الموحى بها وصاغها البشر فى عبارات ، وقد مَسَّهمَا التحريف والضياع .

٣ ـ وجدت فى هذه المرحلة تواريخ ولكنها غير دقيقة .

القسم الثالث : وهو ماكان فى مرحلة « شباب الجنس البشرى » فله ملامح خاصة وضحها هؤلاء العلماء فيما يلى :

١ ـ اتضحت وحدانية الله وحطمت الأصنام ، وفتح بالإسلام عهد جديد لايقبل الشرك فى أى صورة من صوره ، فالاسلام « فكرة تامة » لاتسمح لعاوض من عوارض الشرك والمشابهة ، ولا تجعل لله مثيلا فى الحس ولا فى الضمير بل له المثل الأعلى ، وليس كمثله شىء .

٢ ـ أصبحت الدعوة عامة لكل البشرية ، وأصبح محمد رسولا للعالمين يقول تعالى :

---

(١٣٨) سفر التثنية ٢٤ : ١٦

(١٣٩) سفر التثنية ٢٥ : ١

(١٤٠) سفر التثنية ٢٥ : ٥ ـ ٦

﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾(*) .

٣ ـــ ختمت الرسالات بدعوة محمد ﷺ ، والدليل على ذلك واضح للغاية أيضا ، فقد مرت القرون تلو القرون بعد محمد ، ولم يأت من يدعى الرسالة منذ طلع على العالم محمد بن عبد الله .

٤ ـــ ديانة الإسلام شاملة لأمور الدين والدنيا ، صورت لنا الله تعالى فى سماه وصورت لنا جنته وناره ، وأبرزت معالم الخير والشر ، وراحت إلى أمور الدنيا تتحدى تفكير العالم بنظم رائعة فى الميراث والسياسة والاقتصاد والبيع والشراء والوصية والهبة والسلم والحرب ، وكل حاجات الإنسان .

هذا هو مجمل رأى القائلين بنظرية التطور فى الرسالات السماوية .

نقد ونقض

بينا فيما سبق أن بعض العلماء يرى أن الجنس البشرى مر فى تطوره بثلاث مراحل : الطفولة والصبا والشباب ، وأن الرسالات السماوية جاءت مختلفة فى ملامحها وظواهرها لاختلاف من تخاطبهم فى درجة التطور .

ونرى أن هذا الرأى غير سليم ، إذ أنه ظهر فى الأوساط الفكرية متأثرا بنظرية داروين ، التى لم تسلم من النقد والتجريح ـــ وإن كان له سند من آراء من سبقوا داروين فلا يعتبر دليلا على صحته أيضا ـــ ، ولذا لايجوز أن يسلم بها علماء المسلمين لأن رأيهم ـــ بناء عليها ـــ فى تطور الرسالات السماوية :

ـــ يتنافى مع الواقع .

ـــ ويحمل فى طياته نسبة العجز إلى الله سبحانه وتعالى .

ـــ كما أنه يوحى بأن رسالة محمد ﷺ ليست خاتم الرسالات .

أما أنه يتنافى مع الواقع ، فإن من ينظر إلى عملية التطور يرى أنها ذو شقين :

الأول : تطور فى أساليب الحياة المادية ، إذ انتقلت حياة الإنسان من بدائية لم يستعمل فيها إلا أدوات بسيطة كانت من الحجر فى بادىء الأمر ثم تطورت إلى مادة ثانية وثالثة .. الخ .

(*) سبأ ٢٨

كما انتقل معظم الناس من سكن الكهوف والمغارات إلى البيوت البسيطة ، ثم إلى العمارات الشاهقة فناطحات السحاب بكل مافيها من آلات تعمل بالطاقة على اختلاف مصادرها ، كذلك تطورت وسائل المواصلات حتى بلغت السفن الفضائية .

فإذا كان هذا مقصدهم بالتطور ، فإن الإسلام لن يكون هو خاتم الرسالات لأن البشرية قطعت فى هذا السبيل منذ ظهور الإسلام حتى الآن أضعافا مضاعفة لايمكن مقارنتها بما قطعته بين موسى وعيسى ، أو بينهما وبين محمد ﷺ الأمر الذى حتم ــ بناء على رأيهم ــ أن تأتى رسالة محمد ، لأن مرحلة موسى وعيسى عليهما السلام كانت قد انتهت .

الشق الثانى من التطور هو تطور عقلية الإنسان : ومن المشاهد أن التطور فى هذا الجانب ليس تطورا بالمعنى الذى يقصدونه من التطور ، ذلك أنه لافرق بين عقلية إنسان يعيش فى القرن العشرين ، وآخر عاش فيما قبل الميلاد ، إلا فى زيادة كمية المعلومات التى حصل عليها ابن القرن العشرين نتيجة التجارب البشرية .

أما التطور فى ذات العقل فلا دليل عليه ، بل هناك شواهد فى حياتنا المعاصرة تنفى هذا ، إذ لو قارنا بين أخوين شقيقين ، أحدهما أخذ قسطا كبيراً من الثقافة المحلية والعالمية ، حتى وصل إلى درجة مرموقة فى مجال الفكر العالمى ، والآخر ظل مقيما فى بيئته لم يذهب إلى مدرسة ، ولم يتعلم إلا حرفة الآباء والأجداد ، فالأول على رأى من يقول بنظرية التطور يمثل مرحلة « شباب الجنس البشرى » ، والثانى يمثل مرحلة « الصبا » وربما مرحلة « طفولة الجنس البشرى » وهذا لايقبله عقل ، فالإثنان فى درجة واحدة من القوة الكامنة فى العقل ــ وقد يكون الذى حرم من التعليم أكثر ذكاء من الذى تعلم ــ غاية الأمر أن الذى تعلم أتيحت له فرصه إظهار ماكمن فى عقله من قوة على الفهم والإدراك ، وكان ذلك نتيجة ماحصله من معلومات .

فلو اعتبر القائلون بنظرية التطور هذه الظاهرة تطورا ، للزم على هذا التسليم بأن درجة التطور فى القرن العشرين فاقت ــ بمراحل عديدة ــ درجة التطور فى القرن السابع الميلادى ، حين نزلت رسالة الإسلام على محمد ﷺ ، الأمر الذى يتطلب رسالة جديدة .

وعليه فليس هناك تطور فى العقل البشرى ، بل زيادة فى المعلومات ، ورسالة الاسلام جاءت لتخاطب العقل ، أيًّا كانت درجة معلوماته عن الحياة ومافيها ، وعن الكون

ومايحتوى عليه من أسرار .

اختلاف درجات التطور فى المجتمع

تسير عملية التطور فى الحياة الانسانية فى خط متعرج ، فبينما تكون بعض المجتمعات قد قطع شوطا كبيراً على طريق التقدم ، يكون هناك بعض آخر لازال فى أول الطريق ، وثالث فى منتصفه .. وهكذا ، لأن عوامل التقدم والرقى ليست متاحة للجميع بنسب متساوية ، وهذا مانشاهده اليوم فى المجتمع الدولى ، إذ اصطلح على تقسيمه إلى دول متقدمة ، وأخرى نامية ، بل إن درجة التقدم متفاوته ، داخل المعسكر المتقدم ، وخطوات النمو مختلفة فى دائرة مجموعة الدول النامية .

ومالنا نذهب بعيدا ، فنحن نرى داخل المجتمع الواحد — سواء كان فى جانب المتقدمين ، أو فى جانب المتخلفين حضاريا — تفاوتا كبيرا بين الأفراد والأسر ، فبينما يكون التمدن والتحضر واضحا لدى أسرة ما ، أو فرد فى أسرة ، يلاحظ بجوارها أسرة أخرى ، أو فردا داخل الأسرة المتحضرة ، لازال فى أول طريق التحضر حسب المفهوم المصطلح عليه فى مجال تحديد معنى التحضر .

فإذا طبقنا نظرية التطور التى يقول بها بعض العلماء على واقع الجنس البشرى ، فإننا نجد جزءا منها تطور حتى وصل إلى مرحلة « الشباب » وجزءا آخر وصل إلى مرحلة « الصبا » بينما نرى جزءا ثالثا لازال فى مرحلة « الطفولة » ، فهو يعيش عيشة بدائية ، أو مايقرب من البدائية .

وعليه فيختلف — بناء على رأيهم — وضع كل منهم بالنسبة للرسالة التى ينبغى عليهم الإيمان بها ، إذ يلزم من لازال فى مرحلة « الطفولة » بالرسالة التى تخاطب الحس وهى فى نظرهم رسالة موسى ، ويكلف من هم فى دور « الصبا » برسالة عيسى ، ولا يكلف برسالة محمد ﷺ إلا من بلغ مرحلة « الشباب » ، فيكون هذا أشبه بالفصول الدراسية فى المرحلة التعليمية ، حيث لايقوى من التلاميذ على فهم مواد السنة الأعلى إلا إذا درس مواد السنوات التى قبلها ، وتهيأ ذهنيا لدراسة وفهم مواد السنوات العليا .

وهذا تصور خاطىء ، إذ لو سلمنا معهم بهذا لقسم المجتمع الواحد إلى فئات بل لقسمت الأسرة الواحدة إلى مجموعات ، وهو أمر يثير سخرية أقل الناس ثقافة وإدراكا لمفهوم رسالة الإسلام ، لأن الرسالة التى نزلت على محمد خاطبت جميع الناس على

اختلاف مستوياتهم الثقافية ، وتفاوت درجاتهم الحضارية ، إذ يفهم الرجل العادى القرآن الكريم ويدرك ماهو مطلوب منه فى مجال العبادات والمعاملات ، كما يجد فيه أغزر الناس علما ، وأوسعهم ثقافة فى مجال العلوم الفلسفية مالم يجده فى دهاليز الفلسفة ، وأضابير الحكمة من معطيات علمية فى مجال الحياة ، وآفاق الكون ، فهو كتاب يجد فيه كل إنسان مبتغاه ويحصل منه على متعته الذهنية والروحية ، مهما كانت درجة هذا الإنسان فى سلم الحضارة البشرية .

والقول بأن الرسالات السماوية خاطبت كل مرحلة على قدر طاقتها العقلية يحمل فى طياته نسبة العجز إلى الله سبحانه وتعالى ، ذلك أننا فى عالمنا البشرى نصف الكاتب الذى يتمتع بأسلوب تفهمه قطاعات عريضة من الناس مختلفة فى الثقافة ، ومتفاوتة فى الرقى الحضارى ، بأنه بارع فى كتابته ، لأنه استطاع أن يضع أفكاره فى أسلوب لايعجز عن فهمه أنصاف المثقفين ، ولايمل من قراءته العلماء المتخصصون .

فإذا كان هذا شأن الإنسان المخلوق ، أفلا يستطيع الخالق أن يصيغ أوامره ونواهيه فى اسلوب يمكن أن يخاطب به كل الناس ، مهما اختلفت درجة حضارتهم ؟ ..

بلى ... ، لقد جاء القرآن الكريم بأسلوب يفهمه البدائى فى كهفه ومغارته كما يدرك أسراره العالم فى حلقاته العلمية ، ومدرجاته الدراسية ، فهو لجميع الناس : أحمرهم وأسودهم ، وأبيضهم ، سواء كانوا فى مجاهل الكرة الأرضية ، أو فى بروجها وناطحات سحابها .

تذبذب خط التطور

يرى القائلون بنظرية التطور فى الأديان السماوية ، أنها تركزت فى منطقة الشرق الأوسط نتيجة لتطور الإنسانية ، ويستدلون على ذلك بأن هذه المنطقة شهدت أرقى حضارات العالم منذ أقدم العصور ، وكانت حضاراتها أدبية وعلمية ، فهيأت شعوبها لتلقى الرسالات .

ويشير هذا التحليل إلى أن الشعوب تسير فى خط مستقيم فى بناء حضارتها ، وتقدمها على طريق الرقى والارتقاء ، ولكن الواقع يؤكد خلاف ذلك ، فالمعروف أن هناك شعوبا تقدمت فى حضارتها فترة ، ثم انتكست فعادت إلى الوراء خطوات ، قد تصل إلى حد أن ينكر بعض الباحثين على الأجيال التى عاشت عصور الانتكاسة ادعاءهم بأنهم أحفاد من

بنوا هذه الحضارة المسجلة فى آثارهم ومتاحفهم .

وهناك أكثر من دليل على ذلك ؟ إذ تكفى نظرة واحدة إلى واقع أحفاد الفراعنه ، والأشوريين ، والفينيقيين ، فحضارة هذه الشعوب لاينكرها أحد ، لأن آثارها لازالت تنطق بأنها كانت على درجة كبيرة من التقدم والرقى ، لكن أحفادهم المعاصرين لايملكون من وسائل الرقى والتقدم مايجعلهم فى مستوى أجدادهم فى الحضارة ، ولا حتى فى مستوى يقرب منهم .

أفلا يدل ذلك على أن ربط تطور الأديان السماوية بمسألة التقدم والرقى فى المجتمعات الإنسانية أمر لايستقيم فهمه ، لأنه يترتب عليه أن تتذبذب درجة الرسالات السماوية صعودا وهبوطا ، مع صعود ونزول درجة الحضارة فى الشعوب ..

واستدلال أصحاب نظرية التطور على صحة رأيهم بأن الدعوة فى عصر « طفولة » الجنس البشرى كانت محدودة ، ليس فيها تفاصيل ، وأنه لم يكتب لها كتب ، بل اقتصرت على بعض النصائح ، ولم يعرف لها تاريخ محدد ، وأنها كانت خاصة بقوم دون آخرين ، استدلال غير صحيح ، لأن مانزل على محمد ﷺ هو الذى نزل على نوح عليه السلام — وهو من رسل عصر « الطفولة البشرية » كما يقول هؤلاء العلماء — يقول تعالى : **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾**(١٤١) . ويقول : **﴿شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا﴾**(١٤٢) .

فالدعوة بأن الرسالة كانت محدودة دون تنظيمات وتفاصيل يدحضها ماجاء فى القرآن الكريم بيانا لما بلغه الرسل لأقوامهم ، بأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويفعلوا الخيرات ويعملوا الصالحات ، فلا يظلمون فى معاملاتهم مع الآخرين ، ولا يسرفوا فيما أباح الله الاستمتاع به ، كما ينبغى عليهم أن يوفوا الكيل والميزان ، وأن يحكموا بين الناس بالقسط ، وغير ذلك من الأوامر والنواهى والوصايا التى أنبأنا الله بها فى القرآن الكريم ليذكر الناس بما كان عليه الأولون مع رسلهم ، لعل هذه التذكرة تحملهم على الإيمان برسالة محمد ﷺ .

ولم يكن القصد تسجيل كل ماحدث من الرسل السابقين مع قومهم ، ولا الأخبار

---

(١٤١) النساء ١٦٣

(١٤٢) الشورى ١٣

بكل مابلغوه عن الله لهم ، لأنه ليس سجلا تاريخيا يخبرنا بما حدث من قبل ، بل هو هداية وعلاج للأمراض البشرية فلا يذكر فيه من أخبار السابقين إلا مايقتضى المقام ذكره . فالقول بإن الدعوات السابقة كانت محدودة لعبادة الله ، دون تنظيمات وتفاصيل لادليل عليه ، وبالتالى فلا يصلح دليلا على صحة نظرية تطور الرسالات السماوية .

أما مايدعيه هؤلاء العلماء من أنه لم يكن لدعوات عصر « طفولة » الجنس البشرى كتب واضحة ، وإنما هى بضع نصائح ، فلا يصلح دليلا لنظرية تطور الرسالات السماوية لاحتمال أن يكون عدم وجود كتب راجعا إلى فقدانها ، أو إلى عدم تطور الكتابة عند من حملوها . ولا يمكن أن يكون دليلا على أن عقلية الانسان فى تلك العصور كانت بدائية ، بدليل أننا نجد آثارا يرجع عهدها إلى آلاف السنين قبل الميلاد ، ومع ذلك تدل على ماكان يتمتع به الإنسان فى ذلك العصر من ذكاء وفطنة ، وقدرة فكرية على الإبداع فى مجالات قد يعجز ابن القرن العشرين عن فهمها والوقوف على أسرار تكوينها .

فرسالة الله لكل الناس ، سواء ارتقوا فى حضارتهم ، أم تخلفوا عن اللحاق بركب التقدم ، وسواء كانوا يعيشون عيشة بدائية ، أم كانوا ينعمون بما أبدعته عقولهم فى مجالات الحياة المختلفة ، فدين الله للناس جميعا .

إغفال التاريخ

ويحاول علماء الأديان الذين يرون أن الأديان السماوية تطورت بتطور العقل البشرى الاستدلال على صحة رأيهم ، فيقولون : إن عدم ذكر تاريخ محدد لظهور الرسالات فى فترة « طفولة » الجنس البشرى من العلامات البارزة التى تؤكد صحة هذه النظرية .

وهذا كلام فيه مغالطة ، ذلك أن الإسلام الذى جاء — على حسب قولهم — بعد أن اكتمل عقل البشرية ، ووصل إلى أعلى درجات التطور ، ليس فيه تحديد زمن معين لأى حادثة وردت فيه ، لأن الوحى السماوى لايرتبط بزمن معين ، ولا بعصر محدد ، وإنما جاء لهداية الناس ، وتقويم سلوكهم . ولا علاقة لهذه الهداية بالتاريخ ، فلا تحتاج إلى تسجيل الزمن لأنه ليس جزءا من العملية التربوية الإلهية ، فهو للإنسان فى أى زمن وفى أى مكان ، وعلى أى درجة من درجات التقدم والحضارة ، فالقول بأن عدم تحديد زمن الرسالات السماوية ، لأنه لاحاجة للإنسان فى مجال الدعوة إلى الله إلى معرفة زمن رسالة نوح ، أو عصر رسالة هود ، أو إبراهيم ، ولا تحتاج مسيرة الدعوة إلى الله إلى تحديد

سلسلة الرسالات زمنيا ، بمعنى أننا لسنا بحاجة إلى أن يحدد لنا إن كان هود قبل إبراهيم أم بعده ، أو كانت رسالة نوح فى عهد زيد من الملوك أم عمرو ، لأن هذه أمور لاتؤثر على عملية انتشار الدعوة إلى الله ، بل قد تكون من العوامل المعوقة لها لأن الآراء كثيرة ومتشعبة فى تحديد الزمن التاريخى للحوادث البشرية ، فلو حدد القرآن الكريم زمن الرسالات السماوية ، لتعرضت معطياته التاريخية لنقاش لاطائل من ورائه وخلافات لاتؤدى فى مجال الدعوة إلى فائدة ، ولهذا أهملها القرآن الكريم تجنبا للخلاف ، ولأنه لافائدة من ذكرها فى عملية الإقناع بدعوة الإسلام .

تحديد مكان الرسالة

وآخر دليل ذكره القائلون بنظرية تطور الرسالات السماوية فى تحديد معالم رسالات عصر « طفوله » الجنس البشرى ، هو أن الدعوة فى تلك العصور — وكذلك فى عصور « صبا » الجنس البشرى — كانت محدودة بقوم الرسول ، فلم تتعداهم إلى غيرهم وهذا أمر يحتاج إلى وقفة ، ذلك أن هذا التحديد لم يكن مبعثه تطور الانسان وإنما اقتضته ظروف حياة الجنس البشرى ، فالمواصلات كانت بدائية ، وبالتالى كانت الاتصالات بين أقطار الأرض صعبة ، ولهذا بعث كل نبى لقومه ، لأنه لايستطيع أن يبلغ الرسالة لأقطار الأرض المختلفة ، نظرا لصعوبة التنقل ، والدليل على ذلك أن الله أمر موسى وأخاه هارون أن يذهبا إلى فرعون ويبلغاه وحى الله ، يقول تعالى : **﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾**(١٤٣) . فكانت دعوة موسى لفرعون بعبادة الله دليل على أنه لم يبعث لقومه فقط ، لأن فرعون لم يكن من قومه . كذلك آمن السحرة بما جاء به موسى مع أنهم لم يكونوا من قومه يقول تعالى : **﴿فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون﴾**(١٤٤) .

كما كان يوسف عليه السلام يعلم من كان معه فى السجن شرع الله وهم لم يكونوا من قومه يقول تعالى حكاية عما كان يقوم به يوسف داخل السجن من الدعوة إلى الله : **﴿ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا**

---

(١٤٣) طه ٤٣ — ٤٤
(١٤٤) الشعراء ٤٦ — ٤٨

إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾[145] .

فدعوة موسى لفرعون ، ومحاولة يوسف هداية من معه فى السجن دليل على أن دين الله للناس جميعا ، فما كان حصر دعوة الرسل السابقين على أقوامهم إلا لظروف الاتصال التى كانت تحول بين النبى وبين دعوة غير قومه . ولهذا عندما كانت ترفع هذه الحواجز كان الرسول يدعو غير قومه .

وعليه فالاسلام لكل الناس ولأن سهولة المواصلات جعلت فى الإمكان دعوة القاصى والدانى إلى الدخول فيه .

التفصيلات والتفريعات

ويدعى القائلون بنظرية التطور فى الأديان السماوية ، أن معالم المرحلة الثانية وهى ماأطلقوا عليها : مرحلة « صبا البشرية » تبدو فى ظهور بعض التفصيلات والتفريعات فى التشريع ، واستدلوا على ذلك بما ورد فى الكتاب المقدس من مسائل تحدد أحكام بعض مايرتكبه الإنسان من أخطاء ، وتبين طريقة التقاضى عند التخاصم وغير ذلك من التفاصيل التى وردت فى الكتاب المقدس فى كثير من مجالات النشاط الإنسانى .

ويفهم من هذا أن مثل هذه التفاصيل والتفاريع لم تكن موجودة فى الرسالات التى سبقت رسالة موسى عليه السلام ، وهو ادعاء لايستند إلى دليل ، ذلك أن الباحث عندما يتوصل إلى حكم فيه تمييز بين طرفين ، فلابد أن تكون عناصر الطرفين موجودة أمامه ، بحيث تكون واضحة المعالم وضوحا يبرز الجزئيات التى ترتكز عليها المقارنة فى الوصول إلى النتيجة . فإذا تصورنا هذا المبدأ الأساسى فى عملية البحث فى موضوعات حديثنا فإن المنطق يقتضى أن يكون تحت أيدينا نماذج صحيحة للتشريعات التى نزلت على الرسل قبل موسى عليه السلام ، ويثبت لدينا بالدليل القاطع أنها وحى الله ، بمعنى أنه لم يدخله تحريف ولا تغيير ولا تبديل .

فهل تحت أيدينا نصوص التشريعات السماوية التى سبقت تشريع موسى عليه السلام ؟ وهل يمكن لأى باحث أن يصل بأى طريقة ــ غير ماورد فى القرآن الكريم ــ إلى تصور معالم هذه التشريعات ، ولو عن طريق الحفريات ، أو بأى وسيلة أخرى من وسائل تسجيل معالم الحركات الفكرية لتلك العصور ، بحيث يسلم العقل البشرى ــ طبقا

---

(١٤٥) يوسف ٣٩ ــ ٤٠

للقواعد المتعارف عليها فى مجال البحث العلمى ــ أنها من المعالم الأصلية للتشريع فى تلك الحقب ويتأكد أنه لم يصل إليها أيدى المولعين بتغيير آثار السابقين وتبديدها ؟

لايوجد أحد على وجه الأرض يستطيع أن يجيب بـ « نعم » لأنه ليس من الممكن عقلا ولا واقعا أن يعثر الإنسان على نصوص الوحى الذى نزل على الأنبياء الذى أرسلوا فى عصر مايطلق عليه أصحاب نظرية التطور فى الأديان السماوية : عصر « طفولة الجنس البشرى » .

وعليه فأحد عنصرى المقارنة مفقود ، فكيف يقال : إن المرحلة الثانية من مراحل الأديان السماوية ــ حسب رأيهم ــ تتميز بظهور بعض التفصيلات والتفريعات فى التشريع ؟ ومن أدراكم أن التشريع فيما تسمونه المرحلة الأولى كان مجملا ؟

وعلى أى شيء اعتمدتم فى ذلك ، ولم يوجد مرجع يمكن الرجوع إليه على الاطلاق ؟ لايوجد مرجع يمكن أن تستقى منه معلومات صحيحة عن الدين فى تلك الفترة سوى القرآن الكريم ، فماذا قال عنها ؟

لم يتحدث القرآن الكريم عن أديان تلك الفترة بالتفصيل ، لأنه ليس كتابا تسجل فيه حوادث السابقين ، وماجاء فيه عن أخبار السابقين ، إنما سيق للعظة والعبرة حسب ماتقضيه ظروف الحدث الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يذكر الناس به ، حتى لايضلوا كما ضل من سبقهم ، وجاء ذكر الاستشهاد فيه بأخبار الرسل السابقين على موسى عليه السلام فيما يتعلق بمسألة العقيدة دون غيرها ، لأن ذلك نزل فى مكة ، حيث كان نشاط الدعوة مركزا على إقناع الناس بوحدانية الله ، دون غيرها من التشريعات التى نزلت فيما بعد الهجرة إلى المدينة . فعدم ذكر تشريعات هؤلاء الرسل ، كان لسببين :
الأول : أن المقام كان يقتضى الاستشهاد بما يساعد على الاقناع بوحدانية الله ، ولاينفع فى هذا المقام إلا مايتعلق بالعقيدة دون التشريع .

الثانى : أن التشريع لايحتاج إلى سرد مايدعمه من تشريعات السابقين ، لأنه يأتى فى مرحلة تلى مرحلة الاقتناع ، ومادام الانسان قد اقتنع بالأساس الذى يقوم عليه الدين ، فمن الضرورى أن يتقبل كل مايشرعه له من اقتنع بربوبيته ، وهو الله سبحانه وتعالى .

وهذه قاعدة توجد فى جميع المجتمعات البشرية على اختلاف العصور والأقطار التزمها القرآن الكريم ، لأنه للناس جميعا .

ظهور الكتب المقدسة

ويدعى اصحاب نظرية التطور فى الأديان السماوية أن المرحلة الثانية وهى ماأطلقوا عليها مرحلة « صبا البشرية » تتميز عن سابقتها بنزول كتب على رسلها مثل : التوراة والانجيل ، زاعمين أن معانيهما فقط هى الموحى بها ، تلك المعانى التى صاغها البشر فى تراكيب وعبارات لغوية .

وهذا الزعم ينطوى على عدة أخطاء :

أولاها : الجزم بأن الكتب المقدسة لم تظهر إلا فى هذه المرحلة ، أما ماسبقها ، فلم يخرج الوحى فيها عن كونه بضع نصائح متناثرة لم يجمعها كتاب ، أو دونت فى بعض الأحوال فى الواح أو صحف عامة .

وهذه دعوى تحتاج إلى دليل ، ولا يوجد من بين المصادر التى يعتمد عليها الباحثون فى هذا المجال ماينفى وجود كتب سماوية فى المرحلة السابقة ، كما لم ينص القرآن الكريم على عدم وجود مثل هذه الكتب ، أو على عدم إنزال كتب على الرسل الذين اصطفاهم الله فى هذه المرحلة . فالاعتماد على أن القرآن الكريم لم يصرح بوجود كتب لهؤلاء الرسل كدليل للجزم بعدم وجودها غير مسلم علميا ، إذ يجوز أن يكون عدم الاشارة إلى ذلك فى القرآن الكريم راجعا :

ـ إلى أن مقام سرد الأحداث لايتطلب ذلك .

ـ أو إلى أن اندثارها جعل الحديث عنها لافائدة فيه فى مجال محاورة الرسل لأقوامهم فى مجال إقناعهم بوحدانية الله .

ثانيها :

الادعاء بأن ماأنزل من التوراة والانجيل هو معناهما فقط ، وتولى الأتباع صياغة المعانى ادعاء خطير ، ذلك أنه قد يترتب عليه عدم صحة تحريفهما ، لأن التحريف لايتصور إلا لوحى مصاغ بأسلوب إلهى ، أما تغيير مايصيغه البشر فلا يسمى تحريفا بالمعنى المفهوم الذى أشار إليه القرآن الكريم فى أكثر من آية ، ومنها قوله تعالى : ﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون**﴾(١٤٦) . فالتعبير بـ « **كلام الله** » يدل على أن ماحرفوه كان كلاما مصاغا فى

---

(١٤٦) البقرة ٧٥

أسلوب لغوى وليس معنى ، إذ لو كان التحريف واقعا على المعنى لما عبر بـ « **كلام الله** » ، بل بأحكام الله ، لأن الذى يغير فى هذه الحالة لايغير كلاما ، وإنما مفهوما أراده الله سبحانه وتعالى .

ثالثها :

من المعروف أن كلا من التوراة والانجيل قد كتبا بعد نزول الوحى على كل من موسى وعيسى عليهما السلام بزمن بعيد ، فهل تناقل الناس معانى الوحى من وقت نزوله حتى كتابته بمعناه ، أى بدون أسلوب يدل على مافيه من أحكام ؟ وكيف بلغه الرسل ؟ بألفاظ أم بغير ألفاظ ؟ إن كان بألفاظ فقد أصبحت صياغة مقدسة لايجوز تحريفها ، وإن كان بغير ألفاظ فهو مستحيل ، لأن المعانى والأفكار لاتخرج عن دائرة القوى المفكرة إلا فى ثوب ألفاظ ، بل إن تصورها فى الذهن مرتبط بالألفاظ التى تدل عليها ، فالقول بان الوحى نزل بالمعنى ، وصاغه البشر كلاما لايقبل فلو قيل : إنه بالمعنى وعبر عنه النبى الموحى إليه بلفظه لكان ذلك إلهاما ، ولم يقل أحد أن الشرائع نزلت كلها على الرسل بطريق الإلهام .

ولكن كيف تفسر ظاهرة عدم وجود كتب مقدسة قبل موسى عليه السلام ؟ إنها ظاهرة طبيعية ، ذلك أنه ليس لدينا أثر يبين لنا صورة واضحة لحياة الإنسان قبل ستة آلاف سنة ، وماوجد من آثار تكشف لنا عن بعض جوانب الحياة الإنسانية فيما قبل زمن تدوين نص التوراة الموجودة بين أيدينا ، فليس فيه كتاب بالمعنى المفهوم لنا من هذه الكلمة ، وإنما هى بعض نقوش تعبر عن صور غير متكاملة لبعض أنشطة الحياة المختلفة ، حتى الجانب الدينى ، فإننا نجد أن مايعبر عنه هو أقوال متفرقة هنا وهناك وجدت منقوشة على جدران ماتركوه من آثار ، وما خلفوه من أوان أعدت للاستعمال فعدم وجود كتب الرسل السابقين نتيجة لهذه الظاهرة العامة ، وترك القرآن الكريم الحديث عنها أمر طبيعى ، لأنه لم يتحدث عن السابقين إلا بضرب الأمثال فى معرض الحوار والمناقشة حول وحدانية الله . ولا يتطلب هذا المقام حديثا عن كتب لاوجود لها ، ولا يعرف المجادلون عنها شيئا .

إن من الخطأ العلمى أن يعتمد القائلون بنظرية التطور فى الأديان السماوية على التوراة الموجودة بين أيدينا فى الاستدلال على صحة رأيهم ، ذلك أن هذا النص لايمثل الوحى

الذى نزل على موسى عليه السلام حتى يمكن القول ـــ كما يدعون ـــ بأن من مظاهر هذه المرحلة ـــ وهى مايسمونها مرحلة : « صبا البشرية » ـــ أنها ذكرت تواريخ ، ولكنها غير دقيقة ، لأن هذا القول ينسب إلى الوحى عدم الدقة فهم يتحدثون عن تطور الأديان السماوية ، التى نزل بها الوحى من السماء ، فى حين أن مابين أيدينا لايعبر عن وحى ، وإنما هو حصيلة الثقافة الدينية للشعب اليهودى صاغها كتاب العهد القديم بأسلوبهم. ومما لاشك فيه أن فكرهم لايعبر تعبيرا دقيقا عن مضمون الوحى الذى نزل على موسى عليه السلام ، بل اختلط به كثير من الثقافات الأخرى ، التى احتك بها الشعب اليهودى فى مسيرته التاريخية .

ويضاف إلى ذلك أنه لم يكن هناك نص واحد فى بداية مرحلة تدوين الثقافة الدينية للشعب اليهودى ، بل وجد العديد من النصوص ، ففى القرن الثالث قبل الميلاد تقريبا كان هناك على الأقل ثلاث مدونات للنص العبرى للتوراة ، ثم ظهر اتجاه فى القرن الأول قبل الميلاد إلى تدوين نص واحد ، ولكن تدوين نص الكتاب المقدس لم يتم إلا فى القرن الأول بعد الميلاد ، وهو ليس بين أيدينا اليوم ، إذ أن أقدم نص عبرى للتوراة يرجع عهده إلى القرن التاسع بعد الميلاد .

فإذا كان هذا هو وضع الكتاب المقدس ، فكيف يعتمد عليه فى الاستدلال على نظرية التطور فى الأديان السماوية ؟

إن نظرية التطور تنسب إلى الوحى أشياء ليس من طبيعته التحدث عنها ، ألا وهى تحديد الزمن ، ذلك أن الرسالات السماوية جاءت لهداية الإنسان وعلاجه من الأمراض الاجتماعية ، حيث تقوم المجتمعات الانسانية على أسس سليمة تحفظها من التفكك والانهيار ولما كانت خصائص الإنسان العامة ، واحتياجاته الأصلية لاتختلف من زمن لآخر ، ولا تتفاوت بتفاوت الأقطار والأمصار كان دين الله واحدا من يوم بدء خلق الانسان حتى عصرنا الحالى وإلى أن تقوم الساعة ، ولذا فلا مجال لذكر التاريخ فى مرحلة وعدم ذكره فى أخرى كما يدعى القائلون بنظرية التطور فى الأديان السماوية ، لأن الإنسان واحد فى كل المراحل ومايعتريه من ضلال فى العقيدة ، وأمراض فى السلوك على اختلاف الأجيال والعصور تكاد تكون متطابقة : كفر بالله ، وعبادة الأصنام ، واستغلال القوى للضعيف ، وإشاعة الفاحشة فى المجتمع ، وتسلط المادية على حياة الناس .. و..و الخ .

ولهذا فحين قص القرآن الكريم على محمد ﷺ أخبار السابقين لم يحدد زمن

وجودهم ، ولم يذكر تاريخ الأحداث التى يقصها ، لأنه ليس من العناصر الرئيسية المستهدفة من سرد هذه الأحداث ، ولأن طبيعة الحدث عامة ، فمن الممكن أن يحدث فى أى زمن وفى أى مكان ، فتحديدها بزمن معين يفقدها صفة العمومية ويحصرها فى دائرة المحلية ، وهذا يتنافى مع عموم الرسالة .

فما جاء فى الكتاب المقدس من تحديد زمن بعض الأحداث لايعبر عن وحى ، وإنما هو رأى الكاتب ، ومادام الكاتب بشرا فهو لا محالة سوف يخطىء فى تحديد التاريخ خاصة وأن وسائل البحث فى مجال التاريخ لم تكن قد تقدمت فى ذلك العصر .

وعليه فخطأ المعطيات التاريخية فى الكتاب المقدس لايدل إلا على ضعف الإنسان فى مجال التصورات التاريخية فى ذلك العصر . فلا يصلح على الاطلاق أن يتخذ دليلا على التطور فى الأديان السماوية ، لأن تحديد التاريخ ليس جزءا من عملية هداية الإنسان إلى طريق الحق ، وعلاجه من الأمراض الاجتماعية .

ولهذا كان وحى الله عاما لكل الناس ، لم يحدد بزمن دون آخر ، ولم يخصص لشعب معين ، أو يقصر على إقليم دون غيره من أقاليم الأرض ، يقول تعالى : **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾**(١٤٧) .

وضوح الوحدانية

ويرى أصحاب نظرية التطور فى الأديان السماوية أن المرحلة الثالثة ــ وهى ماأطلقوا عليها مرحلة : « شباب الجنس البشرى » ــ تتميز بوضوح وحدانية الله وتحطيم الأصنام .

وهذا قول ينطوى على اتهام للرسل السابقين بأنهم لم يوضحوا قضية الوحدانية ولم يحطموا الأصنام وفى ذلك أيضا إنكار ــ أو إغفال ــ لما جاء فى القرآن الكريم ، فقد جاء فيه الحديث عن جهود الأنبياء السابقين فى بيان وحدانية الله بصورة واضحة ، ليس فيها غموض ولا تورية ، فلو استعرضنا ماقال الرسل السابقون لأقوامهم لظهر لنا وضوح دعوتهم إلى وحدانية الله وترك عبادة الأصنام ، فنوح قال لقومه : **﴿إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون﴾**(١٤٨) . وقال هود : **﴿ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله**

---

(١٤٧) سبأ ٢٨

(١٤٨) الشعراء ١٠٧ ــ ١٠٨ .

غيره﴾[١٤٩] . وكذلك قال صالح .

كما حطم إبراهيم الأصنام بيده ، يقول تعالى : **﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين * قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين * قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين * وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون﴾**[١٥٠] .

ألا يدل هذا على وضوح الدعوة إلى وحدانية الله ، ونبذ عبادة الأصنام ؟

ثم ألا يعد مافعله إبراهيم عليه السلام تحطيما للأصنام ؟

فالقول بان مايميز المرحلة الثالثة — طبقا لما يرونه من تقسيم تاريخ الأديان السماوية إلى مراحل — هو وضوح وحدانية الله وتحطيم الأصنام لايستند إلى دليل ، بل إن آيات القرآن الكريم تثبت خلافه ، ألا وهو أن هذه كانت السمات العامة لكل الأديان من آدم إلى محمد ﷺ : وضوح الدعوة إلى وحدانية الله ، ومحاربة كل صور الشرك وعبادة الأوثان والأصنام ، يقول تعالى : **﴿شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب﴾**[١٥١] ويقول : **﴿مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك﴾**[١٥٢] .

ويبدو أن السبب فى وقوع العلماء فى هذا الخطأ هو أنهم قارنوا بين القرآن الكريم فى وضوح الوحدانية فيه ، وحربه على عبادة الأوثان ، وبين مافى نص الكتاب المقدس الموجود بين أيدينا من خلط فى مفهوم تصور وحدانية الله ، ومهادنة لبعض صور الشرك أو قبول مايوحى به . وهذه المقارنه قائمة على أساس غير سليم ، إذ لاتجوز المقارنة بين وحى الله ، وماكتبه البشر ، الذى خلط فيه بين ماهو صالح وآخر سيىء ويتنافى مع مانزل على الرسل السابقين .

---

(١٤٩) الأعراف ٦٥

(١٥٠) الأنبياء ٥١ — ٥٨

(١٥١) الشورى ١٣

(١٥٢) فصلت ٤٣

ولهذا ينبغى علينا طرح فكرة تطور الأديان السماوية بعيدا ، وعدم قبول أى صورة من صورها ، فدين الله واحد ، ورسالة الأنبياء واحدة ، وخصائص دعواتهم متطابقة :

— ففى دائرة الألوهية دعوا كلهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأوثان والأصنام .

— وفى دائرة الرسل اعترفوا جميعا بأنهم بشر ، وأن وظيفتهم لم تتعد البلاغ للناس .

— كما بينوا للناس أن الله هو المسيطر على كل مافى الوجود ، فهو واهب الحياة وهو الذى يكفل الرزق لعباده ، وسوف يحاسب كل إنسان على مافعله فى هذه الحياة الدنيا .

— كما وضح من سيرتهم أن موقف الأعداء منهم كان واحدا ، فقد كانوا مصرين على عبادة آلهتهم من دون الله ، وأنكروا البعث ، واستخفوا بوعد الله .

هذه هى الملامح الرئيسية لكل الرسالات السابقة كما ذكرها القرآن الكريم فليس فيها مايشير إلى تطور ، أو اختلاف واحدة عن الأخرى ، لأن الكل من عند الله وهو واحد ، كما أنهم أرسلوا جميعا للانسان باعتباره بشرا فجميع الأجناس تشترك فى الخصائص البشرية ، ولذا يجب عليهم الإيمان برسالة الإسلام ، لأنها لهم جميعا من حيث هم بشر ، جاءتهم من الله ، وهو خالق الناس جميعا ﴿ **ياأيها الناس قد جاء الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم** ﴾(١٥٣) .

الأديان السماوية

يجرى على ألسنة المسلمين أن الأديان الثلاثة : « اليهودية والنصرانية والاسلام » . أديان سماوية ، ويتدارس طلاب العلم فى مدرجاتهم الدراسية القضايا الدينية على أساس صحة هذه القضية ، بل ويتناول الباحثون والمتخصصون فى المجال الدينى المسائل المشتركة بين الأديان الثلاثة بحثا ودراسة واستنتاجا من منطلق الاعتقاد بأن الله أنزل اليهودية على موسى وأنزل النصرانية على عيسى عليهما السلام ..

شاع هذا الرأى بين المسلمين واعتنقه جمهرة العلماء وعلى الرغم من أن كثيرا من آيات القرآن الكريم تؤكد أن الاسلام فقط هو الدين السماوى ، يقول الله تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾(١٥٤) . أى أن الدين المنزل من السماء هو الإسلام لا غيره .

---

(١٥٣) النساء ١٧٠
(١٥٤) آل عمران ١٩

ويقول : ﴿ **ماكان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلماً** ﴾[١٥٥] . أى أنه لم يكن معتنقا دين اليهودية ، ولا مؤمنا بدين النصرانية . ولكنه كان على دين الإسلام .

ويحكى القرآن الكريم دعاء يوسف ربه فيقول : ﴿ **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين** ﴾[١٥٦] .

وقد وردت آيات كثيرة على لسان رسل وصالحين عاشوا قبل محمد ﷺ يدعون فيها ربهم أن ينعم عليهم بالاسلام ، وأن يوفقهم إلى أن يموتوا مسلمين . ولم ترد آية واحدة تذكر أن أحدا من السابقين على الإسلام سأل ربه أن ينعم عليه باعتناق اليهودية أو النصرانية ، ذلك أن الله لم ينزل دينا سماه بهذا الاسم ، فلم يذكر فى كتابه الكريم أنه أنزل اليهودية على موسى أو أنزل النصرانية على عيسى عليهما السلام لأن اليهودية نسبة إلى يهوذا ، والنصرانية نسبة إلى قرية الناصرة التى انتسب إليها أتباع عيسى عليه السلام .

إذاً ، فلا علاقة للتسمية بما أنزل الله على هذين النبيين ، فما أنزل على موسى هو الإسلام ، وما أنزل على عيسى هو الإسلام ، أما ما أطلق عليه اسم : « اليهودية » فهو عبارة عن تسمية لما عند اليهود من المبادىء والتشريعات الدينية التى جمعوها من تراثهم ، أى أنه وحى اختلط بما أخذوه من روافد ثقافية أخرى ، ولا شك أن هذا الجديد يحمل من المعالم ماجعله يختلف كلية عما نزل على موسى عليه السلام ، وهو الذى سمى بـ « اليهودية » .

فاليهودية هى من صنع اليهود ، وكذلك النصرانية ، أما مانزل على موسى فهو الإسلام وهو نفسه الذى نزل على عيسى ، لأن الله يقول : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ أى إن الدين الذى نزل من عند الله هو الإسلام ، سواء نزل على موسى أو على عيسى عليهما السلام أو على غيرهما من الأنبياء السابقين ، ولكن عندما اختلط بالثقافات البشرية ، وضاعت معالم الاسلام ، أخذ اسما آخر ، مقتبسا من الملابسات التى مرت بالأتباع ، سواء تعلقت بشخص أم بمكان .

---

(١٥٥) آل عمران ٦٧

(١٥٦) يوسف ١٠١

والدليل على أن دين الله الذى نزل على الأنبياء جميعا واحد ، وهو الإسلام أن كلمة « الدين » لم تأت فى القرآن الكريم بصيغة الجمع « أديان » على الاطلاق لأن دين الله واحد ، وإن تعددت رسالاته ورسله : **﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز * لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد * مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك﴾**(١٥٧) . ولم يأت تعدد الرسالات إلا لتصحيح ماحرف ، لأن المجتمعات البشرية دأبت على تغيير الرسالات بعد رسلها فكلما طال الزمن بعد الرسل تمادوا فى غيهم وضلالهم فحرفوا وبدلوا ، فإذا ضاعت معالم الرسالة ، أرسل الله رسولا آخر ليبلغهم الرسالة من جديد حتى جاء خاتم الرسل محمد ﷺ ، فحفظت رسالته من التحريف والتبديل ، يقول تعالى : **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**(١٥٨) . لأن الله قد كتب فى الأزل أنه سيكون خاتم الرسل ، فحفظ القرآن الكريم مما أصاب مانزل على الرسل السابقين ، ولذا لم يعد الأمر فى حاجة إلى إرسال رسول آخر .

وجملة القول إن دين الله واحد ، هو الإسلام ، وهو ماأنزله الله على جميع الأنبياء . والدليل على ذلك قوله تعالى : **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾** أما مايعرف باليهودية والنصرانية فهى تسمية لما فى أيدى اليهودية — وكذلك مافى أيدى النصرانية — من مبادىء وتشريعات دينية لاصلة لها بالإسلام إلا باعتبارها منسوبة — فى أصلها — إلى من أنزل عليه الإسلام من قبل ، وهما موسى وعيسى عليهما السلام ، أو باعتبار أن فيهما بعضا مما أنزل الله عليهما ، وإن كان هذا البعض قد اختلط بما أضافه أتباعهما إلى وحى الله .

ولهذا أطلق القرآن عليهما « أهل كتاب » نسبة إلى الكتاب الذى فى أيديهما باعتبار أن فيه شيئا منسوبا إلى نبيين من أنبياء الله ، ولم يطلق عليهما اسما يدل على أنهما أتباع دين نزل من الله على هذين النبيين ، لأن مايتسميان به وهو « اليهودية » أو « النصرانية » ليس دينا من عند الله ، وإنما هو علم على مجموع الثقافات الدينية التى اتخذوها دينا لهم .

(١٥٧) فصلت ٤١ — ٤٣
(١٥٨) الحجر ٩

الفصل السادس

حرية العقيدة فى الإسلام

لا إكراه ولا عصبية

احتلت قضية الصراع الدينى مكان الصدارة فى تاريخ صراع الجنس البشرى ، إذ لم يخل عصر من العصور من وجود خصومة بين الشعوب على أساس دينى ، تصل فى كثير من الأحيان إلى حد الصراع المسلح بينهما ، كذلك لا يلتقى اثنان من أتباع دينين مختلفين إلا وتقوم بينهما مناقشات ومحاورات حول مبادىء وتعاليم عقيدتيهما ، تارة تكون بألفاظ مهذبة ، وأخرى تصل إلى حد التراشق بالألفاظ الخارجة عن موضوع البحث ، أو بأسلوب يتسم بالعنف والبعد عن الطرق الموصلة إلى الحقيقة .

كان هذا هو طابع الصراع الدينى والخصومة المذهبية منذ القدم ، شب عليها الجنس البشرى ، جيلا بعد آخر ، فأورثه ذلك أحقادا وخصومات بين الشعوب ، كما أنه خلف من الضحايا والمآسى ماتقشعر منه الأبدان ، إذ لم تروع البشرية على امتداد التاريخ الانسانى بمثل ماروعت به مما حل بها من آثار التعصب الدينى الذى مزق الجنس البشرى إلى معسكرات متحاربة ، يقتل بعضها بعضا باسم الدين ، ويستحل بعضها دماء آخرين فى سبيل الدعوة إلى العقيدة ، بل إن أبناء الدين الواحد تفرقوا شيعاً وأحزابا يقتل بعضهم بعضا فى سبيل فرض رأى على آخر .

ولما جاءت رسالة الإسلام ختاماً لرسالات الدين أقرت حرية العقيدة ، بل إن الإسلام فرضها على المؤمنين به تكليفاً ، وألزمهم بها تجاه غيرهم دينا وعقيدة وسلوكاً ، فقد بدأ أولا بتعليم الرسول ﷺ هذا المبدأ الجديد على الإنسانية ، حتى لايدفعه حرصه على الإيمان إلى أن يأخذ الناس قسراً فيكرههم على اعتناق الإسلام ، وهو مايأباه الاسلام نصا وروحا ، لأنه قرر أن العقيدة لاتكون عقيدة إلا إذا صدرت عن اعتقاد ، والإيمان لايكون

إيمانا إلا إذا كان منبعه القلب والضمير ، فمن ينطق بكلمة الإسلام بالإكراه ، دون أن يعتقد ذلك عن اقتناع لايكون هذا إسلاما ، وإنما يعده الإسلام نفاقا ، والنفاق فى الإسلام شر من الكفر الصريح .

كذلك إذا لم يكن الإيمان عن رضاً خالص وطمأنينة صادقة يكون نفاقا أيضا ، فقد بين القرآن الكريم لمحمد ﷺ أن المسلم لايكون إسلامه صحيحا إلا إذا انتفى عنصر الإكراه فى اعتناقه هذا الدين ، ولهذا لم يتدخل الله فى حمل الناس على الإسلام ، فينبغى عليك أيضا ألا تكره أحدا على الدخول فى الإسلام ، يقول تعالى : **﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾**(١٥٩) . ويقول : **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾**(١٦٠) .

فإقرار الحرية فى الاعتقاد يشعر الناس بأنهم مسئولون مسئولية كاملة فى اختيارهم عقيدتهم ، إذ لايتدخل أحد فى حملهم بالإكراه على اعتناق هذه العقيدة أو تلك ، ولذلك فتبعة الاختيار ملقاة على عاتقهم هم ، إذ ليس للرسل إلا أن يبلغوهم بما أنزل الله وهم أحرار بعد أن يسمعوا وحى الله فيما يختارون ، فمهمة الرسول البلاغ فقط يقول تعالى : **﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾**(١٦١) . ويقول : **﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء ، كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾**(١٦٢) . ويقول : **﴿فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾**(١٦٣) .

ويتكرر بيان قصر مهمة الرسول ﷺ على التبليغ فى القرآن الكريم فى أكثر من عشر مرات مؤكدا أن موقفه من المعاندين والمكذبين لاينبغى أن يتجاوز مهمة البلاغ ، يقول تعالى : **﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ﴾**(١٦٤) . وذلك لتأصيل مبدأ حرية الاعتقاد فى الإسلام .

ويعرض القرآن الكريم لما قد يلاقيه الرسول ﷺ من صعاب ومشقة إزاء الالتزام بهذا

---

(١٥٩) يونس ٩٩
(١٦٠) البقرة ٢٥٦
(١٦١) آل عمران ٢٠
(١٦٢) النحل ٣٥
(١٦٣) المائدة ٩٢
(١٦٤) الشورى ٤٨

المبدأ ، إذ قد يصيبه الحزن عليه الصلاة والسلام على حال قومه الذين يأبون الدخول فى الاسلام ، ويشق على نفسه ألا يحملهم على اتباع مافيه الخير لهم ، لأنه حريص على منفعتهم فيقول له : ﴿**ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون**﴾[١٦٥] . ويقول : ﴿**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين**﴾[١٦٦] . ويقول : ﴿**ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين**﴾[١٦٧] . ويقول : ﴿**قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين * وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين**﴾[١٦٨] .

ويقول : ﴿**أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين * وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين * واصبر وماصبرك إلا بالله ولاتحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون**﴾[١٦٩] .

فالإسلام لايكره أحدا على الدخول فيه ، بل يعرض عليه مبادئه بأسلوب مهذب فإن قبل فبها ونعمت ، وإن لم يقبل تركه وشأنه ، ويكفى المسلم أن يبلغ أمر ربه ، يقول تعالى : ﴿**قل ياأيها الكافرون * لا أعبد ماتعبدون * ولا أنتم عابدون ماأعبد * ولا أنا عابد ماعبدتم ، ولا أنتم عابدون ماأعبد * لكم دينكم ولى دين**﴾[١٧٠] .

وبهذا أقر الإسلام مبدأ الحرية فى العقيدة ، فوضع بذلك مبدأ الحوار الفكرى بدلا من الصراع المسلح أو الإقناع والاقتناع العقلى بدلا من المهاترات بالألفاظ الجارحة ، والأساليب الممجوجة وهذا هو ماينبغى أن يكون عليه أسلوب الدعوة إلى الله : موعظة حسنة ، وجدال بالتى هى أحسن .

---

(١٦٥) النحل ١٢٧
(١٦٦) الحجر ٩٤
(١٦٧) الحجر ٩٧ — ٩٨
(١٦٨) الأنعام ٣٣ — ٣٥
(١٦٩) النحل ١٢٥ — ١٢٧
(١٧٠) الكافرون ١ — ٦

الاعتراف بالرسالات السابقة

لم يكتف الإسلام فى مجال حرية العقيدة بالدعوة إلى أن اعتناق الإسلام ينبغى أن يقوم على أساس الاقتناع به ، وليس نتيجة خوف أو إكراه ، بل تعدى هذا المفهوم فأوجب على المسلم أن يؤمن بالرسل السابقين كلهم ، وأن يقر بما جاءوا به من رسالات السماء ، لأنهم تلقوا هذا وحيا من الله سبحانه وتعالى ، يقول تعالى : **﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾**(١٧١) .

فحرية الاعتقاد ، والاعتراف بكل الرسالات السابقة ، والتصديق بما جاء على لسانهم من وحى ، كل هذا مبادىء أساسية فى الإسلام ، ويضاف إليها أنه طلب من المسلمين أن يجادلوا أهل الكتاب بأسلوب حسن ، لاعنف فيه ولا غلظة ، ولاسباب فيه ولا تجريح يقول تعالى : **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾**(١٧٢) . بل إنه بين لهم أن منهج الإسلام يقوم على أساس جمع البشرية تحت لواء واحد فهو ينشد الوحدة الإنسانية الجامعة يقول تعالى : **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾**(١٧٣) . ويقول : **﴿يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾**(١٧٤) .

فإن لم تسعف الإنسان طاقاته لفهم هذه المبادىء فأبى واستكبر ، فينبغى على المسلم ألا يتأثر بهذا الاعراض ، بل عليه المضى قدما فى اتباع ماأمره الله به من إيمان بالله ، وتصديق بما أرسل من الرسل يقول تعالى : **﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وماأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وماأوتى موسى وعيسى وماأوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾**(١٧٥) . ويقول : **﴿إن الذين يكفرون بالله**

---

(١٧١) ال عمران ٣ ــ ٤

(١٧٢) العنكبوت ٤٦

(١٧٣) آل عمران ٦٤

(١٧٤) آل عمران ٧٠ ــ ٧١

(١٧٥) البقرة ١٣٦

ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا * والذين آمنوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما﴾(١٧٦) . ويقول : **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾**(١٧٧) .

رفع الوصاية الكهنونية

كانت حرية العقيدة وسيلة حررت الإنسان من سلطة الكهنوت التى تسلطت على العقيدة الدينية بالقهر والتحكم ادعاء الوساطة بين الناس وبين الله ، وبما أضفته على نفسها من قدرة على غفران الذنوب ، وإصدار فرمانات التكفير والحرمان ، فإقرار الإسلام أن النبى ﷺ لايملك من الأمر إلا البلاغ فقط، أكد للناس أنهم مسئولون أمام الله فقط وليس لأحد عليهم سلطان ، مهما بلغ مركزه الدينى ، فليس هناك وساطة بين العبد وربه ، يقول تعالى : **﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان * فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾**(١٧٨) . ويقول : **﴿وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات﴾**(١٧٩) . ويقول : **﴿وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾**(١٨٠) .

فليس لأحد أن يوزع بطاقات دخول الجنة والنار أو أن يحدد لمخلوق مثله مكانه فى الدار الآخرة ، لأن ذلك من عمل الله وحده ، فهو الذى يصطفى الرسل من الناس ليبلغوا رسالته فقط ، وليس لهم حق إلهى فى مصائر الناس ، فالله هو صاحب هذا الحق ، لأنه هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اتبع طريق الهدى ، يقول تعالى : **﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن**

---

(١٧٦) النساء ١٥٠ — ١٥٢
(١٧٧) البقرة ٢٨٥
(١٧٨) البقرة ١٨٦
(١٧٩) الشورى ٢٥
(١٨٠) طه ٨٢

ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾[181] .

رفع الاسلام فى مجال العقيدة عن كاهل الإنسان إصْر تلك الكهونية ، تقريرا لحرية عقيدته وضميره وعقله فقال تعالى : ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾[182] . ويقول : ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾[183] .

وإمعانا فى تأكيد مبدأ حرية الإنسان فى العقيدة ، وتحريره من أى سلطة دنيوية أيًّا كان وضعها ، ورفضه وصاية أى جهة على الإنسان فى مجال العقيدة بيَّن الإسلام أن الله لايقبل إلا مايقدمه العبد بنفسه ، فلا تنفعه وساطة غيره ، حتى ولو كان نبيا مصطفى ، أو خليلا مرسلا ، إذ رفض استغفار الرسول المصطفى للمشركين والمنافقين ، كما رفض استغفار إبراهيم لأبيه ، فقال تعالى : ﴿استغفر لهم أو لاتستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لايهدى القوم الفاسقين﴾[184] . ويقول : ﴿ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * وماكان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم﴾[185] .

بل إن حق الشفاعة الذى أعطاه الله لبعض من رضى عنه من خلقه ، تعلق بإذنه سبحانه وتعالى ورضاه ، يقول تعالى : ﴿وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا * يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا﴾[186] . ويقول : ﴿مامن شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون﴾[187] . ويقول : ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ، ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾[188] . ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون * لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايشفعون إلا لمن ارتضى

---

(١٨١) النجم ٢٩ — ٣٠
(١٨٢) النساء ٨٠
(١٨٣) الأنعام ١٠٤
(١٨٤) التوبة ٨٠
(١٨٥) التوبة ١١٣ — ١١٤
(١٨٦) طه ١٠٨ — ١٠٩
(١٨٧) يونس ٣
(١٨٨) سبأ ٢٢ — ٢٣

وهم من خشيته مشفقون﴾[١٨٩] . ﴿له مافى السموات ومافى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾[١٩٠] .

فإذا لم يأذن الله فلا تجدى شفاعة أحد يقول تعالى : **﴿قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين * فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾[١٩١] . ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون﴾[١٩٢] . ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع﴾[١٩٣] .**
﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾[١٩٤] .

﴿مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾[١٩٥] . ﴿ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة ، والكافرون هم الظالمون﴾[١٩٦] .

وبهذا حرر الإسلام الإنسان من ادعاء الوساطة الكهنوتية، فصار حرا فيما يعتقد، حرا فيما يأتى من أعمال وسيحاسبه الله على مايختار لأنه إذا انتفى إجباره تحمل نتيجة اختياره .

تأمين مجال الحرية

أقر الإسلام مبدأ حرية العقيدة ، بل فرضه على المسلمين وألزمهم به ، فلم يسمح لأحد منهم مهما كان مركزه الدينى أن يجبر أحدا على الدخول فى الإسلام ، لأن العقيدة لابد أن تصدر عن اختيار حر ، وإلا كانت نفاقاً ، ولما كانت الحياة الإنسانية ، خليطا من الخير والشر ، ومزيجا من الحق والباطل ، كان لكل جانب أتباعه ومعتنقوه .

ومما لاشك فيه أن أصحاب السوء والمروجين للباطل لايتورعون عن الإقدام بالقوة

---

(١٨٩) الأنبياء ٢٦ — ٢٨
(١٩٠) البقرة ٢٥٥
(١٩١) المدثر ٤٣ — ٤٨
(١٩٢) الأنعام ٥١
(١٩٣) الأنعام ٧٠
(١٩٤) غافر ١٨
(١٩٥) السجدة ٤
(١٩٦) البقرة ٢٥٤

ــ باختلاف أنواعها وأساليبها ــ على نشر مفاسدهم ، والعمل على سيطرة باطلهم على ماعداه فى جميع نواحى الحياة ، مما يجعل الظروف المحيطة بالإنسان لاتعطيه حرية الاختيار فى العقيدة ، فقد يريد الخير ويميل إلى اعتناق الإسلام عن رغبة داخلية ، واقتناع بمبادئه ولكنه لايستطيع ذلك ، لأن المجتمع الذى يعيش فيه واقع تحت سيطرة قوى الشر ، ومحاط برقابة أهل السوء الذين لايسمحون لأحد أن يحيد عن مبدئهم ، أو أن يكفر بما يفرضونه على المجتمع ، بحيث تصبح حرية الاختيار فى مسائل العقيدة أمرا غير ممكن ، بل قد يكون مستحيلا تطبيقه فى مجال الواقع ، ولهذا أذن الله للمؤمنين بقتال أولئك الذين يظلمون الناس ، فيسلبونهم حرية الاختيار فى العقيدة ، يقول تعالى : ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز**﴾(١٩٧) .

فلو سمح المجتمع بسماع وحى الله ، ورضى بأن يختار كل أحد مايقتنع به ، لما كان هناك سبب فى فرض القتال على المسلمين ، ولكن أهل الباطل ، والمفسدين فى الأرض ، والداعين إلى الضلال دأبوا على فرض ماعندهم من ضلال على الناس بالقوة ، فكان لابد أن تقابل القوة بمثلها ، لأنهم لو تركوا وشأنهم لفقد مبدأ حرية العقيدة معناه ، لأنه ازاء تعنت المستكبرين وسيطرتهم على الضعفاء لايكون هناك مجال للحرية ، بل قوة تحمى الباطل وتحول دون وصول الخير إلى من يريده بمحض اختياره ، فلو لم يدافع أهل الحق عن مبدأ حرية العقيدة لعمت البلوى ، وساد الفساد فى الأرض ، يقول تعالى : ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾(١٩٨) .

ولما كانت ظروف الحياة البشرية تقتضى من أهل الحق أن يبذلوا ماوسعهم الجهد لتبليغ مبادئهم للناس ، ولتهيئة الظروف لهم ليختاروا مايقتنعون به ، فإن وضع الحياة فى المجتمعات البشرية تحتم عليهم أن يدافعوا عن حق الإنسان فى أن يختار مايشاء دون ضغط أو إكراه ، ودون أن يحول أحد بينه وبين ذلك ، ولو اقتضى الأمر أن يحمى ذلك الحق بالسلاح ، لوجب عليهم حمله لهذا الغرض .

فوجوب القتال فى الإسلام كان دفاعاً عن الدين من أن يناله المفسدون الضالون وتأمينا

---

(١٩٧) الحج ٣٩ ــ ٤٠

(١٩٨) البقرة ٢٥١

لحق معتنقيه فى حرية العقيدة ، واطمئنانا لمن يريد الدخول فيه بأنه لن يصيبه شر المستكبرين المعاندين ، إن هو أعلن إيمانه بالإسلام ، وحماية لبيوت العبادة من تطاول أهل الباطل ، ومحاولاتهم طمس معالم الدين .

فدفاع المسلمين عن حرية الإنسان فى التعبير عن آرائه وفى اعتناق مايراه صحيحا أمر تتطلبه الطبيعة الإنسانية ، لأن طبيعة الإنسان تدفعه إلى الدفاع عن رأيه بالوسائل التى يقاتله بها من يريدون كبت حريته ، ولهذا يأمر الله المسلمين أن يستعملوا المنطق فى الدعوة إلى الإسلام ، ولا يلجأوا إلى حمل السلاح إلا إذا حاول أعداؤهم حملهم على ترك عقيدتهم بالقوة ، فعندئذ لايكون لهم سبيل آخر إلا حمل السلاح للدفاع عن العقيدة ، وحرية الاختيار فى اعتناق مايشاءون ، لأن العقيدة أثمن شيء عند الإنسان ، فهى أثمن من المال والجاه ، بل أغلى من الحياة نفسها ، فإذا ماأراد أحد أن يسلبهم إياه وجب عليهم الدفاع عنها بكل الوسائل .

وعليه فلم يشرع القتال فى الإسلام إلا للدفاع عن المسلمين ، كى لايكونوا لقمة سائغة فى أفواه أعدائهم ، وكذلك لتهيئة الظروف التى تساعد من يقتنع به على أن يعلن إسلامه ، دون خوف من أحد ، فلو لم يبدأ الأعداء بشهر السلاح فى مواجهة المسلمين لما قاتلهم المسلمون . ولو لم يحجر المستكبرون على المستضعفين . ويمنعوهم من اعتناق الإسلام الذى اقتنعوا بصحته ، ماشن المسلمون الحروب ضدهم .

فالقتال — وكذا الاستعداد له — فى الإسلام كان للتخويف والإنذار حتى لايفكر أحد من أعدائه فى الاعتداء على المسلمين ، أو يحاول منع انتشار الدعوة بالوقوف فى وجه الدعاة ، أو بتخويف من يريد الدخول فى الإسلام يقول تعالى : **﴿وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم﴾**(١٩٩) .

فى غزوة بدر

شرع القتال فى الإسلام لتأمين حرية العقيدة ولحفظ حرمات المسلمين ، وتأمين حياتهم ، ولهذا أمر الله المسلمين أن يكفوا عن القتال ، عندما يبدى الأعداء استعدادهم

(١٩٩) الأنفال ٦٠

للالتزام بما يحقق هذين الهدفين ، يقول تعالى : ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم**﴾(٢٠٠) .

فلو استعرضنا جميع الغزوات والحروب التى وقعت بين المسلمين وأعدائهم ، لوجدنا أن المسلمين لم يشنوا القتال حبا فيه ، أو إكراها لغيرهم على الدخول فى الإسلام ، وإنما كان استخلاصا لحق مسلوب ، أو ردا على اعتداء غاشم ، أو تأديبا لمن يفكر فى الاعتداء « أى هجوما وقائيا » أو عقابا على نقض عهد أو ميثاق .

فغزوة بدر الكبرى ــ وهى أول لقاء مسلح بين المسلمين والمشركين ــ كانت لاسترداد ما اغتصبه المشركون من أموال المهاجرين . فكانت لرد الظلم الذى وقع على المسلمين ، يقول تعالى : ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله**﴾(٢٠١) .

فالإذن بالقتال كان استخلاصا لحق سلب منهم ، وردا على ظلم وقع عليهم يقول تعالى : ﴿**لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون**﴾(٢٠٢) .

كما كانت هذه الغزوة أيضا عملا على طريق حرية العقيدة ، لأن الله أراد أن يشعر أهل مكة ــ عن طريق تعرض المسلمين لعيرهم ــ أن هناك قوة على طريق تجارتهم إلى الشام ، فينبغى عليهم أن يسارعوا بمهادنتها ، حتى لاتتعرض قوافلهم للخطر . وفى المهادنة ، أو الاتفاق على عدم التعرض عن طريق إبرام عهد بينهم وبين المسلمين اعتراف بقوة المسلمين وشرعيتهم ، يتطلب من المشركين عدم التصدى للدعاة إذا جابوا المنطقة يدعون إلى الله ، وفى ذلك خلقَ للظروف التى تهيىء للناس جوا يستطيعون فيه أن يختاروا ــ دون ضغط أو إكراه ــ مايعتقدونه ، ويعلنون ذلك دون خوف من أحد .

فخروج جيش المسلمين إلى عير قريش لم يكن لإجبار أحد على الدخول فى الإسلام ، كما لم يكن للاعتداء على أحد بدون وجه حق ، وإنما أريد منه تحقيق عدة أهداف :

---

(٢٠٠) الأنفال ٦١

(٢٠١) الحج ٣٩ ــ ٤٠

(٢٠٢) الممتحنة ٨ ــ ٩

ـــ استخلاص حقوق المسلمين التى سلبها منهم أهل مكة لو ظفروا بالعير .

ـــ إشعار أهل مكة بأن هناك قوة على طريق تجارتهم إلى الشام ، فلو لم يسارعوا فيتفقوا معها على أسلوب يضمن حرية كل طرف فى أن يعرض أمره للناس ليختاروا مايرونه صحيحا ، ويتركون ماوضح بطلانه ، لأصبحت تجارتهم فى خطر .

ـــ ولو تم هذا الاتفاق لكان ذلك نجاحا للدعوة فى خلق مناخ صالح لحرية العقيدة .

لكن عندما أفلت عير قريش ، فلم يدركه جيش المسلمين ، وجاءت قريش بخيلها وخيلائها يريدون قتال المسلمين ، حتمت هذه الظروف على المسلمين أن يخوضوا المعركة ، وإلا أصيبت الدعوة بنكسة قد يكون فيها القضاء عليها ، فقتالهم فى هذه الظروف كان واجبا للدفاع عن وجود العقيدة ، ولدفع ماقد يترتب على النكوص عنه من فساد مشركى مكة ، إذ لو امتنع المسلمون عن القتال لضاعت دعوتهم بغرور المشركين واستعلائهم ، واستغلال هذا النجاح فى تمكين الطغيان والفساد فى الأرض .

ومن حكمة الله أن جعل العير تفلت من أيدى المسلمين ليكون درس القتال عبرة لمن يفكر فى الاعتداء على المسلمين ، فتعلو كلمة الله فى الجزيرة العربية ، يقول تعالى : **﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾**(٢٠٣) .

وبهذا يتبين أن المسلمين لم يخرجوا من المدينة للاعتداء أو السلب ، وإنما كان لاستخلاص حق من حقوقهم المسلوبة ، ولتأمين حرية الدعوة ، فلما اضطروا للقتال قاتلوا حتى يحموا أنفسهم ، ويحافظوا على هيبة الدعوة فى الجزيرة العربية ، يقول تعالى مبينا مايفعله الكفار لو انتصروا على المسلمين وظفروا بهم : **﴿إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون﴾**(٢٠٤) .

فلو نكص المسلمون عن القتال فى هذه الظروف ، لحكم عليهم التاريخ بأنهم أذلوا وأهينوا ، فرضوا بالذل والهوان ، وتلك سبة تأباها الطبيعة الانسانية . ولما كان الاسلام موافقا ـــ فى تعاليمه وشرائعه ـــ لهذه الطبيعة لم يرض لأتباعه أن يتصفوا بهذه النقيصة فشرع لهم القتال دفاعا عن أنفسهم وعقيدتهم ، وليس إكراها لأحد على الدخول فيه .

---

(٢٠٣) الأنفال ٧ ـــ ٨

(٢٠٤) الممتحنة ٢

انتصر المسلمون على المشركين فى أول لقاء مسلح بينهم ، وذلك فى غزوة بدر الكبرى ، حيث سقط فى المعركة صناديد قريش ، وزعماء الكفر فيها ، فأثر ذلك فى نفوسهم ، فنشط أبو سفيان بن حرب ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية فى تحريض أهل مكة على الخروج مرة أخرى لقتال المسلمين ، كما حثوهم على التنازل عن أموال العير للانفاق منها على المعركة ، فقالوا لهم : يامعشر قريش ، إن محمدا قد وتركم ، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك من ثأرنا بمن أصاب منا ففعلوا .

وقال بعض العلماء : إن الله أنزل فى ذلك قرآنا هو قوله تعالى : ﴿**إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون**﴾(٢٠٥) .

خرجت قريش بخيلها ورجلها من مكة تريد قتال محمد ﷺ وأصحابه فنزلت بالقرب من المدينة ، ولما علم رسول الله ﷺ بخروجهم قال لأصحابه : إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها . فقال بعض الصحابة : يارسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا لايرون أنا جبنا عنهم وضعفنا ، ورأى بعضهم المقام فى المدينة ، فإن اقتحموها قاتلوهم ولم يزل النبى ﷺ يشاور أصحابه حتى استقر الرأى على الخروج للدفاع عن كيانهم وهيبتهم ضد عدو جاء اليهم يريد القضاء عليهم .

دارت المعركة بين المسلمين وكفار قريش فى شعب أحد ، فرجحت كفة المسلمين بادىء الأمر غير أن رماة المسلمين الذين نصحهم رسول الله بألا يبرحوا مكانهم ، ظنوا أن الخطر قد زال فنزلوا من على الجبل يشاركون المقاتلين فى المعركة ، فانكشفت بذلك ظهور المسلمين مما دفع خالد بن الوليد ، (وكان يحارب فى هذه المعركة فى صفوف كفار قريش) ، إلى استغلال هذه الثغرة فالتف حول المسلمين ، وكان من نتيجة هذه الحركة أن اشتدت الوطأة على جنود الله فأصيبوا إصابة بالغة فى هذه المعركة ، وسقط عدد من أعلام المسلمين شهيدا فيها .

---

(٢٠٥) الأنفال ٣٦

هذه نبذة موجزة عن الغزوة الثانية التى التقى فيها المسلمون مع كفار قريش على ساحة القتال ، ومنها يتبين أن المسلمين لم يبدءوا القتال ، ولم يكونوا راغبين فيه ، وإنما اضطروا إليه اضطرارا وحملوا حملا على خوض المعركة ، إذ لو لم يقاتلوا لذبحهم الكفار ذبحا ، ولو لم يدافعوا عن أنفسهم لقتلوا تقتيلا ، ولقضى عليهم نهائيا . ماذا يمكن أن يكون الحكم عليهم لو استسلموا فلم يرفعوا سلاحا فى وجه عدوهم ، وهم الذين جاءوا يريدون الشر بهم ؟

لو فعلوا ذلك لحكم عليهم التاريخ بأنهم أذلوا وأهينوا فرضوا بالذل والهوان وتلك سيئة يتبرأ منها كل ذى عقل سليم ، ومنطق قويم ، وفهم لطبيعة الحياة الإنسانية وإدراك لقانون الصراع فى المجتمع الانسانى .

ماذا سيكون وضع حرية العقيدة ، لو ترك المسلمون كفار قريش يعيثون بأسلحتهم دون أن يردوهم بالقوة ؟

لو فعلوا ذلك لقضى على المناخ الذى تعيش فيه حرية العقيدة ، ولأغلق باب الحرية نهائيا فى وجوه المستضعفين المستذلين ، الذين لايملكون من الإرادة الحرة مايمكنهم من اختيار العقيدة التى يقتنعون بها ، وصدق رسول الله ﷺ حين نادى ربه فى غزوة بدر قائلا : **«اللهم إن تهلك هذه العصابة «أى المسلمين» لاتعبد فى الأرض»** . فلو قضى على المسلمين لضاعت معالم الحق فى هذه الأرض ، ولذا وجب عليهم دينا ، وإنسانية ، ورحمة بالضعفاء أن يقاتلوا قوى الشر حتى لايستفحل أمرها فتكون كارثة على الإنسانية جمعاء .

فى غزوة الخندق

حدثت معارك ومناوشات مع اليهود بعد غزوة أحد ، ولما كان منهجنا ليس تأريخا للمعارك الإسلامية ، مع أعداء الإسلام ، وإنما بيان أن المسلمين لم يكونوا معتدين فى أى معركة من المعارك التى خاضوها آثرنا ألا نتحدث عن هذه المعارك فى سلسلة زمنية ، حسب وقوعها ، ولن نتناولها كلها بالتفصيل بل سوف نعرض لأهم المعارك من زاوية إظهار أن المسلمين لم يكن هواهم مع الحرب بل اضطروا إلى خوضها اضطرارا دفاعا عن أنفسهم وتأمينا لحرية العقيدة .

كان اللقاء الثالث للمسلمين مع كفار قريش فى غزوة الخندق ، وسميت أيضا : غزوة الاحزاب ، لأن جيش الكفار كان يضم عديدا من القبائل فأطلق عليهم : احزابا ، ويرى

الرواة أن الذى دفع قريشا إلى الخروج مرة ثالثة للقاء المسلمين هم اليهود ، لأنهم أضمروا العداوة لرسول الله ﷺ ، فنشطوا فى السر لتقليب القبائل عليه وذلك أن نفرا من بنى النضير خرجوا — بعد إجلائهم عن المدينة — ومعهم نفر من بنى وائل ، حتى قدموا على قريش فى مكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا لهم : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله وفيهم نزل قوله تعالى : مشيرا إلى ماقالوه من سوء العاقبة : **﴿كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم * كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين﴾**(٢٠٦) .

وحين عرض اليهود على المشركين أن يكونوا معهم فى الحرب ضد محمد ﷺ قالت لهم قريش : يامعشر اليهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه . فنزل فيهم قول الله تعالى : **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت ، والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا * أم لهم نصيب من الملك فإذا لايؤتون الناس إلا نقيرا * أم يحسدون الناس على ماآتاهم الله من فضله﴾**(٢٠٧) .

لم يكتف اليهود بتحريض قريش فقط ، بل حرضت غيرها من القبائل مثل غطفان ببطونها وشعابها ، ومازالوا على ذلك حتى اجتمع جيش كبير ، زحف على المدينة لقتال المسلمين . فلما سمع بهم رسول الله ﷺ ، وبما أجمعوا عليه من أمر ضرب الخندق على المدينة ، فعمل فيه رسول الله ترغيبا للمسلمين فى الأجر وعمل فيه المسلمون حتى أحكموه .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من كنانة وأهل تهامة حتى نزلت بمجتمع الأسيال بما بين الحرف وزغابة وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمى بجانب أحد ، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع (جبل بالمدينة) وكان عددهم ثلاثة آلاف ، فضرب هنالك عسكره ، فجعل الخندق بينه وبين القوم . استمر الحصار

---

(٢٠٦) الحشر ١٥ — ١٦

(٢٠٧) النساء ٥١ — ٥٤

والتراشق وقتا ، فعظم البلاء على المسلمين واشتد عليهم الخوف ، فقد أتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، وظهر المنافقون على حقيقتهم فقال أحدهم « وهو معتّب بن قشير » : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لايأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط .

غير أن من صدق إيمانهم ، وقويت بالبقين عزيمتهم ، واشتد بالوحى جلدهم كانوا فى نشاط دائب خلف الخندق ، يناوشون العدو ، ويتربصون بمن يحاولون عبوره لافرق فى ذلك بين رجالهم ونسائهم ، فالكل سواء فى خط الدفاع عن الفئة المؤمنة التى أخذت على عاتقها مسئولية تأمين حرية العقيدة ، وتكفلت بالدفاع عن المظلومين حتى تهيىء لهم الجو السليم لاختيار مايرونه حقا .

حتى جاء نصر الله ، فأرسل على كفار قريش ، وحلفائهم ريحا قذفت بهم فى جوف الصحراء ، فرجعوا إلى ديارهم دون أن يحققوا ماجاءوا له ، وارتدوا على أعقابهم خاسرين هيبتهم وكرامتهم بين قبائل الجزيرة العربية ، وكفى الله المؤمنين القتال فى هذه الغزوة ، ومما نزل فيها قوله تعالى : **﴿ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنود لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا * إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنا لك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا * وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا * وإذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وماهى بعورة إن يريدون إلا فرارا﴾**(٢٠٨) .

﴿ولما رآى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما * من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا * ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما * ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا﴾(٢٠٩) .

---

(٢٠٨) الاحزاب ٩ ــ ١٣

(٢٠٩) الاحزاب ٢٢ ــ ٢٥

فهذه موقعة لم يدع المسلمون إليها ، ولم يختاروا مكانها وزمانها ، بل اضطروا إليها اضطرارا للدفاع عن أنفسهم . أفلا يعد هذا دليلا على أن الإسلام لم يحرض المسلمين على القتال لذات القتال ، أو لاكراه أحد على الدخول فيه ، بل كان قتالهم لرد الاعداء عن ديارهم ، ودفع الخطر عن أنفسهم ، وفى ذلك توضيح بأنهم لم يريدوا سوى خلق الظروف الملائمة لحرية العقيدة ..

فى الحديبية

كان أول لقاء حدث بين رسول الله ﷺ وبين قريش بعد جلائهم عن المدينة فى غزوة الخندق هو لقاؤه معهم — أو بتعبير أدق مع سفرائهم — فى الحديبية سنة ست من الهجرة ، أى بعد سنة واحدة من غزوة الأحزاب ، ولم يكن لقاء قتال ، وإنما محاورات ومشاورات أدت إلى عقد صلح بين الفريقين .

وتتلخص الأحداث التى تتعلق بهذا الاتفاق أن رسول الله ﷺ . أراد زيارة البيت الحرام ، فاستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه ، لأنه كان يخشى لو خرج وحده — أو فى نفر قليل — أن تتعرض له قريش بحرب ، أو تحول بينه وبين دخول البيت الحرام ، فكان الاستنفار إجراء وقائيا حتى يتجنب سفك الدماء .

خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة ليعرب للناس عن قصده ، وهو زيارة البيت ، فهو لايريد حربا ولا قتالا ، وإنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له ولما علمت قريش بخروجه جمعت جيشا كبيراً وخرجت به من مكة لمقاتلة المسلمين ، وحين وصل خبر خروجهم إلى النبى ﷺ قال : ياويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب .. ثم قال : من يخرج بنا على طريق غير طريقهم الذى هم فيه ؟ فتطوع رجل من أسلم بأن يتقدم المسلمين على طريق آخر وكان وعرا ، لكن المسلمين تحملوا مشقته رغبة منهم فى تجنب القتال ، وماذاك إلا تأكيدا آخر على أن المسلمين لم يريدوا قتالا ، ولم يعملوا شيئا يؤدى بادىء ذى بدء إلى سفك الدماء ، بل حاولوا دائما جهد طاقتهم تجنب هذا الطريق الذى لايجلب إلا المزيد من سقوط الضحايا ، وسفك الدماء .

نزل رسول الله ﷺ فى ثنية المرار ، ولما اطمأن به المقام جرت سفارات متعددة بينه وبين قريش ، فكان يؤكد لكل من يأتيه سائلا ومستفسرا عن قصده أنه لم يأت لحرب ،

وإنما جاء زائرا للبيت ومعظما له ، حتى أنهم حين بعثوا أربعين رجلا منهم وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحدا ، ووقعوا فى أيدى المسلمين عفا عنهم رسول الله ، وخلى سبيلهم ، فكان ذلك عملا واضحا ، ودليلا بينا على أن المسلمين لم يريدوا حربا .

استمرت السفارة بين الفريقين مدة ، ثم بعث رسول الله عثمان بن عفان ليخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما له ، فلما احتبسته قريش عندها فترة أشيع أنهم قتلوه ، وعندئذ اختلفت الظروف فأصبحت تحتم على المسلمين أن يؤدبوا من غدر بسفيرهم ، وإلا كان ذلك إهانة لهم ، إن لم يغسلوها فلربما استغلها أعداء الإسلام فى وضع العقبات أمام انتشاره ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : **«لانبرح حتى نناجز القوم»** ودعا الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان حيث بايع المسلمون رسول الله ﷺ على الثبات فى ميدان القتال حتى يقضى الله أمرا بينهم وبين قريش ، وفى ذلك يقول الله تعالى : **﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا * ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما * وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما * وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديرا * ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار ، ثم لايجدون وليا ولانصيرا﴾**(٢١٠) .

وبعد أن تمت البيعة فى الحديبية تأكد لدى سادات مكة أن ذلك يعنى الاستنفار العام بين المسلمين ، وأن البيعة تعنى تصميم المسلمين على خوض الحرب ضد قريش فخاف القرشيون خوفا شديدا ، لأنهم يدركون ــ سلفا ــ أن نتيجة هذه الحرب ــ إذا مانشبت ــ ستكون فى غير صالحهم مستمدين هذا الإدراك من التجارب العملية القاسية التى لمسوها فى بدر وأحد والخندق . ولهذا سارع زعماء قريش إلى طلب الصلح من المسلمين بناء على مشورة ونصيحة سهيل بن عمرو ، سيد بنى عامر بن لؤى ، فبعثوه إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : ائت محمدا فصالحه ، ولايكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فو الله لاتحدث العرب عنا أنه دخلها عنوة أبدا فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه النبى ﷺ مقبلا قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، فلما انتهى سهيل بن

(٢١٠) الفتح ١٨ ــ ٢٢

عمرو إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام وتراجعا ، ثم جرى بينهما صلح .

وتشير وقائع الصلح الذى عقد بين رسول الله ﷺ وبين قريش فى الحديبية بمالا يدع مجالا للشك إلى طبيعة المسلمين ، وموقفهم من الحرب ذلك أنه يوضح أنهم لايميلون إلى حرب ، وإنما يخوضونها إذا لم يكن هناك مجال لتجنبها ، أما إذا لاحت ظروف — ولو عن طريق تنازلات من جانبهم — تهيىء جوا للسلام ، فهم يميلون إليه حقنا للدماء ، وتجنبا لويلات الحرب ، إذ أن فى قبول رسول الله ﷺ الرجوع عن مكة هذا العام — على الرغم مما تكبده من مشاق فى سبيل زيارة البيت — يؤكد أنه لايزال يأمل فى الوصول إلى حل عادل للمشكلة يضمن حقن الدماء ، ويضمن فى الوقت نفسه للمسلمين حقهم فى دخول مكة للطواف بالبيت ، وهو الحق الذى أصرت قريش على إهداره بقوة السلاح ، حين أعلنت أنها ستحول بحد السيف بينهم وبين دخول مكة ، حتى وإن جاءوا للعمرة فقط .

قبل النبى ﷺ المفاوضة على الصلح ، على الرغم من اتخاذ قرار حاسم بمحاربة قريش فى البيعة التى أخذها على المسلمين تحت الشجرة وماذاك إلا لأنه يريد سلما لاحربا ، وأمانا لدعوته ، وليس فرضا لها بالقوة أو بالإكراه بل إن من يقرأ بنود المعاهدة يحس بأن الرسول ﷺ كانت لديه رغبة شديدة فى تجنب القتال ، وعدم الدخول فى مصادمات مسلحة وتتلخص هذه البنود فيما يلى :

١ — على المسلمين أن يرجعوا إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة هذا العام .

٢ — من حق المسلمين أن يأتوا فى العام القادم فيدخلوا مكة ليقضوا مناسكهم .

٣ — تلتزم قريش بعدم التعرض للمسلمين حين يدخلون مكة ، بأى نوع من أنواع التعرض .

٤ — على المسلمين لدى دخولهم مكة أن لا يحملوا من السلاح إلا سلاح الراكب وهو السيف .

٥ — يلتزم المسلمون بأن لايشهروا سلاحهم وهم بمكة ، بل عليهم أن يتركوا السيوف فى أغمادها ماداموا فى مكة .

٦ — المدة المحددة التى ليس للمسلمين أن يقيموا أكثر منها فى مكة هى ثلاثة أيام فقط ، وعليهم أن يغادروا مكة بعد انقضائها فورا .

٧ — إنهاء حالة الحرب القائمة بين المسلمين وقريش بقيام هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات يأمن الناس فيها على أنفسهم .

٨ ــ يلتزم النبى ﷺ بأن يرد إلى قريش كل من جاء إليه من أبنائها بعد إبرام هذه المعاهدة ، إذا كان قد جاء بغير إذن أهله ، وعلى النبى الالتزام بذلك ، حتى ولو كان اللاجىء مسلما .

٩ ــ ليس على قريش أن ترد إلى النبى ﷺ من جاء إليها من المسلمين حتى ولو كان مرتدا عن دينه .

١٠ ــ تترك الحرية المطلقة للقبائل المجاورة للحرم لينضموا إلى أى المعسكرين شاءوا ويدخلوا فى عهد أى الفريقين أرادوا .

١١ ــ تعتبر القبيلة التى تنضم إلى أى المعسكرين جزءا من المعسكر الذى تدخل فى عهده ، له مالها . وعليه ماعليها ، وعليها الالتزام بما جاء فى بنود المعاهدة .

١٢ ــ أى عدوان تتعرض له أى من هذه القبائل يعتبر عدوانا على المعسكر الداخلة فى عهده كما يعتبر هذا العدوان مبطلا للمعاهدة .

ويبدو من البند الثامن والتاسع مدى سماحة النبى ﷺ وتنازله فى سبيل إقرار هذا الصلح وإتمامه ، لأنه سيكون القاعدة الأولى فى صرح خلق الظروف الملائمة لحرية العقيدة .

اتفق المتفاوضون فى الحديبية على القواعد الكاملة لمعاهدة الصلح ، لكن قبل أن تسجل وثائقها ظهرت معارضة شديدة وقوية بين المسلمين ، وخاصة ضد البندين الثامن والتاسع للذين بموجبهما يلتزم النبى ﷺ برد ماجاءه من المسلمين لاجئا ، ولا تلتزم قريش برد من جاءها من المسلمين مرتدا ، كذلك عورض البند الأول ، وهو الذى يقضى بأن يعود المسلمون من الحديبية إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة فى هذا العام .

وكان عمر بن الخطاب يتزعم هذه المعارضة ، فقد ورد أنه قال لرسول الله ﷺ : **«يارسول الله . ألست برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى»** .

اشتدت المعارضة ، حين وقعت حادثة أبى جندل ، وهى كما يرويها الإمام الواقدى : « ... فبينما الناس على ذلك قد اصطلحوا ، والكتاب لم يكتب ، أقبل أبو جندل بن سهيل (أى ابن رئيس وفد قريش فى المفاوضات) قد أفلت يرسف فى القيد ... حتى أتى رسول الله ﷺ ، وهو يكاتب سهيلا ، فرفع سهيل رأسه فإذا بابنه أبى جندل ، فقام إليه سهيل

فضرب وجهه بغصن شوك ، وأخذ بلبته وصاح أبو جندل بأعلى صوته : يامعشر المسلمين ، أردُّ إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ فزاد المسلمين ذلك شرا إلى مابهم ، وجعلوا يبكون لكلام أبى جندل . فقال حويطب بن عبد العزى لمكرز بن حفص : مارأيت قوما قط أشد حبا لمن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد وبعضهم لبعض ! أما إنى أقول لك لاتأخذ من محمد نصفا أبدا بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة . قال مكرز : أنا أرى ذلك ... قال الواقدى : وقال سهيل للنبى ﷺ : هذا أول ماقاضيتك عليه ، ردوه ، فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد . فقال سهيل : والله لا أكاتبك على شىء حتى ترده إلىّ ، فرده رسول الله ﷺ ، فكلم رسول الله ﷺ سهيلا أن يتركه فأبى .

فقال مكرز بن حفص وحويطب : يامحمد ، نحن نجيره لك فأدخلاه فسطاطا فأجاراه وكف أبوه عنه . ثم رفع رسول الله ﷺ صوته فقال : ياأبا جندل ، اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجا ومخرجا . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهدا ، وإنا لانغدر .

وفىّ الرسول ﷺ بعهده ، حتى قبل أن تكتب المعاهدة ويوقع عليها — أى قبل أن تأخذ الصفة الرسمية — ليعلم المسلمين الوفاء بالعهد امتثالا لقوله تعالى : ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا**﴾(٢١١) . ولم يتأثر باشتداد المعارضة داخل المعسكر الاسلامى ، لأن أوامر الوحى لاتخضع لرأى الناس ، وإنما يأتى بها التوجيه من الله سبحانه وتعالى ، فهو سبحانه أعلم بما سيترتب على هذه المعاهدة من نصر للإسلام وعزة للمسلمين ، ولهذا تنازل رسول الله ﷺ عن بعض الشكليات التى اعترض عليها وفد قريش فى كتابة نص المعاهدة ، منها : رفضهم تعريف محمد بأنه رسول الله ، لأنهم لايؤمنون بذلك ، كما رفضوا كتابة : «**بسم الله الرحمن الرحيم**» ووضعوا مكانها : باسمك اللهم . وغير ذلك من الأمور الشكلية التى لاتؤثر تأثيرا سلبيا على هيبة الدعوة الإسلامية .

كان صلح الحديبية حدثا تاريخيا سماه القرآن الكريم فتحا فى قوله تعالى : ﴿**إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما**﴾(٢١٢) .

---

(٢١١) النحل ٩١ (٢١٢) الفتح ١ — ٢

كما أشار القرآن الكريم إلى نجاح هذا الصلح فى حقن الدماء ، وتجنب الاحتكاك المسلح بين الفريقين ، فقال تعالى : ﴿**وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا**﴾[٢١٣] .

ويؤكد على امتداد التاريخ من يوم توقيعه حتى عصرنا الحالى حرص الإسلام على السلام ، وإلزام المسلمين بالابتعاد عن الحرب ، كلما أمكنهم ذلك حتى يسود السلام الذى يسمع عنه الإنسان فى ظله صوت الحق لا طلقات الرصاص ، ونداء العقل بدلا من صيحات الحروب ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**﴾[٢١٤] .

سلوك حضارى

لم يكثر الحديث فى وقت من الأوقات عن التخلف والتحضر والمقارنة بينهما بمثل ماكثر فى هذا القرن ، وخاصة فى النصف الثانى منه ، إذ لايجتمع اثنان إلا ويكون موضوع حديثهما ـــ بطريق مباشر أو غير مباشر ـــ عن مدى التقدم الذى أحرزته هذه الدولة أو تلك ، ونصيب مجتمعها فى هذا المضمار .

كذلك عندما يُقَيَّم السلوك ، سواء كان على مستوى الفرد ، أو على مستوى الدولة فإنه يدخل فى الاعتبار مدى تحضر كل طرف من الأطراف المتعاملة مع الطرف الآخر . فإذا كان فظا غليظا ، يميل إلى العنف ، ويؤثر أسلوب العضلات على غيره فى مجال التفاهم ، ويستعمل السلاح لغة له فى مجال التبادل المادى ، وصفوه بالتخلف وعدم التحضر ، ووضعوا أسلوب تعامله فى مقام لايكون فيه إلا البربرية والحيوانية ، فأنت عندما تسمع من يتحدث عنه ، لاتسمع أذنك إلا أنه إنسان وحشى بربرى ، لاسبيل إلى التفاهم معه ، لأنه لم ينل من درجات الحضارة مايؤهله للحوار الفكرى بدلا من الصراع المسلح ، والميل إلى تبادل الآراء بهدوء ، بدلا من التسرع فى حمل السلاح والمناداة بصيحات الحروب والقتال .

فأصوات العقلاء ، وأقلام المفكرين ، ودعاة الحرية والإنسانية والداعون إلى السلام

---

(٢١٣) الفتح ٢٤

(٢١٤) آل عمران ١١٠

لايفتأون يدعون المجتمعات البشرية إلى نبذ السلاح والجلوس على مائدة المفاوضات ، لأن هذا هو سمة العصر ، وأسلوب التحضر والتقدم ، وعلامة من علامات الجانب الإنسانى فى الشعوب ، ويعدون هذه الظاهرة إحدى نتاج التمدن فى المجتمعات البشرية ، فمن يميل إلى أسلوب المفاوضات فهو متحضر ، ومن يفضل حمل السلاح والقتال فهو إنسان يعيش بعقلية القرون الوسطى ، يوم أن كان السلاح هو الفيصل فى حسم المنازعات .

فإذا كانت الظاهرة الغالبة فى القرون الوسطى هى لغة السلاح والقتال ، وأسلوب العنف والاضطهاد باعتراف دعاة الحضارة فى القرن العشرين ، وحاملى لواء التمدن والتقدم ، فيجب عليهم أن يقفوا إجلالا واحتراما لموقف محمد ﷺ من السلام فى تلك القرون التى كانت لا تعترف بالسلام ولاتقره ، بل كان الحديث عنه يعتبر — فى رأى من عاشوا فى تلك القرون — ضعفا واستسلاما ، وذلا وهوانا ، وضياعا وهلاكا ، بل كان إقراره والاعتراف به ، يعد جبنا وخورا ، وخوفا وعارا ، بل إن من يشعر بالعزة ، ويرى أنه صاحب سؤدد ومجد ، حيث يحيط به رجال أشداء ، وفرسان شجعان لايفكر أبدا فى السلام ، ولا يمكن أن يخطر على باله فى لحظة من لحظات حياته ، مادام عزيزا بين جنده ، شديدا برجاله المسلحين ، متأكدا من قدرته على استخلاص مايريد من يد أعدائه .

مال محمد ﷺ إلى السلام ودعا إليه فى هذا العصر ، وهو بين جيش كان يستطيع به أن يدخل إلى مكة عنوة ، ويلحق بقريش هزيمة نكراء ، كما لقنها مثل هذا الدرس فى غزوة بدر ، ولكنه آثر السلام ، لأن الله تعالى أمره به فى قوله : ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم**﴾(٢١٥) . ولأن القتال لم يشرع فى الإسلام إلا للدفاع وتأمين العقيدة ، وقد كان ذلك محتما فى غزوة بدر وماتلاها ، أما الآن فى الحديبية ، فإن الدعوة لن تضار بعقد هذه المعاهدة بل على العكس من ذلك ، فإنها ستجنى ثمارا لايمكن أن تنال بالحرب ، ذلك أن المعاهدة تعطى الأمن والأمان للدعاة ليجوبوا المنطقة داعين إلى الله ، وهذا هو أحد الأهداف الرئيسية التى دار حولها النزاع مع قريش ، فلم يكن محمد ﷺ يريد إجبارهم على الدخول فى الإسلام ، بل كان يطلب منهم عدم التعرض لمن يريد الدخول فيه .

فلو التزمت قريش بتنفيذ بنود المعاهدة لانتشر الإسلام فى مكة وجميع أرجاء الجزيرة

(٢١٥) الانفال ٦١

ون أن تراق قطرة من دم ، ولكن أهل مكة نقضوا العهد بعد أقل من سنتين فقط من وقيعه ، فكان جزاؤهم على هذا أن دخل جيش المسلمين إلى مكة فاتحا ، فقضى على الكفر وزعمائه فيها فدخل الناس فى دين الله أفواجا ، يقول تعالى : ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا**﴾(٢١٦) .

فتح مكة

كان من نصوص الصلح الذى عقد بين محمد ﷺ وبين قريش : أنّ تترك الحرية المطلقة للقبائل المجاورة للحرم لينضموا إلى أى المعسكرين شاءوا ، ويدخلوا فى عهد أى الفريقين أرادوا ، فإذا انضمت قبيلة إلى أحد المعسكرين تعتبر جزءاً من المعسكر الذى تدخل فى عهده له مالها ، وعليه ماعليها ، وعليها الالتزام بما جاء فى بنود المعاهدة .

فانضمت خزاعة إلى حلف المسلمين ، واختارت بنو بكر الدخول فى عقد قريش وعهدهم ، وكانت بينهما إحن ودماء ، ولكن بموجب هذا الاختيار وجب على كل منهما الالتزام بما جاء فى الصلح وهو عدم الاعتداء ، لكن بنى بكر اعتدت على خزاعة . وهم على ماء لهم بأسفل مكة فأصابوا منهم رجلا فاندلع القتال بينهم ، وساعدت قريش بنى بكر فى هذه المعركة .

فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة ، وأصابوا منهم ماأصابوا ، ونقضوا ماكان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ، وكانت فى عقده وعهده ، خرج عمرو بن سالم الخزاعى حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة وأخبره بما حدث فقال ﷺ : **«نصرت ياعمرو بن سالم»** وأمر بتجهيز جيش الفتح ، فخرج بالمسلمين حتى نزل مر الظهران ، وكان عدد من معه عشرة آلاف مقاتل .

ويحدثنا الرواة أن رسول الله ﷺ حين فرق جيشه قبل دخول مكة أمر الزبير بن العوام أن يدخل فى بعض من المقاتلين من كُدى ، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل مع فريق آخر من كداء ، وأمر خالد بن الوليد ، فدخل من الليط ، أسفل مكة .

---

(٢١٦) النصر ١ ــ ٣

لم يقاتل رسول الله ﷺ إلا فى الظروف التى لاتسمح إلا بالقتال ، فإذا لاحت بارقة أمل فى تجنب القتال مال إلى السلم وكف أصحابه عن سفك الدماء فكان مما وصى به أمراء جيشه حين وجههم لدخول مكة ، ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم . وإمعانا فى تجنب القتال وعدم سفك الدماء أمر من ينادى فى الناس أن رسول الله ﷺ يقول : «**من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن**» .

وهذا إجراء حضارى لم تعرفه جيوش الأمم التى تدعى أنها متقدمة ، وتزعم أنها تتصرف بأسلوب حضارى . ولم تباشره جيوش « العالم المتحضر » فى ذلك القرن الذى ملىء نداءات وشعارات تذكر الناس صباح مساء عبر وكالات الانباء وأجهزة الاذاعات المرئية والمسموعة بما ينبغى أن يكون عليه سلوك الإنسان المتحضر ، فما الفظائع التى ارتكبت فى حق الإنسانية أثناء الحرب العالمية الثانية عنا ببعيدة ، ولن ننسى ماارتكب فى فيتنام ولاوس وكمبوديا من وسائل الفتك والتعذيب للمدنيين العزل والاطفال الأبرياء ولا يغيب عن ذهننا مايرتكب كل يوم من فظائع فى حق الإنسانية على أيدى من يدعون أنهم دعاة الحضارة وأرباب التقدم ، وحاملو لواء المدنية .

بعد أن دخل المسلمون مكة طاف رسول الله ﷺ بالبيت ثم قام على باب الكعبة ونادى فى الناس :

يامعشر قريش . إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس لآدم ، وآدم من تراب ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿**ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾(٢١٧) ثم قال: يامعشر قريش. ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

يجب أن يتنبه المتشدقون بالحضارة ، وبما ينبغى أن يكون عليه تصرف الرجل المتحضر إلى نقطتين هامتين فى هذا الخبر :

أولاهما : دعوة الرسول ﷺ ــ وهو فى قمة انتصاره حيث الظرف مدعاة للفخر والتباهى ــ الناس إلى نبذ التفاخر بالأنساب والأحساب والتعالى على الناس بما يملكه الإنسان من مال زائل وجاه وسلطان لايدخلان فى تقييم الإنسان فى مجال السلوك والاخلاق .

وثانيهما : العفو العام عن أهل مكة ، وهم الذين آذوه ، وطردوه من بلده ، ونقضوا

(٢١٧) الحجرات ١٣

العهد والميثاق الذى أبرموه معه قبل سنتين .

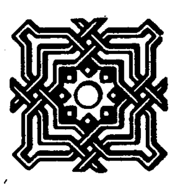
ألا يعد هذا تصرفا لايمكن أن يرقى إليه أى قائد مهما كان سلوكه متحضرا ؟

أليس هذا دليلا واضحا على أن الإسلام يلزم المسلمين بأن يتجنبوا القتال كلما أمكن ذلك ؟

أيوجد مثيل لهذا الموقف فى عالمنا الذى ملىء بالمتشدقين بالحضارة وبالسلوك الحضارى ؟

ثم بعد هذا ، أهناك مجال لتصديق من يدعى أن الإسلام انتشر بالسيف ؟

لا ، فقد وضح وضوحا لالبس فيه أنه يدعو إلى السلام ، وأن المسلمين لايلجأون إلى القتال إلا فى حالة الدفاع ، أو لتأمين حرية العقيدة ، حيث لايكون هناك طريق آخر لتأمينها ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم**﴾[*] .



(*) البقرة ١٩٤

الفصل السابع

أثر العقيدة فى الحياة

حسن السلوك

تتركز نقطة الخلاف الرئيسية بين الأديان حول قضية التوحيد ، فهى تجسم هوية الدين وشكله ، وتظهر ملامحه ، وتحدد أبعاده ، فمن يقف على جزئيات هذه القضية فى أى دين ، يدرك على الفوز مكانه بين الأديان ، إذ هو — بناء على ماتحويه من تصورات — دين متعدد الآلهة ، أو مجسد لها ، يفصل بين الإلهية وبين البشر بفواصل بعيدة المدى ، أو قريبة قربا يجعل الإله واحدا من البشر ، أو يكون دينا ذا اله واحد لايشبهه أحد من خلقه ، فهو ليس كمثله شيء ، ومنزه عن المكان والزمان ، فهو بعيد عن خلقه فى التصور — مكانا أو كيفية — قريب منهم فى مجال الاطلاع على مايعملون ، وفى محيط العناية بهم والمحافظة عليهم ، وفى آفاق الثواب والعقاب .

وكانت هذه القضية هى أول مايهتم الأنبياء به من مسائل التبليغ ، وهى محور نشاط الدعاة فى المجال الدينى ، إذ ينحصر نشاطهم — فى معظم الأحيان — فى إقناع الناس بتصوراتهم فى هذا المجال ، فهى الأساس الذى تقوم عليه جميع المبادىء التى ينادون بها ، وتتشكل على أساسها جميع الأوامر التى تتعلق بالعبادات والاخلاق والمعاملات .

فعناصر تصور الإله هى التى تشكل تعاليم الدين وتصورها ، وطبيعته فى كل دين تنعكس على كل مايحتويه من تعاليم ، ونوع العلاقة بينه وبين الإنسان يشكل سلوك أتباعه ، ويحدد طبيعة مسارها .

ولهذا كان التوحيد فى الإسلام منبع سلوك المسلمين ، ومصدر كل عمل يقومون به إذ تغرس كلمة : «لا إله إلا الله» فى قلب من يقولها صادقا إيمانا بأنه لا سلطان لأحد عليه إلا الله ، فهو لايخضع لظالم ، ولا ينحنى لكافر ، ولا يرضى عن فاسق ولا يساعد محتالا ،

ولا يقدم عونا لمن حاد عن طريق الله ، فليس بينه وبين الظالمين صلة ، ولايربطه بالمنافقين أدنى رباط ، فهو لايعمل إلا لله ، ولا يغضب إلا لله ولا يرضى عن أحد إلا إذا كان سلوكه مطابقا لما أمر الله به ، وبهذا يكون متحررا من كل قيد إلا إذا كان فى إطار ماالتزم به تجاه ربه ، فليس لأحد عليه سلطان ، ولا يجبره إنسان على مخالفة ماأمره الله سبحانه وتعالى به ، فهو من الذين قال الله فيهم : ﴿**إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين**﴾(*) . أى إلا من نسى أمر ربه ، واتبع الشيطان . ومن يستقر التوحيد فى قلبه لاتتطرق إليه الغفلة عن أوامر الله أبدا .

وفضلا عن هذا فالإيمان بالله يشيع الاطمئنان فى قلب المؤمن ، فتهدأ نفسه ، وفى هدوء النفس راحة البال ، واستقرار فى الحياة يقول تعالى :
﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾(٢١٨) .

ولاشك أن الاطمئنان أمل كل إنسان فى هذه الحياة ، إذ بدونه تصير الحياة جحيما لايطاق ، فمن يفتقده لايهنأ بمال ، ولا يسعد بولد ، ولا يستسيغ جاها ولا سلطانا ففى الاطمئنان أمان على النفس والمال والولد ، وضمان للمستقبل فى الحياة الدنيا ، وشوق إلى الحياة الآخرة ، لأن جزاءه فيها جنة عرضها السموات والأرض أعدت له لأنه اتقى الله ، فعمل ماأمره به ، واجتنب مانهاه عنه ، يقول تعالى :
﴿**أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما * خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما**﴾(٢١٩) .

التضحية

لا يتحرر المؤمن بإيمانه من سطوة الجبابرة وطغيان الظالمين إلا إذا كان صادقاً فى إيمانه . ولاتناله الطمأنينة إلا إذا صدَّق عملُه قولَه ، فالإيمان بالله — فى العقيدة الإسلامية — ليس قولا يعلن فقط ولا شهادة ينطق بها اللسان وحده ، ولا تظاهرا أمام الناس بتلاوة آيات من القرآن الكريم فى مقام الاستشهاد على شدة ارتباط المرء بالإسلام ، أو الاستدلال عند الضرورة على الانتماء إلى الجماعة الإسلامية .
كذلك ليس الإيمان — فى العقيدة الإسلامية — نصائح يرددها الإنسان بلسانه ليسمعها

(*) الحجر ٤٢
(٢١٨) الرعد ٢٨
(٢١٩) الفرقان ٧٥ — ٧٦

الآخرين . ولا دراسة يتقنها لتعليمها لغيره احترافا ، وإنما هو تصديق بالقلب ، يُقوِّم السلوك ، ويدفع الإنسان إلى التضحية بالمال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وترسيخ مبادىء الدين فى المجتمع سلوكا ونظاما . فالمظهر الخارجي الذى لايكون صدى لما وقر فى القلب لايعد إيمانا بالمعنى الصحيح ، ولهذا رد الله على الأعراب ادعاءهم الإيمان ، لأنه لم يكن صادرا عن القلب ، يقول تعالى : **﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾**(٢٢٠) . أى أنكم لم تؤمنوا حقيقة بالإسلام ، ولم يستقر الإيمان فى قلوبكم ، إذ كل مافى الأمر أنكم أعلنتم فقط رضاكم بالإسلام أمام الملأ إما خوفا ووقاية ، أو طمعا فى دنيا ، فإن قلتم أنكم أعلنتم الإسلام دينا لكم كنتم صادقين فيما تقولون ، ولكن قولكم : أنكم آمنتم بالله فهو غير صحيح ، لأن للإيمان مقتضيات تستوجب التضحية : وهى إما بالنفس والمال أو بهما معا ، وكذلك بالولد إن كان هناك ولد ، ولم يكن الإيمان لحظة ماسبيلا إلى النفع والمغانم ، ولا طريقا إلى الحياة ومتاعها .

فالإيمان تصديق بالقلب يحمل المؤمن على البذل والعطاء دون انتظار لمنفعة دنيوية ، أو نعيم عاجل ، إنما يكون هدفه طاعة الله وإحقاق الحق ، وتطبيق النظام الإسلامى ، ولا يألو المؤمن جهدا فى سبيل تحقيق ذلك ولو أدى الأمر إلى بذل كل مايملك من حياة وغيرها ، يقول الله تعالى : **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم ، وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾**(٢٢١) .

فالإيمان بالله رسالة شاقة ، وطريقها عسير ، فهى تتطلب من المرء أن يتنازل عن المال الذى تسعى النفوس عادة إلى جمعه ، وقد تسعى إلى اكتنازه ، كما يقوم الإيمان الصادق على إيثار الموت على الحياة وهى أعز مايحرص الإنسان عليه ، وأكثر مايجبن بسببه .

وليس هذا طريقا سهلة ، إذ طريق المؤمن ملىء بالصعاب وملغم بالمحن والأزمات ، بل تكاد تكون الصعاب هى السمة الغالبة فى حياة المؤمن ، وتلك من الأمور البدهية ، وإلا ادعى كثير ممن لم يخترق الإيمان شغاف قلوبهم أنهم أصدق الناس إيمانا ، يقول تعالى : **﴿لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾**(٢٢٢) .

فمن كان هذا شأنه فى إيمانه ، وصدق عقيدته ، مكن الله له فى الأرض ، وأسبغ عليه

---

(٢٢٠) الحجرات ١٤

(٢٢١) الحجرات ١٥

(٢٢٢) آل عمران ١٨٦

نعمه ظاهرة وباطنة يقول تعالى : ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا**﴾(٢٢٣) .

كما يرضى الله عنه فيجزيه فى الآخرة جزاء حسنا يقول تعالى : ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه**﴾(٢٢٤) .

فمن يحرص على الإيمان بالله ، لايكون هدفه جزاء دنيويا ، ولن ينتظر من وراء إيمانه اليسر فى الحياة الدنيا ، فهو عاقد العزم على مواجهة الصعاب وملاقاة المتاعب ليحقق ماأمره الله به ، وعند ذلك سينال ماوعد الله به المؤمنين من الاستخلاف فى الأرض والثواب فى الآخرة ، وسوف يتحقق ذلك لكل من آمن ولم يرتب ، وجاهد فى سبيل الله بماله ونفسه جهادا خالصا لوجهه سبحانه وتعالى .

الانسانية

يحرر الإيمان الصادق صاحبه من العبودية لغير الله ، فلا يخضع لأحد سوى الله ، ولايرفع غيره من الموجودات أيًا كان — إلى مستواه فى العبادة والاحترام ، والطاعة يقول تعالى : ﴿**قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا**﴾(٢٢٥) .

فالشرك ليس عصيانا لله فحسب ، بل دليل أيضا على أن المشرك انتقص من قيمة الإنسانية، لأن من ينزل الله من عليائه إلى مستوى البشرية ، أو يرفع انسانا مثله — أو أى شيء من المخلوقات الأخرى — إلى مستوى الألوهية ، يكون قد وضع الخالق والمخلوق فى مستوى واحد . وفى الوقت نفسه يكون قد حط من قدر نفسه ، وانتقص من قيمته ، حيث رفع من هو فى مستواه أو أدنى منه إلى درجة أعلى منه ، فيخضع له خضوع عبادة ويتزلف إليه تزلف المستعبد المستكين . ولا يكون المؤمن كذلك ، بل لايجوز له أن يرتكب هذا الإثم فى حق نفسه ، لأن الله لايرضى له هذا أبدا ، فهو يريد من المؤمن أن يعرف قدر نفسه وحقها فى الوجود ، ويقدر غيره أيضا حق قدره ، فلا ينزل أحدا من

(٢٢٣) النور ٥٥
(٢٢٤) البينة ٧ — ٨
(٢٢٥) الأنعام ١٥١

مكانه ، ولايرفع مخلوقا إلى مرتبة لايستحقها .

كما يهذب الإيمان سلوك المؤمن ، فيجعله كريما فى معاملته مع أقاربه ، سواء كان هؤلاء الأقارب آباء أم أبناء أو إخوة أو غيرهم من ذوى الأرحام ، فقد بين الله للمؤمن أن للأبوين فضلا عليه لما لهما من أثر كبير فى حياته ، إذ كانا السبب فى وجوده — أو بتعبير ادق : وسيلة وجوده — ورbياه صغيرا ، ورعياه كبيرا ، فلا ينبغى له أن يهملهما عندما يمران بمرحلة الحياة الأخيرة ، فعليه أن يوفر لهما فى هذه المرحلة كل رعاية مادية كما يقدم لهما مايجعلهما يحسان منه الاحترام والتوقير ، فلا يجرح إحساس أى منهما ، مهما كان هناك من فرق فى الأوضاع الاجتماعية والمستويات العامة بينه وبينهما ، يقول تعالى : **﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا﴾**(٢٢٦) .

فيجب على المؤمن أن يبذل ماوسعه الجهد مع أبويه حتى لايضيق صدرهما به فلا يجعلهما يحسان بأنهما عبء عليه فى التكلفة والنفقة ، ولا ينبغى أن يبدو منه مايذكرهما بضعفهما ، أو يشعرهما بأنه يتمنى التحرر من مسئوليتهما .

وعلى الرغم من أن الله وضع فى الوالدين غريزة العطف على الأبناء والميل فطريا إلى رعايتهم فقد أوصاهما بعدم التبرم بنفقتهم لأن الله هو الذى يرزقهم جميعا ، فقال تعالى : **﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾**(٢٢٧) .

فحرمت الآية قتل الأولاد تخلصا من أعبائهم ، إذ ناشدت الآباء ألا يقدموا على ذلك لأن الله فى واقع الأمر هو الذى يرزق الطرفين معا .

ومما يرتفع فى الحرمة إلى مستوى قتلهم : التبرم بهم وقهرهم وسبهم والتضييق عليهم بحيث يقعون تحت شعور نفسى عميق بأنهم عالة أو بأنهم عبء على الوالدين ، الأمر الذى يعوق تطورهم حتما ، ويكون عندهم مركب النقص لوجودهم وإحساسهم بعدم قيمتهم فى الحياة .

ومن هنا كان المؤمن على سبيل الحقيقة هو ذلك الإنسان المتفائل فى حياته الذى يملأ

---

(٢٢٦) الاسراء ٢٣ — ٢٤
(٢٢٧) الأنعام ١٥١

جوانب نفسه بالأمل فى الله وبالتوكل عليه فى مسعاه ، إذ ربما ماينفقه على ولد له كان سينفقه على مرض يصيبه ، وشتان بين الإنفاق على مرض يضعف أو يميت ، والانفاق على ولد يحيا ويزدهر .

العطف والرعاية

يغرس الإيمان فى نفس الإنسان حب الخير للغير ، سواء كان هذا الغير قريبا أم غير قريب ، وسواء قرب جواره فى السكن أم بَعُد ، يقول تعالى : ﴿**واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ومامكلت إيمانكم**﴾[٢٢٨] .

ومن أولى الناس بالعطف والرعاية بجانب الوالدين والأبناء : الزوجة ، لأنها تُكَوِّن معه خلية واحدة فى المجتمع ، فلو تنافر قطبا هذه الخلية اختل التوازن فى الحياة الاجتماعية ، وهى سكن له ، فإذا لم يجد لديها الاطمئنان اضطربت حياته يقول تعالى : ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾[٢٢٩] .

ولهذا رسم القرآن الكريم العلاقة بينهما على أساس حسن المعاشرة ورعاية كل منهما لحقوق الآخر ، وقيام كل طرف بما عليه من واجبات تجاه الآخر ، فلو التزم الجانبان بما رسمه القرآن الكريم لهما ، لرفرفت أجنحة السعادة على حياتهما الزوجية ،ولعاشا فى حب وسعادة يحدوهما الأمل فى المستقبل ويحف بهما النجاح فى كل مايباشرانه من أعمال .

فقد وصى الإسلام الرجل أن يظهر لخطيبته مايؤكد لها أنه يحبها ، وذلك يكون ــ بالاضافة إلى الظواهر العاطفية التى تبدو على ملامح الخطيب عند اللقاء ــ بتقديم الهدايا لها ، ولو كانت غير ذات قيمة من الناحية المادية ، لأن قيمتها بين المحبين تكمن فيما تعبر عنه من مشاعر تجاه الطرف الآخر ، يقول رسول الله ﷺ : «**التمس ولو خاتما من حديد**» أى أعطها شيئا حتى ولو كان ماتعطيه خاتما من حديد ، لأن ذلك يغرس فى قلبها المودة والمحبة . ومايشاع فى الغرب عن الإسلام من أنه فرض مهرا على الرجل ليشترى به المرأة ليس صحيحا ، لأن المهر ليس إلا رمزا للحب والائتناس بالزوجة حيث يشعرها بأنه

---

(٢٢٨) النساء ٣٦

(٢٢٩) الروم ٢١

راغب فيها ، ومستعد للتضحية فى سبيل إرضائها ، ومايقدمه لها هو ملكها لايأخذه أحد منها ، فلا ينطبق عليه أركان الشراء الذى يزعمونه .

فإذا انتقلت معه إلى بيت الزوجية ، فإن السلوك القائم على احترام كل للآخر ، وحفظ حقوق كل طرف هو الإطار الذى رسمه الإسلام للحياة الزوجية ، فقد أعطى المرأة الحق فى أن تحتفظ بمالها لنفسها ، وتستثمره كما تشاء دون أن يتدخل الرجل فى فرض رأى عليها أو إرغامها على اتجاه معين ، فهى مستقلة فى المعاملات المادية استقلالا تاما ، أما إذا تنازلت هى عن هذا الحق عن طيب خاطر لزوجها فلا يحرم الإسلام عليها ذلك .

كذلك يفرض الإسلام على الرجل القيام بكل ماتتطلبه المعيشة من نفقات دون أن يفرض على المرأة شيئا من ذلك ، غير أنه حثها على مساعدة الزوج فى هذا الجانب إذا كان دخله لايكفى لمتطلبات الحياة ، وذلك لايكون من باب الإلزام الذى يؤخذ بحق القانون والقضاء ، بل من باب حسن المعاشرة ، فما دامت هى شريكة حياته ، فينبغى عليها من باب الإنسانية أن تقدم له يد المعونة ، إن كان هو فى حاجة إلى ذلك وإلا أصبحت الحياة بينهما فاترة ، إن لم تصل إلى حد التنافر والتشاحن ، وذلك مخالفا لأمر الله سبحانه وتعالى حيث يقول : ﴿**وعاشروهن بالمعروف**﴾(٢٣٠) .

وكما فرض الإسلام على الرجل الإنفاق على بيت الزوجية ، لأن الغالب الأعم فى المجتمعات البشرية أن الرجل هو الذى يسعى لكسب قوت الأسرة ، فرض على المرأة أن ترعى شئون البيت ، وتربية الأولاد بما يضمن للحياة الزوجية عيشة سعيدة ، فإن شاركت المرأة الرجل فى السعى على الرزق — أى إذا خرجت للعمل — فيجب على الرجل ألا يتركها تتحمل العبء وحدها مضاعفا ، بمعنى ألا يتركها تعمل وترعى البيت دون أن يشاركها على قدر المستطاع لتخفيف العبء عنها ، ولا ضير فى ذلك ، فقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عما كان النبى ﷺ يصنع فى بيته فأجابت : « كان يكون فى مهنة أهله — تعنى خدمة أهله — فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة » فيستفاد من هذا الحديث أن النبى ﷺ كان يساعد أهل بيته فيما يقومون به داخل البيت . وعليه فإذا خرجت المرأة إلى العمل لتساعد فى تحسين الحياة المادية ، فلا أقل من أن يؤدى الرجل مايخفف عنها عبءالعمل لأن ذلك من حسن المعاشرة التى وصى الله بها فى كتابه العزيز .

---

(٢٣٠) النساء ١٩

فلو التزم كل فرد فى الأسرة بتأدية ماعليه من واجبات إزاء الآخرين ، وحفظ حقوق كل فرد فى الأسرة سواء فى ذلك الآباء والأبناء لقامت الخلية الأولى فى المجتمع على أساس متين ولأرسيت قواعد متينة فى مجال الأخلاق ، مما سيكون له أثر فعال فى معاملة أفراد الأسرة مع بنى وطنهم من الأسر الأخرى .

فإذا انتقلنا من الأسرة إلى دائرة أوسع فى المجتمع ، لوجدنا أن الإسلام وصى خيرا بذى القربى ، وأمر بالمحافظة على صلة الرحم ، فقال تعالى : **﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله﴾**(٢٣١) . وقال رسول الله ﷺ : **«خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى»** . لأن من لايرحم قريبه فهيهات أن يكون فى قلبه رحمة لمن لايمت إليه بصلة قرابة ، ومن لايقدم العون لمن هو أقرب إليه من غيره فنادرا ماتكون لديه العاطفة التى تدفعه إلى مد يد المعونة لمن يحتاج إلى المساعدة، ومن انتزعت من قلبه الرحمة على أهله ، وذوى عشيرته ، فقد فقد الشعور الذى يوجهه إلى العطف على الآخرين من بنى جنسه ، ولهذا كان منهج الإسلام فى تربية الفرد قائما على أساس تعويد الإنسان على العطف والحنان لمن يليه فى القرابة أولا ، لأن ذلك أقرب وأسرع فى غرس مبدأ الانتماء إلى المجموع ، ذلك الانتماء الذى يشعر الفرد بأن كيانه مرتبط بوجود الهيئة الكلية لعشيرته ، فيدفعه ذلك إلى المحافظة على كل فرد فيها ، ويغرس فيه حب التعاون حتى لايتصدع الكيان الذى ينتمى إليه ، فيكون فى ذلك فناء وضياع لذاته أيضا .

ولم يطلب الإسلام من المسلم أن يرعى أقرباءه من الجانب المعنوى فقط ، بل حثه على تقديم العون المادى لهم ، لا على اعتبار أن مايقدمه لهم من باب الإحسان على الفقراء والمساكين ، بل من زاوية أنهم أقرباؤه ، لهم حق فى ماله ، ماداموا عاجزين عن كسب مايقتاتون به ، يقول الله تعالى : **﴿فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون﴾**(٢٣٢) . ويقول : **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآت المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب﴾**(٢٣٣) .

---

(٢٣١) الانفال ٧٥

(٢٣٢) الروم ٣٨

(٢٣٣) البقرة ١٧٧

فيفهم من تقديم حق ذوى القربى فى هذه الآيات على حق غيرهم من الفقراء أن لهم المنزلة الأولى فى تقديم العون المادى لهم إن كانوا فى حاجة إليه ، وماذاك إلا لأن الإسلام يريد أن تبنى هذه العلاقة على أساس متين ، لأنها اللبنة الأولى — بعد لبنة الأسرة الصغيرة — فى المجتمع ، ولا تستقيم حال أى مجتمع ويشتد عوده إلا إذا كانت الوحدات التى يتركب منها صلبة قوية ، قادرة على مواجهة تيارات الحياة ، وتقلبات الزمن التى تقضف بكل بناء مفككة أوصاله ، وممزقة خيوط الروابط الأسرية فيه ، ولهذا جعل لكل من يقدم شيئا لقريبه أجران : أجر القرابة ، وأجر الصدقة ..

فقد روى النسائى والترمذى أن رسول الله ﷺ قال : «**الصدقة على المسكين صدقة .. وهى على ذى رحم ثنتان : صدقة وصلة**» .

○ ○ ○

حث الإسلام على رعاية الجار ، سواء كان ذلك فى المعاملة ، أو فى تخفيف مايعانيه الجار من نوائب الدهر ، وكوارث الزمن ، إذ من حق الجار على جاره ألا يصدر منه مايؤذيه أو ينغص عليه صفو هدوئه ، فلا يحدث أصواتا تزعجه ، ولا يأتى من الأعمال مايلحق الضرر به ، وذلك تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز حيث يقول : **﴿واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب﴾**(٢٣٤) .

فجاءت الوصية بالجار مع الوصية بعدم الإشراك بالله فى آية واحدة ، وماذاك إلا لأهمية علاقة الإنسان بجاره فى التعاليم الإسلامية ، لأنها الحلقة التالية — بعد حلقة ذوى القربى — فى السلسلة الاجتماعية التى ينبغى أن تكون متماسكة . لتقوم الحياة على أساس متين ، وركيزة قوية . ومما يؤكد أمر الإسلام بالإحسان إلى الجار قول رسول الله ﷺ فيما ترويه عائشة رضى الله عنها : «**مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**» .

فالإسلام يطلب من المسلم أن يتأدب مع جاره والمشارك له فى السكن ، سواء كان

(٢٣٤) النساء ٣٦

هذا الجار مسلما أو غير مسلم ، إذ يروى أبو ذر عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهم : أنه ذبحت شاة فى بيته ــ أى بيت عبد الله بن عمر ــ فقال : أأهديتم لجارى اليهودى ؟ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»** .

فلا يجوز لمسلم أن يأتى من الأفعال مايؤذى جاره ، فلا يستعمل جهاز الراديو أو غيره من الأجهزة على نحو يزعج جاره أو يعكر عليه صفو هدوئه ، أو يقلقه فى فترات الراحة ، أو يشوش عليه أثناء عمله الذى يحتاج إلى جو هادىء . كذلك لايستخدم النوافذ والشبابيك استخداما يسىء إلى أحد من جيرانه ، ولايستعمل سيارته بطريقة تقلق النائمين أو تضايق الناس فى مساكنهم فتحول بينهم وبين الاستمتاع بالهدوء والراحة ، لأن من يفعل ذلك فإنه يرتكب إثما ، قد يخرجه عن حظيرة الإيمان الكامل ، لما يرويه أبو شريح عن رسول الله ﷺ أنه قال : **«والله لايؤمن والله لايؤمن ، والله لايؤمن ، قيل : من يارسول الله ؟ قال : الذى لايأمن جاره بوائقه»** كما ذكروا لرسول الله ﷺ امرأة تصلى الكثير وتقوم الكثير ولكنها تؤذى جيرانها فقال : **«هى فى النار»** .

كل ذلك ينطوى عليه الأمر بالإحسان إلى الجار ، ذلك أن الإحسان يشمل ــ فيما يشمله ــ عدم إيذاء الجار ، أيًّا كان نوع هذا الإيذاء ومصدره ، كما يتضمن محاولة التخفيف عنه إذا ألم به كرب ، ومساعدته فى حالة احتياجه إلى المساعدة ، فلو ألمت بأحد مصيبة فى عزيز لديه ، أو فيما عنده من مال وجب على الجيران أن يهرعوا لمساعدته ، كل على قدر طاقته ، وكذلك لو كان فقيرا ، ليس عنده مايقتات به ، فجيرانه مطالبون بالوقوف معه لاجتياز محنته ، فإن كان فى حاجة إلى عمل ، وجب على من يقدر على تدبيره له أن يقوم بهذا الواجب ، وإن كان عاجزا لايقدر على كسب قوته وجب عليهم العمل على تدبير مايقتات به ، ولا يتركونه يموت جوعا ، يقول رسول الله ﷺ : **«والله لايؤمن من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم»** .

ومن الأحاديث التى فصلت حق الجار مارواه معاذ بن جبل قال : قالوا : يارسول الله ماحق الجار على جاره ؟ قال : إن استقرضك أقرضته ، وإن استعانك أعنته ، وإن مرض عُدته ، وإن إحتاج اعطيته ، وإن إفتقر عدت عليه ، وإن أصابه خير هنأته وإن أصابته مصيبة عزيته ، وإن مات اتبعت جنازته ، ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذيه بريح قدرك إلا أن تغرف له ، وإن اشتريت فاكهة فاهد له ، وإن لم تفعل فأدخلها سرا ولا تخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده .

هذه هى العناية بالجار ، وهى الدعامة الأساسية فى تكوين المرحلة الأولى لوحدة

الجماعة . إذ لو قامت وحدة بين الجار وجاره على أساس من المعاونة والمشاركة النفسية والوجدانية والمادية لأصبحت الجماعة التى تشيع فيها هذه الروح بين أفرادها من أشد الجماعات قوة واتحادا ، وأكثرها إيجابية فى حياتها الخاصة والعامة ، وأصلبها عودا فى مواجهة الأزمات ، وأوفرها انتاجا فى المجالات المختلفة فتكون أسرع فى بناء صرح الحضارة الانسانية التى تنشدها كل شعوب الأرض .

إن الإسلام حين يوصى بالجار خيرا ، لاينشد إلا سعادة الناس التى تنبع أساسا من الطمأنينة فى الحياة ، ولاشك أن إحساس الإنسان بأنه لن يضيع بين جيرانه لهو المصدر الأساسى فى وجود الطمأنينة التى تساعد على العمل المثمر ، فتسعد القلوب ، وتطمئن النفوس . .

لم تقتصر تعاليم الإسلام على الحث على رعاية، ذوى القربى والجار فقط، بل شملت أيضا الوصية بأن تكون المعاملة بين المسلمين — أيًّا كان موقعهم فى المجتمع — قائمة على مبدأ الأخوة التى تقتضى أن يحافظ الإنسان على شعور أخيه ، وأن يكون عونا له ، عندما يحتاج إلى مساعدة ، وذلك بأن يقف بجانبه عند الشدائد ، ويشد أزره فى الملمات ، ويكون درعا يقيه شر المصائب ، وذلك امتثالا لقول رسول الله ﷺ : **«مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»** .

فلا يكمل الإيمان إلا إذا أحسّ المؤمن أنه عضو فى كيان كلى : هو المجتمع ، وأن من واجبه المحافظة على أفراد هذا الكيان ، كما يحافظ على ذاته ، لأن وجود ذاته لاتتحقق إلا إذا كان الكيان الكلى الذى ينتسب إليه — وهو المجتمع — سليما كله لايعتوره ضعف فى أى جانب من جوانبه ، ولا تتفكك أوصاله بسلوك كل فرد طريقا خاصا به ، بعيدا عن الجماعة ، وقد حذر الرسول ﷺ من هذا العمل بقوله : **«إنما يأكل الذئب القاصية»** .

أمانة الكلمة وصلاح العمل

لايكون الإيمان صحيحا إلا إذا قامت العلاقة بين المسلمين على أساس من الصدق فى الشعور ، فلا تكون المعاملة قائمة على الخداع والمواربة ، والتناقض بين الظاهر والباطن ، والتضاد بين مايخفى ومايعلن ، فالمؤمن بالنسبة لأخيه صفحة بيضاء واضحة نقية ، لاتنطوى على جوانب سيئة ، فكما حارب الإسلام الخداع فى علاقة المسلمين بالله ،

فطلب منهم أن يكونوا مخلصين فى عبادته فى قوله تعالى : ﴿**فاعبد الله مخلصا له الدين * ألا لله الدين الخالص**﴾(٢٣٥) . نصحهم أيضا بألا تنطوى قلوبهم على الغش والخديعة لغيرهم ، فبشر من يصفى قلبه من الأمراض التى تهز وحدة المجتمع ، وتهدد كيانه ، بأن الجنة مكفولة له يوم القيامة ، إذ يروى أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل ، ثم قال لى : وذلك من سنتى ومن أحيا سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة**» .

ومايشاع بين الناس من أن الخداع ضرب من الكياسة فى المعاملة ، هو فى واقع الأمر مكر سيء يحاربه الإسلام ، ويدعو إلى نبذه فى العلاقات الإجتماعية ، بل يحتقر كل من يمارسه بهذه الصورة مع إخوانه فى المجتمع ، يقول تعالى : ﴿**ولا تطع كل حلاف مهين * هماز مشاء بنميم**﴾(٢٣٦) . فبهذه الآية الكريمة ينصح المولى عز وجل رسوله الكريم بتجنب كل من يسعى إلى الإفساد فى مواربة وخداع ، لأنه إنسان مهين حقير ، لم يرع حقوق إخوانه فى المجتمع، ولم يحافظ على الروابط الاجتماعية المقدسة، فسعى إلى الإفساد فيما بينهم، فارتكب بذلك جرما فى حق الجماعة، يحتم على كل من يراه أن يحاربه ومن أسلوب المحاربة : تجنب هذا الذى يسعى إلى تمزيق العلاقة الأخوية بين الناس .

ويندرج تحت هذا النوع من الخداع مايعتبره البعض نوعا من اللباقة الدبلوماسية لأنه عمل ينطوى على الغش والخداع ، الذى يحاربه الإسلام ، فالذى يعلن صداقته للدين وهو يحاربه : مخادع . والذى يعلن عشقه للحرية الفردية ، أو الشعبية وهو شاهر سيفه : مخادع . والذى يعلن تودده للفقراء ، وهو ممسك البذل والاعطاء مخادع . والذى يعلن حبه للإنسانية وهو جلاد أو مستغل : مخادع . والذى يعلن حسن العلاقة بينه وبين القيم الرفيعة والفضائل الإنسانية وهو مادى مَنحرف فى ماديته : مخادع .

فالخداع من أفتك الأمراض التى تهدد وحدة المجتمع ، إذ يقطع العلاقة بين أفراده ويمزق الروابط التى يقوم عليها بناء الحياة الاجتماعية ، فتقطع أوصال الأمة بحيث لاتقوى على بناء ، ولا تستطيع المحافظة على مالديها من إنجازات حضارية ، بل ينهار كل ماعندها بمجرد وجود هذه الظواهر الاجتماعية التى تفكك تماسك الأمة وترابطها ، ومن هنا جاءت آيات عديدة فى القرآن الكريم تحذر المسلمين من العادات السيئة التى تؤثر على وحدة

---

(٢٣٥) الزمر ٢ ــ ٣

(٢٣٦) القلم ١٠ ــ ١١

الأمة وتماسكها فقال تعالى : ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**﴾(٢٣٧) . وقال : ﴿**ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله**﴾(٢٣٨) . وقال : ﴿**فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا**﴾(٢٣٩) .

فالخداع نوع من أنواع المكر ، وهو من أكثر الأسباب فتكا بوحدة الأمة إذ هو يفرقها شيعا وأحزابا ، ويمزقها زمرا وأنسابا ، ومن هنا كان لابد من الالتزام بما أوصى الله به ، لأنه لو نفذ المسلمون ماأمر الله به فى مجال العلاقات الاجتماعية لصار المجتمع وحدة صلبة ، لاتؤثر فيها عواصف الزمن ، ولاتنال منها كوارث الدهر وقد جاء التعبير عن هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون**﴾(٢٤٠) .

أمر الإسلام المؤمنين بألا يقفوا موقفا سلبيا إزاء مايحدث بين اخوانهم من نزاعات وخصومات ففرض عليهم التدخل بين المتنازعين بغية الاصلاح فيما بينهم ، فإن تجاوز أحد الخصمين الحدود المشروعة فأبى إلا أن يستمر فى المنازعة مع خصمه فعلى المسلمين أن يوقفوه عند حده ولو اقتضى الأمر قتاله يقول تعالى : ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم**﴾(٢٤١) .

كذلك أوصى الإسلام بتحقيق العدالة فى المجتمع فلا يجوز لذى قوة وبطش فى المجتمع أن يستغل هذا المركز فى أكل حقوق المواطنين ، ولايحل لصاحب مال أو جاه أن يستخدمه فى استغلال الناس واستعبادهم، ولا ينبغى لمن بيده مصادر الطعام والشراب أن يتصرف فيهما على نحو يسىء إلى المواطنين ، فكل قادر على تخفيف آلام الناس وتسهيل الحياة عليهم ، وجب عليه أن يقدم ماعنده للمحتاج إليه ، فعلى من يملك المال ويباشر استثماره أن يراعى أن للآخرين من أفراد المجتمع المحرومين العاجزين عن العمل حقا يتعين

---

(٢٣٧) الأنفال ٤٦

(٢٣٨) فاطر ٤٣

(٢٣٩) النمل ٥١ ــ ٥٢

(٢٤٠) آل عمران ١٠٣

(٢٤١) الحجرات ٩ ــ ١٠

أداؤه دون انتظار مقابل منهم ، يقول تعالى : ﴿**آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير**﴾[٢٤٢] . ويقول : ﴿**إن الإنسان خلق هلوعا*إذا مسه الشر جزوعا*وإذا مسه الخير منوعا*إلا المصلين* الذين هم فى صلاتهم دائمون*والذين فى أموالهم حق معلوم*للسائل والمحروم**﴾[٢٤٣].

وقد ذكر القرآن الكريم الأصناف الذين يحتاجون إلى العون المادى فقال : ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم**﴾[٢٤٤] .

هذا بالاضافة إلى أنه مطالب بإعطاء من يعمل معه حقه بالكامل، فلا يبخسه أجره على عمل يؤديه ، ولا يكلفه أكثر من طاقته فى العمل ، وإن احتاج إلى عون فى أدائه شاركه فيه ، يقول رسول الله ﷺ : «**إخوانكم خولكم (أى خدمكم) . أطعموهم مما تطعمون أنفسكم ، واكسوهم مما تلبسون ، وإن كلفتموهم بأمر لايطيقونه فأعينوهم على أدائه**» ..

ويأمر الإسلام صاحب المال الذى يتعامل مع الناس بألا ينقصهم الكيل والميزان فى البيع والشراء ، ولايخدعهم أو يغشهم فى العقود التى يبرمها معهم ، ولا يكرههم بطريق مباشر أو غير مباشر على قبول مايلحق الضرر بهم ، يقول تعالى : ﴿**وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**﴾[٢٤٥] . ويقول : ﴿**ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون**﴾[٢٤٦] .

فإذا قامت العلاقة بين المواطنين على أساس الشعور بالأخوة ، فحافظ كل فرد على حقوق الآخرين الذين يعيشون معه فى المجتمع ، وبذل من يقدر على العطاء للمحتاجين كل مامن شأنه أن يخفف عنهم عبء الحياة ، والتزم جميع الأفراد بالتواصى بالخير ، والنهى عن المنكر ، لأصبح المجتمع متماسكا قويا قادرا على الانجازات الحضارية فى جميع الميادين.

---

(٢٤٢) الحديد ٧

(٢٤٣) المعارج ١٩ ـــ ٢٥

(٢٤٤) التوبة ٦٠

(٢٤٥) هود ٨٤.

(٢٤٦) المطففين ١ ـــ ٣

وذلك ماينشده الإسلام للمجتمعات الإنسانية .

والصدق من الصفات الحميدة فى الإنسان ، بل إنه من أفضل الصفات الإنسانية على الاطلاق ، ذلك أن من يتحلى بالصدق فى القول وفى العمل فهو لبنة صالحة فى بناء المجتمع الإنسانى ، لأن الصدق من أهم الدعائم التى تستقيم بها حياة الفرد ، وتصلح بها العلاقات الاجتماعية ، وتقوى بها الروابط بين الناس فى المجتمع .

ولهذا حث الإسلام عليه ووعد الصادقين جنات النعيم ، فقد ورد مدح الصدق والصادقين فى القرآن الكريم أكثر من خمسين مرة ، منها قوله تعالى : ﴿**ليجزى الله الصادقين بصدقهم**﴾(٢٤٧). ويقول: ﴿**قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد * الذين يقولون ربنا إننا امنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار*الصابرين والصادقين**﴾(٢٤٨) .

فذكر أن الصدق من صفات هؤلاء الذين سينعمون بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، يقول تعالى : ﴿**قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم**﴾(٢٤٩) . كذلك ورد فى حديث رسول الله ﷺ مايدعو المسلمين إلى التحلى بالصدق فى القول والعمل ، فقد روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : «**من أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه ، ومن أشار على أحد بعلم ، وهو يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه**» .

فيبدو من هذا الحديث أن الرسول ﷺ ينبئنا أن من الخيانة عدم الصدق فى المشورة ، وعدم الإخلاص فى النصيحة ، فالذى يشير على غيره بأمر وهو يعلم أن الهداية والرشد فى غير ما أشار به فقد خدعه وأضله ، إذ لم يصدقه فى النصح ، وهو بهذا قد خان العهد الذى ينبغى أن يكون بين المسلم وأخيه المسلم ، كما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «**حق المسلم على المسلم ست ، قيل : ماهن يارسول الله ؟ قال : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه**» فجعل الحديث أن من حق المسلم على

---

(٢٤٧) الأحزاب ٢٤
(٢٤٨) آل عمران ١٥ — ١٧
(٢٤٩) المائدة ١١٩

أخيه المسلم النصح ، ولايكون الأمر نصحا إلا إذا صدر عن إخلاص واعتقاد بأن فيه الهداية والرشد .

فالصدق صفة مطلوبة ، وفضيلة يجب أن يتحلى بها كل مسلم فإن لم يفعل ذلك كان جزاؤه النار وبئس المصير ، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ومايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا . وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور . وإن الفجور يهدى إلى النار ، ومايزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا**» .

فالحديث يحث على الصدق ، ويوضح أنه سبيل إلى البر والخير والإحسان فى الحياة الدنيا ، سواء كان للإنسان الذى يلتزم بالصدق أو لمن يتعامل معه ويتصل به ، بالإضافة إلى أنه طريق يوصل صاحبه إلى ثواب الله فى الآخرة .

كما حذر المسلمين من الكذب ، فبين أن عاقبته سيئة على الكاذب ، فهو مهلكة له ولمن يتعامل معه ، ذلك أن أثره السيء يعود عليهم جميعا فهو موصل إلى الفجور ، والموبقات والتصرفات المرذولة فى الحياة الدنيا ، ثم هو بعد ذلك طريق يقود صاحبه إلى النار فى الآخرة .

وكما حث الإسلام المسلمين على الالتزام بالصدق فى القول ووعد من التزم به جزاء فى الدنيا ونعيما فى الآخرة ، كذلك أمرهم بالصدق فى العمل ، فقد قال رسول الله ﷺ : «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**» .

وقد ورد ذكر العمل الصالح والحث عليه فى آيات عديدة من القرآن الكريم، ولو رمت تلاوة تلك الآيات التى ورد فيها حث المؤمنين على العمل الصالح والإخبار بالجزاء المعد لمن يمتثل لأمر الله فيعمل صالحا ، لضاق بنا المقام ، ولهذا سوف أكتفى بتلاوة بعض منها ، يقول الله تعالى : ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبه ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون**﴾(٢٥٠) . ويقول تعالى : ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم**﴾(٢٥١) .

---

(٢٥٠) النحل ٩٧

(٢٥١) البقرة ٢٧٧

ويفهم من تكرار العمل الصالح والحث عليه فى القرآن الكريم أن له أهمية خاصة ودوراً أساسياً فى حياة الإنسان الدنيوية والأخروية ، ذلك أن الالتزام بأداء الأعمال على وجهها الأكمل بحيث تصير صالحة يعود على الإنسان فى الحياة الدنيا بالخير وفى الآخرة بالثواب .

فكيف يكون أداء الفرائض الدينية وسيلة لنيل الخير فى الدنيا ؟

يفهم من هذا السؤال أن السائل يقصر مفهوم العمل الصالح على أداء العبادات فقط من صيام وصلاة وزكاة وحج وغيرها .

قد يكون هذا المفهوم شائعاً بين الناس ، فعندما يقال : فلان صالح ، فإنهم يقصدون أنه ملتزم بأداء الفرائض ، أو هو دائم الحضور فى المساجد ولا يفتر عن تسبيح الله وتحميده ليلا أو نهارا .

وليس الأمر كذلك ، فإن الصالح من الأعمال لاينحصر فقط فى أداء العبادات المفروضة ، أو التطوع بالسنن الواردة فى كتب الدين ، بل إنه يتجاوزها إلى الأعمال التى يظن كثير من الناس أنها دنيوية ، إذ عندما وصف العمل بالصلاح فى القرآن الكريم لم يكن المقصود العبادات فقط ، بل كل مايباشره الإنسان من أعمال ، سواء أكانت زراعية أو صناعية .

فالفلاح الذى يتقن عمله فى حقله ، يكون قد أدى عملا صالحا يعود نفعه عليه فى الدنيا ، وذلك بأن تصلح زراعته فتؤتى ثمارا طيبة ، يصيبه منها ربح مادى ، كما يخدم بذلك وطنه الإسلامى لأنه باجتهاده فى زراعته وإنتاجه محصولا طيبا يكون قد أسهم فى حل المشاكل الغذائية فى المجتمع ، وفضلا عن ذلك كله ، فالله سبحانه يمنحه ثوابا فى الآخرة على ماقدم لمجتمعه فى الدنيا .

كذلك العامل فى المصنع ، إذا التزم بأمر الله ونفذ ماوصاه به فى كتابه العزيز بأن يكون عمله عملا صالحا ، فيجب عليه بمقتضى هذا الالتزام أن يتقن صناعته فلا يخرج من تحت يده إلا مايكون صالحا للغرض الذى من أجله صنع ، فالعامل المسلم الصالح هو الذى يعتنى بما يصنع بحيث لايخرج من تحت يده إلا الصناعة المتقنة ، فلو فعل هذا لكان عمله صالحا ينال عليه خيرا فى الدنيا ، وذلك بسبب شهرة الاتقان التى تؤدى إلى أن يقبل الناس على شراء منتجاته ، كما يعود بالخير أيضا على أمته الإسلامية ، لأن شهرة إتقانها فى الصناعة يجعلها تحتل مركزا مرموقا بين الأمم ويحمل الناس على احترامها ، وفى ذلك

خير للإسلام ودعوة مباشرة إلى غير المسلمين للتفكير في هذا الدين الذى ربى أتباعه تربية جعلتهم يحرصون على إتقان مايصنعون ، خوفا من عقاب الله ، وطمعا فى ثوابه .

لعلك أدركت من هذا الشرح أن العمل الصالح الذى ورد ذكره كثيرا فى القرآن الكريم ليس مقصورا فقط على أداء الفرائض الدينية ، بل يشمل كل عمل يقوم به الإنسان ولذا جاء عطف الصلاة والزكاة عليه فى قوله تعالى : **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم﴾**(٢٥٢) .

فهذا يشير إلى أن العمل الصالح يشتمل على كل مايباشره الإنسان فى حياته ، وأن الجزاء سيكون أيضا لمن أتقن عمله ، وأحسن صناعته . والعقاب سيلحق المهملين الذين يخدعون الناس ويغشونهم فيما يقدمون لهم من صناعة غير متقنة .

وفق الله كل مسلم إلى اتقان عمله ، وتحسين بضاعته حتى يعم الخير فى الدنيا وننال الثواب فى الآخرة ، إنه سميع مجيب .

والاخلاص فى العمل من الوصايا التى وصى بها الله عباده ، فقد قال فى كتابه العزيز : **﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين﴾**(٢٥٣) . وقال تعالى : **﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين﴾**(٢٥٤) . وقال : **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾**(٢٥٥) .

فالإخلاص فى العبادة شرط أساسى لتنال القبول والرضا من الله سبحانه وتعالى ، وهو حصن من الحصون التى يحتمى بها الإنسان ضد غواية الشيطان وضلاله ، فقد جاء فى القرآن الكريم حكاية عن إبليس قوله: **﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾**(٢٥٦) .

فمن لم يخلص فى العبادة لله ، فلن ينال إلا المشقة فى تأديتها وهو رضوان الله وتهذيب النفس وتحصينها ضد الوقوع فيما يغضب الله ، حتى لايخسر الانسان دنياه وآخرته .

أما الخسران فى الدنيا ، فيتمثل فى إشاعة الفحشاء والمنكر فى المجتمع ، فينحل عقده

---

(٢٥٢) البقرة ٢٧٧
(٢٥٣) الزمر ٢
(٢٥٤) الأعراف ٢٩
(٢٥٥) البينة ٥
(٢٥٦) ص ٨٢ — ٨٣

وتضطرب أموره فينتشر الفساد فى الأرض ، وإذا انتشر الفساد عمت البلوى وضاع الأمن والأمان ، فتصبح الحياة كئيبة ، لاطعم لها ولا استقرار فيها ، وذلك هو الخسران المبين .

أما فى الآخرة فعقاب الله — وكفى ذلك إذلالا وعذابا لايعلم مداه إلا الله — فيجب على كل مؤمن أن يخلص العبادة لله وحده ، وأن يدعوه خالصا لوجهه سبحانه وتعالى حتى ينال الخير فى الدنيا والثواب فى الآخرة .

وكما أن الاخلاص فى العبادة شرط لصحتها ، وركن أساسى لنيل ثواب الله ، كذلك الإخلاص فى الأعمال الدنيوية مطلوب شرعا ، فإن الله لايقبل من الأعمال إلا ماكان خالصا ، فهذه إشارة للمسلم وطلب منه أن يكون فى جميع أعماله مخلصا ، وأن يؤدى مايكلف به على خير وجه ، وإلا لحقه غضب الله ولعنته . فقد ورد أن الله يحب إذا عمل الإنسان عملا أن يتقنه ، فإن لم يتقنه غضب الله عليه ولايكون الإتقان ولا يتحقق إلا إذا أخلص العامل فى عمله ، وحرص على أن يؤديه على الوجه الأكمل .

فالإتقان فى العمل والإخلاص فيه مطلوب لينال الإنسان الرضا من الله ، وليس الإتقان المطلوب مقصورا فقط على العبادات ، بل هو مطلوب فى كل عمل ، سواء أكان عبادة ، أو عملا يتعلق بالأنشطة الدنيوية ، ففى العبادة يطلب من المسلم أن يؤديها على نحو يؤدى إلى الهدف الذى من أجله فرضت ، فتأدية الصلاة مثلا ليس القيام بالركوع والسجود فحسب ، بل لايكون أداؤها كاملا إلا إذا أدت إلى البعد عن الفحشاء والمنكر ، يقول تعالى : ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر**﴾[٢٥٧] .

ويروى عن أنس قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد ، وحبل مشدود بين ساريتين فقال : ماهذا ؟ قالوا : حبل نتكىء عليه . قال : حلوه ليصل أحدكم نشاطه ، فإذا كسل أو فتر قعد .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : «**إذا قام أحدكم من الليل ، فاستعجم القرآن على لسانه ، فلم يدر مايقول فليضطجع**» .

فحرص الرسول عليه الصلاة والسلام على أن تؤدى الصلاة فى وقت نشاط الإنسان ويقظته حتى يكون واعيا لما يقول إذا وقف بين يدى الله ، وأعلن عن عدم رضائه عن

---

(٢٥٧) العنكبوت ٤٥.

تأديتها فى حال الكسل أو الغفوة لأن تأديتها عندئذ لايحقق الغاية منها .

كذلك مطلوب من الصانع فى الصناعة إذا كان حريصا على رضاء الله ومحبته أن يتقن عمله فيما يصنع ، أى يخلص فيه بالعناية فى اختيار النوع الأفضل وإجادة صناعته ولايخرج من تحت يده كمًّا لاينفع ، وصورا لاتؤدى الغرض المطلوب منها ، إذ التركيز على إتقان العمل وسيلة لترويج مايصنع ، وأسلوب يضمن دوام العمل لمن يعمل ، واستمرار الثقة فيما يخرج من تحت يده من آلات مصنوعة ، وأدوات معدة للاستعمال .

وفى التجارة .. يطلب من التاجر أن يتقن عمله ويخلص فيه وذلك بالامتناع عن الغش والخداع ، وأن يلتزم فى دعايته عن السلع المعروضة حدود المعقول ، فلا يتعداه إلى المبالغة التى تؤدى إلى إعطاء صورة كاذبة للمشترى عن السلعة .

كذلك فى المجالات الأخرى سواء كانت ثقافية أم مجالات خدمات ، يطلب من القائمين بها أن يتقن كل منهم عمله ، بحيث تؤدى الخدمات إلى مستحقيها أو توصل المادة الثقافية على وجه يحقق الفائدة منها .

فالإتقان فى العمل والإخلاص فيه يقوم على نفى الخداع حتى يكون طريقا إيجابيا لإصلاح المجتمع ، وسبيلا سويا يرضى الله عنه فيثيب صاحبه .

وما تفريق القرآن الكريم بين عمل مثمر ، وآخر غير مثمر فى قوله تعالى : ﴿**أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى * أم من يمشى سويا على صراط مستقيم**﴾(٢٥٨) . إلا إرشادا للمسلمين بأن يعنوا بنوع العمل قبل كَمِّه ، وبجودته قبل كثرته ، وبإيجابيته وثمرته فى الحياة قبل ضخامته .

ثورة فكرية

تقاس قيمة العقائد وأهميتها فى حياة الشعوب والمجتمعات الإنسانية بمقدار ماتحدثه فيها من تغييرات تنقلها إلى حياة أفضل مما كانت عليه قبل ظهور العقيدة ، وماتضيفه عليها من مظاهر تبعث الحيوية فى أرجاء المجتمع ، وتدفع عجلة النشاط الإنسانى إلى الأمام ليحرز الإنسان مزيدا من التقدم فى ركب الحضارة ، وليقفز فوق الدرجات فى سلم المدنية ، ليزداد رسوخا فى الأرض ، فتمتد جذور شجرة الحياة لتزداد ثباتا ، وتعلو فروعها فى

---

(٢٥٨) الملك ٢٢

السماء لتضفى على الإنسان راحة واطمئنانا وسكينة وأمنا ، وحينئذ تثمر له ماتقر له الأعين فى الدنيا، وتفرح به النفس فى الآخرة : **﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء*تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون﴾**(٢٥٩) .

وكلمة الإيمان مركز الكلام الطيب ومنبعه ، وأصل العمل الصالح وبدايته ، فبها يتحول الإنسان من الحيوانية إلى الملائكية ، ومعها يتغلب على مصاعب الحياة ، وآلامها ، وبفضلها يتخطى عقبات طريق المسيرة الإنسانية ، ويقوى على قهر وعورتها ، وطى آمادها ، وعلى أركانها تقوم الحياة الإنسانية ، وتتطور ، فهى تدفع صاحبها إلى العمل الدءوب والإنتاج المتميز ، فيتدفق عطاؤه للحياة ولا يتوقف ، ويستمر تطوره فلا يتعثر ، ويمشى قدما فلا يتراجع .

وفيما أحدثته العقيدة الإسلامية فى المسلمين الأوائل خير شاهد على هذا كله فلم يكن التحول الذى أحدثه الإسلام فيهم تحولا عاديا ، عندما نقيسه بالمقاييس التقليدية فى حياة المجتمعات ، بل كان قفزات فى جميع الميادين ، وطفرات فى كلا الاتجاهين : الزمانى والمكانى ، سواء كان فى داخل الإنسان نفسه ، أم فى مظاهر الحياة حوله ، إذ غيرت العقيدة الإسلامية عقل المؤمن الجديد تغييرا كليا وسريعا ، حيث هزته هزا عنيفا فخلصته من الضلال الذى ضرب حوله ، وقشعت عنه الظلام الذى ران على قلبه ، فانطلق بحيوية ونشاط يؤثر فى الحياة ويتفاعل معها ، ويتألق فى أرجائها مبدعا ومبتكرا ، فوجد ذاته بعد أن فقدها عبر القرون المظلمة ، وأكد فاعليته فى مجال الحياة بصورة أذهلت من حوله ، وحيرت فى تلمس أسبابها الباحثين ، الذين غابت عنهم الحقيقة الواضحة ، ألا وهى أن الإيمان قادر على أن يمكن صاحبه من عمل المعجزات .

لقد أعاد الإسلام تشكيل العقل البشرى ، فهداه إلى العمل فى آفاق الدنيا الواسعة ، بل دفعه إلى البحث فى جوانبها المتعددة ، والتنقيب عن أسرارها المتناثرة فى ارجائها ، ففى ذلك تأكيد لإنسانية الإنسان ، وكشف لأسرار الوجود ، حيث يهتدى إلى خالق هذا الكون ومدبره ، فيصل بذلك إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، بالاضافة إلى مايعود عليه بالنفع فى حياته الدنيوية ، حيث يتوصل عن طريق عمل العقل إلى بناء حضارى ، يعود عليه فى حياته ، بما يضفى عليه سعادة وراحة وهدوءا .

---

(٢٥٩) إبراهيم ٢٤ ــ ٢٥

كيف حدث هذا الدفع الإيمانى القوى لإنسان بدائى ، قدراته العقلية محدودة ، وإمكاناته متواضعة ، وظروفه لاتساعده على أن يتفاعل بهذه السرعة مع متطلبات هذه العقيدة التى قادته إلى هذه القفزة الهائلة فى حياة المجتمعات الانسانية ؟

ما السر فى أنه لم يحدث مايمكن توقعه فى مثل هذا التقابل بين القطبين المتنافرين ــ وهما : متطلبات الايمان ذات الأبعاد البعيدة ، وضعف الإنسان البدائى وعدم قدرته على تحمل مايطلب منه تحقيقه ــ من الانفصال والتباعد ، حيث تعجز قدرة الإنسان المحدودة عن التجاوب مع المطالب الجديدة التى تشده إلى الإسراع فى طريق التقدم ؟

لقد عجزت عقول بعض الناس عن استيعاب مايطلبه الإسلام منهم ، فكفروا به لأن ضعفهم أعجزهم عن فهم متطلبات الإيمان ، لكن الذين آمنوا به تغلبوا على هذا العجز ، وقهروا فى نفوسهم بوادر الإحباط فسادوا عليها . وساروا فى طريق الإيمان ملبين نداءه ، منفذين كل مايطلب منهم أن يغيروه ، فأرسوا بذلك قواعد مجتمع الإيمان ، وبدءوا بناء حضارة كانت ــ ولا زالت ــ حديث المجتمعات البشرية كلها . كيف كان ذلك ؟

المعرفة

تقوم الحضارات فى المجتمعات البشرية على أساس المجهود الانسانى ، ولذا اختلفت نوعياتها وأبعادها باختلاف قدرات الانسان الفكرية والعضلية ، وتشكلت طبقا للتركيبة التى يتكون منها : فسيولوجيا وفكريا ونفسيا ، وتأثرت بطريقة ديناميكية معها : عقلا وأسلوبا ومنهجا ، إذ هى لاتعتمد على جانب واحد من جوانب النشاط الإنسانى ، ولاترتكز على عنصر دون آخر فى حياة الإنسان ، فهو وحدة متكاملة ومتداخلة يؤثر كل جزئية منها فى مسيرة التقدم الحضارى بمقدار مايتمتع به من قدرة على الإسهام والتأثير فى ديناميكية الحياة .

فلو استعرضنا التحولات الكبيرة التى حدثت فى هذا المجال عند المسلمين الأوائل لتبين لنا أن العقيدة كانت من أولى العوامل وأهمها أثرا فى الحضارة الإسلامية ، وليس ذلك بغريب ، لأنها حررت عقل الإنسان وكرمته ، ووضعته فى موقعه الصحيح الذى استطاع منه أن يؤثر تأثيرا بعيد المدى فى بناء الحضارة ، إذ بتحويلها الإنسان من الإيمان بآلهة متعددة إلى الاعتقاد فى إله واحد ، أخرجته من دائرة التشتت بين آلهة متعددة إلى وحدة الألوهية ، فهو تحول من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن تقديس الحجارة

والأصنام والتماثيل والأوثان إلى محبة الله الواحد الذى لاتلمسه الأيدى ، ولا تراه العيون . وهذه نقله عقلية كبيرة . ارتفع بها عقل الإنسان من القناعة والرضا بالمحسوس ، إلى التحليق فى آفاق تعلو على معطيات الحس الغريب ، فخرج بذلك من دائرة الملموس إلى التفكير فيما وراء الحس فأكسبه ذلك قدرة على التخلص من السلاسل التى قيدته بالمادة ، فارتفع عنها إلى الروحانية . وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التحول فسماه خروجا من الظلمات إلى النور ، يقول الله تعالى : **﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾**(٢٦٠) . ويقول : **﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾**(٢٦١) . فهو تحول كامل من النقيض إلى نقيضه ، إذ بعد أن كان الإنسان مغلولا بالمادة ، لايرى سواها ، ولا يؤمن إلا بما يشاهده منها ، إذ بالإيمان يطلقه من قيده ، ويحرره من أغلاله ، فيسبح فى آفاق المعرفة التى لاتحدها أسوار المادة ، ولا تحيط بها تلك الاصنام التى استعبدته وأخضعته لإرادتها ، وماكانت إرادتها إلا أوهاما فى عقله وترهات فى داخله ، حبس نفسه بها فى دائرة ضيقة ، تحول بينه وبين القيام بمهمته فى الكون ، ألا وهى استعمار فى الأرض واستخراج مافى باطنها من كنوز الله لينتفع بها فى حياته .

لايستطيع الإنسان اليوم أن يدرك مدى هذا التحول الذى أحدثه الإسلام إذا لم يعرف ماكان عليه العرب فى الجاهلية فى مجال العقيدة ، فيقول ابن الكلبى فى كتابه المعروف « الأصنام » . كان الذى سلخ بالمكيين إلى عبادة الأوثان والحجارة ، أنه كان لايظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة .. ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ماستجلبوا، ونسوا ماكانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ماكانت عليه الأمم من قبلهم .. وكان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر مايصنع فى منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفر كان أول مايصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضا ... واستمرت العرب فى عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيعا . ومنهم من اتخذ صنما .. ومن لم يقدر على بناء بيت نصب حجرا أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها «الانصاب» فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربا ، وجعل ثلاثة

---

(٢٦٠) البقرة ٢٥٧

(٢٦١) إبراهيم ١

أثاف لربه وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلا آخر فعل ذلك ، فكانوا ينحرون ويذبحون ويتقربون إليها ، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة يحجون ويعتمرون إليها ، وكان الذين يفعلون من ذلك فى أسفارهم إنما هو للاقتداء منهم بما يفعلون عندها ولصبابة بها .

جاء الاسلام فأخرج الإنسان من هذا المستنقع الآسن ، وأنقذه من هذا الضياع المهلك ، حيث تعفنت الروح ، وتحجر العقل ، وتبلد الوجدان ، فهداه إلى عقيدة التوحيد التى حررت عقله ، وطهرت روحه من أدران الشرك ، وأرهفت وجدانه فتجاوب مع معطياتها ، فكانت قيمها حلياله ، ومبادئها لباسا ارتداه ، وأحكامها طريقا سار على دربه ، وشرائعها نورا يهتدى به ، وأصبح هذا كله نسيجا اختلط بالفطرة الانسانية ، فشكلت الإنسان على صورة قادته إلى المعرفة حيث خطا الخطوة الأولى على طريق بناء الحضارة التى أصبحت فيما بعد معلما من معالم التاريخ البشرى .

العقل

يلعب العقل دورا رئيسيا فى بناء الحضارة الإنسانية ، ولهذا اهتم به الإسلام اهتماما بالغا لدرجة أن أول الآيات التى نزلت من القرآن الكريم كانت موجهة إليه ، تحثه على العمل فى مجال تحصيل المعرفة ، ألا وهى قوله تعالى : **﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم﴾**(٢٦٢) . فقد تكررت كلمة **«اقرأ»** فى هذه الفقرة الأولى التى نزلت من الوحى على محمد ﷺ مرتين ، كما تكررت كلمة **«علم»** ثلاث مرات ، ثم جاءت الإشارة فيها إلى القلم كأداة يتعلم بها الإنسان .

فهذا يشير إلى الاهتمام البالغ بتكوين عقلية الإنسان ، مما يدل على أن الإسلام يأخذ بيد الإنسان إلى طريق العلم والمعرفة ، ويدفعه دفعا إلى خوض غمار الحياة منقبا فيها بعقله ، باحثا فى جنباتها بفكره ، متأملا فى مظاهرها ليستنطق جمادها ، ويستخرج كنوزها ، ويستكشف أغوارها ، ويزيح الحجب عن أسرارها حتى تلين له ، فيشكلها طبقا لما أمره الله سبحانه وتعالى فتتحقق بذلك حكمة الله فى خلق الإنسان على هذه الأرض **﴿.. اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾**(٢٦٣) . إذ

---

(٢٦٢) العلق ١ ـــ ٥

(٢٦٣) هود ٦١

لايتأتى الاستعمار إلا إذا عرف الإنسان كيفيته ، وليس له سبيل إلى ذلك إلا بالعلم والمعرفة .. ولهذا ركز الإسلام على قضية التعليم والتعلم ، واهتم بها اهتماما بالغا لم يقتصر فيه على أن أول آية نزلت حثته على العلم والقراءة ، بل توالت بعدها — على مدى زمن نزول القرآن الكريم وهو ثلاث وعشرون سنة — الآيات تحث على القراءة والتفكر واستعمال العقل والتدبر ، والغوص فى باطن الأشياء استنباطا وتفقها وتعليما ، فقد ورد فى القرآن الكريم لفظ «قرأ» ومشتقاته — بما فيها «القرآن» — أكثر من ثمانين مرة ، منها قوله تعالى : ﴿**فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك**﴾(٢٦٤) . وقوله : ﴿**وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا**﴾(٢٦٥) .

كما جاء الأمر بالتدبر — وهو إعمال الفكر — أربع مرات . يقول تعالى : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ..**﴾(٢٦٦) ويقول : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها**﴾(٢٦٧) .

ويقول : ﴿**أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت أباءهم الأولين**﴾(٢٦٨) .
ويقول : ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته**﴾(٢٦٩) .

وشبيه بها مادة «**التذكر**» وهى أيضا من أعمال العقل ، وقد جاءت مشتقاتها فى أكثر من مائة موضع فى القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿**وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون**﴾(٢٧٠) . وقوله : ﴿**أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾(٢٧١) . وقوله : ﴿**قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون**﴾(٢٧٢) . وقوله : ﴿**ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون**﴾(٢٧٣) .

لقد هز الإسلام بهذه الآيات وأمثالها عقل الإنسان هزا عنيفا ، فأيقظه من نومه — حيث كانت الأساطير تسيطر عليه والأوهام والخرافات تكبله بأغلال لايستطيع منها فكاكا ، فظل أسير التقاليد الآسنة ، والمعارف البالية ، والأفكار البدائية دهورا طويلة

---

(٢٦٤) يونس ٩٤
(٢٦٥) الاسراء ١٠٦
(٢٦٦) النساء ٨٢
(٢٦٧) محمد ٢٤
(٢٦٨) المؤمنون ٦٨
(٢٦٩) ص ٢٩
(٢٧٠) الأنعام ٨٠
(٢٧١) الرعد ١٩
(٢٧٢) الأنعام ١٢٦
(٢٧٣) الزمر ٢٧

ـ وانتزعته من حالة الاستسلام والانقياد لما وجد عليه آباءه من معارف تعوقه عن التقدم ، وتمنعه من الانطلاق إلى آفاق العالم الواسع الذى يدعوه إلى إعمال العقل ليكشف أسراره ، ويستمتع بما أودعه الله فيه من خيرات .

كانت هذه الآيات إيذانا للانسان بأن عهد الاستسلام إلى المسلمات البالية قد انتهى ، فلا مكان للسكون إلى الواقع الذى صنعته الأساطير والأوهام ، فلا ينبغى للإنسان أن يرضى بما توارثه عن الآباء والأجداد دون إعمال الفكر فيه حتى يميز الخبيث من الطيب ، ويتبين بعقله وفكره النافع من الضار ، فهو دائم البحث عن الكمال الذى يليق بمعطيات الدين الجديد ، فكان هذا إيذانا بميلاد حضارة جديدة .

كشف أسرار الكون

يظن كثير ممن لاعلم لهم ولا دراية ، بفقه الإسلام وأحكامه أن العلم الذى حث الإسلام المسلمين على تعلمه والتفقه فيه ، إنما هو العلم الدينى ، أى الأحكام الشرعية ، فما جاء فى القرآن الكريم من ترغيب الناس فى طلب العلم ، أومايفيد رفع درجات العلماء على غيرهم من الناس إنما المقصود منه التفقه فى مسائل الدين وأحكامه فقط ، فمن تعلمها وتفقه فيها رفعه الله درجات على غيره ممن لم يبذل جهدا لمعرفتها والوقوف على مسائلها . ولا يستقيم هذا الفهم مع ماطلبه الاسلام من المسلم فى مجال تحصيل المعرفة ، فبالإضافة إلى مافرضه الله على المسلم من معرفة الاحكام الشرعية حتى يستقيم نظام حياته ، ويتطابق سلوكه مع أوامر الله فى كتابه العزيز ، حثه أيضا على بذل الجهد لاكتشاف أسرار الكون حوله ، بل هداه إلى اتباع أسلوب علمى لم تعرفه الأوساط العلمية إلا فى العصر الحديث ، فقد طلب منه أن يبحث عن أسباب الظواهر ، وينقب فى أحداث التاريخ ليقف على نواميس الأحداث وقوانينها التى تضبطها ، كما علمه استخدام الجانب الحسى فى استكشاف الروابط بين الظواهر المحيطة به .

فمن يتمعن فى كتاب الله يجده مصباحا يقود عقل الإنسان إلى بذل الجهد كى يتمكن من تصور تركيبة الكون بكواكبها وأفلاكها وظواهرهاالطبيعية المتغيرة ، وفهم علاقة الإنسان بها ، ومعنى الحياة والوجود حتى يستطيع أن يضع يده على الخيط الذى يربط الظواهر والأشياء بعضها ببعض، وهذا مايعرف فى العلم الحديث بقانون السببية، علمه القرآن الكريم للإنسان المسلم من قبل أن يتجه إليه العالم الغربى بقرون عديدة ، بل إن

الفضل فى اهتداء العقل الغربى إليه يرجع إلى مناهج المسلمين الأوائل فى بحوثهم العلمية .

ففى القرآن الكريم آيات كثيرة جدا تنادى المسلمين مرارا وتكرارا بأن ينهجوا هذا المنهج فى البحث عن أسرار الوجود ، حتى يتأكدوا عن طريق البحث العلمى بأن الله هو خالق الكون ومدبره ، فهو قادر على كل شىء ، ومحيط بما خلق ، وعالم بما هو كائن وماسيكون ، ولا يتسع المقام هنا لذكر كل ماورد فى هذا الصدد ، ولذا سنكتفى بعرض بعض الآيات التى تعلم المسلم قانونا لم يعرفه قبل دخوله الإسلام ، ألا وهو قانون السببية يقول تعالى : ﴿**إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا**﴾[٢٧٤] . ويقول : ﴿**إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾[٢٧٥] . فلم يخلق الله الكون ومافيه من غير سبب أو بدون هدف ، يقول تعالى : ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون**﴾[٢٧٦] . ويقول : ﴿**وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين**﴾[٢٧٧] . وعليه فيجب على الإنسان أن يبحث عن سر الخلق ليتوصل بذلك إلى الإيمان بالله ، وليتعود على اتباع هذا الأسلوب العلمى فى جميع مايتناوله من أبحاث فى حياته حتى تكون أعماله مؤسسة على أسباب ، وتستهدف غايات ، لها فى التركيبة الاجتماعية مجال تؤثر فيه وبذلك يكون قادرا على رؤية الظواهر المحيطة به ، مدركا للعلائق والارتباطات التى تصلها ببعضها .

ومما لاشك فيه أن العقل الذى ينهج هذا المنهج على أساس من الإيمان بالله يكون قادرا على التعبير عن إبداع الخالق فى جميع المجالات ، ففى المجال النظرى ينتقل من الاحساس بالجزئيات المادية البسيطة إلى إدراك الكليات المركبة والعلاقات التى تربط أجزاءها ببعض والتفاعلات التى تحدث بينها على نحو لايؤدى إلى الخلل فى النظام الكونى ، مما يدل على

---

(٢٧٤) آل عمران ١٩٠ ــ ١٩١

(٢٧٥) البقرة ١٦٤

(٢٧٦) المؤمنون ١١٥

(٢٧٧) الأنبياء ١٦

وجود خالق يرعى هذا التداخل والتشابك بين مظاهر الطبيعة : ﴿**وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون**﴾(٢٧٨) .

وفى المجال العملى تتحول عقلية المسلم من النظرة التبسيطية المفككة التى تعاين الأشياء والظواهر كما لو كانت منقطعة معزولة منفصلا بعضها عن بعض إلى الرؤية الكلية للأشياء الباحثة عن الأسباب والمسببات ، والمنقبة عن ارتباط الظواهر بعضها ببعض ، فتجمع وتلم وتقارن وتختزل وتركب لتصل إلى ماتريده من حقائق ، وهذا هو المنهج العلمى الذى على أساسه تقوم الحضارة وبواسطته يتمكن الإنسان من تشكيل معطياته على نحو يكون فيه سعادته فى الدنيا وفلاحه فى الآخرة ، وذلك هو مايريده الإسلام من المسلم : أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا وأن يعمل لآخرته كأنه يموت غدا . يقول تعالى : ﴿**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا**﴾(٢٧٩) .

نواميس التاريخ

نظر الإنسان فى العصور الأولى إلى دراسة التاريخ ورواياته من زاوية إشباع رغبة فى داخله ، تحركه إلى تعقب أخبار الناس ، وتتبع سيرهم . ولما كان الجانب البطولى ــ وكذلك أخبار المعارك ــ يستهوى رغبة العديد من الناس ، فقد غلب الطابع الأسطورى على رواية التاريخ فى العصور القديمة ، وامتد تأثير هذا الجانب على جميع أنشطة الحياة ، حتى الكتب الدينية ، فقد امتلأت صفحاتها بغرائب الأشياء ، وازدحمت سطورها بخيالات قد لاتمت إلى الواقع بصلة . ومن المعروف أن هذه النصوص المغرقة فى الأوهام والتصورات اللا معقولة ، لاتفيد الإنسان من الناحية العملية فى مسيرته الحضارية ، فهى لاتقدم له إرشادا ولا توجيها ، لأنها لا ترتكز على حقائق ثابتة ، وليس فى الإمكان استخلاص نظرية من أحداثها ، يمكن أن تتخذ قاعدة لتوجيه النشاط الانسانى ، أو معرفة مايمكن أن يحدث مستقبلا . اعتمادا على القياس بالمتشابهات فى أحداث التاريخ .

---

(٢٧٨) يس ٣٧ ــ ٤٠

(٢٧٩) القصص ٧٧

ولهذا فقدت الروايات التاريخية أهميتها فى مجال النشاط الإنسانى الخلاق ، إذ لم يكن لها تأثير فى دفع عجلة التقدم ، ولا فاعلية فى بناء الحضارة الإنسانية وضعف الاعتماد عليها فى تصحيح مسيرة المجتمعات البشرية .. مادامت تدور حول الأساطير ، وتجرى فى ساحات المعارك والبطولات ، فإذا انفصلت عن هذين المجالين انحدرت فى وادى السرد التاريخى ، الذى لايعرف الربط بين المتشابهات ، لاستخلاص ماقد يفيد فى تعميق مايؤدى إلى الرفعة والعزة . ويفضى إلى مامن شأنه أن يقوى روابط المجتمع ، ويشد أزر الدول ، أو إدراكماينذر بالخطر ، فيتعلم المجتمع من أحداث السابقين مايرشده إلى تجنب مواطن الزلل ، والبعد عما يؤدى إلى الضعف والانهيار .

ظلت كتابة التاريخ ودراسته تتحرك بين المجتمعات البشرية دون هدف بناء ، أو غاية مؤثرة فى مجال الأحداث ، إذ كان تناول الانسان له من جانب إشباع رغبة عاطفية عنده ، ألا وهى ولوعه بتتبع سير الناس ، والجرى وراء استحضار صور الأبطال وتصوّر البطولات ، إلى أن ظهر الإسلام فبيَّن للعقل البشرى أن حركة التاريخ ليست عشوائية ، فهى لاتسير بغير هدف ، بل تتحكم فيها سنن ونواميس كتلك التى تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء . فأحداث التاريخ ووقائعة لاتخلق بالصدفة ، ولاتسير بالدفع الذاتى ، وإنما لها شروط خاصة تتحكم فيها ، فتوجهها صوب هذا المصير أو ذاك ، بمعنى أن هناك قانونا يحكم التاريخ ، فمن يتأمل الأحداث ، ويبحث عن أسبابها ، ويغوص بالدراسة والبحث فيها يحركها ويوجهها ، استطاع الوصول إلى الناموس الذى تخضع له الحركة التاريخية فى سيرها وتطورها من حال إلى حال .

وجه المنهج الجديد الذى طرحه القرآن الكريم عقل الإنسان إلى أن السنن والنواميس التى تسير حركة التاريخ فى مجالها ، بحيث لاتنحرف عنه ، ولاتخرج منه ، وتدفعها عبر مسالكها المحددة ، بحيث لاتتجاوزها أو تتخطاها ، إنما هى قائمة على معطيات بيئية ثابتة ، ولها ارتباطات وعلاقات بالعالم الذى يتحرك فيه الإنسان ، فلا يمكن أن تنفصل دراسة التاريخ عن الإنسان : فطرة وغرائز ، وأخلاقا ، وفكرا ، وعواطف ، ووجدانا ، كذلك لاينعزل التاريخ عن الوضع الاقتصادى والاجتماعى ، بل إن المعطيات الجغرافية لها دور كبير فى تكوينه وتشكيله .

ولم يقتصر القرآن الكريم على توجيه العقل البشرى إلى مراعاة ارتباط هذه الظواهر بالتاريخ فحسب ، بل أكد أكثر من مرة أن التأثير بينها وبينه عملية دائمة ومستمرة ،.. فالتفاعل العضوى موجود دائما ، ولذلك فمسئولية الإنسان فيما يحدث مؤكدة ، فما

الأحداث إلا نتيجة لنشاط ماركب فيه من قوى عقلية وروحية . فإذا ماأدرك الإنسان هذه المسئولية فتحرك فى العالم وفق ماجاء به الأنبياء والرسل سارت الحياة البشرية فى طريق التقدم والرقى ، دون أن تصاب بهزات تعوق سيرها ، أو تتخبط فى متاهات تنحرف بها عن الطريق السوى . أما إذا غفل عن هذه المسئولية ، فلن يحدث للجماعة البشرية إلا التدهور ، والتفتت والانهيار يقول تعالى : ﴿**سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾[٢٨٠] . ﴿**فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا**﴾[٢٨١] . ﴿**سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تحويلا**﴾[٢٨٢] . ﴿**وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا**﴾[٢٨٣] . ﴿**ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لايجدون وليا ولا نصيرا . سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾[٢٨٤] .

عبرة الماضى

قدم القرآن الكريم منهجا متكاملا فى دراسة التاريخ ، إذ نقل الانسان من مرحلة الاهتمام بالأساطير والبطولات التاريخية إلى الاهتمام بأخلاقيات الأمم والشعوب ، والربط بينها وبين مايحدث لها من محن وكوارث ، ومراعاة ماتحرزه من تقدم وازدهار مع البحث عن أسباب هذا التقدم ، كى تتعلم الشعوب من الأمم السابقة ، فتتجنب مايؤدى بها إلى الضعف والانهيار وتحرص على مايساعدها على بناء مجدها ، ويدفعها إلى مدارج الرقى والكمال . يقول تعالى : ﴿**قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين * ولاتهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين * إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين ***

---

(٢٨٠) الأحزاب ٦٢
(٢٨١) فاطر ٤٣
(٢٨٢) الاسراء ٧٧
(٢٨٣) الكهف ٥٥
(٢٨٤) الفتح ٢٢ ــ ٢٣

ويمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾[٢٨٥] . ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله * ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾[٢٨٦] . ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين امثالها * أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون﴾[٢٨٧] . ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات﴾[٢٨٨] .

وبهذا أصبح للتاريخ أهمية إيجابية ، فصار ميدانا للدراسة والاختبار ، بحيث تستخلص منه القيم التى لها دور رئيسى فى حياة الأمم والشعوب ، ويتعرف على القوانين التى على أساسها يستطيع الباحثون وضع برامج للنشاط الانسانى ، ليسير على هداها فى حاضرة ، ولا يهملها عند التخطيط لمستقبله ، وبذلك أصبحت حركة الجماعات البشرية محل دراسة وتمحيص فى جميع مجالات الفكر الإنسانى ، فاهتم بها الفلاسفة . وعلماء الاجتماع ، والمهتمون بالاقتصاد بكل فروع أنشطته ، ورجال الدين على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم ، حتى صار الاهتمام بالتاريخ وأحداثه معلما من معالم الحضارة الإنسانية ، فإذا ادعى المتعصبون للحضارة الغربية ، بأن هذا المنهج فى التعامل مع التاريخ البشرى هو ثمرة من ثمار التقدم الأوروبى ، فإن نصوص القرآن الكريم تكذبهم ، إذ هى تعلن أنها وجهت الانسان قبل أربعة عشر قرنا إلى هذا المنهج وعلمته كيفية الاستفادة من أحداث السابقين ، وذلك بدعوته إلى النظر فيما وقع فى القرون الأولى من كوارث اجتماعية ، والبحث عن أسبابها وعللها ، والربط والمقارنة بين مايحدث فى العصور المختلفة ، للتأكد من علل وأسباب مايعترى المجتمعات من ضعف وانهيار حتى يتعلم كيفية حماية نفسه فلا يلقى مجتمعه مثل هذا المصير .

إن منهج القرآن الكريم فى النظرة إلى التاريخ معلم من معالم الحضارة ، دعا إليه الإسلام منذ أربعة عشر قرنا ، أى قبل أن يعرف من يتهم الإسلام اليوم بالتخلف شيئا عن مفهوم الحضارة ، فلم يكن لديه آنذاك شىء يؤهله للتفكير فيها فضلا عن الإسهام فى تكوينها وتشكيلها ، بل إن المسلمين هم الذين علموهم هذا المنهج ، فقد كان لأبحاث ابن خلدون فى هذا المجال أثر كبير فى توجيه الأوربيين إلى دراسة التاريخ بالأسلوب المنهجى ، فتعلموا

---

(٢٨٥) آل عمران ١٣٧ — ١٤١
(٢٨٦) الأنعام ٣٤
(٢٨٧) محمد ١٠
(٢٨٨) السجدة ٢٦
(٢٨٩) الرعد ٦

منه أن الظواهر داخل المجتمعات البشرية لها أسباب وعلل ، وأن لكل مسببا لايتخلف ، فالظواهر المتشابهة تنتج عن أسباب تكاد تكون واحدة ، كما أخذوا منه مبدأ دورات التاريخ الحضارى .. وغير ذلك مما تعلمه من الأمثلة والشواهد التاريخية التى وردت فى القرآن الكريم .

كان لهذا المنهج أثر بالغ فى بناء الحضارة الإسلامية ، فلو حافظ المسلمون عليه لاستمر عطاؤهم فى جميع ميادين الحضارة الانسانية ، ولكنهم غفلوا عنه فنسوه ، بينما أخذه منهم غيرهم فبنوا عليه حضارة مادية ليس فيها روح ولا حياة ، فهم اليوم يهددون بواسطتها المجتمع البشرى بالفناء والدمار ، فلو أدرك المسلمون مااقترفوه من إثم ، وأرادوا أن يكفروا عن سيئاتهم ، فيجب عليهم أن يستعيدوا مكانتهم فى العالم ، وذلك بأن يطبقوا ماجاء فى القرآن الكريم من مناهج فى جميع مجالات الحياة حتى تكون لهم السيطرة على مجريات الأمور فى المجتمع الدولى .

العلم فريضة

شاع بين الناس أن الدين محصور فى المجال الأخلاقى ، فهو لايهتم إلا بما يعود على الروح من : نقاء ، وصفاء ، تزكية وتطهيرا ، وماعدا ذلك فقد أعرض عنه ، وتركه لقوى أخرى ، تحركه وتتحكم فيه ، فتنظمه ، وتضع له من القواعد ماتراه صالحا له ، ولهذا سيطر على الغالبية العظمى أن مفهوم الدين ، هو : العبادات التقليدية المحددة بنظام معين ، وعلى هيئة خاصة ، يقيمها الإنسان من آن لآخر ، حسب ماهو مفروض عليه ، ثم ينطلق إلى آفاق الحياة التى لامكان فيها للدين . كما ظن بعض من استهوتهم الحياة الدنيا بزينتها وزخرفها ، وسيطرت الحياة المادية على جميع حواسهم أن الدين يعوق عن التقدم ويعترض طريق الانطلاق إلى مجال الانجازات الحضارية ، فهو يناصب العلم العداء ، ويحرم على الإنسان البحث والتنقيب ، ويقيم الحواجز بين الإنسان وبين استكشاف علل الظواهر الكونية ، وأسرار الطبيعة الإنسانية ، ومن ثم فقد نسبوا إليه كل مظاهر التخلف التى أصابت المجتمعات البشرية ، فشلت عقل الإنسان وأعجزته عن الابتكار والاختراع .

ولئن كان الحق حليف بعض هذه الدعاوى فى العديد من الأديان المنتشرة فى الأرض ، فليس لها فى الإسلام نصيب من الصحة ، ذلك أن العلم لم يحظ باهتمام فى أى دين ، أو فى أى نظام من النظم التى سادت فى المجتمعات البشرية مثل الاهتمام الذى حظى به فى

الإسلام، فقد حث على طلب العلم وتعليمه، يقول رسول الله ﷺ: **«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»** . ويقول: **«اطلبوا العلم ولو بالصين»**. ويقول: **«الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها»** ثم يبين أن العلماء لهم المكانة والفضل ، فيقدمون على غيرهم ممن لم يدفعهم إيمانهم إلى التزود بالعلم والمعرفة ، فقال تعالى : **﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون﴾**[٢٩٠] . وماذاك إلا ليدفع المسلمين دفعا إلى بذل أقصى مافى وسعهم فى مجال العلم ، كى ينعموا بالمركز الاجتماعى بين أقرانهم ، ويفوزوا برضاء الله فينالون ثوابه يوم القيامة .

وليس المقصود بالعلم الذى يتحدث عنه القرآن الكريم هو علم الدين فقط ، كما يفهم بعض الناس ، بل هو العلم بوجه عام ، سواء كان متعلقا بالأحكام الدينية ، ويتصل بما فى الوجود كله ، سمائه وأرضه وفضائه ، إنسانه ونباته وحيوانه وجماده ، فقد دعا القرآن الكريم الانسان إلى النظر فى حقيقة وجوده ، والبحث فيها ليقف على مدى ارتباطه بما حوله من مظاهر الكون ، ووجهه إلى استعمال كل مابين يديه من طاقات فى مجال البحث والنظر ، والمعرفة والتجريب الذى يوصله إلى كشف مافى نفسه من أسرار ومعرفة ماحوله من ظواهر ، فقال له : **﴿ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾**[٢٩١] . فوضع بذلك أولى لبنات البحث ، وهى التأمل والنظر بسمعه وبصره وفكره ، وهذه هى أدوات مايسمونه فى العصر الحديث : « البحث الحسى » أى القائم على التجربة الحسية ، فإذا كان هذا هو مفتاح التقدم والرقى ، والدرجة الأولى التى خطاها العلم فى العصر الحديث على طريق الحضارة التى وصل إليها الإنسان اليوم ، فيكفى الإسلام فخرا أن وجه الإنسان إليها قبل ذلك بقرون عدة ، واستعملها المسلمون الأوائل فى بحوثهم ، فبنوا عليها حضارة لازالت معالمها واضحة للدارسين للفكر الإنسانى .

ولم يكتف الإسلام فى هذا المجال بتوجيه نظر المسلم إلى استعمال حواسه فى الكشف عما حوله ، بل بين له بعض الموضوعات الرئيسية التى ينبغى أن يتخذها موضوعا لبحثه فأمره بأن يمعن النظر فيما حوله ، ويبحث عن مكنون الظواهر وتطوراتها بالأسلوب التجريبى فأشار له إلى البحث فى عملية تكوين طعامه ، فقال تعالى : **﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبا * ثم شققنا الأرض شقا * فأنبتنا فيها حبا * وعنبا**

---

(٢٩٠) الزمر ٩

(٢٩١) الاسراء ٣٦

وقضبا * وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا﴾(٢٩٢) . وقال : **﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾**(٢٩٣) .

ثم دعاه إلى النظر فى كيفية خلقه هو ، فقال تعالى: **﴿فلينظر الإنسان مم خلق*خلق من ماء دافق*يخرج من بين الصلب والترائب﴾**(٢٩٤). وقال: **﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾**(٢٩٥) . وقال : **﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾**(٢٩٦) .

فهذه توجيهات تدعو الإنسان إلى البحث فى نفسه وفى تكوين طعامه . ومما لاشك فيه أن الدين الذى يحث أتباعه على ولوج هذا الميدان لايمكن أن ينسب إليه التخلف فى مجال الحضارة الانسانية ، ولا يعقل أن يكون عدوا للعلم والبحث والتنقيب . فإذا ماسمعنا بعض الأصوات تردد أن المسلمين تخلفوا بسبب تمسكهم بدينهم ، فلنقذف فى أسماعهم بهذه النصوص التى تدحض دعواهم ، لعلهم يعودون إلى صوابهم فيميزون بين الإسلام وبين غيره من الأديان .

البحث عن الحقيقة

اهتم الإسلام بطرق إثبات الحقائق اهتماما ليس له نظير فى أى دين على وجه الأرض فتحدث القرآن الكريم عن أهم مدارك الإنسان حديثا يلفت نظر الإنسان إلى الاهتمام بها ، ويدعوه إلى تحمل المسئولية فى التوصل إلى حقائق الأشياء عن طريقها ، ومما كثر الحديث عنه فى هذا المجال : النظر والسمع والإدراك . فقد وردت فى القرآن الكريم مجتمعة ـــ بكيفيات ومشتقات مختلفة ، تارة : سمع وبصر ، وتارة : سمع وعقل وأخرى : سمع

---

(٢٩٢) عبس ٢٤ ـــ ٣١
(٢٩٣) الأنعام ٩٩
(٢٩٤) الطارق ٥ ـــ ٧
(٢٩٥) الذاريات ٢١
(٢٩٦) الأنعام ٩٨

وبصر وعقل ـــ أكثر من عشرين مرة ، وجاءت منفردة فى أكثر من مائة آية وفى كل مرة يُدْعَى الإنسان إلى التأمل والتفكر ، ومحاولة إدراك وفهم مايدور حوله من مظاهر الكون وتغييراته وتركيباته ، فتارة تدعوه إلى النظر فى الملكوت ، يقول تعالى : ﴿**أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض**﴾(٢٩٧) . ويقول : ﴿**ألم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج**﴾(٢٩٨) .

وتارة يدعوه إلى النظر فى الأرض والطبيعة ، يقول تعالى : ﴿**فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها**﴾(٢٩٩) . وأخرى إلى الحيوان ليقف على أسرار قدرة الله فيه ، يقول تعالى : ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**﴾(٣٠٠) . ولم يهمل الإسلام دعوة الإنسان إلى دراسة الأحداث التاريخية ليستخلص منها مايعود على حاضره بالفائدة ، وينفعه فى بناء مستقبله على نحو يبعده عن الوقوع فيما وقع فيه الأولون من كوارث ومتاعب يقول تعالى : ﴿**أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة**﴾(٣٠١) . ويقول : ﴿**فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**﴾(٣٠٢) . بل إنه دعاه إلى تفهم ماأراده الله من فوارق اجتماعية ، فقال تعالى : ﴿**أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض**﴾(٣٠٣) . وقد وصل دفع الإنسان إلى النظر فيما يحيط به إلى أقصى مداه ، حيث أمره بالبحث فى مجال استكشاف مبدأ الحياة وكيفية نموها وارتقائها ، فقال تعالى : ﴿**قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**﴾(٣٠٤) .

وعليه فمن يطلع على هذا لابد أن يسلم بأن القرآن الكريم يدعو إلى البحث فى جميع المجالات ، فلا يسمع لدعاوى الهجوم على الإسلام التى تحاول تصويره على أنه عدو للحضارة والتقدم .

فإذا واصلنا البحث فى آيات القرآن الكريم عن المزيد من الإشارات التى تحث المسلم على مواصلة البحث بكل مالديه من إمكانات ، لوجدنا أن هناك آيات عديدة تحدثت عن ضرورة استعمال الحاسة الأخرى فى مجال البحث والنظر ، فقد دعا القرآن الكريم

(٢٩٧) الاعراف ١٨٥
(٢٩٨) ق ٦
(٢٩٩) الروم ٥٠
(٣٠٠) الغاشية ١٧
(٣٠١) غافر ٨٢
(٣٠٢) آل عمران ١٣٧
(٣٠٣) الاسراء ٢١
(٣٠٤) العنكبوت ٢٠

المسلمين إلى استعمال « البصائر » كي تتحمل مسئوليتها فى تنسيق المدركات وتمحيصها وتوازنها من أجل الوصول إلى الحق الذى تقوم عليه وحده نواميس الكون والخليقة ، يقول تعالى : ﴿**فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها**﴾(٣٠٥) . وبين أن أولئك الذين لايستعملون هذه الحواس فى معرفة مايضرهم وماينفعهم لن يفلحوا فى هذه الحياة ، وسيكون جزاؤهم أليمًا يوم القيامة ، يقول تعالى : ﴿**ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس هم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**﴾(٣٠٦) .

فالإنسان مسئول مسئولية كاملة عما أودعه الله فيه من حواس ، فيجب أن يستعملها فيما خلقت له ، كما أنه يحمل تبعة البحث والتمحيص فيما حوله ، وتلك هى المزية التى تميز بها الإنسان عن غيره من الحيوانات ، يقول تعالى : ﴿**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا**﴾(*). ويؤكد القرآن الكريم فى كثير من آياته على أن استعمال السمع والبصر والفؤاد فى تحصيل المعرفة يعطى للحياة الإنسانية قيمتها وتفردها، فلو حرك الإنسان هذه القوى والطاقات التى أودعها الله فيه ، لفتحت أمامه نوافذ المعرفة على مصراعيها ، ولو استغل قدراته فى هذا المجال استغلالا منظما فسوف يصل إلى قمة الانتصار العلمى فى جميع المجالات ، وعندئذ سيكون سيد العالمين ، وخليفة الله فى الأرض ، إذ وصوله إلى المعرفة سيمكنه من استغلال كل مافى الأرض ، فيسخره لنفسه ، وفى الوقت نفسه يدرك قدرة العليم الخبير ، فلا يستخدم مأأفاء الله عليه من معلومات فيما يهدد الأمن والسلام فى الأرض . أما إذا جمد طاقاته ، وسدد نوافذ المعرفة ، فأحكم إغلاقها فسوف يحيا حياة دنيا ، أقرب إلى حياة الأنعام منها إلى ماينبغى أن تكون عليه الحياة البشرية وقد وصف الله أمثال هؤلاء بالأنعام فقال تعالى : ﴿**أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا**﴾(٣٠٧) .

لقد كان لتوجيه القرآن الكريم الإنسان إلى استعمال السمع والبصر والفؤاد فى بحثه فيما حوله للوصول إلى حقيقة الأشياء وكنه الوجود إشارة إلى منهج فى البحث العلمى لم يتوصل إليه الإنسان إلا فى العصر الحديث ، ذلك المنهج هو : استعمال التجارب الحسية فى البحث العلمى ، أى الاهتداء إلى المنهج التجريبى . وهو مفخرة من مفاخر أنصار

---

(٣٠٥) الأنعام ١٠٤

(٣٠٦) الاعراف ١٧٩

(*) الانسان ٢

(٣٠٧) الفرقان ٤٤

الحضارة الحديثة . فلئن كانوا يفخرون بأن المنهج التجريبي من الدعائم الرئيسية التي قامت عليها الحضارة الحديثه ، فحق على كل مسلم أن يتيه فخرا واعتزازا ، لأن القرآن الكريم أشار إلى هذا المنهج قبل أربعة عشر قرنا بل إنه حث الإنسان على استعماله فى بحثه ، وفى ذلك دليل على أن الإسلام يدعو الناس إلى الأخذ بأسباب التقدم والرقى البشرى .

دعوة العقل

فضل الله الإنسان على سائر الكائنات الحية ، ومن أبرز مظاهر التكريم منحه قوة التفكير ، ذلك أنها من الخصائص التى تميز بها الإنسان عن سائر الكائنات المخلوقة على سطح هذه الأرض ، فبها استطاع أن يتغلب على ماحوله ويسخره له مهما كانت قوة جسمه وصلابة عضلاته ، إذ بواسطة العقل استطاع الإنسان أن يخضع كل حى له ، ويسخر كل مافى الطبيعة لخدمته ، فهو المفتاح الذى منحه الله لبنى آدم ليفتحوا به آفاق المجهول ، والمصباح الذى أعطاه الله للإنسان لينير به طريق الحياة ، والآلة التى منحها الله لمن فضله من الكائنات الحية ــ وهو الإنسان ــ ليستخدمها فى الكشف عن أسرار الطبيعة ، والقوة المدركة التى وهبها الله للإنسان ليصل بها إلى إدراك الإبداع فى الكون ، والدقة فى الخلق ، فيعرف بذلك من أبدع فأحسن التكوين وخلق كل شىء فى أحسن تقويم .

ولهذا جاءت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحث الإنسان على التفكير فى نفسه وفى كيفية خلقه ، وتوضح له أن وظيفة العقل هى التفكير ، الذى يقود صاحبه إلى الهداية وإلى معرفة الواحد القهار ، وإلى الوقوف على أسرار ماحوله من مظاهر الطبيعة، وتنوع التعبير عن هذه القوة المدركة فى الإنسان ، فجاء الحديث عنها، مرة بالتفكر، وتارة: بالتعقل ، وأخرى : بالتفقه ، فلو تتبعنا الآيات التى تحدثت عنها بكلمة « التفكر » ومشتقاتها اللغوية لوجدنا أن القرآن الكريم ذكر هذه المادة فى سبع عشرة آية ، منها مايحث على التفكير فى آيات الله ، كقوله تعالى : ﴿**كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون**﴾[٣٠٨] . ومايدعو إلى التفكير فى النفس كقوله تعالى : ﴿**أو لم يتفكروا فى أنفسهم**﴾[٣٠٩] . وما يوجه الإنسان إلى التفكير فى خلق السموات والأرض كقوله

(٣٠٨) البقرة ٢١٩

(٣٠٩) الروم ٨

تعالى : ﴿**الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض**﴾(٥) وفى مظاهر الحياة حوله كقوله تعالى: «**إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون**﴾(٣١٠) .

كما أن منها ماينفى المساواة بين من يعطل هذه القوة ، ومن يستخدمها فيما خلقت له ، يقول تعالى : ﴿**قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾(٣١١) . كذلك كرر القرآن الكريم كلمة (العقل) ومشتقاتها اللغوية ، لحث الإنسان على عدم تعطيل ماأنعم الله به عليه ، فجاءت فى أكثر من أربعين آية ، منها قوله تعالى : ﴿**كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون**﴾(٣١٢) . وقوله : ﴿**ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون**﴾(٣١٣) . وقوله : ﴿**إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾(٣١٤) . و« التعقل » و« التفكر » : وظيفتان للقوة المدركة فى الإنسان ، لايجوز له أن يهملها ، وإلا كان معطلا لما يميزه عن الحيوان ، إذ ليس هناك فرق حيوى بينهما سوى هذه القوة ، فإذا لم تمارس فيما خلقت له أصبح الإنسان كالأنعام ، يقول تعالى : ﴿**أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا**﴾(٣١٥) ، ولم يقتصر القرآن الكريم على دعوة الانسان إلى التفكير فى نفسه وفيما حوله وتعقله ، بل خطا خطوة أبعد منهما ، فحث الإنسان على « التفقه » وهو أبعد مدى من التفكير ، إذ من يصل إليه يكون أكثر وعيا لما يحيط به ، وأعمق إدراكا لأبعاد وجوده وروابط الكائنات الحية حوله ، كما يجعله منفتح البصيرة دائما ، وعلى استعداد للحوار البناء ، الذى يؤدى إلى نتائج تعود بالنفع عليه فى جميع مجالات حياته ، ولهذا وصف الله بها كل من يصل بعقله إلى إدراك أغوار مايعرض عليه

---

(٥) آل عمران ١٩٠
(٣١٠) يونس ٢٤
(٣١١) الزمر ٩
(٣١٢) البقرة ٧٣
(٣١٣) الأنعام ١٥١
(٣١٤) البقرة ١٦٤
(٣١٥) الفرقان ٤٤

يقول تعالى : ﴿**وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون**﴾(٣١٦) . ويقول : ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون**﴾(٣١٧) . بل ذم من لم يفعل ذلك وتوعده بسوء المصير ، يقول تعالى : ﴿**فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا**﴾(٣١٨) . ويقول : ﴿**ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون بها**﴾(٣١٩) .

فهذه جوانب ثلاثة للقوى المدركة فى الإنسان ، ينبغى عليه دينيا ألا تفارقه ولايفارقها ، وإلا كان مقصرا في مهمته في هذه الحياة ، ولاشك أن مثل هذا التقصير يعوق تقدمه ، فيؤدى به فى أودية التخلف والانحطاط الذى لايرضاه الله له ، بل سوف يحاسبه يوم القيامه على إهماله لوظيفة العقل مما أودى به إلى قاع التخلف ، حيث يتحكم فيه أعداؤه الثلاثة : الجهل والفقر والمرض . وهكذا تبدو أهمية الإسلام وفاعليته فى المجتمعات التى تتمسك به ، وتتخذ نهجه الإلهى طريقا لها فى جميع مجالات حياتها .

ذم التقليد

أباح الله للإنسان أن يستعمل فكره فى جميع المجالات التى تحيط به ، بل دعاه إلى هذا مرارا وتكرارا ، فلو أردنا استعراض الآيات التى ورد فيها ذكر الفكر وضرورة استعماله للوصول إلى كنه الظواهر المحيطة بالإنسان لطال بنا العرض طولا قد يؤدى إلى تشعب الموضوع تشعبا يستغرق كل الخطوط الرئيسية التى رسمها الله للإنسان فى محكم كتابه ، وفى ذلك مايدل على أن محور الدين وأساسه استعمال الفكر ، إذ به يفهم الانسان الوحى ، ويستنبط منه الأحكام ، بل ويقيس على ماورد فيه للوصول إلى حكم لما جد من أحداث ، بل إنه استحث العقل ليباشر مهمته فى الوصول بنفسه إلى معرفة الواحد القهار ، فعرض عليه قضايا فكرية ليكون التفكير فيها طريقا موصلا إلى الإيمان بوحدانية الله ، منها قوله تعالى : ﴿**إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات**

(٣١٦) الأنعام ٩٨
(٣١٧) الأنعام ٦٥
(٣١٨) النساء ٧٨
(٣١٩) الأعراف ١٧٩

لأولى الالباب﴾(٣٢٠) وقوله : **﴿أم خلقوا من غير شىء أم هو الخالقون * أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون﴾**(٣٢١) . وقوله : **﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾**(٣٢٢) . وقوله : **﴿أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم﴾**(٣٢٣) . وقوله : **﴿مااتخذ الله من ولد وماكان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض﴾**(٣٢٤) .

تدور حياة الإنسان كلها على أساس الفكر ، إذ لايوجد إنسان سوىّ بدون فكر ، لأن الفكر عصب حياة الإنسان ومدار نشاطه ، ولهذا منح الإسلام للإنسان حرية فى الفكر لم يمنحها دين من الأديان ، ولا استطاع مذهب من المذاهب الإنسانية أن يصل إليها ، إذ لم يجبره على اعتناق عقيدة التوحيد ، كما لم يقبل منه التقليد فيها ، بل ذم التقليد الذى يبعد الإنسان عن ممارسة مابه تتحقق ذاته ، ألا وهو الاعتقاد بعد تفكير واقتناع بما يعرض عليه من قضايا ، يقول تعالى فى معرض ذم الذين ينساقون وراء آبائهم وكبرائهم دون محاولة التفكير فيما يساقون إليه وفهم حقيقته : **﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين* إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون* قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين* قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين﴾**(٣٢٥) . ويقول : **﴿قل ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل﴾**(٣٢٦) . بل وصل الأمر فى ذم التقليد إلى أن يصور القرآن الكريم مشهد عتاب سوف يحدث يوم القيامة بين المقلِّدين والمقلَّدين ، فيقول تعالى : **﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾**(٣٢٧) .

فإذا كان الاسلام قد ذم التقليد فيما يتعلق بالجانب الروحى فى الإنسان ومجال التفكير فيه محدود ، إذ لاينبغى أن يخرج عن الإطار العام للعقيدة ، فمن باب أولى أن يذم التقليد،

---

(٣٢٠) آل عمران ١٩٠
(٣٢١) الطور ٣٥ ــ ٣٦
(٣٢٢) الأنبياء ٢٢
(٣٢٣) الأنبياء ٢٤
(٣٢٤) المؤمنون ٩١
(٣٢٥) الأنبياء ٥١ ــ ٥٤
(٣٢٦) المائدة ٧٧
(٣٢٧) سبأ ٣١ ــ ٣٢

أو التحجر على صيغ موروثه ، فيما يتعلق بشئون الحياة الدنيوية ، السريعة التغيير والتطور ، فهو يدفع المسلم دفعا إلى البحث فى الظواهر الكونية المحيطة به سعيا وراء تحسين مستوى الحياة فى المجتمع الإسلامى .

فهم المسلمون الأوائل هذه الروح الاسلامية ، وتشبعت روحهم بها ، فقادوا حركة عقلية فى صدر الإسلام ، صالت وجالت فى جميع ميادين الحياة ، فنهلت من كل ماحولها ماينفعها فى تكوين شخصيتها المتميزة ، وأعطت لمن حولها ماأفاء الله به عليها من معارف وعلوم ، فلم تتقوقع داخل نفسها ، بل انفتحت على ماوراء حدودها الجغرافية والفكرية ، ولم تتحجر أمام ماواجهها من أفكار ونظريات ، بل تعاملت معها بأسلوب علمى بناء ، أخذت منها مايصلح للمجتمع الإنسانى ، وعدلت مايمكن تعديله حتى يستقيم مع روحها وتكوينها، وزادت عليه من خبرتها وتجاربها مايدفع عجلة الحياة الإنسانية إلى التقدم والرقى، فشيدت بذلك حضارة إسلامية ، وضحت معالمها فى جميع أنشطة الحياة الإنسانية ، وتمركزت مظاهرها فى كل أرجاء المعمورة، وكثر عطاؤها لكل الشعوب، فنهل منها الراغبون ، فكانت بذلك أساسا لكل النهضات التى جاءت بعد الإسلام ، وبذرة لكل ثمار الحضارات الإنسانية التى ظهرت فى القرون التالية ، غير أن الإنسان تنكر لجانبها الروحى فصار إنتاجه الحضارى المعاصر ماديا لاحياة فيه ، استغلاليا لارحمة معه ، أنانيا يجرى وراء مايدمر الغير ، ففقد الإنسان أمنه وطمأنينته ، ولن يحصل عليها إلا إذا دبت الروح فى هذه الحضارة ، ولن يقدر على إحياء هذه الروح فى الحضارة المعاصرة إلا الإسلام .

ضرورة الحوار

خرج المسلمون من الجزيرة العربية يحملون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وحولهما ماأنتجته عقول المسلمين الذين تربوا فى مدرسة النبوة ، فدعوا أهل البلاد التى فتحها الله عليهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلم يمارسوا معهم إرهابا فكريا ، ولا ضغطا نفسيا ، كما لم يستعملوا معهم القوة لحملهم على اعتناق الإسلام ، بل عرضوه عليهم ، ودخلوا فى حوار فكرى معهم كان طرفاه : مبادىء الإسلام وأحكامه وتشريعاته من جانب ، وعقائد من يدعون إلى الدخول فى الإسلام من جانب آخر . ولم يقتصر الأمر على مناقشة من بقى على دينه لإقناعه بأحقية الدخول فى الإسلام ، بل اتسعت دائرة النقاش فشملت من اعتنق الإسلام من سكان الدول المفتوحة ، ذلك أن المسلمين الجدد دخلوا فى دين الله بأفكارهم الفلسفية وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية ، إذ لم تختف هذه

الظواهر عقب الفتح مباشرة ـــ ولو حدث لكان ذلك نقضا لسنة التطور والتحور الفكرى فى المجتمعات الإنسانية ـــ بل كانت وقودا للمعارك الفكرية التى اشتعلت فى المجتمع الإسلامى ، وظلت نارها متأججة شرقا وغربا عدة قرون ، وماذاك إلا لأن المسلمين لم يضيقوا ذرعا بالأفكار الأجنبية ، بل ناقشوها ، وحاوروا اصحابها ، فتطلب منهم ذلك دراسة تلك الحضارات ، فلم يرفض العقل الإسلامى معطيات غيره الفكرية ، وفى الوقت نفسه لم يقبلها كلية ، بل ناقشها وحاورها ، ومحصها وعرضها على مقاييسه ، ونظر إليها من خلال منظاره ، فما اتفق مع عقائده قبله بدون تردد ، ومالم يتصادم مع مفهوم كتابه الكريم أفسح له مجالا فى ساحته الفكرية ، ومالاحظ فيه عنصرا غير مقبول إسلاميا ، فإن استطاع تعديله عدله ، وإن لم يكن فى الإمكان تحويره ليلائم الروح الاسلامية رفضه ، وبهذا استفاد العقل الإسلامى إلى أقصى حد من خبرات الآخرين فى بناء حضارته ، فقبل كل ماأنتجه العقل الإنسانى بشرط أن ينسجم بشكل أو بآخر مع نسيج حضارته المنبثق من الإسلام ، والمتناغم فى إيقاعه وحركته مع نغمات الشريعة الإسلامية .

فـ « كل الحضارات العالمية : يونانية ، ورومانية ، وبيزنطية ، وهللينية ، وفارسية ، وهندية ، وتركية ، وصينية .. وتراث الجماعات والشعوب التى عاشت فى المنطقة : آرامية ونبطية ، وقبطية ، وفينيقية .. الخ كانت جميعا بمثابة حقول مفتوحه ، جال فى أطرافها العقل الإسلامى ، فأخذ ورفض ، وانتقى ومحص ، واختبر وعزل ، واستبعد وفصل ، وعرف وهو يتجول عبر هذه الحقول الشاسعة ، ما الذى ينسجم ونسقه الصاعد ، ويزيده دما وحياة وماالذى يحمل جراثيم المرض والهزال ، والدم الأزرق الفاسد . فكان يعرف جيدا كيف يرفض هذا ويأخذ ذاك » .

لم ينقل المسلمون هذه الحضارات إلى مجتمعهم نقلا آليا ، فهم لم يقتبسوها نصوصا مرسومة محددة ، بل درسوها دراسة واعية ، وفهموها فهما دقيقا ، وهضموا مسائلها وقضاياها ، ثم طعموها بما عندهم ، فخرجت ثوبا قشيبا يختلف عما كان لدى الآخرين ، فاكتسبت من المعالم الاسلامية ماحوّلها إلى صورة جديدة ، وكان لهذا أثره الإيجابى ليس على المستوى المحلى فحسب ، بل على المستوى العالمى ، إذ عبرت الحضارة الإسلامية بهذا الانجاز نطاق الحضارات كلها ، وأدت عملا لم تقم به أى حضارة سابقة ، لا من حيث المحافظة على حضارات السابقين فحسب ، بل من جانب تطويرها وتجديدها أيضا وإضافة الجديد إليها ، فحمت بذلك التراث الحضارى القديم ، وأسهمت فى إضافة الجديد إلى

صرح الحضارة الإنسانية بما زداه ارتفاعا وعلوا ، ورسوخا وشموخا ، وبهاء وصفاء.

يقول : «**لويس يونج**» : « وهكذا أصبح المسلمون فى المناطق الجديدة لامبراطوريتهم على صلة تامة بحضارة واسعة ، تضم بين ظهرانيها أدبا واسعا مكتوبا باليونانية والسريانية والبهلوية إلى جانب استيعاب للعلوم لم يكن لعرب الجاهلية أن يعرفوه .. لقد صبت جداول كثيرة فى نهر الحضارة الإسلامية ، ولعل أشدها تأثيرا رافد الحضارة الهللينية ، ثم الحضارة الفارسية التى أثرت فى الفكر السياسى والعادات الاجتماعية والحضارة الهندية التى أسهمت فى علوم الطب والفلك ، وخاصة فى الرياضيات حيث أخذ العرب الأرقام الهندية . وقد أخذ العرب بعض التنظيمات الإدارية والسياسية التى كانت قائمة فى البلدان المفتوحة ، مثل «**ديوان الحسبة**» الذى هو امتداد لمؤسسة بيزنطية ، وفكرة «**المصلحة العامة**» التى هى امتداد لـ «*utilitas publica*» فى التشريع الرومانى ، كما أخذوا بعض المناصب السياسية مثل «**الوزير**» من الفرس » .

ازدهار الفكر فى المجال الدينى

كان لدعوة الإسلام إلى العلم فى كثير من آيات القرآن الكريم أثر كبير فى توجيه المسلمين إلى السعى فى تحصيل المعرفة بكل الطرق، ومن أى مصدر، فقادوا بذلك حركة عقلية فى صدر الإسلام على كل المستويات الثقافية .

ففى الجانب الدينى : بذلوا جهدا كبيرا فى شرح قضايا الإسلام ، متخذين المصادر الأصلية أساسا لبناء هذا الجانب العلمى ، فأدت هذه الحركة إلى إنشاء مدارس عدة لخدمة قضايا الدين .

ومن أهم هذه المدارس :

المدارس الفقهية :

حيث كان مجهود العلماء فيها منحصرا فى استنباط الأحكام الدينية من القرآن الكريم والسنة النبوية ، تلك الأحكام التى تنظم سلوك المسلم نحو خالقه فى العبادات ، ونحو أخيه المسلم فى المعاملات ، أو معالجة الأحداث التى كانت تظهر باستمرار فى المجتمع الاسلامى ، ولم يكن يعرف لها أحكام سابقة ، فكان الجهد فى هذا المجال متجها إلى القياس ، أو البحث عن أقرب الأحكام إليها ، أو تقرير حكم لها تحت إطار الروح الإسلامية .

مدارس الحديث وعلومه :

حيث بذل المسلمون جهودا جبارة ، ليس لها نظير فى المجتمعات البشرية ، فرسموا قواعد لقبول الحديث ورفضه ، كما تتبعوا مسانيد الأحاديث لتنقيتها من الدخيل والمكذوب ، والمدسوس .

مدارس التفسير :

وفيها عنى العلماء بكتاب الله شرحا وتفسيرا وتوضيحا لآياته، وبيانا وعرضا لأحكامه ووصاياه ، وتفصيلا لمجمله ، وتأويلا لمتشابهه .

مدارس علم الكلام :

حيث بذل العلماء الكثير من الجهد للدفاع عن قضايا الدين ودحر العقائد المناوئة ، وبيان اضمحلالها وضلالها ، وحماية المجتمع من الأفكار الدخيلة التى حاول أصحابها أن ينشروها فى المجتمع الإسلامى .

ولم تقتصر الحركة الفكرية فى صدر الإسلام على هذا الجانب الدينى ، بل خاضت كل المجالات وفتحت أبوابها لكل الثقافات التى كانت موجودة فى ذلك العصر ، فنهلت من كل جانب ، وطوعت كل ماأخذته ، واستقبلته من هذه الثقافات لروحها ، فتكيف معها فاستوعبته وهضمته .

يقول لويس يونج :

«ولقد فتح العرب أبوابهم على اتساعها لإستيعاب المعارف والثقافات القديمة من يونانية وغيرها ، مما قاد إلى نهضة كبرى فى مجال الترجمة .. ولعل من أهم دوافع الترجمة : هو حث الإسلام على المعرفة ودعوته لتلقى العلم ، وجعل ذلك أمنية عظمى فى الحياة . وقد تعرف المسلمون من خلال الترجمة على جوهر الفلسفة القديمة والطب والعلوم الطبيعية اليونانية .. وهكذا كان مجال الترجمة واسعا حتى إن الكثير من الأعمال اليونانية وصلت إلى أوروبا عن طريق الترجمة العربية فقط ، لأن النسخ اليونانية الأصلية فقدت .. إن تطور المسلمين للتراث اليونانى هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافى فى العالم » .

وهكذا قدم المسلمون خدمة كبرى للإنسانية فى جميع مجالات الحياة :

ففى المجال الدينى : قدموا لهم عقيدة إلهية نقية صافية ، لم تدخلها خرافات العقل

البشرى ، ولا أوهام وترهات الكهنة ورجال الدين الذين ضلوا عن سواء السبيل وأضلوا كثيرا من الناس فأوهموهم بضلالات ، شلت عقولهم عن البحث ، واعجزت تفكيرهم عن الإبداع .

وفى المجال الإنسانى : حطموا الحواجز التى أقامها رجال الدين بين الإنسان وبين مجالات العلوم الانسانية ، ففتحت أبواب العلوم على مصراعيها لكل باحث ، ورفعت الوصاية الدينية عنه ، فأصبح يتمتع بحرية تامة فى البحث والتنقيب فى آفاق الكون كله بما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، وقضوا على الحواجز النفسية بين الشعوب فى المجال العلمى ، وكان شغفهم بتعلم الثقافات الاجنبية وترجمتها إلى اللغة العربية دليل واضح على نظرتهم العالمية لنتاج العقل الإنسانى ، وبيان أكيد على أن الإسلام أباح للمسلم أن يأخذ العلم حيث يجده ، فلا يكون اختلاف البيئة أو العقيدة سببا فى الاعراض عنه ، مادام لايجر وراءه ضررا للإسلام ، أو ضعفا وهوانا للمسلمين .

اختيار وانتقاء

يخضع النتاج العقلى للإنسان لعدة عوامل ، بعضها يرجع إلى بيئته الثقافية بما فيها من اتجاهات وتيارات ، والبعض الآخر يرجع إلى إمكانات الشخص نفسه ، سواء كانت إمكانات ذاتية ، أو مكتسبة تأثرت بما يحيط به من ظواهر ، ومايمليه عليه مجتمعه من مبادىء وأخلاق ، ومن هنا كان فكر الأمة متفاوتا فى الجودة وعدمها ، وفى قربه واتصاله بالعقيدة وبعده عنها ، وفيما يحمل بين طياته من مظاهر عالمية أو خصائص محلية تتصل اتصالا وثيقا بأسلوب حياة المجتمع الذى نشأ فيه المفكر ، ولهذا لم يكن اتصال الشعوب بعضها ببعض فى مجال الثقافة والعلوم مطلقا ، بحيث يأخذ كلٌّ من كلٍّ جميع ماينتجه فى مجال الفكر ، لأن هناك أشياء محلية ، نبعث من احتياجات المجتمع الخاصة ، وتعالج قضايا محلية تتعلق بمبادىء دينية أو تقاليد اجتماعية ملتصقة بأسلوب حياتهم الخاص بهم ، فهذه الأفكار لاتصلح لمجتمع آخر ، وخاصة إذا تعارضت مع مبادىء رئيسية عنده .

فالاتصال الثقافى بين الأمم محكوم بقواعد الاختيار والانتقاء ، إذ يجب على من ينقل ثقافة غيره أن يبحث ويمحص ليختار ماينفعه ولايتعارض مع مبادئه وعقائده ، فإن صادفه شىء من هذا القبيل وأمكن تحويره إلى صورة تنسجم مع مبادئه ، فإن كان قادرا على ذلك فعليه أن يفعله ، وإلا فليدعه ، حتى لايكون سببا فى إذابة مبادئه فى ثقافة أجنبية عنه .

ومن المعروف أنه لايقدر على عملية الانتقاء والاختيار من الثقافات الاجنبية إلا من كان قويا فى عقيدته ، عملاقا فى نظامه الاجتماعى ، راسخا رسوخ الجبال فى عاداته وتقاليده ، فإن الضعيف فى هذه المجالات ، أو فى إحداها يركع خاشعا ذليلا أمام قوة تيار الفكر الاجنبى ، بل يجرى وراءه ، ناسيا ماضيه ، منكرا عقيدته ضاربا الصفح عن تقاليده ، فتضيع شخصيته ، وتنمحى هويته .

ولم يكن المسلمون الأوائل فى اتصالهم بالثقافات الاجنبية على هذا النحو ، بل كانوا أعزاء بعقيدتهم ، محافظين على تقاليدهم ، متمسكين بما علمهم الإسلام من مبادىء وأحكام وتشريعات ، ومن هنا كان اتصالهم بالثقافات الأجنبية اتصال استعلاء ، لايأخذون إلا ماينفعهم وليس فيه خطرا على عقيدتهم ، ولا مساسا بأسلوب حياتهم ، ولهذا لم يكن من النادر أن يحدث التصادم بينهم وبين هذه الثقافات ، وأن يقع النزاع الفكرى بينهما ، لكنه سرعان ماينتهى إلى تحويره وتطويعه للمبادىء الإسلامية ، وتشكيله بالشكل الذى يتناسب مع حياة المجتمع الإسلامى .

يقول : **«جرونباوم»** :

... وكانت نتيجة هذه الخصومة والتنازع أن خرجت إمكانات الإسلام الفلسفية والعلمية إلى حيز الفعل ، وعبروا عنها من جديد فى صيغ مقبولة لدى ممثلى التقاليد الأقدم عهدا التى كان على الحضارة الدينية الجديدة أن تتعامل معها .. فالتفكير الإدارى والسياسى من فارس ، والطرائق الهليسنية فى التفلسف والعلم الدنيوى ، والطب والرياضيات من الهند ، كل ذلك قد تمثلوه واستوعبوه بغير عناء ، وإن التعريب اللغوى لكل مااقتبسوه من هذه الأمور ساعد على تمثلها ، وحينما توضع وجهة النظر الأجنبية فى داخل إطار إسلامى وبتعابير إسلامية يكون الإحساس بها إسلاميا صادقا ، ومن جهة أخرى فإن التوضيح التدريجى بحقائق الدين الأولى أخذ يساعد على توسيع الأساس الذى يقوم عليه التبادل بين الحضارات . وهكذا نجد أن ازدهار الحضارة العباسية (٦٧٠ ــ ٨٤٠م) إنما يمثل امتزاجا ثانيا للحضارة الاسلامية » .

كان المسلمون بإمكاناتهم الفكرية التى كونها الإسلام فيهم قادرين على الانتقاء والاختيار من الحضارة الإنسانية التى اتصلوا بها ، بل كان لهم من الإمكانات ماساعدهم على التغلب على الجوانب التى لاتتفق مع المبادىء الإسلامية فيها ، فأخضعوها بالتغيير والتحوير لروح الفكر الإسلامى ، وتلك هى العملية الحضارية التى تساعد على التقدم والرقى .

ازدهرت حركة الترجمة من الثقافة الاغريقية والفارسية ، فى العصر العباسى الأول ازدهارا لم يحدث فى أى عصر من العصور ، ولا لدى أى شعب من الشعوب على وجه الأرض ، فقد نقل المسلمون كل ماوجدوه أمامهم من نتاج عقلى فامتلأت المكتبة الإسلامية بكل أنواع الفنون والآداب . وطبقا للتفاعل الطبيعى فى مثل هذه الظاهرة أن يسيطر الفكر الأجنبى على العقلية المستقبلة — وخاصة إذا لم يكن لها ماض ثقافى يحميها من الفكر الاجنبى — ويشكلها فى قوالبه ، ويصوغها طبقا لاتجاهاته ، ولكن ذلك لم يحدث ، إذ سيطرت العقلية الإسلامية عليه ، وأخضعته لاتجاهاتها ، وشكلته فى معاملها الفكرية ، فخرج منها يحمل ثوبا جديدا يختلف عن أرديته التى ورد بها ، وتلك معجزة أخرى فى عالم التأثير المتبادل فى ساحات الفكر البشرى ، إذ كيف يتغلب شعب ليست له أرضية فكرية فى تاريخه على هذا الطوفان الثقافى الذى اندفع من كل اتجاه ، يقتحم عليه مجتمعه فيملأ كل ركن من أركان الأروقة الثقافية فيه ، ويتخلل فى كل منتدى علمى فى المجتمع ! إنها ظاهرة فريدة ، ولغز من الألغاز الذى يصعب على من لم يعرف الإسلام ، ويدرك سيطرته وهيمنته على عواطف وأحاسيس المؤمن به أن يفهمه ، أو أن يصل إلى مايزيل دهشته أمام هذه الظاهرة النادرة فى تاريخ الفكر الإنسانى .

إن الإسلام بامكاناته الفكرية ، وقوته الروحية ، وأصالته ومتانته وثباته فى عقل المسلم ووجدانه هو الذى ساعد المسلمين على ترويض العملاق الثقافى الوارد ، وإخضاعه لسلوكيات المجتمع الإسلامى ، وتطويعه لخدمة المسلمين داخل الإطار الإسلامى ، وتحت مظلة العقيدة الإسلامية . فاستخدم المسلمون هذا الفكر بثوبه الجديد لخدمة المجتمع فى جميع المجالات ، وبذلك دبت فيه الحياة بعد أن أشرف على الهلاك فى وطنه قبل أن ينقل إلى المسلمين ، وانتقل بسرعة لم تعهد أيضا فى مجال الفكر إلى كل أرجاء العالم الإسلامى ، فتناوله المسلمون فى حلقاتهم العلمية ومعاهدهم الدراسية :

دراسة وشرحا ، وتنقيحا ، وتوفيقا بينه وبين مبادىء الإسلام وتعاليمه ، فأسهموا بذلك إسهاما بعيد المدى فى بناء صرح الحضارة الإسلامية .

حضارة كان من معالمها البارزة : التجدد المستمر فى عالم الأفكار ، والإحياء الدائم فى المجالات الثقافية المختلفة والمساواة بين الشعوب حول مائدة البحث العلمى ، والعمل الدائب ، والحركة المتواصلة فى السعى وراء امتلاك كل ماتصل إليه الأيدى من الثقافة

العالمية ، وفتح الباب على مصراعيه لكل مامن شأنه أن يضيف جديدا للهرم الفكرى الذى اشترك فى بنائه كل الشعوب التى انضوت تحت لواء الإسلام على اختلاف أجناسها وأقطارها .

يقول دى لاس اوليرى : «لقد أصبح العرب بحكم كونهم حكاما لسورية على اتصال بثقافة متطورة إلى حد بعيد ، استخدموها فى عدة مجالات :

فى بناء المجتمع والنظام الاجتماعى بشكل عام ، وفى الفنون والحرف ، وفى الحياة العقلية وكان الأثر الإغريقى وثيق الصلة بهم ، إلا أن العنصر الفارسى كان أوثق صلة .. وهكذا فقد كانت هذه الفترة (الراشدية والأموية) فترة إحياء دائم إلى حد ما ، أخذت خلالها العناصر المختلفة عن العرب لغة جديدة ودينا جديدا ، وتساوت الآن فى ظل الخلافة ، والتحمت فيها بينها فى حياة مشتركة ، ومهما بلغت شدة الخلافات الطائفية والسياسية فيما بعد ، فقد ظلت سيادة الإسلام تنشر لواءها مدة طويلة ، ولاتزال كذلك إلى حد كبير ، وتتمتع بحياة مشتركة ، بمعنى أنه يوجد تفهم واع بين مختلف الأنحاء وهكذا استطاع التأثير الفكرى أو الدينى أن ينتقل بسرعة من أحد الأطراف إلى الطرف الآخر ، كما أن واجب الحج قد أدى الكثير فى تفتح الحياة المشتركة فى نفوس هذه الجماعة وترويج الحوار بين مختلف أجزاء العالم الإسلامى .. فالحياة العامة فى الإسلام مبنية إلى حد كبير على استعمال اللغة العربية ، كوسيلة فى الحياة العامة .. وكان هذا ذا أثر فى منتهى الفعالية. قبل إدخال عناصر كبرى من الأتراك والهنود الذين لم يصبحوا قط من الناطقين بالعربية . فكان هذا السبب هو الذى جعل الجماعة الإسلامية الناطقة بالعربية وسيلة مناسبة للنقل الثقافى ..

ويقول : « ... كانت أولى وأكثر دلائل التكيف الجديد فى الفكر الإسلامى هو الإنتاج المتزايد فى ترجمة الكتب التى تعالج المواضيع الفلسفية والعلمية إلى العربية ، وكانت حصيلة ، ثمانين عاما من بعد سقوط الأمويين امتلاك العالم الناطق بالعربية ، نسخا عربية لأكثر كتب أرسطوطاليس وكبار شراح الأفلاطونية المحدثة وبعض آثار أفلاطون ، والقسم الأعظم من أعمال جالينوس ومؤلفات أخرى فى الطب وشروحها ، وكذلك بعض الكتب اليونانية العلمية الأخرى وكتبا هندية وفارسية عديدة » .

فهل آن للمسلمين اليوم أن يعرفوا ماأنجزه آباؤهم الأولون فى مجال الحضارة ، فلا ييأسوا من وضعهم الحالى المتردى فى مجال الفكر وساحة الحضارة ، بل يعقدوا العزم

ويصدقوا النية ويبذلوا أقصى مالديهم من طاقات ، كى يعيدوا ذلك المجد الذى ضاع ، ويومئذ سينظر العالم إليهم نظرة إكبار وإجلال ، ويحترم عقيدتهم التى دفعتهم إلى الإسهام فى بناء حضارة تنشر الأمن والطمأنينة بين سكان الأرض ، وربما حملهم هذا الاحترام إلى اعتناق الإسلام ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

ازدهار الحركة العلمية وأثرها

غرس الإسلام حب العلم فى نفوس المسلمين ، حتى غدا المجتمع الإسلامى يعج بآلاف المؤسسات فى جميع مدن الإسلام شرقا وغربا ، فتسابق الناس فى تحصيله وتعليمه والحرص على مواصلة الاشتراك فى الحلقات الدراسية . وكانت معظم أحاديث الناس فى مجالسهم الخاصة ، ومنتدياتهم العامة تدور حول مسائل العلم وقضاياه ، حتى صار أمل كل شاب أن يصل إلى مركز علمى ، يصبح فيه قبلة الدارسين ، وموئل طلاب العلم ومقصد الباحثين عن الحقيقة ، ولذلك ماجت الأقطار الإسلامية بأفواج الدارسين وطلاب الغلم ، فأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة وغيرها من المدن الإسلامية مراكز لامعة لدراسة العلم وتلقينه ، فكانت أبوابها مفتوحة على مصراعيها لكل من يريد العلم ، لافرق فى ذلك بين مسلم وغير مسلم ، إذ لم يسمح لهم الإسلام بأن يكتموا العلم عن أحد ، حتى ولو كان مناوئا له ، ومنكرا لتعاليمه ، فقصدها الأوربيون فى الأندلس غربا ، وفيما بعد فى القسطنطينية وبغداد والقاهرة والقيروان شرقا . فتعلموا فيها كل أنواع العلوم والمعارف وأخذوا من مدارسها علوم اليونان ، وما أضيف إليه من نتاج العقل الإسلامى فى مجالات الطب ، والفلك والفيزياء ، والجبر والهندسة وغيرها مما كان له أثر واضح فى النهضة الأوروبية ، إذ لو لم تتصل أوروبا بالشرق الإسلامى فى ذلك الوقت ، لما وجدت النهضة الأوروبية المعاصرة أو على الأقل لتأخرت قرونا عدة . كذلك لو لم يدعو الإسلام المسلمين إلى العلم ، ويحثهم على طلبه وتحصيله — بصرف النظر عن هويته وجنسيته — وتعليمه للناس فلا يكتمونه ، لضاع الفكر اليونانى ، لأن أوروبا لم تعرف شيئا عن هذا الفكر إلا من مدارس المسلمين وجامعاتهم ، فالحضارة الأوروبية مدينة بوجودها للمسلمين ، فأساسها علم المسلمين الذى تعلمه الأوربيون فى الجامعات الإسلامية ، وجذورها ممتدة إلى النظريات الأولى التى توصل إليها المسلمون فى مجالات البحث المختلفة .

يقول جوستاف لوبون : « ... الحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العلم اليونانى

القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد ﷺ ، وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التى ضاع أصلها ككتاب أبو لونيوس فى المخروطات ، وشروح جالينوس فى الأمراض السارية ، ورسالة أرسطو فى الحجارة .. الخ وأنه إذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة ، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان . فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافا ابديا .

قال مسيو ليبرى : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا فى الآداب عدة قرون » . فعرب الاندلس وحدهم إذاً هم الذين صانوا العلوم والآداب التى أهملت فى كل مكان حتى فى القسطنطينية ، ولم يكن فى العالم فى ذلك الزمن بلادا يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية ، وذلك خلا الشرق الإسلامى طبعا ، وإلى بلاد الاندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم فى الحقيقة .. ولم يظهر فى أوروبا قبل القرن الخامس عشر من الميلاد عالم لم يقتصر على استنساخ كتب العرب . وعلى كتب العرب وحدها عول روجر بيكون ، وليانورد البيزى ، وآرنود الفيلنوف ، وريمون لول ، وسان توما ، وألبرت الكبير ، والاذفونس العاشر القشتالى .. الخ » .

وجاء فى كتاب الحضارة الأوروبية سياسية واجتماعية وثقافية لمؤلفيه اساتذة الفلسفة جيمس وستفال توسون ، وفرانكلين شالزيمام ، وفان نوستراند :

« .. فى خلال قرنين نقل إلى العربية كل ماخلفه الإغريق من التراث العلمى على التقريب ، وأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة مراكز لامعة لدراسة العلم وتلقينه .. وأخذت المعرفة بهذه الثقافة الاغريقية العربية تتسرب إلى أوروبا الغربية فى أواخر القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر . وتسابق الرجال من ذوى العقول اليقظى إلى باليرمو وطليطلة لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية مثل : « اديلارد اوف بات » ، « ودانيال أوف مورلى » ، و« روجر اوف هيرفورد » ، و« اسكندر نكرام » ، وكانت رسالة « اديلارد اوف بات » فى المسائل الطبيعية أول مؤلف علمى أنتجته أوروبا الغربية فى القرون الوسطى ، وقضى بعض الطلاب سنين عدة فى أسبانيا ، ثم قضوا أعمارهم كلها فى هذا العمل المقصور على ترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللاتينية .. وعلى هذا النحو كانت أوروبا قد استولت فى مستهل القرن الثالث عشر على محصول العلم الاغريقى والعربى بحذافيره .

لعل فى هذا البيان مايقنع المنكرين لدور الإسلام البناء فى مجال الحضارة الإنسانية بالرجوع عن رأيهم ، ومايزيل تردد المتشككين فى قدرة المبادىء الإسلامية على تربية الإنسان تربية تؤهله للتفاعل مع الحضارة دون خوف أو تردد يؤثر على مسيرته فى ركب الحضارة الانسانية .

يدعى بعض الباحثين أن المسلمين لم يضيفوا شيئا إلى ماتعلموه من علوم اليونان ، بل كانوا مجرد مترجمين فقط ، أو آلات نقل حفظوا بعملهم هذا تراث الفكر اليونانى من الضياع ، فهم لم يبتكروا جديدا ، بل انحصر عملهم فى حمايته من الضياع ، وبذلوا بعض الجهد فى شرحه وتفسيره . فلم يخرج علمهم عن الدوران فى فلك هذا الفكر شرحا وتبسيطا ، وماذاك إلا لأنهم ـــ حسب ماذهب هؤلاء المنكرين لفاعلية العقل الإسلامى ـــ كانوا عاجزين عن الارتقاء فوق مستوى هذا الفكر ، فاكتفوا باتخاذه قبلة لهم ، يدورون فى فلكه ، ويلتزمون بمبادئه وقواعده .

ولو كان عند هؤلاء ذرة من إنصاف ، بل لو إطلع هؤلاء على جزء من تاريخ الفكر الإنسانى لعرفوا أن دور العقل الإسلامى لم يكن دور الناقل فقط ، بل كان مبدعا ، جاء بقيم جديدة ، وأرسى نظريات حديثة ، لم يعرفها اليونان ، بل بيّن ماكان عليه اليونان من أخطاء فى مجالات العلم المختلفة ، وابتكر ، واكتشف الكثير من المعطيات والنظم الحضارية التى كانت بمثابة الأسس التى قامت عليها حضارات أخرى فى مشارق الأرض ومغاربها ، ففى مجال الجبر ـــ الذى يعرف فى اللغات الأوروبية باسمه العربى ـــ توصل بعض علماء المسلمين فيه إلى أشياء تنم عن عبقرية المسلمين فى هذه الأبحاث ، إذ توصل محمد بن موسى الخوارزمى (٧٨٠ ـــ ٨٥٠م) من الأعداد الهندية إلى رسم لكتابتها ، كان أساسا للرسم الأوروبى الحالى للأرقام الحسابية . وظل الجدول الفلكى الذى وضعه ـــ وكذلك جدوله فى حساب المثلثات والمربعات ـــ المرجع الوحيد لعدة قرون ، كما عرفت أوروبا حياته عن طريق ماترجمه «*Gerhard voncrimona*» فى القرن الثانى عشر الميلادى ، فدخلت مصطلحات علم الجبر إلى أوروبا عن طريق هذه الترجمة ، وهو ماينم عن عبقرية فى مجال علم الحساب الفلكى .

بل إن الفلكيين المسلمين أثبتوا خطأ نظرية بطليموس فى هيئة الأفلاك فتوصلوا إلى مايؤكد أن مواقع الشمس وقطرها يتغيران ، وأن كسوف الشمس وخسوف القمر يقعان فى أزمان محددة .

لقد ارتاد علماء المسلمين فى مجال العلوم آفاقا جديدة ، فاكتشفوا الكثير فى كل مجالاته وصححوا العديد من نظريات السابقين مما يدل على أنهم لم يكونوا أوعية مصمته لنقل الفكر اليونانى ، ولم يكونوا أبواقا تردد مانقلوه من علوم اليونان دون تمحيص وتدقيق وتصحيح ، ولم يكونوا عجزة لايقدرون على أن يضيفوا جديدا إلى ماأخذوه من علم القدماء ، بل درسوا وغيروا ، وصححوا وأضافوا الجديد حتى صار نتاجهم العقلى والحضارى نسيجا خاصا بهم يحمل طابعهم الإسلامى ، ويعكس روحهم الشرقية ، وينبىء عن الجديد والمستحدث الذى أضافوه .

وليس هذا حديثا يردده المسلمون دفاعا عن روادهم ، ولادعاء يدفع إليه التعصب الدينى أو العرقى ، بل ذلك هو الحقيقة الواقعة ، وقد شهد بها كثير من المنصفين الأوربيين .

يقول لويس يونج : « إن تطوير المسلمين للتراث اليونانى هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافى فى العالم وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة . يجب أن لاتغيب عن ذهننا ــ إذ نناقش ونقيم الحضارة الإسلامية ــ تلك الأفكار المبدعة التى جاءت من الجزيرة العربية مع الإسلام وقبله ، واستطاع المسلمون أن يمزجوا بها التراث اليونانى فيصنعوا من ذلك لونا جديدا سباقا فريدا » .

ويقول سارتون : « ... حقق المسلمون ، عباقرة الشرق ، أعظم المآثر فى القرون الوسطى ، فكتبت أعظم المؤلفات قيمة ، وأكثرها أصالة ، وأغزرها مادة باللغة العربية ، وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشرى ، حتى لقد كان ينبغى لأى كان ، إذا أراد أن يلم بثقافة عصره وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية . ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها » .

ويقول سيذيو : « تكونت فيما بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر مجموعة من أكبر المعارف الثقافية فى التاريخ ، وظهرت منتوجات ومصنوعات متعددة ، واختراعات ثمينة تشهد بالنشاط الذهنى المدهش فى هذا العصر ، وجميع ذلك تأثرت به أوروبا بحيث يؤكد القول : إن العرب كانوا أساتذتها فى جميع فروع المعرفة . لقد حاولنا أن نقلل من شأن العرب ولكن الحقيقة ناصعة ، يشع نورها من جميع الأرجاء ، وليس من مفر أمامنا إلا أن نرد لهم مايستحقون من عدل إن عاجلا أو آجلا » .

ويقول دريبر : « .. ينبغى على أن أنعى على الطريقة الرتيبة التى تحايل بها الأدب الأوروبى ليخفى عن الأنظار مآثر المسلمين العلمية علينا ؛ أما هذه المآثر فإنها على اليقين سوف لا تظل كثيرا بعد الآن مخفية عن الأنظار ، إن الجور المبنى على الحقد الدينى والغرور الوطنى لايمكن أن يستمر إلى الأبد» .

ويقول نيكسون : « .. إن أعمال العرب العلمية اتصفت بالدقة وسعة الأفق ، وقد استمد منها العلم الحديث ــ بكل ماتحمل هذه العبارة من معان ــ مقوماته بصورة أكثر فاعلية مما نفترض » .

أسهم المسلمون إسهاما كبيرا فى بناء صرح الحضارة العالمية فى جميع مجالاتها فقاموا بإنجازات ضخمة فى مجال العلوم ، على اختلاف أنواعها وتخصصاتها ، قدموا للإنسانية نتاجا عقليا ظل يضىء لها الطريق منذ ذلك الزمن ، إذ لم تكن معالم الحركة الفكرية فى المجتمع الإسلامى ومضات وقتية ، بدافع حماس فجائى ، سرعان مايخبو ويختفى ، بل كانت معالم حقبة عظيمة ، امتد تأثيرها الفكرى قرونا عدة ، واستمر نموها وتطورها دون انقطاع حتى بعد التدهور السياسى للدولة الإسلامية ، وعمت آثارها جميع أنحاء العالم .

وكانت نتائج أبحاث المسلمين أساسا بنى عليه العلماء ، ومنطلقا للنهضة العلمية المعاصرة ، فقد اعتمدت كل نظريات علم النجوم فى القرون الوسطى على أبحاث الكندى فى مجال الفضاء ، إذ بعد ماضعف مستوى الأبحاث فى هذا المجال بعد تحول الدولة الرومانية إلى المسيحية ، انتقلت هذه المعارف إلى العرب عن طريق بيزنطة ، وفى نفس الوقت تخلت أثينا عن موقعها كمركز للأفلاطونية الحديثة ، فانتقلت المراكز العلمية للرياضيات والطب والكيمياء والفلسفة إلى فارس ، ثم انتشرت فى جميع أرجاء العالم الإسلامى .

وعبر سوريا انتقلت إنجازات عصر قياصرة الرومان والعصر الاغريقى فى مجال علم النجوم إلى العرب فأصبحت بعد ترجمتها علوما عربية ، تناولها العلماء بالبحث والتمحيص ، فزادوا عليها وصححوا ماأثبتت الأبحاث أنه خطأ ، فقد كتب الكندى عن إشعاعات النجوم التى لها تأثير قوى على الكائنات الحية . ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن بغداد كانت مركزا للابحاث الفضائية ، فى ذلك العصر ، وأن جهود العرب فى هذا المجال دفعت علماء أوروبا إلى الاهتمام بهذا النوع من الأبحاث .

كما اهتم المسلمون اهتماما كبيرا بعلم الفلك ، لأن الدين كان أحد الدوافع الأساسية للبحث فيه ، كي يتمكنوا من معرفة مواعيد الصلاة بسهولة ، وتحديد القبلة فى أى مكان يوجد فيه المسلم ، وقد برز فيه عدد كبير من العلماء منهم : الفزارى (توفى ٧٧٧ م) فهو الذى أنشأ الاصطرلاب ، والبتانى (توفى ٩٢٩ م) الذى قام ببعض الأرصاد الفلكية وبعض المقاييس .

وتبعه عمر الخيام (توفى ١١٢٣م) فصمم تقويما جديدا ، ولم يخطىء فيه إلا بمقدار يوم واحد فى كل خمسة آلاف سنة كما بحث أبو معشر (توفى ٨٨٦م) بشكل دقيق فى العلاقة بين المد والجزر وحركة القمر .

إلا أن أهم إنجازات المسلمين فى علم الفلك تتمثل فى تصميمهم المرصد ، إذ لم يظهر بشكله الدقيق والمنظم إلا فى العصر العباسى ، واهتم العلماء الاوربيون الذين تلقوا تعليمهم فى معاهد عربية بهذه الإنجازات ونقلوها إلى لغاتها ، فقد ترجم « مبادىء الهندسة » و« اقليدس » و« المجسطى » لـ « بطليموس » ، ومن بين ماترجم مؤلفات البطانى ، وأرشميدس والفارابى والخازن . ويرجع الفضل فى دقة حساب دورات كواكب الفضاء : (الشمس والقمر والكواكب السيارة الأخرى) لأبحاث البطانى .

وأمدت المدارس العليا التى أنشئت فى قرطبة و« سيفيلا » و« توليدو » بأسبانيا الحياة الثقافية الأوروبية بروافد حملت معها عناصر الخصوبة ، إذ نقل منها الأوروبيون كثيرا من المعرفة ، فكانوا همزة الوصل بين الثقافة الإسلامية ونقطة انطلاق النهضة الأوروبية الحديثة ، نذكر منهم : « جريرت فون أو ريلاك » (تقلد منصب البابوية فيما بعد تحت اسم « سلفستر » الثانى ، ومات عام ١٠٠٣م) ، فقد اهتم بما كان يدور فى « توليدو » من أبحاث ومناقشات ، وعلى الأخص : الرياضيات وعلم النجوم ، فبرع فيها لدرجة أن الشعب اعتقد أن بينه وبين الجن صلة . و« دانيال مولى » الذى درس فى « توليدو » علم النجوم العربى ودوّن معارفه التى اكتسبها من هذه الدراسة فى كتاب .

كذلك أولت الدولة الإسلامية اهتماما كبيرا بعلوم الحساب لحاجتها إلى هذا النوع من العلوم فى تطبيق بعض الفروض الإسلامية كالزكاة ، والجزية والخراج وتقسيم الميراث طبقا لما نص عليه فى القرآن الكريم ، فبرع فى هذا المجال علماء لازالت أسماؤهم تذكر لطلاب هذا العلم كـ : محمد بن موسى الخوارزمى والبتانى والبيرونى وغيرهم مما يدل على أن المجتمع الإسلامى كان الدوحة التى ترعرع فيها بجميع فروعه ، فعبق بريحانه أجواء جميع

الأمم التى اتصلت به فى ذلك الزمان واقتطفت من بساتينه ماشاءت فكان ذلك بذرة النهضة العلمية الحديثة .

ويستطيع مؤرخو الفكر الإنسانى أن يملأوا مجلدات عدة ، إذا أرادوا تسجيل ماأنتجه المسلمون فى مختلف العلوم والمعارف ، بل إن المرء لن يجد نهاية فى الحديث عن هذا الجانب لدى المسلمين ، لأنهم أثروا المكتبات بما لاحصر له من البحوث والنظريات والاكتشافات فى جميع مجالات المعرفة . ومن هنا فلا نستطيع أن نلم بجميع جوانب النتاج الفكرى للمسلمين ، شأننا فى ذلك شأن كل من تناول هذا الموضوع بالبحث والتسجيل ، فلم يخرج كل واحد من هؤلاء عن تناول جزئية من آلاف — بل ملايين — الأجزاء المنتشرة على أصعدة الفكر الإنسانى ، ولذلك سوف نكتفى بما تناولنا من بيانات توضح فاعلية العقيدة فى دفع المسلمين إلى الإسهام فى مجال الحضارة الإنسانية ، لكننا لن ندع الموضوع جانبا قبل أن نختمه بالحديث عن جهود المسلمين فى مجال الطب ، ذلك أنه من المجالات التى يقوم على أساسها حماية الإنسان حتى يتمكن من مواصلة العطاء لمجتمعه .

اقتبس الأطباء المسلمون عددا من النظريات الطبية من الإغريق ، وكان ماأخذوه منهم يشكل قاعدة أساسية انطلق منها المسلمون فى مجالات الطب الواسعة والمتشعبة فصححوا ماكتشفوا خطأه عند الاغريق ، وأضافوا إليه الكثير من اكتشافاتهم المبتكرة ، غير أنهم ركزوا على الأمور العملية بدلا من النظرية فى العلاج الطبى ، فأحرزوا تقدما كبيرا فى فن الاستطبلب ، وفى مجال صنع الأدوية ، فأنشئت أول مستشفى فى بغداد فى عهد الخليفة هارون الرشيد ، ثم مالبث أن افتتحت مستشفيات مماثلة لها فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وكان أشهرها : « بيمارستان » دمشق ، فقد توجه إليه الأطباء للحصول على الدرجات العلمية التخصصية ، وأمّه الطلبة للتدريب على مايحتاجون إليه فى امتحاناتهم كما كان فيه قسم خاص للإسعافات العاجلة .

وامتدت الرعاية الطبية إلى جميع أنحاء الدولة ، إذ كان الأطباء يزورون السجون من آن لآخر لعلاج المسجونين ، كما قاموا بزيارات مماثلة للقرى النائية ، واهتم الأطباء أيضا بعلاج الأمراض النفسية . فلم يتجنب المسلمون المرضى ، وينظرون إليهم نظرة احتقار كما كان يفعل الأوروبيون معهم آنذاك ، واستمرت هذه المعاملة قرونا ، فقد ظل المريض نفسيا محتقرا فى أوروبا على امتداد هذه القرون ، وكان الأوروبيون يفرون منه كما يفرون من مرضى الجزام ، ويتجنونهم كما يتجنبون المجرمين .

وكانت رعاية المرضى سببا فى اكتشافات جديدة فى مجال الأدوية ، ذلك المجال الذى أصبح علم المسلمين الذى لاينازعهم أحد فيه ، إذ اكتشفوا العديد من المستحضرات الطبية ، واستعملوا كثيرا من الأعشاب فى علاج المرضى ، وأثروا هذا المجال باختراعاتهم الجديدة . وظهر العديد من المراجع الطبية فى هذه الحقبة الزاهرة فى تاريخ الطب الإسلامى ، ثم انتقلت إلى أوروبا عبر أسبانيا فكانت أسس علم الطب فى مدارسها العليا لعدة قرون . ومن بين من كتبوا هذه المراجع :

الرازى ، فقد اشتهر فى أوروبا بأبحاثه الطبية ، وخاصة ماتناول فيها مرض الجدرى والحصبة ، إذ أنه أول من فرق بينهما وذلك فى كتابه : « فى الحصبة والجدرى » وترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية وطبعت طبعات عدة على امتداد عدة قرون ، وكان آخرها طبعة نشرت فى انجلترا فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وحرصت جميع المكتبات الأوربية على اقتناء نسخ من مؤلفات الرازى .

كذلك أطلق الأوربيون على ابن سينا لقب « أمير الأطباء » فقد أثرى المكتبة الطبية بأبحاث طبقت شهرتها الآفاق . فلا يجهل من له صلة بعلوم الطب كتابه : « القانون » الذى بلغ شهرة لامثيل لها بعد ترجمته إلى اللاتينية ، بما يضمه من أبحاث عن :

علم الصحة ، والفسيولوجيا ، وطرق العلاج ، والأدوية ، وأمراض العيون وغير ذلك من المجالات التى لم يسبقه أحد فى بحثها .

وكان ابن الهيثم من أشهر أخصائى أمراض العيون ، فقد كتب عن البصريات وانكسار الضوء ، والرؤية بالعدسات ، وأهمية الحجرة المظلمة فى عيادة طبيب العيون للتشخيص والعلاج ، وقد انتفع « روجربيكون » و« كيبلر » بهذه الابحاث .

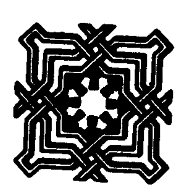
وكان أبو القاسم أشهر جراح فى ذلك العصر ، فقد باشر فى عالم الجراحة أعمالا لم يجرؤ أحد من قبله على القيام بها ، كما استعمل أيضا فى الخياطة الداخلية لأول مرة نوعا لايحتاج إلى نزعه ، بل يتآكل كيمائيا داخل الجسم .

وإلى أطباء المسلمين يعود اختراع الأدوات الجراحية ، ونظام فحص المريض بشكل كامل ، ووصف العديد من الحالات الطبية والأمراض ، كما كانوا يملكون موهبة نظرية وعملية فى تصنيف علوم الطب وتقديم نتائجهم فى كتاب عملى واضح للطلاب وللأطباء معا غير أن أكبر انجاز طبى للمسلمين يتجلى فى إنشاء المستشفيات وإدارتهم إياها على

أكمل وجه ، وفق نظام دقيق لايزال يعمل به حتى الآن .

وهذا يبين بوضوح أثر الإسلام فى دفع المسلمين إلى التعامل مع المعطيات الحضارية والإسهام فيها بما يدحض مايشيعه أعداء الإسلام من أنه كان السبب فى تخلف المسلمين عن ركب الحضارة الحديثة ، إذ بجانب ماأضافوه فى الجانب العلمى — كما بينا جانبا منه — أسهموا إسهاما كبيرا فى حقول العلوم الإنسانية :

كالتاريخ والاقتصاد والقانون والسياسية والتربية ، والنفس ومناهج البحث ، والاجتماع ، والنظم الادارية ، والآداب ، والفنون وغيرها بما يؤكد بوضوح تأثيراتهم فى مجرى الحضارة البشرية ، وخاصة فى الحضارة الغربية .



الفصـل الثامن

العقيدة تكرم الإنسان

رفع منزلته

اختلفت المدارس الفلسفية . والمذاهب الفكرية فى النظرة إلى الإنسان وتقييمه فتنوع تصورها له ، وتعدد مفهومها لعناصر تكوينه :

فمن قائل : إنه كتلة من اللحم والدم والعظام والأعصاب والأجهزة والغدد ، والخلايا تعمل بنظام معين ، وتحكم العلاقات بينها روابط طبيعية واتصالات فسيولوجية تكونت على هيئة خاصة يحدث فى ظلها التأثير والتأثر بين العناصر المختلفة ، دون أن يكون هناك تصادم أو تعارض بين وظائفها المختلفة ، بل إن أعمالها المتنوعة يغذى بعضها بعضا ، فيخرج من التداخل والتلاحم والامتزاج والاختلاط بين وظائفها مايبدو أمامنا على هيئة إنسان ، حتى وظيفة العقل والتفكير فيه ماهى إلا مادة يفرزها المخ ، كما تفرز أعضاء أخرى فى جسم الإنسان مواد أخرى ، لها عملها المعين فى تركيب جسم الإنسان فيؤدى وظائفه طبقا لهذه الإفرازات مجتمعة .

وقد ذهب بعض العلماء إلى بيان نوعية العناصر التى يتكون منها الإنسان ومقدارها فقال : « إذا جئنا بإنسان زنته مائة وأربعون رطلا (١٤٠) وحللنا تكوينه وجدنا بدنه يحتوى على المواد الآتية :

قدر من الدهن يكفى لصنع سبع قطع من الصابون ، وقدر من الكربون لصنع سبعة أقلام رصاص ، وقدر من الفسفور يكفى لصنع مائة وعشرين عود ثقاب ، وقدر من ملح المغنسيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات ، وقدر من الحديد يمكن عمل مسمار

متوسط الحجم منه ، وقدر من الجير يكفى لتبييض بيت للدجاج ، وقدر من الكبريت يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التى تسكن شعره ، وقدر من الماء يملأ برميلا سعته عشرة جالونات .

وهذه المواد تشترى من الأسواق بمبلغ من المال يساوى ستين قرشا مصريا فهذه قيمة الإنسان فى نظر هذا الفريق من الماديين ، مجموعة من العناصر المادية ركبت بطريق معينة ، لتؤدى وظائف مختلفة ، إلا أنها متناسقة ومنسجمة ، فإذا اختل هذا التناسق ، واضطربت عوامل الانسجام تفككت هذه المكونات وتلاشت . فأصبحت شيئا آخر ، وهذا مايعبر عنه بالموت .

أليس فى هذا التصور مايدعو الإنسان إلى احتقار نفسه ، والتهوين من شأنه والنظر إلى وجوده على أنه شىء تافه ، لايستحق الاهتمام ولايستدعى التفكير فيه فهو لايختلف فى تكوينه عن كل مايحيط به :

تأثر وتأثير بين المواد المختلفة . « على شكل تفاعلات كيمائية حتى فى أخص الخصائص التى تميز بها عن غيره ألا وهى قوة الإدراك والتفكير ؟؟

ودورة ديناميكية تتوقف عندما يحدث عطب فى هذه التفاعلات الكيمائية ، أو اضطراب فى عملية التأثير بين وظائفها المختلفة ؟؟

إن مما لاشك فيه أن هذه النظرة إلى الإنسان تجعله يشعر بأنه لاشىء يذكر بالنسبة للكائنات الأخرى ، فما دام التركيب واحدا ، والعناصر متماثلة ، وليس هناك مايميزه عن غيره ، فهو كالحشرة ، أو هو كالحيوان فى مادته وتركيبه . وقد عبر أحد الماديين عن عدم الفرق بين الإنسان والكائنات الحية الأخرى ، فقال : « هل نحن فكرة أكثر من كون الحشرات فكرة ! نحن لانساوى أكثر من أنفسنا ، وكذلك الحشرات ، ونحن لانريد إلا أن نحقق أنفسنا ، وكذلك أيضا الحشرات ، والفرق بيننا وبين الحشرات هو فرق التفوق فقط ، وفرق التفوق بيننا وبين أرقى حيوان ، لايفوق كثيرا فرق التفوق بين أدنى حشرة وأرقى حيوان . ماذا نفقد أو يفقد الكون ، أو تفقد الشمس والقمر بفقدنا أنفسنا ؟

يجرد هذا التصور الإنسان من أخص خصائصه ، ويسلبه ماميزه الله وفضله به على سائر مخلوقاته ، ألا وهى النفخة الإلهية التى أودعها الله هذا الجسم ، فحول إلى كائن آخر يمتاز فى خصائصه ، وميوله ونزعاته ، وتفكيره عن كل ماعداه من مخلوقات .

تلك النفخة التى ارتفعت به عن الأرض وحلقت به فى السماء ، مترفعة به على سائر المخلوقات التى خلقها الله على هذه الأرض ، فهو نوع آخر مميز ومفضل عليها ، ولهذا فإن له السيطرة عليها ، وهى مسخرة له ينتفع بها فى سائر شئون حياته ، وهذا التصور يشعر الإنسان بالعزة والكرامة ، ويضفى عليه هالة من الإجلال والرفعة مما يجعله يحس بفاعليته . فيمن حوله وماحوله فينطلق لتعمير الكون ليحقق بذلك قول الله تعالى : ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾[٣٢٨] . وقوله : ﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض﴾[٣٢٩] . فشعور الإنسان بأنه مستخلف يختلف كثيرا عن شعوره بانه كائن مثل حشرات الأرض وهوامها .

ولم تكن نظرة الماديين إلى الإنسان واحدة، فبينهم اختلاف فى تصور العناصر التى يتكون منها الإنسان، وفى تفسير وجوده، فبينما يرى البعض بأنه كتلة من اللحم والدم والعظام ... و ... و ... الخ كما بيناه سابقا ، يذهب آخرون بأن وجوده على هذه الهيئة إنما هو حلقة فى سلسلة تطور الكائنات الحية ، فالإنسان عندهم أخو الحشرات ، غير أن تطوره خطا خطوات أسرع فتحول إلى هذه الصورة ، ومن أشهر ماقيل فى هذا المجال : رأى « داروين » الذى يتلخص فى أن الإنسان ككائن حى مرَّ بمراحل فى سلم تطوره ، وآخر مرحلة انتقل منها إلى هيئته الحالية هى مرحلة : القرد ، ولذا شاع بين الناس أن الإنسان أصله قرد .

لاتختلف هذه النظرة إلى الإنسان عن سابقتها ، فكلاهما قد هبط به إلى أسفل ، وجرده مما يتميز به عن سائر الكائنات الحية الأخرى ، فهو وإن اعترف بتطوره ، إلا أن مفهوم هذا التطور عنده يتعلق بالعناصر المادية ، فلا يتطرق إلى ماوراء المادة من روح ونفس وسمو وشفافية ، بل لايخرج عندهم عن كونه حيوانا متطورا ، ترقى من طور إلى آخر حتى بلغ ماهو عليه الآن ، فالحيوانية أصله ، والمادية سدته ، فلم يتكون إلا من العناصر الهابطة ، غير أنها ارتقت بعض الشىء عن مثيلاتها .

ألا يعتبر هذا من أكثر التصورات سوءا على نفس الإنسان ؟

هل يوجد ماهو أسوأ من هذه النظرة على حياته ؟

---

(٣٢٨) هود ٦١
(٣٢٩) الأنعام ١٦٥

إذ يرى نفسه مخلوقا هابطا ، لايختلف عن الحيوان فى شىء ، فلا يتميز عنه بميزة ترفع قدره وتعلى مكانته بين المخلوقات ، فهو يشعر فى ظل هذه النظرية بالانحدار والتلوث والإسفاف ، وبناء عليه فهو لايستنكف من التلوث لأنه أصله ، ولايخزى من الهبوط فى وديان القذارة والأوحال ، فهو منها ، وليس فيه مايرفعه عنها ، أو يدفعه إلى التخلص منها ، فالحياة النظيفة غريبة عنه ، وليس بينه وبين المعانى السامية أدنى اتصال ، فهو مجرد عن كل مايدفعه إلى الدنو منها ، أو يربى فيه خصائص الركون إليها والبحث عنها ، والتحلى بها . فهو مادة خالصة ليس فيه مايهذب هذه المادة ويخلصها من الشوائب ، ويرتفع بها إلى عالم المعانى ، ويسبح بها فى آفاق الحق الأعلى . فيستعلى على الشهوات ، ويبتعد عن المطامع المادية تقربا إليه ومبتغيا رضاه .

فنظرة الماديين إلى الإنسان هى احتقار له ، وتهوين من شأنه ، وهبوط به إلى درجات الحيوانية ، أما الإسلام فقد نظر إلى الإنسان على أنه مخلوق كريم على الله خلقه ربه فى أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته ، خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر ملائكته بأن يسجدوا له تكريما وإشعارا له بتمييزه عن سائر خلقه ، وفى ذلك مايدفعه إلى ممارسة كل مامن شأنه أن يرتفع به عن الجانب المادى فيه ، ويحلق به فى سماء المعانى بعيدا عن الماديات وأقذارها ، ومتجنبا كل مامن شأنه أن يهبط به إلى أسفل ، حيث التلوث والإسفاف والانحدار إلى مدارك لاتليق به كمخلوق فضله الله على سائر المخلوقات بأن نفخ فيه من روحه وكرَّمه بسجود الملائكة له ، وميَّزه بالعلم والإرادة ، وجعله خليفته فى الأرض ، ومحور النشاط الارادى فى الكون ، وسخر له مافى السموات والأرض فكل مافى الكون مسخر له ، ولم يجعله مسخرا لشىء أبدا ، وإنما طلب منه العبادة له وحده فقط .

إن مكانة الإنسان المادية بين المخلوقات لاتكاد تذكر ، فهو من حيث حجمه وتكوينه المادى شىء ضئيل جدا بالنسبة للكون ، وكذلك بالنسبة لمخلوقات أخرى كثيرة تعيش على سطح هذه الأرض ، ولكنه من حيث ماأودع الله فيه من روح وقوة إدراك ، وإرادة وبصيرة شيئا كبيرا ، إذ اكتسب بهذه الصفات غير المادية مكانة سامية ، فشعر بالعلو والسمو على غيره من الكائنات ، ودفعه هذا الشعور إلى بذل كل مالديه من طاقات ليظل مرتفعا ، محلقا فى سماء الفضيلة والكرامة ، فمن يغفل عن هذا الجانب يهوى إلى قاع المادة حيث الأوحال والأقذار ، يقول تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع**

هواه﴾[٣٣٠] . أى آثر الجانب المادى على الجانب المعنوى فهوى إلى الأرض ببعده عن رسالة الله التى ترفعه وتسمو به .

تفضيله

أكد الله فى كثير من آيات القرآن الكريم على أنه كرَّم الإنسان وفضَّله على سائر المخلوقات كلها ، منها قوله تعالى : **﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾**[٣٣١] . وقوله : **﴿خلق الإنسان * علمه البيان﴾**[٣٣٢] . وقوله : **﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾**[٣٣٣] . بل إن تصوير القرآن الكريم لإخبار الله الملائكة بأنه سيجعل فى الأرض خليفة ، وإظهارهم تخوفهم من أن هذا المخلوق سيفسد فى الأرض ، ثم بيان الله لهم بالدليل الواضح على أنه صاحب عقل ودراية وإدراك لما حوله ، لبيان واضح للإنسان عن مدى تفوقه على مخلوقات الله ، وفضله عليهم ، إذ أن العقل المدرك فيه قد رفعه من حطيط المادية إلى سماء الإدراك والفهم ، يقول تعالى : **﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون﴾**[٣٣٤] .

كذلك كان لأمر الله الملائكة بالسجود له — وهم عباد الله المقربون الذين لايعصون الله ماأمرهم ، وهم الذين يسبحون الله آناء الليل وأطراف النهار فلا يوجد فى مخلوقات الله من هم أقرب إليه منهم — إعلان على أن الإنسان قد احتل مكانة سامية لدى رب العالمين سبحانه وتعالى . وأى مكانة تضاهى الاحتفاء به فى العوالم الروحية .

---

(٣٣٠) الأعراف ١٧٥ — ١٧٦
(٣٣١) الاسراء ٧٠
(٣٣٢) الرحمن ٣ — ٤
(٣٣٣) التين ٤
(٣٣٤) البقرة ٣٠ — ٣٣

وجاء هذا الاحتفاء فى صورة أمر الله الملائكة بأن تسجد تحية له ، فهى تحية إجلال وإكبار ممن جعلهم الله أقرب خلقه إليه ، يقول تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس** ﴾(٣٣٥) .

لم يفهم إبليس معنى السجود للإنسان ، ولم يدرك سببه ، ولذلك علق عدم سجوده على مظهر مادى بحت ، عندما سأله الله عن عدم السجود ، يقول تعالى : ﴿ **قال ياإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين * قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾(٣٣٦) .

عصا إبليس أمر ربه ، فلم يؤد التحية لهذا المخلوق الجديد ، لأن الحقد والحسد من تكريم الله للإنسان ورفعه فوق درجة الملائكة دفعاه إلى الأستكبار فأبى الخضوع لأمر الله فكان من الكافرين .

فماذا كانت عاقبة هذا التجرد ؟

وماذا كان مصير من لم يعترف بفضل الإنسان فلم يقم بتبجيله واحترامه ؟

ذكر القرآن الكريم أنه عوقب عقابا أليما ، إذ طرده الله من رحمته ولعنه ، فصار طريدا فى كل مكان ، وملعونا على كل لسان عبر الدهور والأزمان ، يقول تعالى : ﴿ **فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين** ﴾(٣٣٧). ومن يلعنه الله فلن يجد له نصيرا ، ومن يطرده الله من رحمته فلن يحس بلحظة سعادة ، بل تظل حياته شقاء وبؤسا وألما يعصر روحه ، إلى أن تقوم الساعة ، ويومها يلقى فى جهنم وبئس المصير .

وأى ذنب فعله إبليس لينال كل هذا العذاب فى الدنيا والآخرة ؟

ليس إلا رفضه تكريم الإنسان كما أمره ربه ، وهذا يبين مدى فضل الإنسان عند رب الكون كله ودرجته عند مبدع الأفلاك وماعليها ، وخالق السموات والأرض وما بينهما .

فإذا قارن المرء بين نظرة الماديين إلى الإنسان ، حيث يعتبرونه مجرد حيوان يأكل ويشرب ويشبع رغباته وغرائزه ، دون أدنى شعور بما يدفعه إلى التفوق والارتقاء إلى

---

(٣٣٥) ص ٧١ — ٧٤

(٣٣٦) ص ٧٥ — ٧٦

(٣٣٧) ص ٧٧ — ٧٨

أعلى ، وبين تكريم الله له ، فإنه يشعر بمدى الإهانة والاحتقار من جانب الماديين ، والذل والهوان لو دار فى فلكهم ، واتبع أهواءهم ، وانغمس فى شهواتهم ، بينما الإسلام يغرس فيه الثقة بالنفس ، والشعور بالذات ، بل إنه يتيه فى رحاب الإيمان فخرا وعزة ، لأنه ينتسب إلى الله ، ويرتبط به ، لأنه خلقه بيديه ، ويقترب منه لأنه فضله وكرمه على سائر خلقه ، وليس هذا الإحساس بهين فى عالم الإنسان ، فهو يؤثر على شعوره فيدفعه إلى الترفع عن الدنايا لأنها لاتليق بمركزه ، وبذلك يتقوم سلوكه فيلتزم طريق الخير التى تعود عليه بالسعادة فى الدنيا والفلاح فى الآخرة .

القضاء على الطبقية

يسيطر حب الظهور والاستعلاء على مشاعر الإنسان وأحاسيسه ، فيدفعه إلى سلوك كل الطرق لتأكيد تميزه على غيره من أبناء جنسه ، ويعمق فى نفسه الاعتقاد بتفاوت الطبقات بين البشر ، فيقوده ذلك إلى تصنيف الناس وتقييمهم حسب مايعتقد أنه يرفعهم درجة ، أو ينزلهم درجتين ، أو يقربهم من علية القوم ، أو يصنفهم مع طبقات الدرجة السفلى . وقد درجت المجتمعات البشرية على اعتبار الظواهر المادية أساسا للتصنيف ، فمن يملك مالا أكثر من غيره ، يحتل درجة أعلى ، ومن يتمتع بجاه أو سلطان يحتل مكان الصدارة بين الناس ، ولذا أصبح المقربون إلى الحكام والسلاطين هم أولئك الذين يملكون الثروات ، أو يتمتعون بجاه العصبية والسلطان ، أو يكون لديهم من القوة مايمكنهم من التقرب إلى الحاكم ، أو مايحمل الحاكم على جذبهم نحوه حتى يؤمن ملكه ، ويقوى سلطانه ، أما أولئك الفقراء فليس لهم مكان بين هذه الطبقات ، حتى وإن كانوا أحسن خلقا وأعز نفسا ، وأحرص على خدمة الأمة . فتقييم الناس عند هؤلاء القوم لايعترف بميزان التقوى والصلاح ، بل بكثرة الدراهم والدنانير ومنعة القوة والسلطان .

غير أن رسالات الله التى أنزلها الله على رسله وضحت للمجتمعات البشرية أن هذا الميزان لاوجود له عند الله ، بل يقرب الإنسان إليه على أساس الخلق الحسن ، والسلوك السليم ، والتقوى والصلاح ، وصفاء النفس وطهارة القلب ، والعمل الصالح والإسهام الإيجابى فى بناء المجتمع ، والبذل والعطاء لحماية خلق الله من شرور المفسدين وطغيان المتكبرين ، ومع هذا فقد نسى ذلك الإنسان ذلك ، فاتبع هوى نفسه ، ووساوس شيطانه ، فمال إلى من أداروا ظهورهم لهذا الخط الواضح فى تقييم الناس وتكريمهم ، حتى

رجال الدين الذين يحتم عليهم وضعهم فى المجتمع أن يتبعوا خطوات الرحمن ، ولاينزلقوا إلى مزالق الشيطان ، انحرفوا عن الطريق المستقيم فوضعوا أنفسهم فى مكان أقرب إلى الله من غيرهم ، بل جعلوا أنفسهم وسطاء بين الله وبين البشر ، فبدوا بهذا السلوك ، وكأن الله قربهم إليه كما يقرب السلطان أولياءه وأقرانه ، وذوى النفوذ من شعبه وظلوا يلعبون دور الوسيط ، ويمارسون عمل السماسرة بين الله وبين من أوهموهم أنهم لايستطيعون الوصول إلى الله بأنفسهم فبينهم وبينه حجاب ، فعن طريقهم هم — أى رجال الدين — تصل رحمة الله إلى عباده ، حتى جاء الإسلام فأعلن للناس أن كل إنسان قريب من الله ، يستطيع أن يدعوه بدون وسيط ، وأن يسأله بنفسه ، فليس بينه وبين عباده حجاب ، ولم يفضل أحدا فيقربه إليه ، ويمنع الفضل عن أحد فيغلق بابه دونه ، لأن الله فضل الإنسان من حيث هو إنسان ، كرمه لذاته ، وميزه على سائر خلقه لما أودع فيه من قوة تدرك خالقه ، فإن أراد التوجه إليه فلا حجاب يمنعه ، ولا باب يرده ، مهما كانت درجته فى سلم التقييم الذى تعارف عليه البشر ، يقول تعالى : ﴿**وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان**﴾(٣٣٨) .

كما بين القرآن الكريم أن الله موجود حيث يتوجه الإنسان إليه ، فلا يحول بينهما التمييز الطبقى الدنيوى ، وليس هناك من الحواجز مايمنعه من الوصول إليه كتلك التى تحول بين اتصال الطبقات المختلفة فى المجتمعات البشرية ، يقول الله تعالى : ﴿**ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله**﴾(٣٣٩) . ويقول : ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾(٣٤٠) . ويقول : ﴿ **مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولاخمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا**﴾(٣٤١) . وجاء تأكيد هذا المعنى فى كثير من الأحاديث التى أخبرنا بها رسول الله ﷺ عن ربه ، نذكر منها مارواه البخارى عن رسول الله أن رب العزة يقول : «**أنا عند حسن ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، إذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلىّ شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلىّ ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة**» .

---

(٣٣٨) البقرة ١٨٦
(٣٣٩) البقرة ١١٥
(٣٤٠) ق ١٦
(٣٤١) المجادلة ٧

هذه هى مكانة الإنسان عند الله ، بينها لعباده ، ليقلعوا عن نعرة الجاهلية فلا يكون تفضيل الناس بينهم على أساس مادى بحت ، بل يقدم فيهم من كان على تقوى وصلاح ، ومن عرف بين قومه بالسلوك الحسن والخلق الطيب ، والعمل الصالح لربه ولنفسه ولأهله ، ولقومه وعشيرته ، ولأمته الاسلامية فى مجالى الدنيا والآخرة ﴿**ولكل درجات مما عملوا ومار بك بغافل عما يعملون**﴾(٣٤٢) .

تحرير الارادة

يرتفع قدر الكائن الحى بمقدار مايملك من حرية فى تصرفاته وسلوكه ، فكلما كانت حريته أوسع كان قدره أكبر ، فإذا نظرنا إلى الكائنات الحية بهذا المنظار لوجدنا أن ارقاها هو الإنسان ، لأنه هو الكائن الوحيد الذى أعطاه الله حرية فى سلوكه أكثر اتساعا من أى مخلوق آخر على وجه الأرض ، إذ أن ماعداه من الكائنات لايتمتع بمثل هذه الحرية ، فهى مابين متحرك بالدفع الذاتى داخل دائرة عامة تحكمه وتحدد حركته مع ماهو مرتبط معه من الكائنات الأخرى كالأفلاك والأجرام ، ومنها ماتحركه غريزته ، فهو خاضع لمتطلباتها ، يسير وفق ماتمليه عليه ، وماتوجهه نحو إشباعها كالحيوان والنبات . أما الإنسان فهو الكائن الوحيد الذى يتصرف وفقا لإرادته هو ، فليس مرتبطا بغيره من الكائنات ، ولايخضع خضوعا لازما لتوجيه متطلبات غرائز كامنة فيه ، فهو وإن كان فيه من الغرائز مايدفعه إلى إشباعها ، إلا أن له من الحرية مايمكنه من التصرف عكس ماتطلبه منه ، فإن دفعته غريزة الجوع — مثلا — إلى الأكل من طعام فى متناول يده فإن له من الارادة مايجعله قادرا على الامتناع عن تناول هذا الطعام ، وإن استعرت فى داخله غريزته الجنسية ، فإن له من القوة مايمكنه من كبتها ، وعدم تلبية ماتطلبه منه ، أو الجرى وراء ماتدفعه إليه ، وهكذا فى كل أعماله ، لاتصدر ، إلا عن إرادة منه وعزم على تحقيقه ، وتلك هى الحرية التى منحها الله له ، وفضله بها على سائر الكائنات الحية على سطح الأرض .

كذلك من تفضيل الله الإنسان أن جعله مركز هذا الكون المادى العريض ، فهو سيده ، يتصرف فيه كيف يشاء ، وعلى أى وجه يريد ، فله الحرية فى ممارسة طاقاته معه ، لاقيد عليه فيما يفعل ، ولا حجر عليه فيما يتناول ، وليس بينه وبين مايريد الانتفاع به

---

(٣٤٢) الأنعام ١٣٢

من هذا الكون باب مغلق ، ولا حجاب يحول بينه وبين مايريد ، ولا حاجز يفصل بينه وبين الوصول إلى أى شيء ، فالكون مسخر له ، وكأنه خلق من أجله ، وَوُجِد له وفصلت ظواهر الطبيعة من بحار وأنهار وجبال ووديان ، وريح ورياح لينتفع بها فى مجالات حياته المختلفة ، وأحوال تكوينه المتنوعة ، يقول تعالى : **﴿الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها﴾**(٣٤٣) . ويقول : **﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾**(٣٤٤) . ويقول : **﴿الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**(٣٤٥) . ويقول : **﴿ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات ومافى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾**(٣٤٦) .

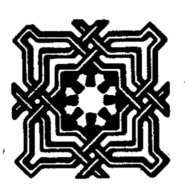
وبهذا أصبح الإنسان مؤهلا لحمل أمانة-الوحى ، فحريته الواسعة المدى تمكنه من اختيار طريق الهدى وسيلة لحياته ، ومصباح الحق نورا يهتدى به فى سلوكه ، حتى لايتعثر فى طرقات الدنيا المظلمة ، وقد شرع الله معالم تحدد له مسار الركب الانسانى حتى لاينحرف فيتيه فى صحراء مهلكة ، ووديان مليئة بماء آسن وقاذورات تلطخ ثوبه الناصع الذى خلقه الله به .

فحرية الإنسان وسيلة أعطاه الله إياها ليصبح مستعدا عن طواعية لحمل الأمانة الكبرى ، ألا وهو التكليف باختيار مايصلحه دينا ودنيا ، وهو ماعبر الله عنه وصوره فى أبدع صورة فى قوله تعالى : **﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾**(٣٤٧) . حملها لأنه كان على استعداد لحملها ،

---

(٣٤٣) إبراهيم ٣٢ ــ ٣٤
(٣٤٤) الاسراء ٧٠
(٣٤٥) الجاثية ١٢ ــ ١٣
(٣٤٦) لقمان ٢٠
(٣٤٧) الأحزاب ٧٢

فهو يتمتع بالحرية التى تمكنه من القيام بهذا الواجب ، ولذا فمصيره بيده إن شاء اختار طريق الله ، وإن شاء تخبط فى ظلمات الشيطان ، يقول تعالى : ﴿**بل الإنسان على نفسه بصيرة**﴾[٣٤٨] . ويقول : ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾[٣٤٩] .ويقول : ﴿**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**﴾[٣٥٠] . ويقول : ﴿**إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها**﴾[٣٥١] .



(٣٤٨) القيامه ١٤

(٣٤٩) الكهف ٢٩

(٣٥٠) الشمس ٩ ــ ١٠

(٣٥١) الاسراء ٧

الفصل التاسع

حقوق الإنسان فى الإسلام

حرية ومساواة

احتلت حقوق الإنسان منذ الثورة الفرنسية مكان الصدارة فى كل منشور عقائدى ، وتحلى كل بيان مذهبى بالدعوة إلى المحافظة عليها ، ومحاربة كل من يعتدى عليها فى أى مكان وتحت أى نظام من النظم السائدة فى المجتمعات البشرية ، حتى صارت الآلة التى يضرب على وترها كل من يريد تأييدا جماهيريا ، وأغنية يرددها أنصار كل مذهب ، حتى ولو طفحت تصرفات أتباعه بما يتنافى مع أدنى المبادىء التى تحافظ على حقوق الإنسان ، وتؤمن له حريته ، وماذاك إلا لأن أغنيه حقوق الإنسان أصبحت من النغمات التى تجد قبولا لدى البائسين والمحرومين ، ويسعى المضطهدون فى كل مكان إلى مناشدة أصحاب الضمائر الحية لبذل كل مافى وسعهم لتحويل كلماتها إلى حقائق ، وتجسيم نغماتها فى المجتمع البشرى كى تختفى صور الظلم والاضطهاد ، وتنمحى مظاهر ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

ورغم كل هذه الضجة الإعلامية التى تتخذ حقوق الإنسان مادة لها ، فلا زالت صور البؤس والشقاء الآدمى تغطى معظم مناطق الكرة الأرضية ، بل لازال من اشتهروا بالدعوة إليها يأتون من الأعمال مايناقضها فى أماكن عديدة ، ينقضون أبسط مبادئها فى أقطار شتى ، حتى ضاعت ثقة الإنسان بفاعلية المؤسسات التى كرست جهودها فى هذا الميدان ، ورصدت الأموال الطائلة تحت بند العمل على محاربة ظواهر ضياع الكرامة الإنسانية .

فلو أدرك المهتمون بهذا الجانب ماقرره الإسلام فى هذا المجال منذ أربعة عشر قرنا ، فاهتموا بإبرازه على الساحة الدولية والأقاليم لظهرت آثاره بشكل أكثر وضوحا مما يمارسه الداعون إلى هذه الحقوق اليوم على أساس مذهبى أو عرق إو إقليمى ولعمقت جذوره فى ضمير المجتمع ، بحيث لايقدر على محوها الطغاة والمتكبرون ، مهما كثر أنصارهم ، وقوى عتادهم ، لأن كل مايرتكز على طبيعة الإنسان ، ويستند إلى مصدر إلهى تكون فرصته فى سرعة الانتشار أكبر من غيره ، وطبيعته فى الدوام والاستقرار أكثر صلابة مما يقوم على زأى بشرى ، أو يصدر من اتجاه إنسانى .

فقد بين الإسلام أن الله خلق الإنسان ، ومنحه الحرية فى سلوكه وتصرفاته فحرى بهذا المخلوق — بناء على هذا العطاء الإلهى :

أن يكون حرا فى التعبير عن أفكاره ، وفى اعتناق مايراه صالحا لنفسه ومجتمعه وفى الإيمان بما يميل إليه عقله ويقتنع به ، فلا يجوز لأحد أن يصادر حريته فى هذا المجال ، وإلا أعطى لنفسه حقا لم يشأ الله أن يستعمله مع خلقه . وتصدى لطبيعة خلقها الله فى الإنسان . وكبت غريزة لاتستقيم حياة الإنسان إلا بها ، ولاتصلح النظم الاجتماعية إلا بظهورها ، ولا تسير حياة الأمم فى مجراها الطبيعى إلا إذا تمتع أفرادها بهذه الحرية . وحق طبيعى لهذا الانسان :

أن يحصل على حقه مما سخره الله له ، فلا يجوز لأحد أن يحرمه من هذا الحق فليس لأمة أن تستأثر بالموارد الطبيعية دون غيرها ، ولا لشعب الاستحواذ على مايرفع مستوى معيشته ، بينما يحتاج غيره من الشعوب إلى ماتسد به رمقها .

ولا لجنس أن يملأ بطون أفراده بأطايب الأطعمة ولذائذ الأشربة ، بينما شعوب أخرى يقتلها الجوع بعد أن تمر بطريق طويل تذوق فيها ألوانا من الحرمان وصنوفا من آلام تتعرض لها أبدانها العارية وبطونها الخاوية ، وأجسادها التى أصبحت مستعمرة للأمراض ، وموطنا لكل أنواع العلل والأسقام .

أكد الإسلام على هذين الأمرين : الحرية والمساواة فى حقوق الانتفاع بما سخره الله للإنسان ، لأنهما أساس العدل فى المجتمع الانسانى ، ومصدر تقرير عزة الإنسان وكرامته ، وسياج المحافظة على إنسانية الإنسان ، فلا تهدر ، ولاتهان ، ولا يلحقها مايشينها ، أو يحط من مكانتها التى بوأها الله إياها . فإذا تقرر هذا لدى ضمير المجتمعات الإنسانية وحافظت عليه الحكومات ، واعترف به دعاة المذاهب والاتجاهات الفكرية ،

وآمن به كل فرد إيمانا راسخا بحيث يكون مستعدا للدفاع عنه بكل ماأوتى من وسائل ، وماتيسر له من سبل ، لاختفت ظواهر الظلم ومعالم الاستغلال من المجتمعات البشرية . فلا ينال أحد أكثر مما يستحق ، ولا يحرم إنسان من حق الحياة على نحو يحفظ عليه إنسانيته وكرامته ، ويومئذ يشعر المرء بالأمن والأمان ، والاطمئنان والاستقرار ، وذلك ماتهدف التعاليم الإسلامية إلى تحقيقه للإنسان فى الدنيا ، فضلا عن مجازاته فى الآخرة على حسن عمله فى دنياه : ﴿**فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين**﴾ .

اصلاح وسعادة

رفع الإسلام مكانة الإنسان ، فاعترف بجميع العناصر التى يتكون منها سواء كانت مادية أو روحيه ، إذ لم يفرض عليه من العبادات مايرفع به نفسه وروحه ويهمل بدنه وجسمه كما فى بعض الأديان ، ولم يتركه مطلق العنان فى مجال إشباع الغرائز حتى لايدمر نفسه ، ويصدع بنيان مجتمعه ، بل اعترف بروحه وجسده ، ففرض عليه من العبادات مايصفى هذه الروح من الشوائب ، وينقيها من الآثام ، ويطهرها من الرجس ، ويبعدها عن موطن الآثام ، ويحول بينها وبين الانحدار إلى مايعكر صفاءها ، ويطمس شفافيتها ، ويقضى على بهائها ونقائها ، وفى الوقت نفسه لم يفرض عليه أن يكبت غرائز بدنه ، ويميت متطلبات تكوينه الجسمى ، فلم يحرم عليه طيبا ، ولم يمنعه من إشباع غرائزه ، سواء كانت عن طريق الطعام والشراب أو بمباشرة الاتصال النوعى ، مادام ذلك فى الإطار العام الذى رسمه لحياة الأفراد والمجتمعات ، يقول تعالى : ﴿**قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة**﴾(٣٥٢) . ويقول : ﴿**ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين*وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون**﴾(٣٥٣) . ويقول : ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾(٣٥٤) .

---

(٣٥٢) الاعراف ٣٢
(٣٥٣) المائدة ٨٧
(٣٥٤) الروم ٢١

تعتبر هذه النظرة إلى الإنسان سموا به ، ورفعا لشأنه ، وبيانا بأن الله الذى خلقه فى أحسن صورة ، فرض عليه من الأحكام مافيه صلاحه جسميا ونفسيا ، ومايعود عليه بالسعادة بدنيا وروحيا ، فلم يعذبه بحرمان جسدى ، ولم يثقل كاهله بواجبات دينية يقول تعالى : ﴿.. **مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون**﴾[٣٥٥] . ويقول رسول الله ﷺ : «**إن لبدنك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزورك ـــ يعنى زوارك وضيوفك ـــ عليك حقا فاعط كل ذى حق حقه**» .

اعترف الإسلام بالكيان الإنسانى كله : جسمه وروحه ، عقله وقلبه ، إرادته ووجدانه ولهذا لم يغفل جانبا من هذه الجوانب فى خطابه له .

ففى الجانب المادى :

أمره بالسعى فى الأرض ليأكل من طيباتها ويستمتع بما فيها ، ومايمكنه أن يستخرجه منها ، كما حثه على النظافة والتجميل ، بشرط الاعتدال فى ذلك كله . كما نهاه عما يضره بدنيا ، فحرم عليه المسكرات بجميع أنواعها حتى لايضر جسمه فيعجز عن القيام بما تفرضه عليه حياته .

وفى الجانب الروحى :

أمره بعبادة الله وحده ، ففرض عليه أنواعا من الطاعات كـ : الصلاة ، والصيام ، والزكاة والحج والعمرة ، وحثه على الالتزام بما يقربه إلى ربه مثل : الذكر ، والدعاء ، والتوكل ، والخوف ، والرجاء ، والبر ، والإحسان ، والجهاد فى سبيل الله ، وغير ذلك مما يقرب العبد إلى ربه ، ويبعده عن وساوس الشيطان وهواجس الأشرار .

وفى مجال العقل :

أمره بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ومابينهما من مخلوقات، كما حثه على التفكير فى مصائر الأمم وسنن الله فى المجتمعات ، فلم يحرم عليه العلم ومعرفة الحكمة ، مهما كان مصدرها ، بل أنكر عليه الجمود والتقليد للآباء والكبراء ، وماذلك إلا ليدفعه إلى ممارسة شئون الحياة على نحو يلبى كل رغبات عناصر تكوينه .

---

(٣٥٥) المائدة ٦

ولم يهمل جانب إحساسه بجمال ماحوله والتفاعل معه نفسيا وروحيا ، فوجهه إلى النظرة والتأمل فى جمال الكون بأرضه وسمائه ، ونباته وحيوانه لاستكشاف مظاهر الحسن والبهجة فيه ليشبع حاسة الجمال عنده ، فيشعر بعظمة الله فى أعماق نفسه وفى ثنايا وجدانه ، يقول تعالى : **﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج﴾**(٣٥٦). **﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت*وإلى السماء كيف رفعت* وإلى الجبال كيف نصبت*وإلى الأرض كيف سطحت﴾**(٣٥٧). **﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾**(٣٥٨) .

إن خطاب الله للإنسان على هذا النحو يؤكد أن الإسلام ينظر إلى كيان الإنسان كله ، فلم يهمل جانبا لحساب آخر ، وفى ذلك اعتراف بكل عنصر فيه ، وتقدير لمهمته التى خلق من أجلها ، فسبحان من خلق فأحسن الخلق ، وصور فأبدع التصوير ، يقول تعالى: **﴿ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم*الذى خلقك فسواك فعدلك*فى أى صورة ماشاء ركبك﴾**(٣٥٩) .

أخوة وتعاون

لم تكن الدعوة إلى تقرير حقوق الإنسان فى الإسلام قاصرة على نصوص تتلى ، أو إعلان يذاع على الناس ، بقصد الدعاية للاستحواذ على عقول الجماهير ، واكتساب تأييد دولى ــ كما هو الحال اليوم على الساحة الدولية ، حيث يرفع الغرب والشرق هذا الشعار ، وتغنى أبواق دعاية كل منهما على وتره ، دون التزام أى منهما بالتطبيق العملى فى ميدان المعاملات الدولية ــ بل كان مبدأ يجب الإيمان به ، وقانونا سماويا يجب الإذعان والخضوع له ، وشرعا ربانيا يتحتم على كل مسلم تنفيذه ، وإلا حقت عليه كلمة العذاب ، فباء بالخسران المبين ، والعقاب الأليم .

---

(٣٥٦) ق ٦
(٣٥٧) الغاشية ١٧ ــ ٢٠
(٣٥٨) الأنعام ٩٩
(٣٥٩) الانفطار ٦ ــ ٨

التزم المسلمون بما جاء فى القرآن الكريم فطبقوه فى حياتهم ، حيث اتخذوه نبراسا يهتدون به فى نظرتهم إلى الوجود ، وفهمهم لحركات الكون ، وتقييمهم للحياة الإنسانية ، فكان سلوكهم الاجتماعى قائمًا على أساس العقيدة التى غرست فيهم كل أنواع الفضيلة ، فتكوّن لديهم الشعور بالعطف على بعضهم البعض ، وتأصل فيهم احترام الجانب الآدمى فى الإنسان ، فلا يصدر من أحد مايؤذى أخاه أو يؤلمه ، ولا يباشر عملا يترتب عليه امتهان كرامة الآخرين أو التقليل من إنسانيتهم ، أو الحجر على حريتهم ، أو الحيلولة بينهم وبين ممارسة مافطرهم الله عليه فى حدود التشريع الإلهى ، وبذلك صاروا إخوة متحابين متعاطفين ، يشعر كل بما يشعر الآخر ، سواء كان ألما أو انبساطا ، حزنا أو ابتهاجا ، كدرا أو سعادة ، يقول الله تعالى : ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾(٣٦٠) . ومن مقتضيات الأخوة : العطف والرحمة ، ومد يد المساعدة والعون ، والمشاركة فى الأحزان والأفراح ، وعدم الاعتداء والظلم ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، فلا ظلم ، ولا سلب ولانهب ، بل تعاون وتعاطف وتراحم ، يقول رسول الله ﷺ : «**مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» . ويقول : «**المسلم أخ المسلم : لايظلمه ولايسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته يوم القيامة ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة**» .

ألزم الإسلام المسلم بأعمال تجاه أخيه ، من شأنها أن تقوى الروابط بين أفراد المجتمع ، وتعمق الشعور بحقوق الإنسان ، وتؤكد على آدميته ، فلا تدع سبيلا لظهور مايتعارض مع كرامة الإنسان فى الحياة الاجتماعية ، يقول رسول الله ﷺ :

«**حق المسلم على المسلم ست قيل : ماهن يارسول الله ؟ قال : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه**» . لأن هذه الوصايا من أهم الدعائم التى يقوم عليها مجتمع متماسك ، يحس فيه الأخ بأخيه ، ويحرص على أن يؤدى ماعليه إزاءه ، ولايفرط أبدا فى قضاء حاجة أخيه ، أو تلبية دعوته ، إن أصابه مكروه أو ألم به ضرر .

سادت روح الأخوة فى المجتمع الإسلامى ، ورسخت فى أعماق ضمائر المسلمين وذلك بالالتزام بما أمرهم الله سبحانه وتعالى فى هذا المجال ، وتذكير بعضهم البعض بما

---

(٣٦٠) الحجرات ١٠

وصاهم به الرسول ﷺ بألا يحقر مسلم أخاه ، ولاينظر إليه نظرة استعلاء واستكبار ، اعتمادا على نسب أو جاه أو مال . وقد تناقل المسلمون مرويات تؤكد هذا المعنى ، رددوها فى مدارسهم ومجالسهم ، ولقنوها لأبنائهم حتى يظلوا دائما على ذكر بما يجب عليهم نحو إخوانهم ، ومن هذه المرويات ، مارواه البخارى أن أباذر وبلال الحبشى رضى الله عنهما — وكلاهما من السابقين الأولين — تغاضبا وتسابا ، وفى ثورة الغضب قال أبو ذر لبلال : ياابن السوداء .. فشكا بلال إلى النبى ﷺ فقال النبى لأبى ذر : « أعيرته بأمه ، إنك امرؤ فيك جاهلية » وعن أبى ذر أن النبى ﷺ قال : انظر .. فإنك لست بخير من أحمر وأسود ، إلا أن تفضله بالتقوى » كما جاء فى كتب التاريخ أن ابن عمرو بن العاص ضرب ابن أحد المصريين وافتخر عليه بأنه أفضل منه وأكرم ، لأنه ابن الوالى ، فذهب أبوه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى المدينة وشكا له ، فاستدعى عمرو بن العاص وابنه ، فلما مثلا بين يدى عمر قال لابن المصرى : « اضرب ابن الأكرمين » . ثم التفت إلى عمرو بن العاص وقال قولته المشهورة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

فهل يوجد فى التاريخ مشهد أوضح من هذا فى تقرير حقوق الإنسان ؟

إنه مشهد عملى بعيد عن الدعايات المضللة والشعارات الكاذبة ، كتلك التى ترددها أبواق الإعلام صباح مساء على المسرح الدولى ، بينما الواقع يصرخ مستغيثا ، فلا يسمع له صوت من كثرة الضجيج الإعلامى الكاذب عن حقوق الإنسان وكرامته .

ومبدأ إسلامى عبر عنه عمر بن الخطاب بقولته التى أصبحت وثيقة من الوثائق الإسلامية التى حافظ عليها المسلمون عبر مسيرة التاريخ إلى يومنا هذا ، ولا زالت منارة المسلمين فى تحديد علاقتهم وسلوكهم مع جميع الناس فى كل بقاع الأرض .

تطبيق لا شعارات

اتخذت وسائل الإعلام فى كل معسكر من المعسكرين اللذين يسيطران على العالم قضية حقوق الإنسان مادة لها لكسب تأييد المجتمع الدولى ، ومحاربة المعسكر الآخر ، فالغرب يتهم الشرق بأنه أهدر حقوق الإنسان فجعله آلة فى عجلة الحياة ، لا حق له سوى الأكل والشرب بالقدر الذى يحفظ حياته . فلا حرية له فى التعبير عن أفكاره وفى الإعراب عن آماله وطموحاته ، بل لايستطيع أن يصرخ من الآلام التى يحملها بين طياته ، ولايشكو

مَنْ ظلمه فسلبه حريته ، وإلا أرسل إلى أقصى الأرض حيث يعيش فى صحراء قاحلة ، وتحت ظروف مناخية قاسية ، فيبقى فيها إلى أن يموت فيزيائيا ، بعد أن قتل نفسيا لضياع إنسانيته وإهدار كرامته يوم أن سيطر النظام الشيوعى على مقدرات حياته .

وتقابل أجهزة الإعلام الشيوعى ودعاياته هذه الاتهامات الغربية باتهامات مماثلة حيث تبين أن النظام الغربى الرأسمالى يعتمد على الاستغلال والاحتكار ، فأصحاب رءوس الأموال يستغلون جهود وطاقات الناس فى سبيل الحصول على أكبر ربح ممكن ، فتتكدس الثروة فى أيدى عدد قليل من الناس ، يستمتعون بها ، ويستخدمونها سلاحا للسيطرة على مقاليد الحكم ، وإخضاع الجماهير . كما تساعدهم على التحكم فى سياسة الدول والشعوب فيخضعونها لرأيهم ، ويجبرونها على السير فى فلكهم ، وبذلك تصير أعنة السياسة الدولية فى أيديهم ، يسيرونها إلى الاتجاه الذى يدر عليهم ربحا أكثر فيزداد ثراؤهم يوما بعد يوم ، بينما الشعوب الأخرى تئن من كثرة مايلم بها من الأزمات الاقتصادية ، وتصرخ طالبة مديد المساعدة فلا يجيبها أحد إلا بمقدار مايعود عليه بنفع أكبر ، وعائد أوفر .

وحقيقة الأمر أن كلا منهما قد أهدر حقوق الإنسان وأضاع كرامته ، والخلاف بينهما فى الوسائل فقط .

فالمعسكر الشيوعى اتخذ السيطرة على وسائل الانتاج فى الدولة أسلوبا لاخضاع الإنسان لرأيه ، وإجباره على الاستسلام لنظامه ومبادئه بالإضافة إلى استعمال القوة المسلحة لإرهاب المعارضين، وعقاب من سيتجرأ فيرفع صوته بالشكوى، أو يئن بصوت عال كما تستعمل أيضا فى فرض هذا النظام على شعوب أخرى فى أرجاء متعددة فوق سطح الكرة الأرضية .

والنظام الرأسمالى وإن كان قد أعطى الفرد شيئا من الحرية فى مجال التعبير عن الآراء والاتجاهات ، إلا أن معالمه تؤدى إلى عدم إمكانية ممارسة هذه الحرية فى الواقع العملى ، إذ أن مصالح الإنسان ووسائل حصوله على لقمة العيش متداخلة مع النسيج الرأسمالى ، فلا يستطيع أن يتخلص منها ، ولايقدر على التعبير عن رأيه بحرية كاملة . وإلا عصفت به مراكز القوى فى المؤسسات الاقتصادية التى تسيطر على مصادر رزقه ، فلا يستطيع الوصول إلى حقه إلا بعد أن تنهك قواه ، وقد تنهار عزيمته قبل الوصول إلى هذا الحق .

وعليه فإن حقوق الإنسان فى كلا المعسكرين غير مكفولة إلا لمن يملك القوة ، ويتمتع

بالسلطان ، سواء كان وصوله إلى ذلك الوضع عن طريق السيطرة على مقاليد الحكم ، او بواسطة نفوذ رأس المال وسيطرته على مصادر رزق الناس ومقدرات حياتهم ، ففى كل مجتمع طبقة مميزة على بقية الطبقات ، تتمتع بخيرات المجتمع ، ولا تسأل عما تقترفه فى سبيل ذلك من آثام فى حق الآخرين ، وبذلك ضاعت حقوق الإنسان ، فلا تسمع إلا فى وسائل الإعلام وأبواق الدعاية ، أما فى الواقع فلا تجد لها أثرا ، ولا ترى لها مثلا .

لم تهتد هذه الأنظمة إلى الأسلوب الصحيح فى تقرير حقوق الإنسان نظريا وعمليا لأنهامن صنع البشر، فليس لها من الجلال والقدسيةعلى نفوس الناس مثل ماللأوامر الإلهية التى لها قدرة التأثير فى نفوس الناس مما يجعلهم ينفذون ماتدعو إليه دون أدنى معارضة ، ويخضعون لها دون تردد ، أو تمرد ، كذلك لم تنجح الأديان فى تحويل النصوص التى تتعلق بحماية حقوق الإنسان فى كتبها المقدسة إلى واقع عملى مثل ماحدث فى المجتمع الإسلامى ، فقد سوى الإسلام بين الناس كلهم فى الحقوق والواجبات ونفذ ذلك عمليا بين المسلمين ، يشهد بذلك :

ـــ ماروى من أن أسامة بن زيد حين شفع فى المرأة المخزومية التى وجب عليها حد السرقة قال له رسول الله ﷺ : **«أتشفع فى حد من حدود الله عز وجل ؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»** .

ـــ وقال أبو بكر رضى الله عنه فى أول خطبة له : « ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه » وكتب عمر رضى الله عنه إلى عماله يقول : « اجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء قريبهم لبعيدهم وبعيدهم لقريبهم إياكم والرشا ، والحكم بالهوى » .

بل إن غير المسلمين عاشوا فى المجتمع الإسلامى مكرمين ، لم يسلبهم أحد حقهم ولم يعتد على إنسانيتهم حاكم أو محكوم ، بل كان لهم ماللمسلمين وعليهم ماعليهم ، وكان هذا أوضح مثل على تقرير حقوق الإنسان عمليا فى المجتمع الإسلامى ، فلم يكن امتلاك المال والجاه وسيلة لظلم الآخرين ، وسلبهم حقوقهم ، كما هو الحال فى النظام الرأسمالى ، ولم تكن القوة والسلطان طريقا للبطش بالآخرين وإذلالهم وانتقاص حريتهم وكرامتهم ، كما هو الحال فى النظام الشيوعى ، بل لكل حقه حتى ولو كان فى يد الخليفة ، وعلى كل واجب ينبغى عليه القيام به حتى ولو كان الأمير نفسه ، وبذلك شعرت النفوس باستقلالها وعزتها وسيادتها ، وعم العدل كل الطوائف فشعرت بالأمن والأمان والطمأنينة والاستقرار .

فلا تتحقق سعادة الشعوب برفع الشعارات ، وقوة صدى الدعايات ، ولا تنال طمأنينتها وأمنها بالوعود الكاذبة ، والأمانى الخادعة ، ولاتستقر حياتها على أساس تصورات وهمية ، أو تخيلات ذهنية ، وإنما تنال حقها فى الوجود ، وتشعر بذاتيتها وكينونتها فى الحياة ، وتحس ببقائها واستمرارها كلما زاد إحساس أفرادها بالعزة والكرامة . ولن يتحقق ذلك إلا إذا شعر الجميع بأواصر القربى بينهم ووشائج الصلة التى تربطهم ، فلا يظلمون أحدا لأنه جزء منهم ، ولا يقسون على أحد لأن ايذاءه يؤلمهم ولايستغلون إنسانا مهما كان مركزه الاجتماعى وموطنه الجغرافى ، ولا يصمون آذانهم عن سماع آهات المعذبين وصرخات المحرومين ، فيقدمون لهم المساعدة ، ولو اقتضى الأمر شطر كسرة الخبز التى بأيديهم ، واقتسام الثوب الذى يقيهم برد الشتاء وحرارة الصيف .

ولن تشيع هذه الروح بين بنى الإنسان ، وتسود فى المجتمع البشرى إلا إذا اختفت الأنانية ، وقضى على التعصب القبلى والعرق ، وطمرت نوازع تعالى الإنسان على أخيه ، وتوارت عصبية التكتلات ، ونزعة الانتماءات المذهبية المدمرة ، فشعر الناس جميعا بوحدة الرباط الذى يحتم عليهم التعاون والتماسك أمام عواصف الدهر وتقلبات الأزمان .

ولا يوجد فى ساحة الفكر البشرى مايوقظ فى الإنسان هذا الجانب ، أو يدعو إلى إزالة الفوارق بين المجتمعات ، ويعمل على إزالة الحواجز بين طبقات المجتمع الواحد ، بحيث يشعر الناس بأن وضعهم فى المجتمع لايتحدد على أساس كثرة المال ، أو قوة العصبية ، أو اتساع النفوذ والسلطان :

ـــ إذ تميل التكتلات الفكرية والمذهبية إلى احتقار من لايؤمن بأفكارهم ويسير فى فلكهم ، ويسعى لنشر مبادئهم ، مما يدفعهم إلى الظلم والبطش بمن يعارضهم أو يناوئهم .

ـــ ويشعر أصحاب المال باستعلائهم على من حرموا منه ، فينظرون إليهم من عل ، ويتعاملون معهم على أساس أنهم أقل درجة ، أو درجات ، وأحط شأنا فى المجتمع ، فلا ينبغى أن يتساووا معهم فى الحقوق ، وليس لهم الحق فى معاملة متكافئة فى السلوك الاجتماعى ، لأن درجتهم أقل ، ومركزهم الاجتماعى أدنى من درجات ومراكز من رفعتهم الثروة ، وانطلق بهم النفوذ المالى إلى أعلى .

ـــ ويعتقد فريق آخر بالتمايز بين الناس على أساس اللون أو الدم ، فيتعالى الأبيض على الأسود ، ويفتخر من له عصبية قبلية تؤازره ، وتشد عضده على من لاعصبة له ، ولا

سند من هذا النوع يسنده ، فيعيش بين القوم مهانا ذليلا ، ويمشى مطأطأ الرأس مكسور الجناح ، فلا ينال من الثمار إلا سواقطها ، ولا يحصل على شىء من الموائد إلا فتاتها ، ولايتمتع بالاستمتاع بما سخره الله للإنسان إلا بما يجود به هؤلاء الذين اعتبروا أنفسهم مميزين على أساس اللون أو العصبية ، وليس له من الحرية إلا مايسمح به أولئك الذين ملكوا السلطة والسلطان عن طريق الادعاء الكاذب بالفضل ، وتحريف سنة الله التى فطر الناس عليها ، ألا وهى أن الناس سواسية ، لافضل لأحد على آخر إلا بالعمل والإنتاج ، لا بالنسب والألوان ، ولا بالدم والأشكال .

وهكذا أصبحت المجتمعات البشرية مكبلة بأوهام المذاهب الفكرية ، وضلالات المادية العمياء ، وأسيرة التقاليد البالية ، والأعراف المجحفة ، والمسلمات الاجتماعية التى تسلب الإنسان حقه فى الحياة ، وتحرمه من أبسط الحقوق الإنسانية ، وتحرم عليه الاستمتاع بما سخره الله له .

ولا يعقل أن يتحول هذا الوضع بكلمات تلقى على مسامع الناس ، أو بمبادىء حزبية يتجمع المظلومون حولها . ويجاهد الأحرار فى سبيل تحقيقها ، لأن تحول المجتمعات عن :

ــ التقاليد الضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ .
ــ والأعراف الثابتة فى الأذهان والعقول ثبوت الجبال الرواسى .
ــ والمسلمات المحصنة داخل الكثرة المؤمنه بها .
ــ ليس بالأمر الهين .

فلا تستطيع مذاهب بشرية تغييرها ، ولا يمكن لسلطة مادية اقتلاعها مهما أوتيت من قوة وعزيمة ، بل لابد من عقيدة تسيطر على أرواح الناس ، وتهيمن على عواطفهم ، فتسيرهم إلى الطريق المستقيم ، حيث تختفى فيه هذه المظاهر اللاإنسانية ، وتتوارى إلى الأبد الممارسات التى تحط من كرامة الإنسان ، وتجعل تقييمه تابعا لموازين مادية ، ومقاييس اعتبارية خارجة عن ذاته ، وليست كل العقائد قادرة على هذا العمل ، فهناك من العقائد مااشتملت مبادئها على التمييز العنصرى ، ومنها ماتعصبت لمبادئها فاحتقرت من لايؤمن بها ، بل طاردته وسلبته حق الحياة .

وعليه فليس فى تاريخ الفكر البشرى ، ولا فى ساحة العقائد الدينية مايصلح لمواجهة هذه الظواهر اللاإنسانية فى المجتمعات البشرية . والقضاء عليها سوى الإسلام .

لم تنجح المذاهب الفكرية فى تطبيق مااشتملت عليه مبادئها من دعوة إلى حقوق الإنسان فى المجتمعات التى أصبحت لها السيادة عليها فى مجال التوجيه والتربية أو فى ساحة السلطان والحكم ، لأن الداعين إلى تطبيق هذه المبادىء فى المجتمع سلوكيا ، لم يستطيعوا التخلص من أنانيتهم ، ولم يتمكنوا من تحرير أنفسهم من الرغبات المادية ، فانصاعوا لأهوائهم كلما سنحت الفرصة لهم فى إشباع غرائزهم ، واندفعوا مع تيار حب الاستحواذ على كل مايقع تحت أيديهم ، تاركين إخوانهم يتضورون جوعا ، أو يتألمون من وقع السياط على ظهورهم . وأصبح دعاة المذهب ـــ بعد مامكن لمبادئهم فى الأرض ـــ أبواقا تردد شعارات لا واقع لها ، وتدعو الجماهير إلى الإيمان بمبادىء كانوا هم أول المنكرين لها فى واقعهم العملى .

ولم تكن المجتمعات التى خضعت لأديان بشرية أوفر حظا من أولئك الذين وقعوا تحت سيطرة المذاهب والاتجاهات الفكريةالتى لم تصطبغ بصبغة دينية ، ذلك أن رهبان الأديان البشرية ومشرعوها تخبطوا فى متاهات الأساطير والأوهام ، وغرقوا فى أوحال الصور المختلفة للطقوس الدينية ، التى لم تؤثر فى تقويم سلوك الإنسان ، بقدر ماغرست الخوف فى قلبه ، فأخضعته للرهبان خضوع العبد لسيده . وقد استغل رجال الدين هذه الظاهرة ، فتعالوا على الناس ، وأقنعوهم بأنهم أقرب إلى الله منهم فهم يفضلونهم ، ولهذا ينبغى عليهم أن يؤثروهم على أنفسهم ، كى ينالوا رضا الله ، وهذه ظاهرة تتنافى مع ماينبغى أن تقوم عليه مبادىء الدين من عدم تفضيل أحد على آخر بمجرد الانتساب إلى طائفة معينة ، حتى ولو كانت هذه الطائفة تقوم على رعاية بيوت العبادة .

وعليه فلم يبق صالحا لحماية حقوق الإنسان فى المجتمعات البشرية ، إلا العقيدة القائمة على أساس الوحى السماوى ، أى إلا الالتجاء لدين سماوى ، لأن مبادئه كاملة ، لأنها من كامل وهو الله ، وتعاليمه صالحة للتطبيق فى المجتمع البشرى ، لأنها ممن يعلم طبيعة الإنسان ، وظروف الحياة المختلفة ولايوجد على الساحة سوى : اليهودية والمسيحية والإسلام . أما اليهودية فقد انحرفت عن الطريق المستقيم فى هذا المجال من يوم أن اعتدى أتباعها على نصوص الوحى فحرفوها ، إذ أشاعوا بين الناس أنهم شعب الله المختار ، فهم يفضلون غيرهم من البشر ، ولذلك أباح الله لهم مالم يبحه لغيرهم فسمح لهم بالاستعلاء على غيرهم ، وأجاز لهم سلب أموالهم ، والاعتداء على حرياتهم وفوضهم فى إقامة مملكته

فى الأرض ، حيث تكون لها السيطرة على جميع الشعوب . فتتحكم فى مصائر البشر أجمعين . ولاشك أن هذه الادعاءات كلها تتنافى مع ماينبغى أن يكون عليه وحى الله ، إذ لايعقل أن يكون الله متعصبا لفريق من البشر ضد فريق آخر ، لأن الجميع عبيده ، خلقهم من نفس واحدة ، وسواهم على هيئات ليس بينها مايوحى بتمييز أحد على آخر ، أو تفضيل جنس على آخر ، كذلك لايتفق هذا التفضيل مع ماشرعه الله للناس ، إذ كيف يطلب من فريق مالا يكلف به فريقا آخر . إن هذا مناف لعدل الله ، وحاشا لله أن يكون ظالما فلا يسوى فى الحقوق والواجبات بين عباده ، وتنزه الله عن أن يبيح لأحد من الناس أن يسلب حقوق الآخرين كما يدعى اليهود ذلك لتبرير جرائمهم ضد الشعوب الأخرى .

وأما المسيحية فقد ضلت الطريق أيضا ، حيث رفعت أفرادا من البشر إلى مرتبة الألوهية ، وفضلت مجموعة من الناس على إخوانهم فى المجتمع ، فالبابا مقدس ومعصوم من الخطأ ، فهو مميز عن غيره من سائر البشر . ورجال الدين يفضلون غيرهم من المسيحيين ، ولهذا تختلف نظرة الدين إلى كلّ ، وتتفاوت الحقوق والواجبات بتفاوت موقع كلّ داخل المجتمع ، ولاشك أن هذا يتنافى مع أدنى مبادىء حقوق الإنسان التى تحتم المساواة بين الجميع ، بحيث لايكون التفاضل بين الناس إلا على أساس العمل والانتاج .

صحح الإسلام هذه الانحرافات الدينية ، فأعلن أن الناس جميعا ــ بما فيهم علماء الدين ــ سواسية « فلا فضل لأحد على آخر ، ولا تمييز لعرق دون عرق إلا بالمجهود الذاتى ، لا بالانتساب إلى قبيلة معينة ، ولا بالانخراط فى سلك حرفة خاصة ، ولا بالانتماء إلى جنس معين ، يقول الله تعالى : ﴿**يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم**﴾[٣٦١] . ويقول رسول الله ﷺ : « **كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لافضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى** » ، أى بالعمل الذى يبذله الإنسان ، لابدمه وعرقه ونسبه ، أو بحرفته وهيئته الاجتماعية ، وهذا هو الأساس فى تقرير حقوق الإنسان فى المجتمعات البشرية .

وحدة الشعوب

قرر الإسلام حقوق الإنسان ، فأعلن أن المؤمنين إخوة ، وذلك لينمى مشاعر القربى

---

(٣٦١) الحجرات ١٣

والأخوة بينهم ، فيقضى بذلك على النعرات الطائفية التى تميز بين الناس على أساس الانتماء القبلى ، أو الانتساب إلى أصول متعددة ، يقوم التمايز بينهم على أساسها ، يقول الله تعالى : **﴿إنما المؤمنون إخوة﴾**[٣٦٢] ، فعقيدة التوحيد فى الاسلام تقود المجتمع إلى حيث يشعر أفراده بالوحدة ، فلا يتفرقون طوائف متباينة ، بل يحسون بالرباط الوثيق الذى يربطهم ، ويدركون أنهم مهما فرقتهم أقاليم الأرض ، وأوضاع الواقع المادى ، فإنهم يعودون إلى سلالة واحدة ، فهم خلقوا من مادة واحدة هى الطين ، وسيعودون إليها ، ويبعثون دون تفرقة بينهم على أى من الأسس التى يعتبرها البشر مميزات بين الطوائف المتعددة ، بل سوف لايسألون عن هذا ، وإنما عن أعمالهم، يقول الله تعالى : **﴿فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون﴾**[٣٦٣] .

فإذا أدرك الإنسان وحدة المصير ، وعدم الاعتبار بظواهر العصبية الدنيوية فى الآخرة ، فإنه سوف يقتنع داخليا بأن هذه الاعتبارات المادية التى ترفع قدر إنسان على آخر فى هذه الحياة الدنيا ، لا وزن لها ولا ثقل فى مجال النظرة السليمة إلى الإنسان ، سواء كان ذلك فى جانب تقييمه ، أو فى كيفية السلوك معه ، والالتزام بحقه فى جميع مجالات الحياة . فالمسلم — وهو أكثر الناس إدراكا لهذا المعنى — يجد نفسه أقرب نسبا إلى إخوانه فى العقيدة ، لأنه يشعر بوجوده داخل إطار إيمانى ، جمعهم تحت مظلة العقيدة ، فأسسوا بإرادتهم المختارة لهذا الدين عقد أخوة خاصة ، ينتظمون به فى الدنيا فى سلك واحد ، وينحازون به يوم الدين إلى مقام واحد ، يوم تصدع الخلائق بين هالك وفائز .

فهم بهذا الشعور قد خرجوا من إطار وحدة الطبيعة التى لاتتجاوز الشعور الفطرى الضيق ، والمحدود بوحدة الإقليم ، أو العرق ، أو اللون . وتجاوزوا وحدة الرأى التى لاتدوم إلا باتفاق الأهواء ، وهى غالبا ماتكون متقلبة ، ودخلوا فى وحدة أوسع من وحدة الرباط الفطرى ، وأكثر إيجابية من التآلف الفكرى ، لأن هذه الوحدات الضيقة لاتقوم إلا فى حدود فطرية ضيقة منعزلة لامدخل فيها لسائر الناس ، ولا يتسع مجالها الفكرى لكل أجناس البشر ، فقاعدتها مضطربة اضطراب أهواء البشر ، أما الإسلام فصدره واسع لكل الناس على اختلاف ألوانهم وأشكالهم ، وساحته تستوعب كل

---

(٣٦٢) الحجرات ١٠

(٣٦٣) المؤمنون ١٠١ — ١٠٣

مستجيب له، مهما كان أصله أو ماضيه، فهو يدعو للنظر إلى سائر الناس نظرة عطف وتقبل ، تبسط إليهم اليد بالدعوة الحسنة ، فكلهم مدعوون إلى الانضواء تحت لوائه ، لافرق بين كبير وصغير ولابين غنى ولا فقير ، ولا تمييز بين الأنساب ، ولابين الألوان ، فالكل فى ظل الإسلام يُكوِّن وحدة متماسكة لاتفضيل بين أجزائها .

ويحمل الإسلام فى أوامره وأحكامه ، خصائص الوحدة بين المؤمنين به ، فإذا كانت الجماعة المؤمنه تفيد من عقيدتها معنى الإخاء ، فإن الشريعة تؤكد ذلك المعنى بطبيعتها العامة ، ثم بمبادئها وأحكامها الفرعية ، فكون الشريعة الإسلامية صادرة عن الله يكسبها سلطانا على نفوس المؤمنين ، فتتوحد اتجاهاتهم ، وتنسجم حياتهم فى نغمات متناسقة ، لأنها لو كانت من وضع البشر ، لعبرت عن اختلاف آرائهم ، وتناقض أهوائهم ، ولكانت قابلة للنقد والنقض ، ولم يسلم بها جميع المخاطبين بها ، فيحدث الانشقاق ، وتتدخل الأهواء والرغبات فى فرضها ، وتضيع حقوق الضعفاء ، فيستفحل غرور المتكبرين وخيلاؤهم ، ويطفح الكيل بظلم المتجبرين ، وفساد أصحاب الأهواء والسلطان ، فمذاهب البشر تحمل فى طياتها التناقض والاختلاف ، ولا تعالج إلا بعض نواحى المجتمع ، وتهمل نواحى على جانب كبير من الأهمية فى حياة الناس . وغالبا ماتقوم على مجموعة من المتناقضات ، لأنها تلفيق وجمع بين آراء شتى ، واتجاهات متعددة فينعكس ذلك كله على حياة المجتمع ، فتتوتر علاقات أفراده ، فتصير قلوبهم شتى ، وعواطفهم متنافرة إلى حد التقاتل والتناحر ، فتتبعثر جهودهم ، وتتعثر مسيرة حياتهم ، فينتكسون ، ويأكل بعضهم بعضا .

أما الشريعة الإسلامية فتدعو المؤمنين إلى مايقوى وحدتهم ، وتحذرهم مما يبذر بذور القطيعة بينهم ، أو يكدر العلاقة الأخوية بينهم ، فلا يجوز لهم — طبقا لتعاليمها — إيذاء شعور الآخرين ، ولاجرح إحساسهم ، حتى تظل وحدة الجماعة المؤمنة متماسكة ، بحيث يحس كل فرد فيها بآلام الآخرين ، فيعمل على تخفيفها ، ويشعر بفرحهم فيشاركهم فيه ، وبذلك يحفظ الود بينهم ، ويقضى على أسباب القطيعة ، ومكدرات الجو الأخوى ، كما أمر الله فى قوله تعالى : **﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون * يأأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون* يأأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، ولاتجسسوا ولايغتب بعضكم بعضا أيحب**

أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾(٣٦٤) .
ويؤكد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ : **«إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولاتحسسوا ولا تجسسوا ، ولاتناجشوا ، ولاتحاسدوا ، ولاتباغضوا ، ولاتدابروا . وكونوا عباد الله اخوانا»** .

مساعدة الضعفاء

غرست التعاليم الإسلامية عاطفة الأخوة بين المؤمنين ، وذلك بأوامرها التى تنمى جوانب العطف فى الإنسان على أخيه ، وتبرز الجانب الإنسانى فى سلوكه فيميل إلى رعاية من فقد أبويه ، ويرحم من قست عليه الحياة ، فأضعفته وأنهكته ، ويمد يد المساعدة إلى من هو فى حاجة إليها ، ويفيض بره على من حوله ، وماحوله فصنعت منهم مجتمعا قويا ، تسوده عواطف كريمة ، ومشاعر نبيلة تفيض كلها بالرفق والرحمة ، وتتدفق بالبر والخير ، فضرب للبشرية المثل الأعلى فى الفضل والبر والتقوى . وقد ظهر ذلك جليا فى سلوك المسلمين على طول التاريخ الإسلامى . ومن أبرز ماجسم هذه المشاعر ، وشكلها صورا حية ، تنطق للأجيال على طول الزمن بأسمى آيات التكامل والتعاطف والتراحم ماعرف فى المجتمع الإسلامى بنظام الوقف الخيرى وهو اسم أطلق على ماأوقفه المسلمون من أموالهم على إطعام الجائع ، وسقاية الظمآن وكسوة العريان ، وإيواء الغريب ، وعلاج المريض ، وتعليم الجاهل ، ودفن الميت وكفالة اليتيم ، وإعانة المحروم ، وعلى كل غرض إنسانى يمتد أثره ليمسح دمعة محروم ، ويدخل السرور على البائسين ، ويدفع بدم الحياة إلى عروق من طحنتهم مصائب الحياة ، وأعجزتهم نكبات الدهر ، فيبعث فيهم روح الأمل ، ويغرس فى نفوسهم الثقة بالمجتمع وبالإنسان ، وبقيمة الحياة البشرية .

ومن يستعرض حجج الواقفين يدرك مدى ماغرسته التعاليم الإسلامية فى نفوسهم من نبل ، وإنسانية ، ورحمة ، فقد كانوا يتخيرون الأغراض الشريفة ، التى يقفون عليها أموالهم ، ويرجون أن تنفق هذه الأموال فى سبيل تحقيقها ، ولم يقتصر الوقف على مااشتهر بين الناس من جهات تحتاج إلى المساعدة ، بل شملت نواحى إنسانية ، تخفى على كثير من الناس وقد يكون فى ضرب أمثلة من أنواع هذا الوقف بيانا لهذا الجانب المثالى الذى غرسه الإسلام فى نفوس المسلمين ، لعل فى التذكير بها عظة وعبرة لمجتمع طغى عليه التيار

---

(٣٦٤) الحجرات ١٠ ــ ١٢

المادى ، فضاع فيه المحروم والمسكين ، وهلك الضعيف والمظلوم .

وقف الزبادى : وهو وقف تشترى منه صحاف الخزف الصينى ، فكل خادم كسر آنية وتعرض لغضب مخدومه ، له أن يذهب إلى إدارة الوقف ، فيترك الإناء المكسور ويأخذ إناء صحيحا بدلا منه ، وبهذا ينجو من غضب مخدومه .

وقف الكلاب الضالة : وينفق من ريعه على إطعام الكلاب التى ليس لها صاحب ، استنقاذا لها من عذاب الجوع ، حتى تستريح بالموت ، أو الاقتناء .

وقف الأعراس : وقف لإعارة الحلى والزينة فى الأعراس والأفراح ، يستعير الفقراء منه مايلزمهم فى أفراحهم وأعراسهم ، ثم يعيدون مااستعاروه إلى مكانه . وبهذا يتيسر للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلة لائقة ، والعروسة أن تجلى فى حلة رائقة ، حتى يكتمل الشعور بالفرح ، وتنجبر الخواطر المكسورة .

وقف الغاضبات : وهو وقف يؤسس من ريعه بيت ، ويعد فيه الطعام والشراب ومايحتاج إليه الساكنون ، تذهب إليه الزوجة التى يقع بينها وبين زوجها نفور ، وتظل آكلة شاربة إلى أن يذهب مابينها وبين زوجها من الجفاء ، وتصفو النفوس ، فتعود إلى بيت الزوجية من جديد .

وقف مؤنس المرضى والغرباء : وهو وقف ينفق منه على عدة مؤذنين ، من كل رخيم الصوت حسن الآداء ، فيرتلون القصائد الدينية طول الليل ، بحيث يرتل كل منهم ساعة ، حتى مطلع الفجر ، سعيا وراء التخفيف عن المريض الذى ليس له من يخفف عنه ، وإيناس الغريب الذى ليس له من يؤنسه .

وقف خداع المريض : وهو وقف فيه وظيفة من جملة وظائف المعالجة فى المستشفيات ، وهى تكليف اثنين من الممرضين أن يقفا قريبا من المريض ، بحيث يسمعهما ولا يراهما ، فيقول أحدهما لصاحبه : ماذا قال الطبيب عن هذا المريض ؟ فيرد عليه الآخر : إن الطبيب يقول : إنه لابأس ، فهو مرجو البرء ، ولايوجد فى علته مايشغل البال ، وربما نهض من فراش مرضه بعد يومين أو ثلاثة أيام .

وتدل هذه النماذج على أن المسلمين سلكوا كل مسالك الخير ، فلم يتركوا جانبا منها ، إلا وكان لهم فيه أثر محمود ، حتى على الحيوان الأعجم ، وذلك لايصدر إلا عن إحساس مرهف بما يعانيه الكائن الحى ، فلم يتوانوا فى العمل على تخفيف هذه الآلام . ومما لاشك

فيه أن العقيدة الإسلامية هى التى خلقت هذا الاحساس فدفعهم إلى بذل مافى وسعهم لتخفيف آلام الآخرين وإسعادهم .

ولم يكتف المسلمون بالقيام بهذا العمل فى حياتهم ، بل أرادوه صدقة جارية بعد مماتهم ، وهذا هو منتهى مايمكن أن يصل إليه الإنسان من إنسانية فى سلوكه ومثالية فى أخلاقه . وتلك أمنية المصلحين المخلصين ، وأمل الساعين بصدق فى مجال تحقيق حقوق الإنسان ، حققها الإسلام قبل أربعة عشر قرنا ، لأنه العقيدة الصافية ولم تستطع المذاهب الحديثه التى ترفع شعار هذه الحقوق أن تحقق شيئا ذا بال فى هذا المجال ، لأنها لاتملك من قوة السلطان على نفس الإنسان وأحاسيسه مثل مايملك الاسلام على المسلم .

ألا فليعرف دعاة حقوق الإنسان هذه الحقيقة ، ولعلهم يدركون الطريق الصحيح لإسعاد البشرية !!

وتتميز ظاهرة التعاون والمساعدة بين المسلمين عن مثيلاتها فى المجتمعات غير الإسلامية بأنها مجردة عن الشعور بالاستعلاء ، أى أن من يقدم يد المساعدة للآخرين لايخطر بباله أنه أفضل ممن يحتاج إليها ، وأعلى شأنا منه ، أو أنه يمتاز عليه بكثرة المال ، أو الجاه والسلطان ، أو بقوة العصبة وسند الأصحاب والأخوان ، بل تجتاحه عاطفة الأخوة عندما يقدم إليه يد المساعدة ، فيحس بأنه يساعد ذاته ، ويخفف الآلام عن نفسه هو ، إذ أن من خصائص أخوة الإيمان أنها تدعو صاحبها إلى الحرص على موالاة المؤمنين ، والتجرد عن العلائق الأخرى . فنشأة الأخوة عن إرادة حرة تستتبع اعتناء المرء بها ، واتخاذه موقف وعى وإيجاب بها ، فتراه يعبر عنها بالموالاة الفعلية للمؤمنين ، فينشط للعمل معهم ومن أجلهم ، ولايكاد يكون فى واقع الحياة إلا بهم ، كأنهم استكمال لذاته ، أو بعض أبعاد نفسه ، فـ « ترى المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ، و« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

لقد غرست العقيدة الإسلامية فى المسلم معنى ساميا ، ألا وهو الاقتناع بأنه لاتفاضل بين الناس على أساس الدم ، أو اللون ، أو بسبب كثرة المال ، وقوة الجاه والسلطان ، ذلك أن المسلم إذا أسلم الربوبية لله وأسند إليه وحده العظمة والكبرياء لايرى بعد هذا حقا له فى التعالى على أحد ، هو نده فى العبودية للعلى الكبير ، كما أنه لايرى لأحد سوى الله حقا فى الطغيان عليه ، ولئن ذل نفسه لإخوانه سماحة وإيثارا ، فإنه لايذل خزيا ولا

وضاعة ، ولا يفرط فى استيفاء حقوقه فى الحياة بما يحفظ له كرامته الإنسانية ، وحريته فى اتخاذ سبيله إلى ربه والمنافسة فيه .

وعلى هذا الأساس تقوم روح التكافؤ فى المجتمع ، وتتقد جذوة الحب بين المسلمين ، فيسود التعاون والتكافل بينهم ، بعيدا عن روح التعالى والتعاظم ، وتتأكد دواعى المساواة والتماثل بين المؤمنين ، فلا تفاضل بالعرق واللون ، بل تقدر درجات الفضل على أساس العمل الطيب ، والنشاط المثمر ، فإذا توجه المؤمنون إلى التسابق فى هذا المجال ، عظموا قدر العلم والتقوى وغيرهما مما يثمر يوم الدين ، وزهدوا فى المنافسات الشرسة على المال والجاه ، وسائر متاع الدنيا ، الذى يفرق الناس ، ويوغر صدورهم بالغل ، ويخرب حياتهم بالشقاق ، لأنه متاع محدود لايتسع لطامعيه جميعا ، إلا أنه يغريهم بالحسد والتظالم . فشأن المؤمنين أن يتنافسوا على العلم والعمل الصالح ، وأن يعيشوا فى جو يسوده الود والمحبة ، مستشعرين المساواة فى الدين ، لأن حساب التفاضل مؤجل إلى يوم القيامة ، نابذين اعتبارات التفاوت فى الرزق والجاه وراء ظهورهم ، لأن متاع الآخرة خير وأبقى ، وأكبر درجات ، وأسمى تفضيلا .

فإذا اختفت ظاهرة التعالى بالعرق واللون من المجتمع ، وتلاشت نعرة التفاخر بالمال والجاه من حياة الناس ، شعر الإنسان بكرامته ، واطمأنت نفسه ، لأنه يدرك أنه لن يحرم من حقه فى الحياة ، فلا يظلم بسبب وضعه الاجتماعى ، ولا يسلب حقه لاعتبارات مادية ، ولاتضيع فرص بناء مستقبله وراء نعرات جاهلية ، فالناس سواسية مهما اختلفت أصولهم وأوضاعهم ، وتباينت مراكزهم وأوصافهم الاجتماعية ، فلا فضل لأحد على آخر إلا بما يميزه ذاتيا ، فهم متساوون من حيث هم بشر فى حرمة أنفسهم ، وفى إتاحة الفرص أمامهم ، ليأخذ كل نصيبه مما أتاح الله لهم من رزق ، وفى المشاركة فى الأمور السياسية ، وفى موقفهم بين يد العدالة ، يقول الله تعالى : **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾**(٣٦٥) . ويقول : **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾**(٣٦٦) . ويقول رسول الله ﷺ : **« ... اسمعوا واطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى »** .

فدعوة الإسلام إلى التساوى بين البشر فى الحقوق والواجبات هى قضاء على ظاهرة

---

(٣٦٥) الشورى ٣٨

(٣٦٦) النساء ٥٨

استعلاء طائفة على أخرى ، على أساس مادى بحت ، بل هى إرساء للحجر الأساسى فى بناء صرح الانسانية . ذلك الصرح الذى يحمى حقوق الإنسان من ظلم المتكبرين وطغيان المتعالين ، وجبروت المتطاولين بجاههم وسلطانهم وأموالهم ، وشرور المتفاخرين بأنسابهم وأقوالهم ، يقول تعالى : ﴿**فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون* فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون**﴾(٣٦٧) .

أخوة إنسانية

كان اليهود من أوائل الشعوب التى ابتدعت تمايز الأجناس البشرية ، وعلو طبقاتها فوق بعض ، وذلك بزعمهم أنهم المفضلون عند الله ، أو هم شعب الله المختار ، أما بقية الشعوب فحثالة لاقيمة لها عند الله . كذلك تصور الإغريق أنهم المتمدينون ومن عداهم برابرة ومتوحشون . ولم يختلف الحال عند المصريين القدماء ، فقد كانوا يرون أنهم أبناء الشمس ، وشعب الله المعبود .

وانتشرت هذه الفكرة عند الرومان أيضا ، فأبناء روما هم الفضلاء الأحرار وغيرهم عبيد أرقاء ، كما أن الصينيين اختصوا أنفسهم بالمدنية والحضارة ومن عداهم جهلة بدائيون . ومن المؤسف حقا أن أرسطو ، ذا العقل الكبير والآراء النيرة قال : « إن البشر جنسان : أحرار وعبيد ، فالأحرار هم الذين يجب أن يحموا العالم ، أما العبيد فهم آلات صماء فى أيدى الأحرار » . ولعل دعاة التمييز العنصرى فيما مضى من القرون — وفى عصرنا هذا — استندوا على هذه الفكرة الزائفة من أفكار أرسطو ، واتخذوها أساسا لعدوانهم على الطبقات التى كانوا يعدونها طبقات سفلى ، فسلبوهم حقوقهم ، وعاملوهم معاملة سيئة ، لأنهم أدنى منهم وأحط شأنا .

أما الإسلام فلم تقتصر وصيته للمسلمين بحسن المعاملة وحفظ حقوق الآخرين على إخوانهم فى العقيدة ، بل أمرهم أيضا أن يحسنوا معاملة المخالفين لهم فى العقيدة ، مادامو يرعون حرمات الإسلام ، ولا يأتون عملا يترتب عليه إيذاء المسلمين ، أو تهديد أمنهم يقول تعالى : ﴿**لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن**

---

(٣٦٧) المؤمنون ١٠١ — ١٠٣

تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾[٣٦٨] .

وقد سلك الإسلام فى إقامة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين منهجا يستميل العاطفة ويؤثر تأثيرا كبيرا على مشاعر الإنسان فى مجال التقريب بين أفراد البشر ، ذلك أنه بين أن أصل الناس واحد ، فهم مشتركون فى مبدأ الخلق ومادته ، التى تفرع عنها جميع الآدميين ، فهم وإن اختلفوا فى الألوان والأشكال ، وتباينوا فى الهيئات والملامح فإنهم منحدرون من أب واحد وأم واحدة ، مما يحتم عليهم أن ينهجوا فى سلوكهم مع بعض الأسلوب الذى ينبغى أن يسود بين الأخوة ، يقول تعالى : **﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾**[٣٦٩] . فإن هذه الآية تذكرة للإنسان بوحدة أصل البشرية جمعاء ، ودعوة له إلى العمل على مايقوى الرابطة والتعاون والتكاتف بين جميع أفراد البشرية فى كل أنحاء الكرة الأرضية باعتبارهم جميعا أقارب ذوى رحم واحدة .

وعى المسلمون هذا الدرس على أحسن مايكون الوعى والإدراك ، فاتسمت معاملتهم مع أهل العقائد الأخرى بالتسامح ، إذ أعطوهم الحرية الكاملة فى ممارسة عبادتهم وتأدية طقوسهم ، فلم يضيقوا عليهم فى معابدهم ، ولم يؤذوا مشاعرهم الدينية . كذلك منحوهم حقوق المواطن كاملة فى المجتمع الإسلامى فى جميع المجالات ، فسووا بينهم وبين المسلمين فى مجال العمل حتى وصل بعضهم إلى منصب الوزارة فى الدولة الإسلامية ، وهيأوا لهم فرص النجاح فى التعليم والتجارة والزراعة وغيرها من مجالات النشاط فى المجتمع . ولم تختلف معاملة المسلمين مع المجتمعات غير الإسلامية عن هذا الخط من التسامح وحسن الجوار ، والتعاون على الخير لجميع أفراد البشرية لأن الإسلام أباح لأولى الأمر أن يقيموا علاقات سياسية مع الدول الأخرى ، رغم الاختلاف فى الدين ، وأن يكون بينهم تبادل تجارى ، بل إن المسلمين ضربوا أروع الأمثال فى عدم التعصب ضد المخالفين لهم فى العقيدة ، وذلك عندما احتضنوا الفلسفة اليونانية فدرسوها وناقشوها ، فأقاموا بذلك الجسور مع الفكر البشرى كله على اختلاف اتجاهاته وتباين أشكاله ، وتنوع قنواته ، وتغاير ألوانه ، مما يدل على أنهم يؤمنون بوحدة الانسانية ، فعملوا على إسعادها ، وتجنب آلامها .

---

(٣٦٨) الممتحنة ٨

(٣٦٩) النساء ١

لا عنصرية

لم تتخلص البشرية من نزعة التفاضل بين الناس ، رغم تقدمها الحضارى ، وتفوقها التكنولوجى ، فلا زالت نزعة التفرقة ، بين الأبيض والأسود تتحكم فى سلوك كثير من المنتسبين إلى الشعوب « المتحضرة » على الرغم من التناقض الواضح بين سلوكهم مع السود سلوكا همجيا ، وادعائهم بأنهم « متحضرون » فالحضارة ليست ادعاء ، وإنما هى ممارسة وشعور تجاه الآخرين . وتقرير مبادىء حقوق الإنسان ليس قرارا يوافق عليه فى مؤسسة دولية ، وإنما إحساس يدفع الإنسان إلى العطف على أخيه الإنسان ، ومساعدته ، والأخذ بيده إلى عالم يشعر فيه بالأخوة ، ويلمس فيه تحقيق التكافل والمساواة بين الناس فى مجال التطبيق ، لا فى اطار النظريات فقط ، فقد أعلنت هيئة الأمم منذ قيامها حقوق الإنسان ، ومع ذلك لازلنا نسمع الأحاديث المفجعة عن التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا ، وعن حالة الزنوج والملونين فى أمريكا .

كان لتأكيد الإسلام على وحدة أصل الجنس البشرى أثر كبير فى غرس مبدأ المساواة بين الناس فى نفوس المسلمين ، فاختلطت مشاعرهم بهذا المعنى ، وامتزجت أفكارهم به فظهرت معالم المساواة فى سلوكهم ، ووضحت صورتها فى نظرتهم إلى بعضهم ، إذ جاء فى القرآن الكريم مايذكرهم بها صباح مساء ، وفى الأحاديث النبوية والتاريخ الإسلامى مايعمق جذورها فى أفئدتهم ، وينشر آثارها فى معاملاتهم ، فبعد أن أعلن القرآن الكريم مبدأ المساواة فى قوله تعالى : **﴿إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾**(٣٧٠) . وقف رسول الله ﷺ فى حجة الوداع ليعلن فى خطابه الخالد أن : « .. **الناس من آدم ، وآدم من تراب ، لافضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى** » .

ولم يقتصر الأمر على إعلان المساواة فى نصوص تقرأ ، وشعارات ترفع ، بل كانت عملا وتطبيقا ، غاص فى حياة الناس حتى صار أمرا عاديا ، لايلفت النظر ، ولا يحتاج إلى تصنع ، أو إبراز لمن يبحث عنه فى السلوك الاجتماعى أو يتصيد أمثلته من هنا وهناك ، فقد كان أساس البنية الاجتماعية ، ومعالم سلوك المسلمين ، طبق فى المساجد حيث كان يلتقى فيها الأبيض والأسود على صعيد واحد من العبودية لله عز وجل والخشوع بين يديه ، إذ لم يجد الأبيض غضاضة أو حرجا فى وقوف الأسود بجانبه . وطبق فى الحج حيث تلتقى العناصر البشرية كلها ، من بيضاء وملونة على صعيد واحد ، وبثياب واحدة

---

(٣٧٠) الحجرات ١٣

من غير تمييز بين أبيض وأسود ، أو استعلاء من البيض على السود .

ومن أروع الأمثال فى بيان المساواة بين الناس ماحدث يوم فتح مكة ، إذ أمر رسول الله ﷺ بلالا الحبشى أن يصعد فوق الكعبة ليؤذن من فوقها ، ويعلن كلمة الحق . ومعروف أن الكعبة هى أشرف مكان عند المسلمين ، وأطهر بقعة على وجه الأرض ، فكيف يرتقيها عبد أسود كبلال ؟ بل كيف يطؤها ملون بقدمه ؟ إن مثل هذا لايتصور فى العصر الحاضر فى بلاد تدعى أنها « متحضرة » ، كيف وقد حدث قبل أربعة عشر قرنا . إنه الإسلام الذى لايفرق بين الناس على أساس اللون ، إنها العقيدة التى يتساوى فى ظلها جميع البشر ، لأنهم من أصل واحد ، إنها الحضارة الحقيقية التى تعلن مساواة الناس ، بعد أن ضاع هذا المعنى بين أديان محرفة ، ومذاهب بشرية منحرفة .

لقد كان صعود بلال على سطح الكعبة إعلانا لكرامة الإنسان ، وبيانا بأنه يستحق هذه الكرامة لعلمه وعقله وأخلاقه وإيمانه ، لا لبشرته وبياضه ، فما يقدم الإنسان بياضه إذا أخره عمله ، ولا يؤخره سواده إذا قدمه ذكاؤه واجتهاده ، ولذلك لم يرض رسول الله لأبى ذر وهو من أكرم صحابته أن يسب آخر فيقول له : « ياابن السوداء » .. لم يرض منه ذلك ، بل قرعه وقال له : « أعيرته بسواد أمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية » وهذا حد فاصل بين العلم والجهل وبين الحضارة الإنسانية ، والحضارة الجاهلية .

إن الحضارة التى لايستعلى فيها عرق على عرق ، ولا لون على لون هى الحضارة التى يصنعها الإنسان العاقل الكريم ، وتسعد الإنسانية الواعية الكريمة . والحضارة التى يعلو فيها الأبيض ويُمْتَهَن الأسود ، ويسعد بها ذوو البشرة البيضاء ويشقى بها الملونون هى الحضارة الجاهلية التى ترتد بها الإنسانية إلى الوراء مئات القرون عمياء متكبرة جاهلة حمقاء . « إنك امرؤ فيك جاهلية » : هذا وصف للحضارة الجاهلية التى تنادى بالتمييز العنصرى ، وهو ماكافحته حضارة الإسلام فى كل ميادين الحياة فى المسجد والمدرسة والمحكمة والقيادة ، مع الأصدقاء والأعداء على السواء .

أيهما أحق أن يوصف بالحضارة ؟

أتلك التى يستعلى فيها الإنسان على أخيه الإنسان بسبب اللون والعرق فيظلمه ويخذله ويسلبه حقه وحريته فى الحياة .

أم تلك التى تسود فيها المساواة بين الناس جميعا ، ويشيع فيها حب الأخ لأخيه ، وعطفه عليه ، وتواضعه وحنانه ؟

إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد ..

ضرب المسلمون أروع الأمثال فى السلوك الحضارى ، لم تعرفه أمم تدعى أنها « متحضرة » بل لم تظهر معالمه فى حياتها حتى الآن ، فعلى الرغم من ادعائها التحضر ، وتزعمها مايسمى بالعالم « المتحضر » فلا زال الإنسان فى ظلها مكسور الجناح ، مهضوم الحقوق ، يلقى من المعاملة مالا يليق بإنسانيته ، وماذاك إلا لأن بشرته ملونة ، ومع ذلك يرمون الشرق الإسلامى بالتخلف والرجعية . ولو قرأوا تاريخ الإسلام لعلموا أن المسلمين كانوا — ولا زالوا — المثل الحى للصورة الحضارية ، إذ يعلن سلوكهم عن حقيقة حضارية ، وتنطق معاملتهم بأروع ألحان التقدم والرقى الإنسانى ، حيث يتساوى الجميع فى الحقوق والواجبات دون تفريق على أساس اللون أو العرق ، وتتاح الفرص للجميع دون تمييز بين أبيض وملون ، وتطبق العدالة على جميع الناس دون محاباة لطائفة على حساب أخرى . ومن أراد بيانا عمليا فليقرأ ما رواه التاريخ فى هذا الصدد .

لما جاء المسلمون لفتح مصر وتوغلوا فيها حتى وقفوا أمام حصن بابليون ، رغب المقوقس فى المفاوضة مع المسلمين ، فأرسل اليهم وفدا ليعلم مايريدون ، ثم طلب منهم أن يرسلوا إليه وفدا ، فأرسل عمرو بن العاص عشرة نفر ، فيهم عبادة بن الصامت وكان عبادة أسود ، شديد السواد ، طويلا ، حتى قالوا : إن طوله عشرة أشبار ، وأمره عمرو أن يكون هو الذى يتولى الكلام . فلما دخلوا على المقوقس تقدمهم عبادة بن الصامت فهابه المقوقس لسواده ، وقال لهم : نحوا هذا الأسود عنى وقدموا غيره يكلمنى فقال رجال الوفد جميعا : إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله ، فقال لهم : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغى أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا . إنه وإن كان أسود كما ترى ، فإنه من أفضلنا موضعا ، وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا ، وليس ينكر السواد فينا . فقال المقوقس لعبادة : تقدم يأأسود وكلمني برفق فإني أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك عليّ ازددت لك هيبة فقال عبادة — وقد رأى فزع المقوقس من السواد — إن فى جيشنا الف أسود وهم أشد سوادا مني .

وكان عبد الملك بن مروان يأمر المنادى فى موسم الحج ألا يفتى الناس إلا عطاء بن أبى رباح ، إمام أهل مكة ، وعالمها وفقيهها . أتدرون كيف كان عطاء هذا ؟ لقد كان

أسود ، أعور ، أفطس ، أشل ، أعرج ، مفلفل الشعر ، لا يتأمل المرء منه طائلا .. كان إذا جلس فى حلقته العلمية بين الآلاف من تلاميذه بدا كأنه غراب أسود ، فى حقل من القطن . ولا يجهل أحد كافور الإخشيد العبد الأسود الذى لم يمنعه سواده من توليه حكم مصر فى القرن الرابع الهجرى .

أجل ، لقد ظهر فى المجتمع الإسلامى أعلام فى كل ميادين العلم والأدب والسياسة وهم سود البشرة ، لم يمنعهم سوادهم أن يكونوا أدباء ينادمون الخلفاء كنصيب الشاعر . ولم يكن سوادهم عقبة فى تبوئهم مراكز الفقهاء يؤلفون المراجع المعتبرة فى الفقه الإسلامى ، كعثمان بن على الزيلعى : شارح الكنز فى الفقه الحنفى ، والحافظ جمال الدين أبى محمد عبد الله بن يوسف الزيلعى : مؤلف نصب الراية .. فكلاهما كان أسود من زيلع فى بلاد الحبشة .

أين هذا مما نسمعه الآن عن معاملة الملونين فى دولة تدعى أنها زعيمة العالم المتحضر ، حيث تقضى نظمها وتقاليدها بألا يسمح للزنوج أن يتعلموا فى مدرسة واحدة مع البيض ، وبأن تفصل الكتب المدرسية الخاصة بالطلاب الزنوج فتظل بمعزل عن الكتب الخاصة بالطلاب البيض ؟(*)

أيهما أحق بوصف الرجعية ، أتلك التى تحط من قدر الملونين فتعزلهم كما يعزل المصابون بأمراض معدية ، أم تلك التى ترفعهم إلى مقام الرئاسة والإمارة ، ويتبوأون فى ظلها كراسى التوجيه والتعليم ؟

لايحتاج المرء إلى تساؤل ، فالإسلام دين الحضارة والمدنية : قولا وعملا ، تنظيرا وتطبيقا ، هذب أخلاق الإنسان ، وطوع سلوكه لما فيه خير للناس جميعا ، فاختفت فى مجتمعه معالم العنصرية ، وعاش الناس فى ظله أخوة ، متحابين ، متعاطفين فكانوا بذلك مثلا فريدا فى التاريخ الانسانى .

لم يعرف المجتمع الإسلامى ظاهرة التفرقة العنصرية ، إذ لم يفكر مسلم فى لحظة من لحظات حياته فى أن لونه يعطيه أفضلية فى المجتمع على غيره ، بل عاش الناس على قدم

(*) استطاع الملونون في أميركا أن يحصلوا بجهادهم على مدى العقدين الماضيين على اعتراف بحقوقهم ، لكن لم تتحقق مساواتهم بالبيض على أرض الواقع ، فمازال الطريق طويلا أمامهم حتى يعاملوا على قدم المساواة . ناهيك عما يفعله البيض بالملونين في جنوب افريقيا ، ودعم الولايات المتحدة للطغمة المتحكمه فى أقدار أبناء البلد الأصليين ، الأمر الذى يوضح أن عقدة العنصرية مازالت حية تنبض في عروق البيض في أميركا ، تلك البلد التى تدعى زعامة «العالم الحر» .

المساواة فى ظل الدولة الإسلامية ، لايرتفع قدر أحد على غيره إلا بمقدار مايبذل من جهد ، ومايحصل من علم وثقافة ، ومايتحلى به من أخلاق فاضلة وسلوك حميد . ولهذا وجدنا ملونين يتبوأون مناصب عليا فى أجهزة الدولة الإسلامية ، ويتصدرون مجالس العلم والفتيا ، فلم يمنعهم سوادهم من أن يكونوا أدباء ينادمون الخلفاء ، ولا فقهاء يتصدرون للدرس والفتيا ، ففى التاريخ أمثله عديدة من هذا النوع تذكّر من ينسى حضارته من المسلمين فى زحمة الدعاية الإعلامية لحضارة الغرب بأن حضارة الإسلام لم تعرف التمييز العنصرى بين البيض والسود الذى هو أحد معالم الحضارة الحديثة ، فلم يكن فى ظل الدولة الإسلامية أحياء خاصة بالسود لايساكنهم فيها أبيض ، ولم يروا اضطهادا من البيض ، بل كان الجميع أخوة متحابين لايفضل أحدهم الآخر إلا بالعمل الصالح : ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾(٣٧١) .

إن التمييز بين الناس على أساس اللون والدم عمل غير إنسانى ، فهو يتنافى مع أبسط حقوق الإنسان ، ويتعارض مع أدنى مظاهر الحضارة ، وهو أسلوب همجى وسلوك بدائى ، لايشيع إلا فى المجتمعات المتخلفة ولا يعتنقه إلا الجاهلون ، ولايدافع عنه إلا من سيطرت الأنانية على سلوكهم ، وتغلغل حب الذات فى دمائهم ، وهذه هى مظاهر الشعوب التى لم تعرف مظاهر الحضارة الإنسانية ، حتى وإن ملكت أساليب التكنولوجيا الحديثة ، وسيطرت على مقاليد الأمور فى المجتمع الدولى بآلاتها وأسلحتها ، لأن من ينشد الحضارة فلا بد أن يتخلص من أساليب فرسان القرون الوسطى ، ويبتعد عن التعالى والتكبر الذى كان مسيطرا على حياة الشعوب البدائية ، وينظر إلى الإنسان بمنظار العطف والمحبة ، ويتعامل معه على أساس الأخوة والمساواة ، وإلا فإنه يعيش بعقلية بدائية ، ويسلك سلوك من لايعرف أولى درجات السلم الحضارى .

فمن يقارن بين دين الإسلام وبين الحضارة الغربية يجد فى المجتمعات الإسلامية ظواهر الأخوة بين الناس واضحة فى معاملاتهم ، وفى علاقاتهم ، ويلمس معالم المساواة بين الناس فى كل مجالات الحياة . أما فى الغرب — حيث موطن « الحضارة » الحديثة — فإن العين ترى صورا مفجعة للتمييز العنصرى ، والأذن تسمع روايات درامية عن اضطهاد الملونين ، ففى أمريكا تلك القارة الجديدة — حيث تمثال الحرية يستقبل كل قادم إلى نيويورك — تجرى مأساة اضطهاد الزنوج ، وهى أبشع جريمة إنسانية عرفها التاريخ ، فقد

---

(٣٧١) الزلزلة ٧ — ٨

سلبوا حقوقهم السياسية والاجتماعية وحاربوهم فى مجال العمل ، وضيقوا الخناق عليهم فى المأوى والمسكن ، حتى فى العبادة فلم يسمح البيض للملونين أن يشاركوهم فى التوجه إلى الله ، خالق الأبيض والأسود من أب واحد ، وأم واحدة .

إن صور التمييز العنصرى فى أمريكا كثيرة ومتشعبة فى مجالات عدة :

ــ يحرم زواج بيضاء بزنجى ، أو أبيض بزنجية فى كل الولايات تقريبا ، وتنص دساتير بعض الولايات ، كولاية مسيسبى على بطلان مثل هذا الزواج ، بل على بطلان زواج الأبيض بشخص يكون ثمن الدم الذى يجرى فى عروقه دم زنجى .

ــ وتقضى قوانين بعض الولايات بأنه لايسمح للعمال الزنوج أن يقيموا مع العمال البيض على صعيد واحد فى المصانع ، ولايجوز للزنوج أن يدخلوا أو يخرجوا من الأبواب عينها التى يدخل منها البيض ويخرجون .

ــ كما تقضى قوانين أربع عشرة ولاية بعزل الركاب البيض فى قطارات السكك الحديدية عن السود ، وتفرض إقامة عربات خاصة للسود فى الأتوبيس وغرف الهاتف وفى المستشفيات ، حتى فى مستشفيات الأمراض العقلية يفرق بين المجنون الأبيض والمجنون الأسود . وأغرب من هذا أن صاحب مقبرة للكلاب فى واشنطن أعلن عام ١٩٤٧م أنه لايقبل جثث الكلاب التى يملكها زنوج ، ويعلل ذلك بأنه يعلم أن جماعة الكلاب لاتجد غضاضة فى أن تدفن كلها فى جبّانة واحدة ، ولكنه لاحظ أن زبائنه البيض قد ساءهم أن تعامل كلابهم المدللة هذه المعاملة المنكرة بعد الوفاة ، أى مساواتها بكلاب الزنوج .

لقد لطخت الحضارة الغربية معالم وجود من حملوها بهذا التمييز العنصرى الصارخ ، فصارت مشوهة ، لابهاء لها ولا رونق ، ونزعت الرحمة من قلوبهم ، فأصبحت قاسية ، لاتواسى حزينا ولاتمسح دمعة متألم ، بل حملت فى طياتها سما زعافا لشريحة كبيرة من البشر ، فقضت عليهم اجتماعيا وإنسانيا ، فحق على من يحملوها قول الله تعالى : ﴿**إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون**﴾[٣٧٢] .

لقد مضى على إعلان حقوق الإنسان فى وثيقة الحرية التى أعلنتها الثورة الفرنسية أكثر من قرنين قطعت فيهما العلوم والمعارف الإنسانية شوطا كبيرا ، إذ استطاع الإنسان استكشاف العديد من المجالات التى كانت مجهولة ، فتوصل إلى معرفة مالم يكن يتصوره

---

(٣٧٢) الانبياء ٩٨

قبل قرن من الزمن ، ووصل فى الفضاء الخارجي إلى ماكان يعتبره قبل عدة قرون ضربا من الخيال الاسطورى ، وأوهاما يزين بها فنه الفلكلورى ، ومع ذلك لم يستطع أن يحقق ماهو أدنى من ذلك ، ألا وهو احترام حقوق الإنسان ، والالتزام بما يمليه عليه حق الأخوة الإنسانية ، بصرف النظر عن اللون والعرق والنسب . لقد نسى المبادىء التى أعلنت يوم تحرر الإنسان من عبودية القرون الوسطى ، واكتفى بترديدها ليوهم الآخرين أنه من دعاة الحرية ، والمنادين بحقوق الإنسان ، حتى صار الحديث عنها كلاما مفرغا من مضمون العمل ، بل إن الذين يرددونه يعلمون جيدا أنهم لايلتزمون به ، ففى أمريكا ــ تلك البلد الذى يرفع علم الحرية فى المجتمع الدولى ــ تمارس أقسى أنواع الاضطهاد مع الزنوج مما يجعل المرء لايصدق أن هذا البلد يفقه معنى الحرية ويكفى لتصوير هذا التناقض بين الادعاء والممارسة أن ننقل ماكتبه « هارى هايوود » فى كتاب بعنوان : « تحرير الزنوج » .

« ليس من شك فى أن العرق لم يتخذ في بلد ما ــ باستثناء إفريقية الجنوبية ــ وسيلة إلى استعباد شعب من الشعوب كما اتخذ فى هذه البلاد. لقد انتهى الرق بوصفه امتلاكا للعبيد . ولكنه باق مايزال بوصفه نظاما طبقيا ، وإنما يقصد به اليوم إلى إبقاء الملونين فى مراكز أدنى من ذلك الذى يتمتع به البيض . ويتوسل إلى ترسيخه بطرائق مختلفة . فهى حينا أحكام قتل ، أو إعدام ينزله الجمهور الأرعن فى الزنجى بمعزل عن السلطة الحاكمة ، وهى حينا تشريعات مجحفة ، وإجراءات قانونية ظالمة ، وهى حينا عادات وتقاليد ماأنزل الله بها من سلطان ». فهذا يوضح لنا أن ماينادون به من حرية، إنما يقصدون به حرية الرجل الأبيض ، ومن عداه لاحرية له ، ولا حق له فى أن يتمتع بالحياة كغيره من الناس .

وقد شاع هذا الاتجاه فى جميع مجالات الحياة الأمريكية ، حتى فى رحاب الكنيسة التى تتحدث باسم المسيح ، صاحب دعوة المحبة ، والتآخى بين الناس ، فقد دخل زنجى من جمهورية بنما كنيسة كاثوليكية فى واشنطون ، وبينما هو مستغرق فى صلاته ، سعى إليه أحد القسس ، وقدم له قصاصة من ورق ، كتب عليها عنوان كنيسة زنجية كاثوليكية ، وحين سئل القسيس عن سر هذا التصرف أجاب : إن فى المدينة كنائس خاصة بالكاثوليك الزنوج ، يستطيع هذا المرء الأسود أن يقف فيها بين يدى ربه .

أى منطق هذا الذى يفرق بين الناس أمام رب العباد ؟ إنه منطق مسيحية الكنيسة الكاثوليكية ، منطق ليس بينه وبين دين الله صلة ، إذ لافرق أمام الله بين أسود وأبيض ،

وهذا هو ماعلمه الإسلام للمسلمين ، حيث يقف الجميع صفا واحدا أمام رب العباد ، الأبيض بجانب الأسود ، والغنى بجوار الفقير ، والصغير بحذاء الكبير لافرق بينهم إلا بالتقوى ، فنشأوا متحابين متعاطفين ، يحترم كل الآخر ، حتى ولو عبدا حبشيا ، ويرعى كل حقَّ الآخر ، مهما كان لونه ونسبه ، ومركزه الاجتماعى ، روى أن جارية سوداء تسمى فرتونه شكت فى عام ١٠٠ من الهجرة ــ أى قبل أن تعلن الثورة الفرنسية وثيقة حقوق الإنسان بأكثر من ألف عام ــ إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بأن لها حائطا قصيرا يُقتحَم منه عليها فيُسرَق دجاجها ، فأرسل عمر فورا إليها يخبرها أنه أرسل إلى والى مصر أيوب بن شرحبيل : أن فرتونة مولاة ذى إصبح قد كتبت إلىَّ تذكر قِصَر حائطها وأنه يُسرَق منه دجاجها ، وتسأل تحصينه لها فإذا جاءك كتابى هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها . فلما وصله الكتاب ركب بنفسه إلى الجيزة ليسأل عن فرتونة حتى عثر على محلها ، فإذا هى سوداء مسكينة ، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين ، وحصن لها بيتها .

فهذا مثل عملى لتطبيق حقوق الإنسان فى المجتمع الإسلامى ، يدوى فى آذان المغرمين بالحضارة الغربية ، علهم يدركون أن فى تطبيق الإسلام حلا لجميع المشاكل الإنسانية ، وتأمينا لحقوق الإنسان ، فلا يظلم أحد ولايضطهد فى حياته ، بل يعيش الجميع فى أمن واطمئنان تحت مظلة الإسلام : ﴿.. **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا**﴾ (*) ..

بين الدعاية والحقيقة

تستنكر الهيئات الدولية والمؤسسات الإنسانية كل مايهين الإنسان ، ويهدر كرامته فنراها تندد بالأعمال الوحشية التى تقوم بها بعض الدول ضد المواطنين المسالمين وتُشَهِّر بكل نظام يتعدى على حقوق الإنسان لرعاياه ، كما يقوم المصلحون بتصوير كل إجراء يسلب الإنسان حريته وكرامته بأنه عمل وحشى ، ويصفون من يتخذه بأنه بربرى بدائى لم يتحضر بعد ، فهو يعيش بعقلية القرون الوسطى ، حيث كان رجال السلطة يصبون جام غضبهم على مخالفيهم ، فيعذبونهم بأقصى أنواع التعذيب ، إذ كانوا يتفننون فى طرق إيلامهم وينوعون فى أساليب وحشيتهم مع ضحاياهم .

وعلى الرغم من أصوات الدعاية المدوية فى أرجاء المعمورة بفضل الحضارة الغربية وسموها ، حيث شعر الإنسان فى ظلها بكرامته ، وأحس بإنسانيته ، فلا زال الإنسان فى

(*) آل عمران ١٠٣

كثير من مناطق العالم يعامل معاملة غير إنسانية ، فلم يرحمه حاملو تلك « الحضارة » ، بل أذاقوه ألوانا من العذاب ، وصبوا على رأسه صنوفا من الاضطهاد ، فليس فى قلوبهم مثقال ذرة من رحمة تذكرهم بحقوق الإنسان ، التى يدعون أنهم واضعو ميثاقها ، ولا فى ضميرهم شعاع من نور ، يبصرهم بألم الحرمان ، الذى يعانيه أولئك الذين سلبتهم الحضارة الغربية ثرواتهم ، ونهبت ممتلكاتهم ، واستنفدت قواهم ، وسدت أمامهم كل طريق تؤدى إلى تحسين أحوالهم ، ورفع مستوى معيشتهم . ومن العجيب أن هؤلاء « المتحضرون » برعوا فى تغطية جرائمهم ضد العالم الثالث ببيانات دعائية تستنكر مايفعله إخوانهم بالنيابة عنهم مع هذه الشعوب ، ثم يمدون لهم يد المساعدة من وراء ستار ليزدادوا قوة فى مجال الاستغلال والاستبداد والتحكم ، وعند الاقتضاء يقدمون للمعذبين نوعا من المساعدة لا تسمن ولا تغنى من جوع .

يقدمونها تورية حتى لاتظهر وجوههم الشريرة على حقيقتها، وتنكشف نواياهم السيئة بأشكالها وأبعادها ، فتزداد ثورة المعذبين ويقوى هديرهم فى وجه المستغلين فهى — أى المساعدة — بمثابة تسكين وتخدير ، كى تستمر عملية الاستغلال والاستنزاف .

هذا هو وجه الحضارة الكالح ، الذى يتخفى وراء شعارات كاذبة ، ودعايات مضللة ، فهم يدعون أنهم خلعوا رداء القرون الوسطى الوحشى ، وتخلصوا من أساليب جبابرة القرون المظلمة ، ولم يكن ذلك سوى قناع رقيق يخفى وراءه أخلاقيات فرسان القرون الوسطى ، وقسوة الإنسان البدائى ضد أخيه الإنسان ، لأنهم لايستطيعون التخلص منها ، مادام الاتجاه المادى مسيطرا عليهم ، يوجه تحركاتهم ، ويتحكم فى تصرفاتهم .

ولو فكر المصلحون تفكيرا جديا فيما ينبغى عمله للقضاء على مظاهر الوحشية فى المجتمع الإنسانى ، ومحاربة كل من تسول له نفسه استغلال أخيه واستعباده لاهتدوا إلى الإسلام ، فهو أفضل أسلوب لعلاج هذا الانحراف الإنسانى لأنه يحد من غلواء المادية التى تسيطر على نفس الإنسان فتطمسها ، وعلى روحه فتفسدها . ومتى تحرر الإنسان من هذه السيطرة صار تربة صالحة لغرس مبادىء الأخوة فى نفسه ، وتعويده على عمل كل مافيه خير له ولأخيه الإنسان ، فإذا كانت الحقوق الإنسانية فى المجتمع الغربى نداءات وشعارات فقط ، فإنها فى الإسلام ، أحكام وتشريعات واجبة التنفيذ ، لايفرط فيها إلا من وهنت عقيدته ، وضعف إيمانه . ولهذا يحرص كل مسلم على تنفيذها حتى لايخسر دنياه وآخرته .

وقد غرس الإسلام فى قلوب المسلمين بذورا ربانية ، فأرهفت حسهم ، ورققت مشاعرهم وأيقظت ضمائرهم ، فصاروا رحماء مع إخوانهم يرقون للضعيف ، ويألمون للحزين ، ويحنون على المسلمين ، ويمدون أيديهم إلى الملهوف ، كما دفعتهم هذه القلوب إلى أن ينفروا من الإيذاء ، ويتجنبوا الجريمة ، فصاروا بذلك رحماء على من حولهم ، يشملونهم بالرعاية والعطف والحنان ، ويدفعون عنهم كل أذى فيمسحون أعينهم إذا بكوا ، ويقدمون لهم الطعام إذا اشتكوا من الجوع ، ويلقون عليهم بأرديتهم إذا تألموا من شدة البرد ولسع الصقيع ، وتلك هى الحضارة الحقة ، علمها الإسلام للمسلم قبل أربعة عشر قرنا ، وفرض عليه الالتزام بها فلا يتغنى بها كلاما خاليا من مضمون التنفيذ — كما يفعل أهل الحضارة المعاصرة — بل يتفذها عقيدة وشرعا ولا يمارسها — أو جزءا منها — رياء واتقاء — كما نراه على الساحة الدولية — بل يقوم بها كاملة ، حبا وعطفا على أخيه الإنسان ، وتنفيذا لقول الله تعالى: ﴿**وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة**﴾(*) فهو يرحم أخاه فلا يؤذيه ، ويرحمه فلا يتركه فريسة العوز والفاقة ، ويرحمه فلا يستغله فى مال أو عمل .

عنى الإسلام بالنزعة الإنسانية ، فوصى المسلم بأن يرعى حرمات أخيه الإنسان حتى وإن خالفه فى العقيدة ، وبذلك نزع من المجتمع الإسلامى الحقد والكراهية للمخالفين فى الدين ، واقتلع من وجدان المسلم العصبية الدينية ، حيث ذكره بأن الناس جميعا يرجعون إلى أصل واحد ، فهم أخوة فى الدم والنسب ، يقول تعالى : ﴿**ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء**﴾(**).
إذ مهما تفرق الناس بعد كثرة نسل الإنسان الأول إلى أمم وبلدان وأجناس فإنما هم كتفرق البيت الواحد والأخوة من أب واحد وأم واحدة . وإذا كان الوضع كذلك ، فيجب عليهم أن يتعاونوا تعاون الأشقاء ، وأن يتراحموا فيما بينهم كما يتراحم الأقارب وذو الأرحام ، وأن يتعاطفوا كما يتعاطف أرباب الدم الواحد ، وأن يتلاقوا على الخير تلاقى الإلف مع إلفه ، ويتعارفوا ويتقاربوا تقارب الابن لأمه ، والأخ لأخيه . وطبقا لهذا الاتجاه الإسلامى الذى يجمع شتات الإنسانية فى عقد واحد ، ويجمع ماتنافر منها على طريق التآلف والتقارب ، انبثق المبدأ الخالد الذى ذكر الله به الإنسان فى قوله تعالى : ﴿**ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**﴾(***). ومن طبيعة التعارف : الشعور بالألفة والتقارب والإحساس بمشاركة الآخرين فى أحزانهم وأفراحهم ، مما يدعو المرء إلى تقديم العون عند الحاجة ، دون تمييز على أساس نسب ، أو

(*) البلد ١٧ (**) النساء ١ (***) الحجرات ١٣

لون ، أو عرق ، أو وطن ، بل يتحرر الشعور من كل هذه التقسيمات ، فلا يبقى مسيطرا عليه إلا الجانب الإنساني ، وهذا هو ماأعلنه رسول الله ﷺ فى حجة الوداع حيث قال : «**يامعشر قريش : إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب**» .

وعى المسلمون هذا الدرس وعيا كاملا ، فكان سلوكهم مع غيرهم قائما على أساس الأخوة الإنسانية ، يوقرون الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويعطفون على الفقراء والمساكين ويساعدون المحتاجين ، حتى وإن كانوا على غير ملتهم . فقد رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه شيخا كبيرا فى السوق يسأل الصدقة ، فقال له : ماأنت ياشيخ ؟ قال : أنا شيخ كبير أسأل الجزية والنفقة ، وكان يهوديا . فإذا بعمر يقول له : ماأنصفناك ياشيخ ، أخذنا منك الجزية شابا ، ثم ضيعناك شيخا . وأخذ بيده إلى بيته فأطعمه ثم أرسل إلى خازن بيت المال يقول : افرض لهذا وأمثاله مايغنيه ويغنى عياله .

هذه هى مظاهر الحضارة التى ترعى حقوق الإنسان قولا وعملا ، فأين تلك المبادىء التى أعلنها الغرب كميثاق حقوق الإنسان ، ويحتفل بهذا الإعلان كل عام، بينما تمتهن الدول الكبرى فى كل لحظة حقوق الشعوب والأمم ، فتستنزف ثرواتهم وتصادر حرياتهم ، وتضيق عليهم فى كسب أرزاقهم ، وتعاملهم معاملة الحيوان الاعجم ؟

إن مايجرى اليوم فى جنوب إفريقيا من إجراءات تعسفية ضد سكان البلاد الأصليين يتنافى مع ابسط قواعد حقوق الانعام ، فضلا عن الإنسان ، إذ بينما تجد الرجل الأبيض فى المجتمعات الغربية يدلل كلبه ، فيقدم له الأطعمة المحفوظة فى أوعية ملساء نظيفة ، تراه يسلك مع الإنسان الأسود فى جنوب إفريقيا سلوك حيوان وحشى فيضربه بالسياط ، ويكلفه من العمل مالا طاقة له به فى مقابل أجر لايسد رمقه ، فإذا ماارتفع صوته بالشكوى مطالبا بالمساواة مع الرجل الأبيض ، نزلت السياط على ظهره ، وأطلق الرصاص فى صدره ، فإذا أخطأه زج به فى غياهب السجون دون أدنى محاكمة . ومن الغريب أن يحدث هذا على مرأى ومسمع من الأمم المتحدة التى ينص ميثاقها على رعاية حقوق الإنسان ، فلا تملك سوى إصدار البيانات الرنانة ، وإطلاق البالونات الهوائية التى لاأثر لها سوى فرقعة الأصوات فى أجهزة الارسال وبريق « المانشتات » على صفحات الجرائد والمجلات . ثم إن زعيمة « العالم الحر » لم يغير من نزعتها العنصرية تشدقها بحماية الحرية فى كل مكان ، ولم يؤثر تمثال الحرية الذى أقيم فى إحدى مدنها الكبرى على تعصبها العرق ، فلا زالت تقف وراء الأقلية البيضاء فى جنوب إفريقيا تمدها بالمساعدة عن طريق

طرف ثالث استهزاء واستخفافا بمن يتوسل إليها لمساعدة المضطهدين . أما الدول الأخرى فقد اكتفت بالاستنكار الخطابى ، لأنه ليس لديها من المبادىء مايدفعها إلى تبنى مبدأ المساواة فى المجتمع البشرى والدفاع عنه ، فلم تلمس عقيدة الإسلام شغاف قلوب أبنائها بعد ، تلك العقيدة التى لم تميز شخصا على آخر بسبب اللون أو العرق ، بل جعلت الكفاءة الذاتية هى التى تقدم صاحبها على غيره ، مع الاحتفاظ لمن ضعفت قدراته بحقه فى الحياة ، فلا اضطهاد ولا استغلال إذ الكل سواء فى آدميتهم وإنسانيتهم ومسئوليتهم أمام القانون ، بل إن تعاليم الإسلام غرست فى نفس المسلم وفى وجدانه الإحساس بألم الآخرين فدفعته إلى مد يد المساعدة لمن يحتاج إليها ، دون تميز بين مسلم وغير مسلم ، يشير إلى ذلك كثرة الخطاب فى القرآن الكريم بألفاظ تشعر الناس بوحدة أصلهم الإنسانى ، مثل : **﴿ياأيها الناس .. يابنى آدم﴾** . ولاشك أن هذا يغرس فى نفس المسلم الحب للناس جميعا ، فلا يفرق بين أبيض وأسود ولايميز بين غنى وفقير . فالحضارة التى لايستعلى فيها عرق على عرق ، ولا لون على لون هى الحضارة الأصلية التى يجب أن تسود فى المجتمع الإنسانى كله . وتلك هى حضارة الإسلام لاغير .

معالم البناء الحضارى فى المجتمع الإسلامى

يقوم البناء الحضارى فى المجتمع الإنسانى على عدة عوامل من أهمها : طبيعة العلاقة بين أفراد المجتمع ، فكلما كانت العلاقة بين الناس قائمة على أساس العطف والمودة والرحمة ، قوى بناء الحضارة ، وازدادا ارتفاعا ، وكلما تمكنت المعانى الإنسانية فى وجدان وشعور الأفراد ، ازدهرت شجرة البناء والتقدم ، وطابت ثمارها ، بل إن نمو الحس الجماعى لدى الأفراد يقضى على ظاهرة الأنانية ، ويقتل نوازع الجشع فى المجتمع ، فيصير الناس جسدا واحدا ، يحسون بإحساس واحد ، فيشعر كل بما يشعر به الآخر ، وعندئذ تختفى معالم التنافر والتناحر ، ويصير الكل كتلة واحدة يعمل لصالح المجموع ، فيتعاون الناس فى الخير ، ويتكاتفون للوقوف فى وجه الشر ، مهما كبر حجمه ، فلا تخيفهم صخامته ، ولا ترهبهم كينونته وهيئته ، فيسرعون فى تلبية نداء إخوانهم إن أصابهم شر ، مهما صغر حجمه ، أو قل المركز الإجتماعى لمن يحتاج إلى العون والمساعدة ، وقد عبر رسول الله ﷺ عن هذا التلاحم فى المجمتع الإسلامى بقوله : **«مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»** .

إن من عوامل قوة المجتمع وتماسكه ، وبالتالى قدرته على البناء والتشييد أن يمد يده للضعفاء فيأخذ بيدهم على طريق الحياة ، ويساعدهم على مواجهة حوادث الدهر ، ويمد لهم يد العون لتخطى عقبات الزمن ، وتلك هى صفات المجتمع الإسلامى ، لم يترك ضعيفا إلا وساعده للتغلب على هذا الضعف ، ولم يهمل محتاجا أبدا دون أن يقدم له ما يحتاج إليه ، فقد وصى الله سبحانه وتعالى فى كثير من آيات الكتاب الحكيم المسلمين بالعطف على الضعفاء ، ومساعدتهم على تخطى العقبات التى تصادفهم فى مسيرة حياتهم ، ومن أمثلة ذلك : حث الناس على رعاية اليتيم ، والعناية به ، والمحافظة على أملاكه ، لأنه ضعيف لايقوى على تحمل المسئولية ، وعاجز عن مقاومة صروف الدهر ونكبات الأيام . فلو استعرضنا الآيات التى تحدثت عن ضرورة مساعدة اليتيم لوجدناها تتناول جوانب ثلاثة :

الأول : استنكرت معاملته بجفوة وغلظة ، فهو محتاج إلى العطف ، لأنه فقد مصدره ، وهو أبوه ، فقال تعالى :

﴿أرأيت الذى يكذب بالدين * فذلك الذى يدع اليتيم﴾(٣٧٣) .

ودع اليتيم : معاملته بغلظة وجفوة ، فيبين الله للمسلمين أن من يعامل اليتيم بغلظة فلا يعطف عليه ، ولا يمنحه الحنان والحب ، هو فى مستوى من ينكر الآخرة والجزاء فيها ، ولا يؤمن بأنها تقع . وماذاك إلا لتصوير عظم الإثم الذى يرتكبه الإنسان عندما يقسو على اليتيم ، فيعامله معاملة جافة ، لأنه فى حاجة إلى حنان وعطف حتى يستوى عوده ، دون أن تترسب فى ذهنه عوامل نفسية قد تقضى على توازنه فى مستقبل أيامه .

الجانب الثانى : أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بحسن معاملته فقال : **﴿ .. وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى﴾**(٣٧٤) . وليس المطلوب عدم إيذائه بالغلظه ، فحسب ، بل تجتب الإيذاء السلبى أيضا ، بمعنى أنه لايجوز إهماله وتركه ، بل ينبغى إشعاره بأنه يلقى حسن المعاملة ممن حوله ، وذلك بتوجيهه وتعليمه حتى يستقيم أمره ، يقول تعالى : **﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾**(٣٧٥) .

---

(٣٧٣) الماعون ١ ـــ ٢

(٣٧٤) النساء ٣٦

(٣٧٥) البقرة ٢٢٠

الجانب الثالث : وهو يتعلق بمن ترك له أبوه مالا ، فقد أمر الله سبحانه وتعالى وصيه بالمحافظة عليه واستثماره ، يقول تعالى : **﴿ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده﴾**(٣٧٦) . فهذه الآية توصى بأن يحفظ الوصى مال اليتيم بأحسن الطرق ، ولا يتحقق ذلك إلا إذا استثمره فيما يدر ربحا أكثر مع قلة فى الإنفاق . كما نهى القرآن الكريم الوصى عن كل تصرف يكون فيه ضياع ماله أو هلاكه ، وحدد من ذلك حالتين لأنهما أكثر شيوعا فى مثل هذه الظروف :

الأولى : نهاه عن أخذ شيء من هذا المال ، وأطلق على هذا التصرف أكلا ، فقال تعالى : **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾**(٣٧٧) .

الثانية : نهاه عن تبديل الخبيث بالطيب ، أى لايجوز له أن يأخذ الطيب والأجود من مال اليتيم ويضع الردىء والسيء بدلا منه ، يقول تعالى : **﴿وآتو اليتامى أموالهم ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب﴾**(٣٧٨) .

- كما نهى القرآن الكريم عن استغلال أى ضعيف فى المجتمع فوصى بالمرأة خيرا ، لأنها عضو ضعيف فى المجتمع ، لايقوى على مقاومة ضعاف النفوس ، ووصى بالشيخ الكبير ، وبالمظلوم وذى العاهة ، وبكل من تضعه الظروف فى موضع لايقوى فيه على مواجهة قسوة الحياة واستغلال الطغاة ، وجبروت المستكبرين فى الأرض ، فهو ينهى عن كل استغلال بسبب الضعف أينما وجد ، ويحث على مد يد المساعدة لمن يتعرض له ، مهما كانت الظروف والملابسات . لأن الهلاك هو مصير المجتمع الذى لايجد الضعيف فيه يدا تمتد إليه بالمساعدة ، ولايحس المسكين فيه بيد حنون تربو على كتفه ، وتساعده فى محنته يقول تعالى : **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين﴾**(٣٧٩) .

---

(٣٧٦) الأنعام ١٥٢

(٣٧٧) النساء ١٠

(٣٧٨) النساء ٢

(٣٧٩) البقرة ١٧٧

فرض الله العديد من العبادات على المسلم ، بغية تهذيب أخلاقه وتقويم سلوكه . وأمره بتنفيذ كثير من الوصايا التى ترفع قدره ، فتهيئه لأن يكون إنسانيا ، لايصدر منه إلا مايتفق وجلال الإنسان ، وتبعده عن كل مايميت روح الإنسانية فيه ، فيظل بعيدا عن كل المؤثرات التى تطغى على الجانب الإنسانى فيه ، حتى لايتحول سلوكه إلى كل مايتناقض مع روح الإنسان ، وبذلك تفسد حياته ويعم البلاء على كل من حوله .

ومن بين الوصايا العديدة التى حث القرآن الكريم المسلم على تنفيذها : الإحسان، فقد جاء ذكره فى آيات عدة ، وبتصاريف متنوعة ، منها قوله تعالى : ﴿**واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا**﴾(٣٨٠) . وقوله : ﴿**إن الله يأمر بالعدل والاحسان**﴾(٣٨١) . وقوله : ﴿**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم**﴾(٣٨٢) . وقوله : ﴿**ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن**﴾(٣٨٣) . وقوله : ﴿**ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى**﴾(٣٨٤) .

ويلاحظ من استعمال القرآن الكريم لكلمة « الإحسان » أن المراد منه ليس هو عطاء المال للفقير فحسب ، بل مفهومه فيه أعم من هذا ، فهو يشمل مواقف الإنسان التى تدل على الخلق المهذب ، والسلوك القويم ، والتصرف الإنسانى الذى يتسم بالتسامح والعفو ، يقول الله تعالى : ﴿.. **الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾(٣٨٥) . فقد وصفت الآية من يكظم غيظه ، فلا يتسرع برد الإساءة ، ومن يعفو عمن يسيء إليه بـ « الإحسان » وهما لم يعطيا مالا ولم يتصدقا على محتاج .

---

(٣٨٠) النساء ٣٦
(٣٨١) النحل ٩٠
(٣٨٢) التوبة ١٠٠
(٣٨٣) النساء ١٢٥
(٣٨٤) لقمان ٢٢
(٣٨٥) آل عمران ١٣٤

كذلك استعمل الإحسان فى معان أخرى ، فقد قال تعالى : ﴿**ولاتركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من ولى ولانصير * وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين * واصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين**﴾[٣٨٦] . إذ يأمر الله المؤمنين فى هذه الآيات بـ : ألا يركنوا إلى الأعداء ، ولايثقوا فيهم ، وبأن يقيموا الصلاة فى أوقات مختلفة من الليل والنهار ، وبأن يصبروا حتى يأتى نصر الله . ثم وصف من ينفذ هذه الأوامر بـ « المحسن » حيث قال عقب هذه الأوامر : ﴿**إن الله لايضيع أجر المحسنين**﴾ فدل ذلك على أن من يأخذ حذره من الأعداء ، فلا يثق فيهم ولا يركن إليهم محسن . ومن يحافظ على أداء الصلاة فى أوقاتها المختلفة محسن . ومن يصبر على الشدائد حتى يأتى نصر الله محسن . مع أنه ليس فى أداء أى عمل من هذه الأعمال عطاء للمال إلى محتاج إليه ، بل مايطلب من المؤمنين أداؤه فى هذه الآيات لايخرج عن كونه : موقفا نفسيا وهو عدم الركون إلى الكفار ، وعدم الثقة بالأعداء ، والصبر والتحمل لمناوشتهم ، أو عبادة يتصل بها العابد بربه كإقامة الصلاة فى بعض أوقات الليل والنهار .

ومن معانى الإحسان فى القرآن الكريم : أدب الكلام ، أى أن من يمسك لسانه عن فحش القول ، وبذاءة التعبير ، فلا يخرج من بين شفتيه إلا القول الطيب ، واللفظ المهذب يكون محسنا ، لأن سلوكه وتصرفه على هذا النحو إحسان لنفسه ، حيث يكون محبوبا بين الناس لايلقى منهم إلا الاحترام والتبجيل . وإحسان لمن حوله فلا يسمعون منه مايخدش حياءهم ، أو يجرح كرامتهم ، يقول الله تعالى : ﴿**وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا**﴾[٣٨٧] .

ومما لاشك فيه أن هذه الأعمال التى وصفت بالإحسان لاتصدر إلا عن إنسان ملتزم ، يشعر بالمسئولية ، ويحس بما تمليه عليه إنسانيته تجاه إخوانه ، ونحو مجتمعه ، وذلك هو أعلى درجات الحضارة ، إذ لاتصدر مثل هذه الأعمال الطيبة إلا من إنسان متحضر ، يدرك أبعاد ماينبغى أن يكون عليه سلوك الإنسان فى عالم تسود فيه معانى الإنسانية ، وترتفع فيه رايات حقوق الإنسان ، ليتعلم الآخرون عن طريق التطبيق العملى ، بأن العبرة فى هذا المجال لاتكون برفع الشعارات ، وصدى أبواق الدعايات ، بل بالإيمان بهذه

---

(٣٨٦) هود ١١٣ ــ ١١٥
(٣٨٧) الاسراء ٥٣

الحقوق ، والخضوع لمتطلباتها ، وذلك ماطبق فى المجتمعات الإسلامية ، منذ أربعة عشر قرنا .

تصحيح ورد

شاع بين المسلمين أن معنى الإحسان فى الإسلام هو : إعطاء جزء من المال لمن هو فى حاجة إليه ، ولذلك اشتهر بين المسلمين إطلاق كلمة : « محسن » على من يكثر عطاء المال للفقراء والمساكين . غير أن المناوئين للإسلام اتخذوا هذا المفهوم وسيلة للهجوم عليه ، فذكروا أن هذا المظهر الذى يعد فى نظر الإسلام عملا صالحا ، ينطوى على مهانة ومذلة لمن تدفعه الحاجة إلى أن يمد يده ، فيأخذ هذا المال ممن يسمى فى المجتمع الإسلامى : « محسنا » . ومن أجل هذا عمدت المجتمعات المتحضرة إلى اتخاذ إجراءات ترفع هذه المهانة والمذلة عن الفقير ، فأنشأت مؤسسة تتولى رعايته ، وأطلق عليها اسم : « الضمان الجماعى » وهى تعد من مفاخر المجتمع المتحضر ، إذ غالبا ماتذكر فى مجال بيان آثار الحضارة على المجتمع الإنسانى .

وينطوى هذا الاتجاه على مقولتين : الأولى : حصر مفهوم الإحسان فى الإسلام داخل دائرة عطاء المال القليل للمحتاج إليه ، أى أنه عبارة عن عملية تنازل القادر عن جزء قليل من ماله للفقير المحتاج إليه ، والثانية : أن ظهور مؤسسة « الضمان الجماعى » فى المجتمع المعاصر مفخرة له ، لأنه رفع بها مذلة الفقير الذى يمد يده إلى الغنى ليأخذ منه مايجود به عليه .

ونبدأ بالرد على المقولة الأولى فنبادر إلى القول بأنها غير صحيحة ، وقد سقنا بعض الشواهد التى تؤكد ذلك فى الفقرة السابقة ، وإضافة إلى ماذكرناه نقول : إن للإحسان معانى أخرى ، فقد ورد فى القرآن الكريم بمعنى « حسن الأسلوب فى الحوار والمناقشة » . يقول تعالى : **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾**(٣٨٨) . فالإحسان فى هذه الآية هو : التزام أدب المناقشة والحوار ، فلا تشنج ، ولا صياح ، ولارميا للخصم باتهامات باطلة ، ولا وصفه بعدم الفهم أو

---

(٣٨٨) العنكبوت ٤٦

الضلال ، وغير ذلك مما يعد خروجا عن الموضوعية ، وتجاوزاً للروح الإنسانية التى يجب أن تسيطر على مناقشات الناس ومحاوراتهم . فمن يلتزم بأدب المناقشة يعد محسنا ، لأن القرآن الكريم وصف هذا الأسلوب بالحسن ، فهو محسن لنفسه ، لأنه ظهر بما يضفى على شخصيته لباس الإنسانية ، ومحسن لغيره . لأنه لم يصدر منه مايؤذيه أو يؤلمه . فالإحسان فى هذا المجال ليس هو إعطاء المال لمن يحتاج إليه ، وإنما هو صدور السلوك المهذب من المحسن ، وخروج القول الحسن من لسانه ، وانسياب الروح العالية من نبرات صوته ، ولاشك أن كل ذلك ظواهر حضارية ، فهى معالم احترام الإنسان لأخيه الإنسان ، حتى ولو اختلفت آراؤهم وتباينت وجهات نظرهم ، وتعارضت عقائدهم ومذاهبهم الفكرية .

كذلك ورد الإحسان فى رد التحية ، يقول تعالى : ﴿**وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها**﴾[٣٨٩] . فالإحسان فى هذه الآية وصف لبشاشة الوجه عند اللقاء ، إذ أن تبادل الكلمات الطيبة ـــ التى تضفى على المتلاقيين الشعور بالأخوة ، وتحرك فيهما كوامن الفرح والسرور برؤية كل الآخر ، وتبعث من بين جنباتهما نسمات الحب والرحمة والعطف ـــ لهى أسمى درجات الإحسان ، ولذا شاع بين العامة المثل القائل : « لاقينى ولاتغدينى » أى أن من الأفضل لى أن تلقانى ببشاشة وسرور لايعقبهما أى عطاء ، من أن تلقانى بوجه عابس ، وجبين مقطب ، ثم تقدم لى ألذ الأطعمة وأشهى الأشربة .

فحسن اللقاء فى الإسلام من الإحسان ، مع أنه ليس فيه عطاء مال من غنى لفقير ، بل هو أسلوب مهذب ، ينم عن أخلاق عالية ، وروح إنسانية ، علمنا الله إياه قبل أن يتعلم « المتحضرون » فى القرن العشرين أصول « الإتيكيت » بأربعة عشر قرنا . إنه المنهج الإلهى ، فمن يعرفه حق المعرفة ، ويلتزم به فى سلوكه تفوق على من درسوا فن المعاملة فى أرقى معاهد الديبلوماسية ، لأنه يؤمن بآداب السلوك عقيدة وينفذها عبادة ، فهو أشد حرصا عليها ممن يباشرها حرفة ، وأصدق فى شعوره تجاه الآخرين ممن يتظاهر بحسن معاملته تفاخرا أو ادعاء ، بينما يكن فى قلبه ـــ فى الغالب الأعم ـــ عداوة وحقدا ، أو يبغى من وراء هذا التظاهر مصلحة مادية ، أو مركزا وسلطانا دنيويا .

ولو استعرضنا المزيد من آيات القرآن الكريم التى ورد فيها ذكر الإحسان ،

---

(٣٨٩) النساء ٨٦

لاتضحت لنا معان أخرى استعملت فيها هذه الكلمة ، فإذا تلونا قوله تعالى : ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولاتنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا**﴾(٣٩٠) . وجدنا أنفسنا أمام نوع آخر من الإحسان ، ألا وهو مايطلب من الابن تجاه أبويه عندما يتقدم بهما السن ، إذ هما فى هذه الحالة فى حاجة إلى رعاية خاصة . وليس بلازم أن يكون الإنفاق عليهما جزءا من هذه الرعاية ، فقد يكونان موسرين ، لكن يسرهما المادى لايغنياهما عن رعاية يحسان معها بالراحة النفسية ، والاطمئنان القلبى ، والشعور بأن ماغرساه قد أنبت ثمرة طيبة مباركة ، وذلك هو مايحتاج إليه الوالدان عند الكبر ، ولهذا كان ماطلبه الله من المسلم فى هذه الآية : رعاية الشعور النفسى وتوفير الاحترام لهما ، وتجنب كل مايؤذى شعورها حتى ولو كان تافها ، فلا ينبغى أن يخرج من لسانه مايعتبرانه إساءة لهما ، وإن لم يعتبر اساءة فى حق غيرهما :

﴿**فلا تقل لهما أف**﴾ ، أى لاتخرج شيئا من بين شفتيك — حتى ولو كان ذلك مجرد ضغط عليهما فى حالة إخراج الزفير — يعكر عليهما صفو حياتهما ، أو يسلبهما لحظة من أوقات تمتعهما بالهناء والسرور .

﴿**ولا تنهرهما**﴾ أى لاتتصرف معها بأسلوب خشن ، بل كن لين القول معهما ، حسن المعاملة لهما ، رقيق المعانى فى صياغة حديثك إليهما لين الجانب فى كل مايتعلق بهما ..

﴿**وقل لهما قولا كريما**﴾ . أى لاتتلفظ معهما إلا بالألفاظ الحسنة ، التى تشيع فى جوهما المرح والسرور ، وتنشر عليهما الغبطة والارتياح .

﴿**واخفض لهما جناح الذل من الرحمة**﴾ فلا تتعالى عليهما ، ولا تأتى من السلوك مايجعلهما يفهمان أنك تتبرأ منهما، إذا كانا أقل منك فى السلم الاجتماعى بل تصرف معهما بتواضع ، وأظهر لهما أن ماتتمتع به من مكانة إنما مرده إلى مابذلاه معك ، لتصل إلى هذه الدرجة ، فالفضل لهما فى حياتك ، والشكر لهما على ماأنت فيه من نعمة ورخاء عيش ، وأظهر لهمااستعدادك للقيام بكل مايطلبانه ، حتى ولو كان عملا لايليق بمركزك

(٣٩٠) الاسراء ٢٣ — ٢٤

الاجتماعى ، إذ أن كل عمل لهما يزيدك فخرا ، مهما كانت درجة تقييم هذا العمل فى سلسلة التقييم المادى .

﴿**وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا**﴾ . أى وتوجه إلى الله بالدعاء الصادق النابع من القلب ، بأن يرحمهما ، وينزلهما منزلة عالية عنده ، جزاء ماقدماه لك فى صغرك من رعاية وحسن تربية .

وليس فى كل مايطلب من الأبناء أن يقدموه للآباء فى هذه الآية مايشير إلى أنه عطاء للمال ، مما يدل على أن الإحسان فى الإسلام ليس فقط هو التصدق بالمال بل أيضا : الالتزام بالأخلاق الحسنة ، والسلوك الطيب تجاه من لهم الحق الأول على الإنسان بعد حق الله تعالى ، وهما من كانا السبب فى وجوده ، ومن بذلا جهدا كبيرا فى جميع مجالات الحياة لرعايته ، حتى استوى على عوده إنسانا سويا يتمتع بكل ملذات الحياة .

كذلك ورد معنى الإحسان لإرشاد الإنسان إلى حسن المعاملة تجاه إنسان آخر لصيق به ، ألا وهى الزوجة ، فيقول الله تعالى : ﴿**الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**﴾[391] . فقد طلب الله من الزوج أن يحسن إلى الزوجة عندما تتعثر الحياة معها ، فلا يكون هذا الإخفاق فى العيش معها سبيلا إلى الإساءة إليها فى طريق إنهاء الحياة الزوجية . فالإحسان إليها عند طلاقها ومفارقتها نهائيا هو : معاملتها معاملة إنسانية كريمة ، إذ توفير الاحترام لها أكثر أهمية من تقدير « المتعة » لها ، وهى النفقة القصيرة الأجل بعد طلاقها .

وهكذا فالإحسان المطلوب من المؤمنين فى القرآن الكريم يتعدى عطاء المال إلى : التهذيب فى المعاملة ، وفى النطق ، وفى المخاصمة ، وفى المواقف التى تتخذ قبل الآخرين . فهو السلوك الانسانى فى مستواه الرفيع ، وهو المعاملة الطيبة لكل من يتصل بالإنسان ، بحيث يبدو معهم إنسانا متحضرا ، لايصدر منه مايؤذى الآخرين ، ولا يتصرف تصرفا يشمئز منه من حوله ، وهذه أقصى درجات التمدن والتحضر .

وعليه فالإحسان فى الإسلام فوق العدل ، أمر الله به لتبقى النفوس صافية والأفئدة طاهرة ، وليسود الشعور الأخوى بين الناس ، فتتماسك الجماعة ، وذلك هو العطاء حقا لأنه عطاء من الإنسانية قبل عطاء الماديات ويزيده جلالا وسموا أنه التزام من المؤمن

---

(٣٩١) البقرة ٢٢٩

لنفسه ، وليس إلزاما من سلطة وراء ذاته .

تدو التعاليم الإسلامية حول محورين أساسيين وهما : الفرد والمجتمع فكل مايفرضه الإسلام على المسلم يؤدى إلى بناء الإنسان بناء سليما ، بحيث يكون له من القوة مايساعده على مواجهة التيارات الهدامة ، ويجنبه التردى فى مفازة تدمير الشخصية الإنسانية ، وفى الوقت نفسه يقيم روابط قوية بين أفراد المجتمع ، حتى يصير متماسكا فى بنيانه ، قويا فى إمكاناته ، شديد المراس مع الذين يريدون له التفكك والتمزق ، أو يحاولون غرس بذور الاضمحلال والانهيار فى نفوس أفراده ، وذلك بتنفيرهم من الفروض والواجبات التى تساعدهم على التماسك والتلاحم بدعوى عدم ملاءمتها للعصر ، أو بحجة أن ماأتت به الحضارة الحديثة خير من تعاليم مضت عليها قرون عديدة بحيث أصبحت لاتتلاءم مع العصر الحديث .

ومن ذلك مايدعيه المرجفون من أن الإحسان ينطوى على مهانة ، ومذلة لمن يأخذ المال من المحسن ، وخير منه : « الضمان الجماعى » الذى تطبقه المجتمعات الحديثة ، لأنه يحفظ للمواطن كرامته الإنسانية ، إذ أنه يأخذ المال من الدولة ، لامن أفراد يمنون عليه بهذا العطاء . وهذا فهم محدود لمعنى الإحسان ، ذلك أن الله فرض على الأغنياء أن يعطوا جزءا محددا من أموالهم للفقراء ، ليتحقق بذلك عدة أهداف .

الأول : عدم تكديس الأموال فى أيدى حفنة من الناس ، فإذا أخرج صاحب المال النسبة المفروضة ، ووزعها على من يحتاجون تحقق من ذلك إعادة توزيع الثروة إلى حد ما ، فلا يتكدس المال فى يد ، وتحرم منه يد أخرى . ومن يستعرض نصاب الزكاة فى جميع أنواع الثروة القومية ، سواء كان ذلك زروعا ، أو أنعاما ، أو تجارة ، أو مالا سائلا ، يدرك أن المجتمع الذى ينفذ هذه التعاليم لايعرف ظاهرة الاختلال فى توزيع الثروة القومية وبالتالى لايعانى من آلام الفوارق الطبقية .

الثانى : تحرير الإنسان من سيطرة المادة ، فإن الإنسان الذى يلتزم بأوامر الله ، فيتنازل عن حق الفقراء الذى حدده الله فيما تحت يده من مال ، تصفو نفسه ، فلا يكون لبريق المال سبيلا إلى تملكها والسيطرة عليها ، ويرق قلبه ، فلا يسيطر عليه حب المال ، وتعلو همته ، فيصبح سباقا إلى الخير لايقيده حبه للمال ، ولا يعوق حركته فى طريق مساعدة الآخرين قيود مادية ، بل يكون مستعدا فى كل وقت لمد يد المساعدة لمن يحتاج إليها ، حتى ولو أدى ذلك إلى التنازل عن المال ، مهما بلغ قدره ، وبذلك يرتفع إلى مصاف الإنسانية ،

مؤثرا التحليق فى سماء الإيثار عن الهبوط فى قاع الأنانية .

الثالث : تعويد الناس على مد يد المساعدة للمحتاجين ، ففى إعطاء الفقراء حقهم فى المال مساعدة لهم على مواجهة مطالب الحياة ، فينقذون من براثن الجوع ، ومفازة الهلاك . ولما كان ألم العوز شديدا على الإنسان ، توعد الله من لايقدم يد المساعدة إلى الفقراء الذين لايملكون مايسدون به رمقهم بالويل والثبور ، يقول تعالى : **﴿أرأيت الذى يكذب بالدين*فذلك الذى يدع اليتيم*ولايحض على طعام المسكين*فويل للمصلين*الذين هم عن صلاتهم ساهون*الذين هم يراءون ويمنعون الماعون﴾**(٣٩٢) . ويقول : **﴿ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد * مناع للخير معتد مريب﴾**(٣٩٣) . ويقول رسول الله ﷺ : **«والله لايؤمن ، والله لايؤمن ، والله لايؤمن ، فيسأله الصحابه رضوان الله عليهم : من يارسول الله ؟ فيجيبهم : من بات شبعان وجاره جائع»** .

الرابع : خلق جو من الأخوة والتراحم بين الغنى والفقير ، إذ أن عملية الإعطاء والأخذ بينهما تغرس فى قلب الغنى الرحمة بالفقير وفى قلب الفقير الحب للغنى وبهذا تقوم جسور المودة والرحمة بينهما ، وتشتد الروابط بين المؤمنين ، فيصيرون أمة متماسكة ، تقوى على مواجهة مايعترض طريق حياتها من محن وأزمات ، فترى الكل يقف صفا واحدا للدفاع عن مجتمعهم ، ولحماية ثرواتهم ، فالفقير يدافع عنها ، لأنه يحصل منها على مايحتاجه ، والغنى يدافع عنها لأنها ملكه ، فإذا مااستولى عليها العدو فإن الجميع سيخسر ، لافرق فى ذلك بين غنى وفقير ، ولذا فالدفاع عنها نابع من الذات، كما أن الحياة بينهما فى حال السلم قائمة على أساس التراحم والتعاطف ، فلا يحقد أحد على آخر ، ولايهمل أخ أخاه ، بل يمد إليه يد المساعدة فى كل وقت يحتاج إليه فيه .

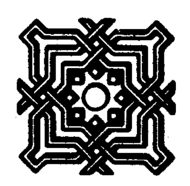
وليس للضمان الجماعى هذه الميزات ، فهو يقدم المال لفريق من الناس بشروط خاصة ، أما الإحسان فهو إعطاء المال لمن يحتاج إليه بصرف النظر عن أى شىء آخر . كذلك لايحقق « الضمان الجماعى » إقامة جسور المودة والمحبة بين الغنى والفقير مما يقضى فى المجتمع على عوامل الترابط بين أفراده . كما أنه لايعالج سيطرة المادة على نفس الإنسان ، إذ فى ظله لايخرج الغنى المال من تلقاء نفسه ، بل تتكفل الحكومة بذلك . وفوق هذا كله

---

(٣٩٢) الماعون ١ — ٧
(٣٩٣) ق ٢٤ — ٢٥

فإنه يركز مسئولية إعانة المحتاج على الحكومة ، وهى تعجز عن معرفته فى كثير من الأحوال . أما فى الإسلام فكل مسلم مسئول عمن يليه : قرابة وجوارا ، ومعرفة . ومما لاشك فيه أنه لايوجد فقير لايعلم بحاله غنى ، سواء كان ذلك عن طريق قرابته له ، أو إقامته بجواره ، أو علمه بحاله عن طريق تبادل الأحاديث بين الناس .

أما ماقيل من أن فى الإحسان إهانة للفقير ومذلة له ، فقد رفع الإسلام هذا الإحساس ، وذلك ببيان أن هذا حق للفقير فى مال الغنى ، فلم يكن له فضل عليه إلا من ناحية تأدية هذا الحق ، أضف إلى ذلك أن المسلم لايتبادر إلى ذهنه هذا المعنى على الإطلاق ، لأن الإسلام غرس فى نفسه مبدأ المساواة بين الناس جميعا ، لافرق بين غنيهم وفقيرهم إلا بتقوى الله تعالى .



الفصل العاشر

الدعوة إلى الله

مفهوم الدعوة

كثر استعمال كلمة « الدعوة » فى المجتمع الإسلامى فى العصر الحديث ، إذ تعددت الكتب والنشرات التى تتحدث عن الإسلام فتعرض أحكامه ، وتدافع عن قضاياه تحت عنوان « الدعوة الإسلامية » كما حظيت المكتبة الإسلامية بالعديد من الكتب التى تتعرض لمراحل انتشار الإسلام تحت هذا العنوان ، وتنوعت موضوعاتها : المرحلة المكية ، والمدنية ، وعصر الخلفاء .. و .. و.. الخ . كذلك ظهرت كليات فى الجامعات الإسلامية تحت هذا العنوان ، وتكونت أقسام للدعوة فى كليات الشريعة وأصول الدين والدراسات الإسلامية . ورغم هذا الطوفان فى استعمال الكلمة ، فلم يحدد حتى الآن مفهومها تحديدا علميا واضحا ، وبالتالى لم يعرف المتخرجون فى هذا التخصص مجال أبحاثهم على وجه التحديد ، ولذلك تراهم يبحثون فى شتى الموضوعات تحت اسم « الدعوة » ، بل وصل الأمر إلى حد أن الباحثين عندما يختارون موضوعا لنيل درجة علمية، فإنهم يقحمون كلمة « الدعوة » فى عنوان البحث ، حتى ولو لم يكن لها مجال فيه ، وذلك ليضمنوا موافقة الجهات المسئولة على الموضوع ، فترى بحوثا فى الأديان تحمل اسم الدعوة ، وأخرى فى المجالات الاجتماعية ، تحمل هذا الاسم .. وهكذا أصبح من الممكن وضع كلمة « دعوة » على كل بحث فى جميع مجالات العلوم الإسلامية .

فهل يمكن أن يكون هذا الاستعمال صحيحا فى مجال البحث العلمى ؟

لو تصفحنا آيات القرآن الكريم لوجدنا أن كلمة دعوة ذكرت فى أربع آيات : الأولى فى قوله تعالى : ﴿**وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان**

فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾(٣٩٤) . ومعناها فى هذه الآية : الدعاء ، أى الطلب والرجاء من الله سبحانه وتعالى .

والثانية فى قوله تعالى : **﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾**(٣٩٥) وهذه تتعلق بالحشر يوم يدعى الأموات للقيام من قبورهم .

فهى فى هاتين الآيتين بعيدة الصلة عن مفهومها فى مجالات الكتب والكليات والأقسام المتخصصه فى حقل الدعوة .

أما الثالثة ففى قوله تعالى : **﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وماهو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال﴾**(٣٩٦) . ودعوة الحق هنا : التوحيد أى أن العبادة ينبغى أن تكون لله وحده ، فلا يشرك معه أحد ، وإلا خاب وخسر من عبد إلها غير الله ، أو تقرب إلى آلهة مع الله .

والرابعة فى قوله تعالى: **﴿وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار* تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار*لاجرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الاخرة ، وأن مردنا إلى الله وان المسرفين هم أصحاب النار﴾**(٣٩٧) . ومعنى « دعوة » فى هذه الآية : أن الوثن ليس له شىء كما قال مجاهد . وقال قتادة : إن الوثن لاينفع ولايضر . وقال السدى : لايجيب داعيه لافى الدنيا ولا فى الآخرة .

ومن هنا يتبين أن كلمات الدعوة التى ذكرت فى القرآن الكريم لاتنطبق على المجالات التى يتحرك فيها القائمون على الدعوة ، سواء كان بحثا ، أو دراسة ، أو نشاطا فى مجال التوجيه والتعليم ، اللهم إلا إذا كان ذلك من باب بيان ماتتضمنه تعاليم الإسلام وشرائعه من أن الله يجيب دعاء من يتوجه إليه بالطلب ، أو شرح ماتتضمنه نصيحة مؤمن آل فرعون لقومه بأن مايعبد من دون الله لايضر ولا ينفع ، لأنه لاحول له ولا طول ، أو تذكير الناس بأن الله سوف يدعوهم من قبورهم يوم الحشر وهذه كلها لاتخرج عن كونها

---

(٣٩٤) البقرة ١٨٦

(٣٩٥) الروم ٢٥

(٣٩٦) الرعد ١٤

(٣٩٧) غافر ٤١ ــ ٤٣

جزئيات لاتصلح أن نكون مصطلحا عاما يندرج تحته كل نشاط فى مجال الإسلام من بحث ودراسة ووعظ وإرشاد وغير ذلك مما تتضمنه عملية تبليغ الناس بأحكام الإسلام وتعاليمه .

وعليه فلم يبق من الآيات القرآنية التى ذكرت فيها كلمة : « دعوة » سوى آية الرعد : «له دعوة الحق» إذ يمكن أن يقال فى تفسيرها : إنها الإسلام، فدعوة الحق صفة لرسالة الإسلام ، أى أن الإسلام هو الدعوة الصحيحة ، وماعداه فهو باطل ، وتعاليمه هى التى يجب على الناس أن يتبعوها ، ولايتبعوا غيرها فتتفرق بهم السبل ويصيروا شيعا وأحزابا يضرب بعضهم بعضا .

وجاء فى القرآن الكريم تصاريف عدة لكلمة : « دعوة » وبمعان متعددة ، غير أن مايجدر ذكره فى هذا المجال ثلاث ، لأن لها صلة بحديثنا :

المعنى الأول : العبادة ، كقوله تعالى : ﴿**ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم**﴾(٣٩٨) . أى ولاتسبوا الذين يعبدون غير الله فيسبوا الله .

الثانى : الطلب كقوله تعالى : ﴿**وإن تدعوهم إلى الهدى لايتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون**﴾(٣٩٩) . أى أن هذه الأصنام لاتسمع دعاء من دعاها ، وسواء لديها : من دعاها ومن دحاها ، لأنها لاتسمع ولاتبصر ، ولاتقدر على شيء على الاطلاق ، فكيف تلبى طلب الطالب ، أو تجيب دعاء الداعى .

الثالث : التبليغ . كقوله تعالى : ﴿**ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين**﴾(٤٠٠) . أى ومن أحسن ممن يبلغ رسالة الله إلى الناس ، فيدعوهم إلى عبادة ربهم .

وتدور هذه المعانى حول محور واحد وهو المعبود ، سواء كان ذلك من جانب الاعتقاد به ، أو رجائه والطلب منه ، أو الدعوة إليه ، لكن الذى سوف نركز عليه هو المعنى الثالث ، وهو الدعوة إليه . فمفهوم الدعوة : هو حث الناس على الخير الذى أمر الله به ، وإقناعهم بمبادىء الإسلام ، لأنها هى الطريق الذى يهدى الناس إلى مافيه

---

(٣٩٨) الأنعام ١٠٨
(٣٩٩) الأعراف ١٩٣
(٤٠٠) فصلت ٣٣

صلاحهم فى الدنيا وفلاحهم فى الآخرة . غير أن هذا الاستعمال لم يكن معروفا فى صدر الإسلام ، فقد استخدم المسلمون كلمات أخرى لتأدية هذا المفهوم وهى :

١ ــ الوعظ : وهو النصح بالخير على وجه يرق له قلب السامع ، وفى أسلوب يحمله على قبول الحق ، والعمل به . وقد عرفه بعض العلماء بأنه القول الحق الذى يلين القلوب ، ويؤثر فى النفوس ويكبح جماح النفوس المتمردة ، ويزيد النفوس المهذبة إيمانا وهداية .

٢ ــ التذكير : وهو تعريف الناس بنعم الله مع بيان وجوب قيام الإنسان بشكره تعالى على هذه النعم ، والتحذير من مخالفة أوامر الله ، تجنبا للعقاب ، فقد قال تعالى : **﴿وذكرهم بأيام الله﴾**(٤٠١) . وقال : **﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾**(٤٠٢) .

٣ ــ الارشاد : وهو هداية الناس إلى الصراط المستقيم ، وذلك بتبصيرهم بما يجب عليهم عمله فى مجال العبادات والمعاملات ، وحثهم على فعل الخير فى مجالات السلوك والعلاقات الاجتماعية .

٤ ــ البشارة : وهى الإخبار بما يدخل السرور والانشراح فى الصدور ، يقول تعالى : **﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ، وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾**(٤٠٣) .
وقال رسول الله ﷺ : **«بشروا ولا تنفروا»** .

٥ ــ الترغيب : وهو إخبار الناس بالجزاء الذى أعد لهم يوم القيامة ، إن هم التزموا أوامر الله ، واجتنبوا نواهيه ، ويدخل فيه أيضا : إقناعهم بأن الله سيسهل لهم أمور الحياة لو ساروا على طريقه ، وطبقوا تعاليمه .

٦ ــ الترهيب : وهو بيان ماأعد الله للعصاة من عقاب ، لزجر الناس عن ارتكاب المعاصى ، فإنه تعالى حذر عباده من معصيته ، وضرب الأمثال لهم بما فعله بالعصاة فقال تعالى : **﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم اجمعين﴾**(٤٠٤) ، وقال : **﴿فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾**(٤٠٥) .

---

(٤٠١) إبراهيم ٥
(٤٠٢) الزاريات ٥٥
(٤٠٣) الزمر ١٧
(٤٠٤) الزخرف ٥٥
(٤٠٥) الأعراف ١٦٦

ولاتخرج كلمة « الحسبة » عن هذه المعانى المتعلقة بالدعوة إلى الله والنهى عما يغضبه ، إذ هى مراقبة الناس فى أقوالهم وأفعالهم ، والأخذ بيد كل من يرتكب إثما ، أو يعمل عملا خارجا عن حدود الله ، فالمحتسب : هو من يقوم بالرقابة على أنشطة الناس ، وخاصة فى الأسواق ، إذ اشتهر عمله فى مراقبة الموازين والمكاييل وأسعار السلع . بحيث لايتعدى أحد على حدود الله فيها .

استعمل المسلمون هذه المصطلحات فى مجال الدعوة إلى الله ولذلك أطلقوا على من يعمل فى هذا المجال : واعظ ، وهو الذى يعظ الناس ويدعوهم باللطف والعطف ، ولم يخصص ولى الأمر أحدا لهذا العمل ، بل كان واجب كل مسلم ومسلمة ، انطلاقا من مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الذى كلف الله به كل الناس ، فعن رسول الله ﷺ أنه قال : **«لتأمرن بالمعروف أو لتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم ، ومن رأى منكم منكرا فليغيره ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»** .

أما عمل المحتسب فلا يقوم به أحد إلا بتكليف من ولى الأمر ، لأن عمله أقرب إلى عمل الشرطى منه إلى الواعظ ، إذ أنه يراقب الأحكام والأوامر بإذن من الوالى فهو معاون له وللقاضى فى تنفيذ مايقرره الوالى ومايقضى به القاضى .

ثقافة الداعية

اختلفت مهمة الواعظ عما ينبغى أن يؤديه المحتسب ، إذ المحتسب موظف لدى الحاكم ، ينفذ مايصدر إليه من أوامر ، ويراقب الناس فى تنفيذ القوانين والأحكام ، أما الواعظ فلم يكن فى صدر الإسلام موظفا يأتمر بأوامر السلطة التنفيذية ، أو يتبع سلطة القضاة ، بل كان عمله حرا نابعا من شعوره بتأدية ماأمر الله به فى مجال الدعوة إلى دينه لحمل الناس على اعتناق الإسلام ، أو لهداية المسلمين إلى أحكام دين الله ، ولذا كان عمله تفسيرا لكتاب الله ، واستنباطا للأحكام الشرعية من القرآن والسنة ، وترغيبا للناس فى اتباع طريق الهدى ، وتنفيرا لهم من طريق الشيطان . فهو يترسم خطى رسول الله ﷺ فى تبليغ الناس دعوة الله ، تنفيذا لأمره فى قوله تعالى : **﴿ولتكن منك أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾**(٤٠٦) . وتطبيقا لأمر الله رسوله فى قوله

---

(٤٠٦) آل عمران ١٠٤

تعالى : **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾**(*) .

فالداعية : مُبلِّغ دعوة الله للناس كافة ، ومُفسِّر لكتابه ، ومُوضِّح لحديث رسوله ﷺ وشارح سنته ، وعليه فيجب أن يتبع المنهج الذى رسمته الآية الكريمة ، فيخاطب الكفار بالأسلوب العقلى ، ويمحو أمية المسلمين ، ويبعث فيهم روح العقيدة ، ويقوى لديهم عاطفة الإيمان بالموعظة الحسنة . أما أولئك الذين تنكبوا الطريق فضلوا عن سبيل الله ، وحاولوا إضلال غيرهم ، فيجب على الدعاة أن يجادلوهم بالتى هى أحسن ، فإن كانت الظروف تقتضى الاستشهاد بأحداث التاريخ ، وماجرى بين الأنبياء السابقين وأقوامهم ، فيجب عليهم سلوك هذا المنهج مع هؤلاء المنكرين ، وإن اضطروا لاستخدام أسلوب آخر فعليهم استخدامه ، لأن الآية تركت لهم تقدير مايتناسب مع الظروف والأحوال ، حين أمرتهم أن يجادلوا بالتى هى أحسن .

ولما كانت الآية قد رسمت للدعوة ثلاثة مناهج هى :

١ ــ المنطق والعقل .

٢ ــ الموعظة الحسنة . ويتحقق ذلك بشرح كتاب الله وسنة رسوله .

٣ ــ المجادلة ، وهى محاورة الخصم بما يتناسب مع الظروف والأحوال .

وجب أن تكون ثقافة الداعية على نحو يؤهله للقيام بهذه المهمة على أكمل وجه فدعوة غير المسلمين إلى الإسلام تقتضى أن يكون الداعية ملما بثقافة من يدعوهم ، مدركا لأساليب تفكيرهم ، محيطا بتقاليدهم وعاداتهم ، متقنا للتيارات الفكرية المعاصرة ، كما أن من الضرورات أن يلم الداعية بعلم النفس ، كى يقف على أسباب معارضة من يعارضه من الجانب النفسى ، لأن من لايعرف تقلبات النفس وهواها لايحسن دعوتها إلى الخير . وقد كان الدعاة الأول على قدر كبير ــ بفطرتهم ــ من علم النفس ، وإن لم يتدارسوه ، فإنهم كانوا بسلامة فطرتهم ، وذكاء قريحتهم ، وبما هداهم القرآن الكريم بآياته والرسول ببيانه وبصيرته ، قادرين على إقناع الناس بالإسلام ، فدخلت شعوب عديدة إلى الإسلام بفضل مجهودهم فى مجال الدعوة ، وهدى الله على أيديهم كثيرا ممن عاندوا وكابروا ، وذلك بسبب ماآتاهم الله من قوة فى الجدل ، وفصاحة فى البيان . فلو أراد الدعاة المعاصرون نجاحا مثل هذا النجاح ، أو مقاربا له ، فإن عليهم دراسة :

ــ التاريخ ، ليقفوا على أسباب ومصادر الفساد فى العقائد والأخلاق والعبادات فيبنوا دعوتهم على أساس سليم .

(*) النحل ١٢٥

ـــ علم النفس ، ليتمكنوا من مخاطبة جميع الطبقات البشرية بالأسلوب الملائم لهم .
ـــ علم الشعوب والأقوام ، ليعدوا لكل بلد عدته حين يوجهون الدعوة إلى سكانه .
ـــ علم الأخلاق ، ليقفوا على الفضائل النفسية ، وكيفية تربية المرء عليها ، ويعرفوا نقائص النفس وطرق الوقاية منها ، وهذا من أكثر العلوم لزوما للدعاة ، كى يستطيعوا معالجة النفس وتهذيبها .
ـــ الملل والنحل ، ليتيسر لهم بيان مافيها من باطل ، لأنهم إن عجزوا عن بيان ذلك لمن يدعوهم إلى الإسلام ، فلن يجدوا آذانا تصغى إلى مايقولونه عن الإسلام .
ـــ العلم بلغات من يوجهون الدعوة لهم ، فقد ورد أن الرسول ﷺ أمر بعض الصحابة بتعلم اللغة العبرية لأجل اليهود ، الذين كانوا مجاورين فى المدينة ، لأن معرفة لغة المدعوين تحدث من التأثيرمالا يتحقق عند عدم معرفة اللغة ، ويجب أن يكون معرفتها بدرجة ممتازة ، لأن ضعف لغة المتحدث تعكس آثارا سلبية على حجة الداعية .
ـــ علم الاجتماع ، ليعرفوا أحوال الأمم ، ويقفوا على أسباب ضعفها وقوتها ، وتأخرها وتقدمها ، إذ يلزم أن يكون الداعية عالما بأحوال الناس ، خبيرا بأمراض الاجتماع ليدعو ويرشد كل فريق بما يناسبه ، فإن كان يجهل أحوال الناس وعللهم أخطأ كثيرا فى إصلاح القلوب وعلاج النفوس ، وكان كمتطبب جرب دواء فى مرض خاص فنجح فصار يصف ذلك الدواء بعينه لكل مريض ، وخطر ذلك على الأبدان جسيم ، فكذا على القلوب .

فإذا كان المجتمع الإسلامى هو مجال الداعية ، فبضاعته شرح الكتاب والسنة لبيان مايجب على المسلمين عمله فى مجال العبادات والمعاملات ، وعند الاقتضاء يوضح لهم قضايا التوحيد من الكتاب والسنة ، بعيدا عن آراء المتكلمين وخلافات أصحاب المذاهب من فقهاء ومحدثين . فالداعية بين المسلمين معلم لهم ، ولذا يجب عليه معرفة العلوم الدينية ، فيلم بآيات التوحيد فى القرآن الكريم ، ويقف على أحاديث الرسول ﷺ التى تساعده على شرح أسرارها ، وبيان دقائقها كما ينبغى أن يكون على دراية باستخدام الأساليب العقلية فى الاستشهاد بالآيات الكونية الدالة على وحدانية الله ، وتفرده بالسلطة والهيمنة على مايقع فى الكون كله .

وفى مجال العبادات ، لابد له من دراسة الفقه وأصوله ، ليتمكن من بيان أحكامها للناس ، حتى يسهم فى إزالة أميتهم الدينية ، ومما لاشك فيه أن هذا هو المجال الرئيسى للداعية بين المسلمين ، إذ أن أكثر اهتماماتهم فى المجال الدينى هو معرفة : أحكام الطهارة ،

وكيفية أداء الصلاة ، وأحكام الصيام وآدابه ونصاب الزكاة ومصارفها ، وأركان الحج وواجباته ، كما أنهم كثيرا مايستفسرون عن شرع الله وحكمه فى الزواج والطلاق والميراث ، ويسألون عن الحلال والحرام فى المعاملات بجميع أنواعها ، كما يحرصون على الوصول إلى القول الفصل فيما يثار حول الحدود من شبهات وكلما كان الداعية أرسخ قدما فى مجال المسائل الفقهية ، وأكثر إحاطة بأحكام الكتاب والسنة كلما كان أقدر على القيام بمهمة الدعوة فى المجتمع الإسلامى ، ولذا ينبغى على معاهد الدعوة التركيز على تعليم المنتسبين إليها من العلوم الشرعية ، مايؤهلهم للقيام بمهمتهم على أكمل وجه ، فيدرسون لهم من الفقه مايمكنهم من التصدى للفتيا ، ومن التفسير مايعينهم على معرفة أحكام الله ، كما يجب عليهم دراسة التاريخ الاسلامى والسيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين وغيرهم من عظماء الأمة الإسلامية ، كى يقفوا على سر نبوغهم وأسباب قدرتهم على ماأجزلوا من عطاء للمجتمع الإسلامى ، حتى يكون ذلك نبراسا لهم ولغيرهم ، ومادة يستعينون بها فى مجال الدعوة .

فمهمة الواعظ من أكبر المهمات ، ووظيفته من أعظم الوظائف ، ومركز الداعية فى الأمة لايقل أهمية عن مركز القواد المجاهدين ، والعظماء العاملين ، فكما أن نجاح القائد يتوقف على درجة إعداده ، ومدى إمكاناته فى مجال التخطيط والتدبير ، وبعد النظر وأصالة الرأى ، فكذلك نجاح الداعية ، يتوقف على تمكنه من العلوم الشرعية ، والاخلاق الدينية ، وعلى مدى معرفته بعلوم الاجتماع والعلوم الكونية ، ومدى إمكاناته فى ربط ماورد فى القرآن الكريم من مظاهر الكون وآياته بما لدى المتخصصين فى هذا المجال من نظريات وآراء ، لأن جهل الواعظ بهذه الأمور الأولية ، يجعله عاجزا عن تفسير ماجاء فى القرآن الكريم من آيات كونية على وجه لايتنافى مع المسلمات فى هذا المجال.ومما لاشك فيه أن ظهور جهل الداعية بأمور يعلمها صغار التلاميذ يعطى الفرصة للمتندرين بالواعظ ، والجاحدين لآيات الله للاستهزاء به ، فتضعف ثقة الناس فى كلامه ، فلا يصدقون مايقوله ، وبالتالى لايذعنون لما يأمرهم به ، فيصير بذلك أداة تنفير من تعاليم الإسلام ، بدل أن يكون عمله عاملا من عوامل الترغيب فى تنفيذ أحكام الله .

وجملة القول إنه يجب على الداعية ــ أو الواعظ حسب الاصطلاح المستخدم ــ أن يدرس الفقه دراسة عميقه ، وأن يعرف فقه الكتاب والسنة ، وأن يلم بالسيرة النبوية والتاريخ الإسلامى ، كما يجب أن يعرف مبادىء علم الاجتماع ، وعلوم الكون ، كى يؤدى مهمته على أكمل وجه ، وإلا طاشت كلماته ، وضلت توجيهاته ، وصار أضحوكة يتندر به المتفكهون ، ويستشهد بعجزه المنحرفون وأعداء الإسلام

أثبتت دراسة التاريخ أن كل مجتمع بشرى يضم بين جنباته اتجاهات فكرية متعددة ، تتراوح فى مضمونها وأهدافها بين أقصى اليمين وأقصى اليسار ، ولذلك كان رد الفعل لكل دعوة متفاوتا ، فمنهم من يؤمن بها بمجرد سماعه نداء صاحبها ، ومنهم من يتردد فترة من الزمن . وتختلف فترة التردد من شخص لآخر نظرا لتركيبته الفكرية والثقافية ، والظروف الاجتماعية والبيئية ، أو لمدى اقتناعه بدين آبائه وأجداده ، وطبيعة هذا الدين من ناحية معطياته لمتطلبات الحياة المختلفة .

ولقد أخذت المحاورات مع هذا الصنف المتردد وقتا كبيرا من زمن الدعاة ، واحتلت مساحات كبيرة من صفحات الدعوة ، إذ كلما كان المدعوون ملتصقين بماضيهم ، ومستعبدين لعاداتهم البالية ، وتقاليدهم المستهجنة كلما امتد الجدل وأخذ صورا متعددة ، وألوانا مختلفة من الحوار والمناورة . وتنبئنا أخبار الدعاة المسجلة فى صفحات التاريخ أن أطول حوار وأقساه كان مع المعاندين الذين استولت أفكار الماضى على عقولهم ، وتمكنت عقائد الآباء من أفئدتهم وأرواحهم ، ولهذا رأينا الأنبياء يسلكون معهم كل طريق يؤدى إلى إقناعهم ، وحملهم على عبادة الله ، وترك ضلالاتهم . ومن أمثلة ذلك ماحدثنا القرآن الكريم عن حوار إبراهيم مع قومه حول عبادة الأصنام ، يقول تعالى : ﴿**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين * قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين * قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلك من الشاهدين * وتالله لأكيدن اصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون * قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم * قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون * قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون * قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولايضركم * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون**﴾[٤٠٧] .

(٤٠٧) الأنبياء ٥١ — ٦٧

كما يحكى القرآن الكريم صورة أخرى من صور حواره مع المشركين ، فيقول تعالى :

﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين * وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لاأحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين * وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولاأخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ماأشركتم ولاتخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾(٤٠٨) .

تعددت صور الجدل والمحاورة مع من يصر على عدم الإيمان ، ويحاول بضلالاته أن يوقف زحف الدعوة الجديدة فى المجتمع . وماضرب القرآن الكريم هذه الأمثال إلا لتسليه الرسول ﷺ ، وإدخال الطمأنينة فى قلبه ، ذلك أنه بين له فيها أنه مهما أوذى الرسل وعورضوا ، فإن النصر سيكون لهم ، سواء فى مجال الجدل الكلامى ، أو فى صراع القوى فى ساحة القتال ، ولما كانت المجتمعات الانسانية متشابهة فى هذا المجال ، إذ لايختلف قديمها عن حديثها ، ولا يتمايز متحضرها عن بدائيها ، كان من المؤكد أن يظهر فى كل عصر معارضون للدين ، ومناوئون لدعاته ، يبثون أفكارهم فى المجتمع ، مستخدمين شتى الطرق للتشويش على أصوات الدعاة ، وتشويه صورتهم أمام الشباب فإذا لم يكن الدعاة مسلحين للمواجهة معهم خسروا المعركة وباءوا بالخيبة والخسران .

وهذا هو المجال الثالث الذى يجب أن يتسلح له الداعية ، وإلا نزل إلى المعركة خاويا ، فيتخذ المناوئون جهله مادة لتقوية ادعائهم ، ودليلا على قوة حجتهم ، ولهذا كان على الدعاة أن يدرسوا التيارات الفكرية المعاصرة ، ويقفوا على دقائقها ويعرفوا كلياتها وجزئياتها ، فيدرسوا الاتجاهات الفلسفية ، ويعرفوا النظريات الاجتماعية والتربوية ، ويلموا بالمذاهب الاقتصادية ، لكى يجادلوا كلا بما عنده ، تحقيقا لقوله تعالى : **﴿وجادلهم بالتى هى أحسن﴾**(٤٠٩) .

---

(٤٠٨) الأنعام ٧٤ — ٨١

(٤٠٩) النحل ١٢٥

وقد تأخذ المجادلة بالحسنى صورة أخرى وذلك فى حال الاضطرار إلى الدفاع عن الإسلام بالقوة ، وسوف نبين ذلك فيما بعد عند الحديث عما يجب على كل مسلم ــ أيا كانت ثقافته ، وأينما كان مركز نشاطه فى المجتمع ــ فى مجال الدعوة .

فى مجالى المعروف والمنكر

اتفق الباحثون على تقسيم الأديان من حيث نشاط الأتباع فى مجال الدعوة إليها إلى قسمين : قسم انطوى أتباعه على أنفسهم ، فهم لايدعون غيرهم إلى الدخول فى عقيدتهم ، انطلاقا من أنه خاص بهم لايشاركهم فيه أحد ، فهم لايسعون إلى اقناع الآخرين بعقيدتهم ، بل إنهم يرفضون دخول أحد فى دينهم . وقد أطلق علماء الأديان على مثل هذه العقيدة : دين غير مختص ــ ويقصدون بذلك أنه غير مختص برسالة يقوم أتباعه على نشرها بين البشر ــ كاليهودية ، والبرهمية ، والزرادشتية .

أما القسم الآخر ، وهو ماجاء فى نصوصه المقدسة مايدعو أتباعه إلى العمل على نشره بين الناس ، فيطلق علماء الأديان عليه : دين مختص برسالة ، أى أن أتباعه مكلفون بنشر رسالتهم الدينية بين الناس ، وذكروا أن من هذا القسم : البوذية والمسيحية والإسلام . وقد وضح ماكس موللر المقصود بدين الرسالة بقوله : «إنه الدين الذى يسمو فيه نشر الحق وهداية الكفار إلى واجب مقدس ، على يد مؤسس الدين ، أو خلفائه من بعده .. إنها روح الحق فى قلوب المؤمنين التى لاتستقر حتى تتجلى فى الفكر والقول والعمل ، ولا تقنع حتى تؤدى رسالتها إلى كل نفس إنسانية ، وتعترف أفراد الجماعة الإنسانية بما تعتقد أنه الحق» .

وإذا كانت البوذية والمسيحية قد شاركتا الإسلام فى هذا المجال ، إلا أن هذه المشاركة جاءت اعتمادا على نص أو نصين من نصوصهما «المقدسة» ، أى أنها مشاركة واهية ، لأن الدعوة إلى الإسلام هى من صميم العقيدة الإسلامية ، فهى فرض على كل مسلم ومسلمة ، يدل على ذلك أن الآيات القرآنية التى حثت المسلم على الدعوة إلى الله كثيرة كثرة لايدانى القرآن الكريم فيها النصوص «المقدسة» لهذين الدينين ، فقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلم فى كثير من الآيات بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقال تعالى : **﴿ولتكن منك أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم**

المفلحون﴾[٤١٠] . وقال : **﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين﴾**[٤١١] . وقال : **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة﴾**[٤١٢] ، بل إنه بين للمؤمنين أن من لم يقم بهذا الواجب سوف تصبّ عليه لعنات الله ، كما حدث لبنى إسرائيل عندما أهملوا هذا الواجب ، فقال تعالى : **﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون﴾**[٤١٣] .

كما بين للمسلمين أنهم ماكانوا خير الأمم على وجه الأرض إلا بما يبذلون من جهد فى مجال الدعوة إلى الله ، فقال تعالى : **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾**[٤١٤] ، فمن واجباتهم الدينية فى هذه الحياة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مااستطاعوا إلى ذلك سبيلا ، يقول تعالى : **﴿الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾**[٤١٥] .

ومما يدل على أهمية هذا الواجب أن الله جعله أفضل من العبادة ، بل إنه ربط حصول العابد على ثواب عبادته من الله بإيجابيته فى مجال الخير الاجتماعى ، فقال تعالى : **﴿لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء وجه الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾**[٤١٦] . كما فرض على المسلمين أن يصلحوا بين المتخاصمين فى قوله تعالى : **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾**[٤١٧] ، وهذا العمل هو من صميم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ويتضح من هذا أن الدعوة إلى الله ركن أساسى فى الإسلام ، لايتقاعس عنه ، ولا يهمل فى أدائه إلا من ضعف الإيمان فى قلبه من جراء الاستغراق فى بحار المادة التى تبعده

---

(٤١٠) آل عمران ١٠٤
(٤١١) آل عمران ١١٣ ــ ١١٤
(٤١٢) التوبة ٧١
(٤١٣) المائدة ٧٨ ــ ٧٩
(٤١٤) آل عمران ١١٠
(٤١٥) الحج ٤١
(٤١٦) النساء ١١٤
(٤١٧) الحجرات ٩

أمواجها عن شاطىء الأمان : ﴿**ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين**﴾ .

وقد وردت أحاديث عدة تؤكد ماجاء فى القرآن الكريم من وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتحذر المسلمين من الإهمال فى هذا الواجب فى حياتهم ، فقد روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال فى خطبة خطبها : « أيها الناس ، إنكم تقرءون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها » : ﴿**ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾(٤١٨) ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **مامن قوم عملوا بالمعاصى ، وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده** » . وروى عن أبى ثعلبة الخشنى أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى : ﴿**لايضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾ فقال : « **ياأبا ثعلبة ، مر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فإذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بنفسك ، ودع عنك العوام** » .

وجاء فى السنة مايفيد أن النكبات تنزل بكل قوم تنكروا لهذا المبدأ الإسلامى وأهملوه ، فقد قال ﷺ : « **لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم** » .

كما ورد أن أعمال الخير كلها تتضاءل أمام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال : « **ماأعمال البر عند الجهاد فى سبيل الله إلا كنفثة فى بحر لجى ، وماجميع أعمال البر والجهاد فى سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا كنفثة فى بحر لجى** » ، وقال أبو عبيدة بن الجراح قلت يارسول الله ، أى الشهداء أكرم على الله عز وجل ؟ قال : « **رجل قام إلى وال جائر ، فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله ، فإن لم يقتله ، فإن القلم لايجرى عليه بعد ذلك ، وإن عاش ماعاش** » ، وقال الحسن البصرى : قال رسول الله ﷺ : « **أفضل شهداء أمتى رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك ، فذلك الشهيد ، منزلته فى الجنة بين حمزه وجعفر** » .

ولعظم مكانة هذا العمل وسمو منزله بين جميع أنشطة الإنسان فى حياته ، يعفو الله عما يرتكب فى سبيله من هنات ، فقد قال رسول الله ﷺ : « **إياكم والجلوس على**

---

(٤١٨) المائدة ١٠٥

الطرقات» . قالوا : مالنا بد ، إنما هى مجالسنا نتحدث فيها . قال : **«فإذا أبيتم إلا ذلك ، فاعطوا الطريق حقها»** قالوا : وماحق الطريق ؟ قال : **«غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»** .

تجاوب المسلمون مع ماأمر به القرآن الكريم ، وأكدته الأحاديث النبوية فحملوا عقيدتهم ، وانطلقوا بها إلى آفاق الأرض يدعون إلى الله ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فامتد نشاطهم من شمال الأرض إلى جنوبها ، ومن شرقها إلى غربها ، حتى وصلت طوائف الدعاة إلى الصين وروسيا ، ونشطوا فى دعوة الناس إلى الله ، فدخل خلق كثير فى دين الله ، وأصبحنا نرى مسلمين فى كل مكان من سطح الكرة الأرضية ، حتى أصبح للإسلام أتباع فى أمريكا ، واستراليا ، واليابان ، وسيبيريا وفى معظم الجزر المنتشرة فى بحار ومحيطات العالم ، وماذلك إلا بجهود الدعاة وتفانيهم فى خدمة نشر الإسلام .

فإذا جاء التعبير فى القرآن الكريم عن وجوب الدعوة إلى الله واضحا ، فإن عمل الدعاة لايقل وضوحا عن امتثال المسلمين لأمر الله سبحانه وتعالى فى هذا المجال ، بل إنهم صبروا وصابروا فى عملهم تأسيا برسول الله ﷺ ، وترسما لخطاه فى دعوته إلى الله تحقيقا لقوله تعالى : ﴿**لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**﴾(٥) .

لقد ضربوا المثل الأعلى فى مجال الدعوة ، إذ وقفوا حياتهم عليها ، وضحوا بطيبات الحياة فى سبيلها ، وتنازلوا عن كثير من رفاهية العيش بغية الحصول على ثواب الله على عملهم فى مجال هو أشرف مجالات العمل الإنسانى ، إنه الدعوة إلى الله فهو عمل الأنبياء والمرسلين ، وماأسعد الإنسان عندما يشعر أنه يقوم بما قام به من اصطفاهم الله على العالمين ، فهم عند الله من الأخيار المقربين .

ولا يقتصر مفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الإسلام على خطبة تلقى على جماهير الناس ، أو درس يلقن لهم ، أو نصيحة تؤدى بين الحين والآخر ، بل يشمل المعروف كل قول ، أو فعل ينبغى قوله ، أو فعله ، طبقا لنصوص الشريعة الإسلامية ومبادئها العامة وروحها ، كالتخلق بالأخلاق الفاضلة ، والعفو عند المقدرة ، والإصلاح بين المتخاصمين ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، والإحسان إلى الفقراء والمساكين ، وإقامة المعاهد والملاجىء والمستشفيات ، ونصرة المظلوم ، والتسوية بين الخصوم فى الحكم ، والدعوة إلى الشورى ، والخضوع لرأى الجماعة ، وتنفيذ مشيئتها ، وصرف الأموال

العامة .. وغير ذلك من الأعمال التى تسهم فى خدمة الفرد والمجتمع ، بحيث تسير الحياة وفقا لنظام التشريع الإسلامى .

أما المنكر الذى يجب محاربته ، فهو كل معصية حرمتها الشريعة الإسلامية ، سواء وقعت من مكلف ، أو غير مكلف ، فمن رأى صبيا ، أو مجنونا يشرب خمرا ، فعليه أن يمنعه ويريق خمره ، ويتخذ من الإجراءات مايساعده على تأديبه وإبعاده عن معصية الله ، أما إذا كان مرتكب المعصية مكلفا، فينبغى زجره بما يتناسب مع الظروف، ونوع المعصية التى يرتكبها ، فقد يكون الزجر بالقول كالنهى عن شرب الخمر ، وقد يكون بالفعل كاراقة الخمر ، أو منع شاربها بالقوة ، أو اتخاذ الإجراءات القانونية لعقابه . فإذا كان قولا فهو النهى عن المنكر ، وإذا كان عملا فهو تغيير المنكر ، وإذا انتقل إلى مرحلة تنفيذ العقوبة الشرعية فى مرتكب المنكر كان حماية ووقاية للمجتمع .

ولذا فليس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عمل فرد بعينه ، أو وظيفة طبقة معينة فى المجتمع ، بل كل مسلم مكلف بالقيام بهذا العمل ، مهما كان وضعه فى المجتمع ، فالحكومه تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، والجماعات تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، والأفراد يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وبذلك يستقر أمر الخير بين الجماعة ويقضى على المنكر والفساد بتعاون الصغير والكبير والحاكم والمحكوم .

غير أن كل فرد مطالب بهذا الأمر على قدر استطاعته . وفى حدود إمكانات وضعه فى المجتمع ، فالعالم مجاله : القول والنصيحة . وتعليم الناس ماعليهم من فروض وواجبات ، والحاكم عليه أن يأخذ على أيدى المخالفين لأمر الله ، وذلك بما لديه من قوة تنفيذ الأحكام . وماعداهما ينصح بالقول فيما يستطيع النصح فيه بالاضافة إلى أن على كل مسلم — عالم أو جاهل ، راعى أو من الرعية — أن يكون فى عمله وسلوكه دعوة إلى الله ، وذلك بالتزامه بالعمل الطيب ، وتجنبه كل ماينكره العقل ، وتنهى عنه الشريعة .

وعلى الرغم من أن الدعوة إلى الله — أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — واجب على كل مسلم ، إلا أن الفقهاء اشترطوا فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون مكلفا ، أى مدركا مختارا ، وأن يكون مؤمنا بالدين الإسلامى ، فالمسلم وحده هو الذى يقع على عاتقه واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أما غير المسلم فلا يلتزم بهذا الواجب .

وقد روعى اشتراط هذا الشرط ترك الحرية التامة لغير المسلم فى أن يعتقد ما شاء

وحمايته من الاكراه على اعتناق مايخالف عقيدته ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يدخل فيه الأمر بكل ماأوجبت الشريعة عمله ، أو حببت للناس فعله من صلاة وصيام وحج وتوحيد وغير ذلك ، والنهى عن المنكر يدخل فيه النهى عن كل ماخالف الشريعة من أفعال وعقائد ، فيدخل فيه النهى عن التثليث وعن القول بصلب المسيح وقتله ويدخل فيه النهى عن الترهب وعن شرب الخمر ، وعن أكل لحم الخنزير ، وغير ذلك مما تخالف فيه الشريعة الإسلامية الأديان الأخرى ، فلو ألزم غير المسلم بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لألزم بأن يقول بما يقول به المسلم ، وبأن يعتقد مايعتقده المسلم ، ولألزم بأن يبطل عقيدته الدينية ويظهر عقيدة الإسلام ، وهذا هو الإكراه فى الدين الذى تحرمه الشريعة الإسلامية فى قوله تعالى : ﴿**لا إكراه فى الدين**﴾ ، فمن أجل حماية حرية العقيدة جعل هذا الواجب على المسلم دون غيره .

ولا يطلب من المسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا إذا كان قادرا على التأثير فى هذا الميدان فإن عجز فليس عليه سوى الانكار بالقلب ، أى أن ينكر المعاصى ، ويستنكر سلوك الأشرار والمفسدين فى الأرض ، ولا يقيم أى علاقة مع من يعيث فى الأرض فسادا ، أو يساعد على ارتكاب المعاصى .

ولا يسقط عن المسلم واجب الدعوة إلى الله بسبب العجز الحسى فقط ، بل كل مايمكن أن يلحق به ضرر يسقط عنه هذا الواجب ، فلو خاف من بطش حاكم ، أو إيذاء متجبر فى الأرض ، وكان متأكدا من البطش الذى يؤدى إلى هلاكه سقط عنه الوجوب ، كذلك من تأكد من أن أمره ، أو نهيه لن ينفع ، وأنه سيضرب إذا تكلم ، لم يجب عليه أمر أو نهى . وعليه أن يكره المعصية فقط ، وينكرها بقلبه ، ويقاطع فاعليها وأن لايحضر مواضع المعاصى والمناكر .

ومن علم أن نهيه ــ إذا نهى عن منكر ــ سيؤدى إلى إزالته ، أو إلى أن يزول ويخلفه ماهو أقل منه رتبة ، فقد وجب عليه النهى عن المنكر ، أما إذا تأكد أن نهيه عن المنكر سيؤدى إلى منكر آخر فى نفس درجته ، فهو بالخيار ، إن شاء منع المنكر ونهى عنه ، وإن شاء تركه بحسب مايؤديه إليه اجتهاده ، أما إذا علم أن إزالته المنكر ستؤدى إلى ماهو أشر منه ، فقد سقط عنه الواجب ، بل حرم عليه النهى . ومن أمثلة ذلك لو رأى شخصا يشرب شرابا حلالا ، لكنه نجس بسبب وقوع نجاسة فيه ، فالمفروض أنه ينهاه من تناول هذا الشراب ؛ لكنه لو علم أن هذا الشخص ، لو امتنع عن تناول الشراب النجس سوف

ينصرف إلى شرب الخمر فلا فائدة فى منعه من شرب النجس وإراقته ، لأنه سيترتب عليه ارتكاب معصية أكبر وهى شرب الخمر . فقد روى أن ابن تيمية مر مع بعض أصحابه فى زمن التتار بقوم يشربون الخمر ، فأنكر عليهم أصحاب ابن تيمية شرب الخمر ، ولكن ابن تيمية أنكر على أصحابه قولهم ، وقال لهم : إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل النفوس ، وسبى الذرارى ، وأخذ أموال الناس ، فدعوهم وخمرهم .

وقد لايكون العجز راجعا إلى خوف من أذى ، أو خشية من رد فعل ، ذى آثار سيئة أشد وأكبر ، بل إلى عدم قدرة المسلم العلمية على مواجهة المنكر ، أو بيان الجوانب الإيجابية فى الإسلام فى مواجهة الأفكار الدخيلة ، فإن كان عاميا فلا يجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا فى المسائل المشهورة لدى العامة كشرب الخمر ، والزنا وترك الصلاة ، والسرقة .. وغيرها من الأمور التى لاتخفى على عوام المسلمين ، أما ماعدا ذلك فلا يجب على العامى التصدى للمخالفين والمفسدين خوفا من تضليل الناس بفتاوى لاأصل لها فى الشريعة الإسلامية .

أما المثقف ثقافةغير إسلامية ، فلا يخوض فى المسائل الدينية إلا فى حدود مااطلع عليه من كتب دينية ، أو ماوعته ذاكرته بصورة جيدة مما يسمعه من العلماء المتخصصين ، ولاينبغى أن يخوض فيما ليس له به علم بدافع الغيرة على الدين ، والحماس فى مجال الدعوة ، فقد يترتب على ذلك آثار تضر الدعوة أكثر مما تخدمها ، وخاصة فيما يتعلق بنظم الحياة الحديثة ، بما فيها من تعقيدات حضارية ، ومايطفو على سطحها من صور مستحدثه ، وأشكال متعددة فى شتى المجالات .

ولهذا يجب على الشباب الذى لم يتخصص فى العلوم الدينية ، أن يخدم دينه ، ويحمى عقيدته بالتفوق فى مجال تخصصه ، فإن كان مهندسا ، فما يقدمه للإسلام هو إتقانه لعمله وتفوقه فى ميدان الهندسة ، حتى لايحتاج المجتمع الإسلامى إلى طلب مساعدة من غير المسلمين فى هذا الميدان ، ومثل ذلك الطبيب ، والمحاسب والاقتصادى ، والمهندس الزراعى .. و .. و .. الخ فإن قوة المسلمين فى هذه الميادين تحميهم من الوقوع فى مجال التأثير بالأجانب الذين يستعينون بهم فى هذه المجالات التى أصبحت حيوية بالنسبة للحياة المعاصرة ، فإن أراد بعد ذلك أن يكون له نشاط فى مجال الدعوة إلى الله ، فليكن بسلوكه بين العاملين معه ، وأخلاقه مع المتعاملين فى حقله ، فإن لذلك صدى فى نفوسهم يفوق فى كثير من الأحيان تأثير خطب الوعاظ ، ودروس علماء الدين .

غيوم

يميل الإنسان بطبعه إلى أن يكون مركز اهتمام من حوله ، يرمقونه بأنظارهم تعجبا وانبهارا ، ويلتفون حوله إجلالا وإكبارا ، ويأتمرون بأمره تقربا واستحسانا ، ينسبون إليه من البطولات مايعزز مركزه بينهم ويعمق تأثيره فى أكبر دائرة من مجتمعهم ، ولذلك نرى كثيرا من الناس يسلكون كل طريق يعتقدون أنه يوصلهم إلى هذه المكانة بين الناس ، ويباشرون من الأنشطة الاجتماعية مايكسبون عن طريقها عواطف بنى وطنهم ويؤثرون على عقولهم وأفكارهم .

وتختلف المجالات فى المجتمعات الإنسانية — من ناحية التأثير على الناس — باختلاف ارتباط الناس بها ، فكلما كثر ارتباطهم بمجال ما ، كلما كان هذا المجال وسيلة من وسائل الوصول إلى قلوبهم وأفئدتهم ، فما عم تأثيره فاتصلت آثاره بجميع أفراد المجتمع ، كان أنسب وأصلح للوصول إلى المكانة المرموقة ، مما كان خاصا بطائفة دون أخرى من طوائف المجتمع ، لأن من يتناول العام فهو يخاطب كل فرد من أفراد الأمة ، أما من حصر نفسه فى مشكلة تهم طائفة معينة ، فإن تأثير نشاطه فيها لايتعدى من تهمهم هذه المشكلة . فإذا نظرنا من هذه الزاوية إلى اهتمامات الناس ، لوجدنا أن أكثر المسائل ارتباطا بهم : السياسة والدين ، إذ أن كل إنسان واقع تحت تأثير القرارات السياسية ، تصيبه نتائجها ، إن خيرا فخيرا ، وإن شرا فشرا ، وتتأثر حياته العملية والاقتصادية والاجتماعية بها ، سواء كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر ، إذ يتوقف نظام حياته على نوع وأسلوب النظام السياسى الذى يعيش تحت ظله ، ولذا فكل فرد فى المجتمع يهتم بهذا الجانب على تفاوت فيما بينهم .

ولهذا نجد أن كل من يتطلع إلى الوصول إلى مركز مرموق فى المجتمع ، بحيث يلتف الناس حوله — وكذلك من يسعى إلى السلطة والسلطان — يسير فى هذا الاتجاه فتراه يتحدث فى شتى الموضوعات التى لها صلة بالحكم ، من سياسة ، واقتصاد ومؤسسات دستورية ، وتنظيمات حزبيه .. و .. و .. وغير ذلك مما يضفى عليه هالة تجذب الناس إليه ، وتجمعهم حوله . ولما كان هذا المجال مغريا لجميع الناس ، فقد استخدمه كل من اشرأبت عنقه إلى كراسى الحكم ، وخاض فيه كل من رام مركزا بين أقرانه ومن هنا رأينا كثرة المتحدثين فى السياسة ، وسمعنا العديد من الآراء فى أكثر المشكلات تعقيدا ، حتى على من درسوا وتخصصوا فى هذا المجال .

فالحديث عن السياسة ، والفتوى فيها كلأ مباح لكل من يريد ، وساحة مفتوحة لكل مدع ، لافرق فى ذلك بين أمى جاهل ، ومتخصص بارع فى معرفة النظريات السياسية والمعطيات الدولية التى لها تأثير على مجرى الأحداث واتخاذ القرارات ، وتؤيد هذه الظاهرة صدق من قال : هناك مجالان يدعى كل واحد ــ سواء كان أميا أو أستاذا جامعيا ــ أنه خبير فيهما ، وهما: السياسة والدين . فكل انسان ــ إذ ماسنحت له فرصة ــ ينبرى فى الحديث عن الدين والسياسة ، حتى ولو كان لايعرف ألفها من بائها ، وماذاك إلا لأنهما مجالان يتعلقان بحياة كل إنسان ، فمن يريد كسب قاعدة جماهيرية عريضة فليشتغل بالسياسة أو بالدين .

فالدين هو المجال الثانى الذى يندفع كل الناس فى الحديث عنه ، لارغبة فى الوصول إلى مركز دنيوى مرموق ، ولكن إشباعا للعاطفة الدينية ، وإظهارا ــ أو تظاهرا ــ لمعالم التقوى ، فمن يتصدى للحديث عن المسائل الدينية فإنه ــ غالبا ــ ماتكون رغبته أن يعرف الناس عنه أنه حسن الصلة بالله ، فهو يحافظ على تأدية واجباته الدينية ، ويبتعد عن المحرمات التى وردت فى القرآن الكريم ، والحديث فى هذه الموضوعات تأكيد للناس بأنه متدين ورع ، ولذا يخوض فى المسائل الدينية ، وكثيرا مايفتى فى أدق المسائل ويجزم برأى فيما اختلف فيه الفقهاء ، مما يكون له تأثير سيء على سلوك الناس واتصالهم بالجانب الدينى . ومن معالم هذه الظاهرة مانراه ونسمعه من شباب لا صله لهم بالدراسات الدينية ، إذ ينشرون من الآراء والتعاليم باسم الإسلام ماهو بعيد عن روح الإسلام وتعاليمه ، فهم يظنون أنهم يؤدون بذلك خدمة للدعوة الإسلامية ، وفى حقيقة الأمر يصورون الإسلام بصورة تنفر كثيراً من المجتمعات والأفراد من الدين ، مما يجعل سلوكهم وسيلة للتنفير من الإسلام ، لا أسلوبا للدعوة إلى الله ، وماذاك إلا لأنهم عاجزون عن فهم حقائق الدين وفقهه . ولذا ينبغى عدم السماح لهم بالخوض فى تفسير النصوص الدينية ، لأن مايترتب على خوضهم فيما لاعلم لهم به من فساد لايتناسب مع مايحدثونه من تأثير روحى فى المجتمع ، فهم يفسدون أكثر مما يصلحون .

فإذا جاز لكل إنسان أن يتحدث فى السياسة ــ لأنه ليس هناك قانون يحرم ذلك ــ فإنه لايجوز دينيا أن يتحدث إنسان فى الدين بما لاعلم له به ، لأن ذلك يوقعه فى دائرة عقاب الله ، فقد ورد فى القرآن الكريم مايحرم على المتدين أن يخوض فى المجالات التى يجهلها ، فإن كان ولابد ، فيجب أن يلتزم الإنسان بالصدق فيما يتحدث به ، ولا يدلى برأى إلا فيما يعلم ، يقول تعالى : ﴿**ومايتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لايغنى من الحق**

شيئا﴾(*) ، ويقول : **﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾**(**) ، ويقول : **﴿اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾**(***) ، ويقول : **﴿ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾**(*) .

فمسئولية المسلم عن كل مايتحدث به فى المسائل الدينية كبيرة ، لأن الخطأ فيها ليس كالخطأ فى مجال السياسة ، فلو كان هناك مجال فى السياسة لتلافى الأخطاء ، أو لفقدان مايظهر خطأ الحديث فيها بشكل واضح ، أو غياب الضمير الذى يؤنب صاحبه عندما يتبين أنه وقع فى الخطأ ، فإن الأخطاء فى مجال الدين تختلف عن ذلك ، إذ يشعر المرء فى المسائل الدينية بحرج كبير ، وتأنيب الضمير ، لو ظهر له أنه أدلى برأى لايتفق وتعاليم الإسلام ، لأن مكانة العقيدة فى نفسه تدفعه إلى الحرص على عدم مساسها بسوء من أى نوع ، وهى نفسها التى دفعته إلى محاولة الحديث فيها ، ظنا منه أنه يتقرب إلى الله بذلك .

ومن هنا ينبغى على المسلم ألا ينساق وراء عواطفه فيتحدث فى المسائل الدينية بمالا علم له فيه ، حتى لايقع فريسة تأنيب الضمير عندما يظهر له خطأه ، وليكرس تلك القوة الناشئة من غيرته الدينية فى تقديم خدمات للإسلام فى مجال عمله ، تاركا الحديث عن العقيدة والشريعة بفروعها وتفصيلاتها إلى المتخصصين الذين يحسنون القول فيها ، بما حصلوه من علم فى فقه الكتاب والسنة .

فلو كان وضع الإنسان فى هذه الحياة يسمح له بالصولان والجولان فى عالم السياسة ، فينبغى أن يكبح جماح نفسه ، فلا يطلق عنان القول فى مجال الدين إلا إذا كان على علم وبينة بما يقول .

وعليه فليس هناك من يجوز له ممارسة الوعظ والإرشاد إلا المؤهل علميا لهذه المهمة ، ومن هنا يمكن أن يفهم المرء مااشترطه بعض الفقهاء فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، مِنْ أن يأذن له الإمام أو الحاكم بذلك ، فقد استندوا فى هذا إلى أن الإمام يستطيع اختيار من يحسن القيام بهذه الوظيفة ، ويقصدون بذلك أنه سوف يعهد بهذا الأمر إلى المؤهل علميا ، حتى لايحدث مايؤدى إلى الفساد والفتن بدخول غير المؤهلين إلى هذا الميدان ، لأنهم سوف يشيعون — بجهلهم الأحكام — البلبلة بين الناس ، ويبذرون بذور الحيرة فى قلوبهم بتضارب أقوالهم تضاربا لايستند إلى دليل ، ولا توجهه حكمة ، أو توضحه مصلحة حياتية أو عقدية .

فإطلاق حرية الحديث لكل الناس فى المجال الدينى له عواقب سيئة فى حقل الدعوة إلى

الله ، فهو وإن كانت له آثار طيبة من بعض النواحي في المجتمع ، إلا أن ماينتج عنه من غيوم تحجب سماحة الإسلام ، وتخفى عن أنظار غير المسلمين — وكثير من المسلمين أيضا — فاعليته فى مجالات العلوم الحديثة ، وإمكانات إسهام من يتمسك به فى بناء الحضارة المعاصرة بجميع فروعها ، مما يثقل كاهل الدعاة فى مواجهة التيارات الفكرية المعادية للإسلام .

سلوك الداعية

يرى جمهرة الفقهاء أن عمل الداعية لايتوقف على إذن من الوالى أو الحاكم ، بل يجب على كل من يجد فى نفسه القدرة على القيام بهذه المهمة بالصورة التى تخدم الإسلام فعليه القيام بالدعوة إلى الله ، دون أن يؤذن له من شخص أو هيئة ما ، لأن النصوص التى وردت فى القرآن الكريم عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر توجب على كل مسلم القيام بهذا الأمر مادام قادرا علميا وبيئيا ونفسيا . بل إن تعاليم الإسلام تفيد بأن كل من رأى منكرا فسكت عنه يعد عاصيا ، لأنها تحمله النهى عن المنكر أينما رآه ، وكيفما رآه .

فإذا خصص الإمام رجالا معينين للقيام بالدعوة إلى الله ؛ لما يتمتعون به من علم ومعرفة ، فليس معنى ذلك سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عن القادر عليه ممن لم يأذن لهم الإمام بذلك ، أو لم يعينهم فى هذه الوظيفة ، فإن العلماء الذين يشترطون إذن الإمام بذلك لايقصدون من هذا الشرط إلا إلى تنظيم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لاتحدث الفوضى فى هذا الميدان ، أو يختفى هذا المظهر من المجتمع الإسلامى بسبب انشغال الناس بأمور حياتهم ، والسعى وراء أرزاقهم . ولم يقصدوا من هذا الشرط تحريم الدعوة على من لم يؤذن له فى حدود قدرته ، فلا يضع نفسه فى موضع لايستطيع أن يؤدى فيه هذه المهمة على وجه يخدم الإسلام ، لأنه لو ظهر عجزه فلربما انقلبت النتيجة إلى ضد مايريد ومايبتغيه من خدمة للإسلام وإسهام فى نشر تعاليمه .

وينبغى على من يتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يكون ملتزما بأحكام الله ، فلا ينصح الناس وهو بعيد عما يطلب منهم أن يفعلوه ، أو لاينهاهم عن منكر ولسان حاله يعلن أنه لم يتخلص منه ، يقول تعالى : ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**﴾[٤١٩] ، ويقول : ﴿**ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون * كبر مقتا عند**

(٤١٩) البقرة ٤٤

الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾[420] . فإن مما لاشك فيه أن هداية الغير فرع للاهتداء ، وتقويم الغير فرع للاستقامة ، وأن العاجز عن إصلاح نفسه أشد عجزا عن إصلاح غيره .

قال مالك بن دينار : «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا ، فإن من حث على التحلى بالفضيلة ، وهو عاطل عنها ، أو أمر بالتخلى عن نقيصة وهو ملوث بها لايقابل قوله إلا بالرد ، ولا يعامل إلا بالإعراض والإهمال ، بل يكون موضع حيرة البسطاء ومحل سخرية فى نظر العقلاء . فإن من تناول شيئا قال للناس . «لاتتناولوه فإنه سم مهلك» سخر الناس منه واستهزءوا به واتهموه فى دينه وعلمه وورعه ، وزاد حرصهم على مانهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها ماكان يستأثر به . كذلك الداعى إذا خالف فعله قوله .

فسلوك الداعية من أكبر العوامل فى نجاح دعوته ، لأن تربية النفوس وتهذيبها مبنية على القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة ، إذ من المحال أن يحصل فى نفس المدعو ماليس بموجود فى سلوك الداعية ، فإذا اقتصر عمله على القول المجرد من التطبيق العملى فى ذات نفسه ، لم يكن لدعوته نصيب من النجاح ، فمثله كمثل العود من الظل ، فكما أنه من المحال أن يستقيم الظل ، مادام العود أعوج ، فكذلك محال أن يستقيم المدعوون إذا كان الداعية منحرفا فى سلوكه غير ملتزم بما يقوله . قال حجة الإسلام الغزالى رحمه الله فيما كتبه إلى أبى حامد أحمد بن سلامة بالموصل : أما الوعظ فلست أرى نفسى أهلا له ، لأن الوعظ زكاة نصابه الاتعاظ ، فمن لانصاب له كيف يخرج الزكاة ، وفاقد النور كيف يستنير به غيره ، ومتى يستقيم الظل والعود أعوج .

ولذا قال الشاعر فى هذا المعنى :

لاتنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يسمع ماتقول ويشتفى ... بالقول منك وينفع التعليم

وقد وردت أحاديث تنذر من يعظ الناس ولا يتعظ بعقاب اليم ، فعن أسامة بن زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يافلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟**

---

(٤٢٠) الصف ٢ — ٣

فيقول : كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر واتيه» .

وجملة القول : إن على ولى الأمر أن يُعِدَّ أناسا من الناحية العلمية ، ويكلفهم بالقيام بمهام الدعوة ، ولا يسقط هذا الإجراء وجوب الدعوة على غيرهم من المسلمين ، فمن كان قادرا على ذلك فعليه القيام بالدعوة ، كما ينبغى على الداعية أن يلتزم بالسلوك الحسن وإلا كان لدعوته أثر سىء على العامة ، وعلى من يدعوهم إلى الإسلام من أهل الأديان الأخرى .

مناهج الدعوة

رسم القرآن الكريم ثلاثة مناهج رئيسية للدعوة إلى الله ، وحدد لكل منهج أسلوبه الذى ينبغى على الداعية أن يسلكه إن أراد أن يكون لنشاطه فى هذا المجال أثر طيب ، وصدى مقبول . ولا يمكن لمن يريد الدعوة إلى الله أن يؤدى واجبه فى هذا المجال على الوجه الأكمل إلا إذا كان له من الإمكانات مايؤهله لمعرفة معالم كل منهج ، ولديه من المعرفة والثقافات المختلفة مايمده بما يقنع المدعوين ، ومايستولى به على مشاعرهم وأحاسيسهم ، وذلك بأدلته وحججه وعرضه الشيق ، وتناوله للموضوعات التى تتناسب مع الظروف والأحوال التى تحيط به ، وقدرته على الغور فى أعماق من يدعوهم ، وذلك عن طريق فهم مشاكلهم ، والوقوف على عاداتهم وتقاليدهم ، والإلمام بخلفياتهم الثقافية ، وإدراك مايعتنقونه من مذاهب فكرية ، وتيارات عقدية .

فما هى هذه المناهج ؟ : وماذا يطلب من الداعية القيام به ليكون مستعدا للسير على هداها ؟

ذكر الله سبحانه وتعالى هذه المناهج فى آية واحدة ، هى قوله تعالى : **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾**[٤٢١] .وفسرها المفسرون بأن المراد من الحكمة : الكتاب والسنة ، والمقصود من الموعظة الحسنة : مافيهما من زواجر ووقائع ، فتذكر للناس فيحذروا بأس الله تعالى . أما المجادلة بالتى هى أحسن ، فقد قالوا فيها : من احتاج من المدعوين إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن : برفق ولين وحسن خطاب .

---

(٤٢١) النحل ١٢٥

غير أنني أرى أن المراد بالحكمة : هو نوع وطريقة أسلوب الداعية مع يدعون للدخول إلى الإسلام ، فهؤلاء يدعون إلى طريق الله بأسلوب عقلى ، فلا يستشهد بآية ولا بحديث لأنهم لم يؤمنوا بهذا الدليل بعد ، بل يوجه فكرهم إلى الآيات الكونية التى تدل على وجود الله ووحدانيته ، ويساق لهم من النظم والتعاليم مايبين لهم ضرورة هذا الدين لحياة الأفراد ، ولزوم أحكامه وتعاليمه للمجتمع ، إن أراد الناس حياة اجتماعية سليمة من آفات الشيخوخة البشرية ، وبعيدة عن الأمراض التى تفتك بالمجتمعات كالأنانية ، والعدوانية ، وعبودية المادة ، والغوص فى الشهوات والملذات المدمرة حتى القاع ، والتردى فى وديان الآفات التى تفتك بحياة الأفراد والمجتمعات .

ومن المعروف أن المستوى الثقافى للمدعوين هو الذى يحتم على الداعية أن يسلك الطريق المناسب ، ويلتزم بالأسلوب الذى يفهمه المستمعون ، فإذا كانوا على درجة عالية من الثقافة ، فيلزمه أن يرقى بأدلته العقلية إلى مستواهم حتى يكون لكلامه أثر فى نفوسهم ، وتصادف أدلته قبولا فى عقولهم . وإن كانوا متوسطى الثقافة فعليه أن يخاطبهم بما يفهمون ، ويدعوهم بالأسلوب المناسب لمداركهم الثقافية وفى القرآن الكريم صور متعددة لهذا المنهج ، فقد أمر الله تعالى بالنظر فى الكائنات والتأمل فيما فيها من دقائق الصنع وبدائع الإحكام والإتقان ، فقال تعالى : ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعاملين**﴾(٤٢٢) ، وقال : ﴿**فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب**﴾(٤٢٣) ، ولاشك أن هذا موجه إلى من يستطيع بقدرته الفكرية أن يتوصل إلى دقة الصنع فى الكون ، ومعجزة الخلق فى الإنسان لعله يهتدى بهذه الأدلة إلى الإيمان بالخالق جل وعلا .

وفى آيات أخرى يوجه الخطاب إلى من هم أقل ثقافة ، فيقول تعالى : ﴿**ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز**﴾(٤٢٤) .

---

(٤٢٢) الروم ٢٢
(٤٢٣) الطارق ٥ — ٧
(٤٢٤) الحج ٧٣ — ٧٤

ويقول : ﴿واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون * ولايملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولاحياة ولانشورا﴾[٤٢٥] .

وقد كان رسول الله ﷺ يخاطب كل إنسان على قدر مايفهم ، ويجادله بالدليل الذى يكون تأثيره كبيرا فى نفسه ، فقد ورد أن رجلا يدعى الحصين ، كان ذا مكانة بين قريش ، أرسلوه يوما إلى رسول الله ﷺ ليكلمه حتى ينتهى عن دعوته ، فلما جاء إلى النبى ﷺ قال : أوسعوا للشيخ : فقال حصين : ماهذا الذى بلغنا عنك ، أنت تشتم آلهتنا وتذكرها ؟ فقال رسول الله ﷺ : ياحصين ، كم تعبد من إله ؟ قال : سبعة فى الأرض وواحد فى السماء فقال : فإذا أصابك الضر لمن تدعو ؟ فقال : الذى فى السماء قال : فإذا هلك المال ، من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء ، قال : فيستجيب لك وحده ، وتشرك معه ؟ أسلم تسلم .. فأسلم حصين ..

فهذه الأمثلة توضح لنا أن على الداعية أن يستخدم الأسلوب العقلى مع من يدعوهم إلى الإسلام ، وأن يراعى حالة من يدعوه ، فإن كان عالى الثقافة ارتقى معه فى الدليل ، وإن كان أقل فليجعل دليله مناسبا لثقافته ، ومتفقا مع متطلبات الظروف ، ومعطيات الأحوال ، كما فعل رسول الله ﷺ مع الحصين ، وهذا هو مقصود المنهج الأول الذى جاء التعبير عنه فى الآية بقوله تعالى : ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة**﴾ ، فالحكمة هى استعمال الدليل العقلى مع المدعوين كل حسب حاله وطبقا لدرجة ثقافته .

ويختص المنهج الثانى فى الدعوة إلى الله بتذكير المسلمين بآلاء الله ونعمه عليهم ، وإيقاظ وجدانهم الروحى ، وإذكاء حرارة الإيمان فى صدورهم حتى تظل قلوبهم معلقة بالإيمان ، وأفئدتهم مرتبطة بذكر الله ، وجوارحهم ملتزمة حدود الله ، ويساعدهم على ذلك فقههم فى دينهم ، ومعرفتهم أحكام شريعتهم ، ولايتأتى ذلك إلا إذا قام الدعاة بواجبهم فى هذا المجال ، فيعلمون الناس ويفقهونهم فى دينهم وهذا هو مايفهم من قوله تعالى : ﴿**والموعظة الحسنة**﴾ أى يجب على المؤمنين — وخاصة الدعاة منهم — أن يقوموا بواجب تعليم الناس الأحكام الشرعية ، وتذكيرهم بين الحين والآخر بما يلين قلوبهم ويؤثر فى نفوسهم ، حتى تسد المنافذ أمام الشيطان ، فلا يكون له سبيلا إلى التأثير على المؤمنين .

ومن المعلوم أن عمل الدعاة فى هذا الحقل يشبه عمل الأطباء ، فكما أن الأطباء

---

(٤٢٥) الفرقان ٣

يعالجون المرضى ، ويعلمون الناس طرق الوقاية من الأمراض ، فكذلك الدعاة يعالجون علل النفوس ، ويحمونها من الأمراض الفتاكه بالمواعظ والإرشادات والنصائح المستخلصة من الكتاب والسنة ، إذ لاتصح النفوس إلا بها ، ولاتسلم القلوب من المخاطر إلا بسماع ووعى مافى الكتاب والسنة ، ولا تقلع النفوس عن غيها إلا بالتذكير بما أصاب المفسدين والمتكبرين ، يقول تعالى : ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾(٤٢٦) .

فالوعظ والإرشاد هما العلاج الناجع للأمة ، يشهد على ذلك أن الأمة التى انتشر فيها الوعاظ والخطباء تحيا بمقدار قدرتهم على معالجة الأمراض الاجتماعية ، ويشتد عودها ويسلم من الأمراض كلما وجد التيار الدينى طريقه الصحيح فى نفوس أبنائها . فإذا كان الواعظ ماهرا ، والخطيب حكيما استطاع أن يسلك من الطرق فى الإرشاد مايشفى القلوب من أمراضها ، ويوقظ الضمائر من نومها ، ويطهر النفوس من أدران النقائص والرذائل ، وينير أمامها السبل الموصلة إلى الرشد حتى ترجع عن غيها ، وتعود إلى حد الاعتدال ، وتتجلى بالفضائل والكمال .

هذا فى الجانب المعنوى الإرشادى من الموعظة الحسنة ، أما الجانب الآخر منها ، فهو جانب التعليم ، والتفقه فى الدين ، إذ يجب على المسلمين ــ امتثالا لأمر الله بأن يعظوا المسلمين ــ أن يكون منهم مجموعة متفقهة فى الدين ، عالمة بأحكام التشريع ، تقوم على تعليم الناس أحكام دينهم ، وفقه شريعتهم ، حتى يؤدوا عبادتهم بالصورة الصحيحة ، ويكونوا على بينة من تقييم مسائل الحياة المختلفة ، فلا تضلهم أصوات المفسدين ، ولا تنحرف بهم آراء الجهلاء والمدعين عن الطريق المستقيم .

ولابد من وجود هذه الفئة فى المجتمع الإسلامى ، لأنهم هم المنارة التى يلجأ إليها الحائرون ، والمصابيح التى يهتدى بنورها المهتدون ، فوجودهم ضرورى فى المجتمع ، فلا يجوز للمسلمين أن يتهاونوا فى إعداد هذه الطائفة المتخصصة فى شرح أحكام الله وتعليمها للناس ، حتى ولو كانوا فى حالة تحتم على كل مسلم الانخراط فى سلك المدافعين عن الإسلام فى ميدان القتال ، فقد استثنى الله من هذا الواجب أولئك الذين عكفوا على دراسة العلوم الدينية ، يقول تعالى : ﴿**وماكان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم**

---

(٤٢٦) الذاريات ٥٥

يحذرون﴾(٤٢٧) ، لأن التفقه فى الدين من العوامل المؤثرة فى حياة المجتمع فى سلمه وحربه ، فهو الذى يكون المسلم الصالح ، الذى يرعى الله ـــ نتيجة للتربية الدينية على أيدى الفقهاء ـــ فى عمله ، ويخشاه فى سلوكه مع الناس ، وما المجتمع القوى إلا أفرادا صالحين فى أعمالهم ، مستقيمين فى سلوكهم ، إذ كلما حسنت أعمال الأفراد قويت الأمة بإنتاجها وانجازاتها فى جميع مجالات الحياة ، وكلما استوى سلوك الأفراد واستقامت حياتهم ، ازدادت صلابة الأمة واشتدت قوتها ، فلا يقوى عدوها على زعزعة بنيانها أو خلخلة تماسكها الاجتماعى .

وعليه فعمل الداعية ـــ سواء كان فى مجال التعليم والتدريس ، أو فى مجال التذكير والتنبيه ـــ أساس بنيان الأمة ، فمن يرغب فى بناء أمة قوية ، فلا ينبغى أن يهمل هذا الجانب الحيوى فى البناء .

وقد وصف الله المنهج الثالث فى مجال الدعوة بقوله : **﴿وجادلهم بالتى هى أحسن﴾** فقد يكون الحسن المطلوب هنا : اختيار الكلمة الطيبة التى لاتؤذى أحدا ، ولا تجرح كرامته ، وقد يكون سلوك أفضل الطرق الموصلة إلى إقناع الخصم مع البعد عن الحماس والانفعال الذى قد يؤدى إلى حجب الحقيقة ، وتجنب تحقير فكر من يخالف الداعية فى رأيه ، فلا يزدريه ، أو يسخر منه ، أو يسبه ، إذ مادام غرض الداعية الوصول إلى إقناع من يدعوهم بالإسلام ، فلابد أن يستميلهم ، ويكسب ثقتهم أولا ، لأن هذا يجعلهم يسمعون قوله ، ويصغون لحجته ، ويفكرون فى أدلته .

أما إذا أغلظ القول لهم ، فإنهم ينفرون منه ، ويعرضون عن سماع حجته ، فاللين فى القول مطلوب من الداعية حتى مع الذين آمنوا ورضيت نفوسهم بما يقول وخضعت جوارحهم لما يأمر به ، يقول تعالى : **﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم﴾**(٤٢٨) ، فإذا استهان الداعية برأى من يدعوهم إلى الإسلام ، وعاب مايعتقدون ، فلا ينتظر منهم إلا المقابلة بالمثل ، لأن الإنسان لايسكت على إهانته ، حتى وإن تدنت طبقته الاجتماعية ، ولايرضى السخرية بمعتقداته ، حتى وإن كانت ظاهرة البطلان للعقلاء وأصحاب الفكر السليم ، فقد نهانا الله عن سب آلهة الكفار والملحدين على الرغم من بطلانها وعدم قيمتها فى عالم تقييم الأفكار ، والأحجار ، فقال تعالى :

---

(٤٢٧) التوبة ١٢٢
(٤٢٨) آل عمران ١٥٩

﴿ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم﴾(٤٢٩) ، بل إن القرآن الكريم علمنا كيفية التصرف مع المعاندين إذا أصروا على عنادهم ، واستمروا فى عبادة الأوثان والأحجار أو استمرءوا الإشراك بالله ، فقال تعالى مبينا مايجب اتباعه مع الكفار **﴿قل ياأيها الكافرون * لاأعبد ماتعبدون * ولا أنتم عابدون ماأعبد * ولا أنا عابد ماعبدتم * ولا أنتم عابدون ماأعبد * لكم دينكم ولى دين﴾**(٤٣٠) ، وقال تعالى : **﴿قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾**(٤٣١) ، أى إذا بلغ الداعية رسالة ربه إلى من يعبد آلهة من دون الله ، وحاجهم بالقول اللين ، والحجة الواضحة فأصروا على دينهم ، ولم يتجاوزا هذا الاصرار ، فلم يحاربوا الدعوة ، ولم يقفوا فى طريق عمل الدعاة ، فلنتركهم وشأنهم ، لأن مهمة الداعية هى التبليغ فقط ، فلا يتجاوزها إلى فرض الإيمان بالقوة، يقول تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: **﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾**(٤٣٢).

كذلك يكون الحسن فى المجادلة باتباع أسلوب المجادلين ، أى محاورتهم بالمنهج الذى يتبعونه ، فإن كانوا فلاسفة ومفكرين ، فليسلك الداعية معهم حوارا فكريا حول طبيعة الكون ومصدره ، ومركباته المتناسقه فى تفاعلها وانسيابها ، كما يناقشهم فى مفهوم الحياة وغاياتها ، وعلاقة الإنسان بما حوله من ظواهر طبيعية ، ومافى داخله من تركيبات فسيولوجية ، وعوارض نفسيه وروحية . وإن كانوا اقتصاديين فليبين لهم أحكام الإسلام وتشريعاته فى عملية المال فى المجتمع ، وكيفية توزيعه على أفراده ، وإن كانوا اجتماعيين فيشرح لهم أثر الإسلام فى تكوين الخلايا الاجتماعية ، وأهمية تعاليمه فى تنظيم العلاقات بين جميع أطراف الجنس البشرى.. وهكذا مع كل مجموعة يكون حديثه مطابقا لاهتمامات أفرادها وتخصصاتهم ، حتى العامة من الناس ، فإنه يسلك معهم طريقا تتفق مع معلوماتهم وتتناسب مع قدرتهم الفكرية .

أما إذا تجاوز المدعوون حدود الجدل الفكرى ، فاعتدوا على المسلمين ، أو حاربوا

---

(٤٢٩) الأنعام ١٠٨
(٤٣٠) الكافرون ١ ــ ٦
(٤٣١) آل عمران ٦٤
(٤٣٢) يونس ٩٩

الدعاة بأساليب تخرج عن دائرة الحوار الفكرى إلى استعمال القوة واستخدام السلطة ، فإن حسن المجادلة فى هذه الحالة لايكون إلا بالمثل ، وهو المجابهة بالقوة ولايقوم الدعاة بهذا ، لأن الأمر فى هذه الحالة خارج عن طاقتهم وتخصصهم ، بل يكون ذلك واجب الحاكم ، أو ولى الأمر ، فهو فى هذه الحالة مدعوّ إلى الدعوة إلى الله بما يملك من سلطان وقوة ، يقول تعالى : **﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾**(٤٣٣) .

فالمنهج الثالث ، وهو : «**المجادلة بالتى هى أحسن**» . يتضمن القول الحسن والأسلوب اللين ، واختيار الأدلة التى تتفق مع درجة ثقافة المجادلين ونوع تخصصهم ، كما يتضمن استعمال القوة عندما يعلن الخصم العداوة ويستخدم سلطانه وقوته لمنع الدعاة من نشر الدعوة ، أو يستخدم جبروته فى تعذيب من آمن بالإسلام والتنكيل بهم .

كان أسلوب الدعوة منذ صدع محمد ﷺ بالأمر متسما بالحكمة ، فلم يعرض الإسلام على أصحاب الأديان والمعتقدات الأخرى إلا من زاوية العقل ، ولم يطلب منهم الاعتراف بتعاليمه وأحكامه إلا بناء عن اقتناع وتسليم به ، لاخضوعا لتقليد ، أو خوفا من سلطان وتعذيب . كذلك تعهد الرسول ﷺ أصحابه بالرعاية ، فعلمهم أحكام الله بأسلوب لين ، وأيقظ مشاعرهم الدينية بمواعظ هزت أفئدتهم ، ورقق قلوبهم بتلاوة وحى الله عليهم ، وقوم سلوكهم بما ضربه لهم من أمثال : سلوكا ، وقولا ، واستشهادا بما حدث مع الغابرين ، كما أفحم المجادلين والمعاندين بقوة بيانه ، ونصاعة حجته ، وحسن اختياره الأسلوب المناسب ، والمنهج المؤثر فيهم .

كان هذا المنهج فى التبليغ تشريعا للدعاة من بعده ، يسيرون عليه إن أرادوا لدعوتهم النجاح والاستمرار ، لأنه يغطى جميع فئات البشرية ، سواء منهم الذى يسمع نداء الدعوة لأول مرة ، أو من آمن وانخرط فى سلك المسلمين ، أو من وقف معاندا ومكابرا ، وكذلك من تجرأ فأعلنها حربا على الإسلام والمسلمين . فلكل أسلوب يخاطب به ، ومع كل طريقة يجب على المسلمين اتباعها ، يقول الإمام الغزالى فى كتابه «القسطاس

---

(٤٣٣) الحج ٣٩ ــ ٤٠

المستقيم» : «إن المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم ، وبالموعظة قوم ، وبالمجادلة قوم .. فإن الحكمة إن غذى بها أهل الموعظة أضرت بهم كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير ، وإن المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة اشمأزوا منها كما يشمئز طبع الرجل القوى من الارتضاع بلبن الآدمى .. وإن من استعمل الجدال مع أهل الجدال لا بالطريق الأحسن كما تعلم من القرآن كان كمن يغذى البدوى بخبز البر وهو لم يألف إلا التمر ، أو البلدى بالتمر وهو لم يألف إلا البر» .

غير أن بعض الباحثين يرى أن هذا التقسيم ليس تقسيم مجموعات البشر بالنسبة لمواقفهم من الدعوة ، بل إنه بيان لحالات تعترى الشخص الواحد ، إذ فى الإنسان ثلاث قوى : القلب والعقل والعاطفة ، ولكل أسلوب ومنهج تخاطب به . ولما كان الإسلام دينا عاما لكل الناس ، وهو أيضا دين منطق وحكمة ، ويهدف إلى تربية جميع حواس الإنسان ، كان من الطبيعى أن يخاطب كل فرد من أفراد المجتمعات الإنسانية ، ويتجه فى الوقت نفسه إلى تربية كل القوى النفسية ويهذبها لتتضامن جميعها فى الإيمان وفى تربية الشخصية الإنسانية .

وعليه فأسلوب الدعوة ينبغى أن يكون مرنا ، فيتشكل حسب الظروف والملابسات كى يصلح لطوائف الناس ، عندما تبرز المواجهة التى تظهر فى المجتمعات الإنسانية حين يدعى الناس إلى اعتناق دين جديد ، أو يشيع فى المجتمع تيار فكرى مستحدث ، فيبدأ الداعية بعرض الدعوة بأسلوب عقلى ، فإن آمن المدعو ، علّمه أحكام الشريعة ، وأيقظ مشاعره الدينية بالموعظة الحسنة ، أما إن كابر وجادل ، تعامل معه الداعية بالأسلوب المناسب حتى لايخرج فى دعوته عن المنهج الحسن .

كما ينبغى على الداعية أن يكون مستعدا فى كل وقت للرد على أسئلة كل من اعترته بعض الشبهات ، فإن كانت مجرد استفسار نتجت عن غيوم فكرية ، أزيلت بالأسلوب العقلى ، وإن تمكنت من المعترض فدفعته إلى المجادلة دفاعا عن تيارات فكرية مضللة ، فعلى الداعية مجادلته بالتى هى أحسن ، وإن كان بعيدا عن هذا وذاك فليتعهده الداعية بالموعظة الحسنة ، وتعليمه أحكام الله .

وليتذكر الدعاة دائما قول الله تعالى : **﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾**(٤٣٤) .

---

(٤٣٤) طه ٤٤

تأهيل الدعاة

يحتاج كل مذهب أو دين ــ بل كل تيار فكرى يحمل طابع الانتشار أو يحرص معتنقوه على أن يؤمن به الناس ــ إلى من يحمله إلى المدعوين ، أى إلى من يسمعهم نداءه ، وذلك بعرض مبادئه ، وشرح أفكاره لهم فى محاولة إقناعهم به ، وهؤلاء يطلق عليهم أسماء عدة ، فمنهم من يسمى : المتحدث باسم المذهب ، أو فيلسوف الحزب أو الطائفة ، أو أمين فكر الجماعة . ويعرف فى مجال الأديان باسم : الكاهن ، أو القسيس ، أو المبشر أو البراهما . أما فى الإسلام فيسمى : داعية ، لأنه يدعو الناس إلى دين الله مستخدما فى ذلك كل وسيلة تؤدى إلى إقناعهم بما يقول ، وتصديقهم لما يبينه لهم من أحكام الله وتشريعاته .

ومما لاشك فيه أن كل من يتصدى لهذا العمل لابد أن تتوافر فيه شروط عدة ، بعضها يرجع إلى شخصيته وتكوينه الطبيعى ، والبعض الآخر يتعلق بثقافته وإلمامه بمبادىء مايدعو إليه ، وإتقان تفصيلاته ، ومعرفة فروعه معرفة تامة . وسنترك الآن الحديث عن مواصفات شخصيته وأبعاد تكوينه الطبيعى حتى يحين أوانه ، عندما نتناول وسائل الدعوة بالشرح والبيان . ونقصر حديثنا على معالم ثقافته وتمكنه من معرفة مايدعو له .

فمن المعروف أن من يتصدى للدعوة إلى اقتناع فكر ما ، لابد أن يكون قادرا على شرح مبادىء هذا الفكر ، وإلا عجز عن إقناع من يدعوه مما يؤثر على وضع مايدعو إليه ، ويشوه صورته بين الناس ، ولهذا يحرص أصحاب كل مذهب ودين على تكوين مجموعة من الناس تكوينا علميا للقيام بهذه المهمة بين الناس . وكلما كان المؤهلون لهذا العمل على درجة كبيرة من الثقافة ، كلما كان نجاحهم أكبر ، وقدرتهم على الاقناع أقوى ، وأثرهم فى سرعة انتشار مذهبهم أكثر وضوحا ، ولايكون ذلك إلا إذا كانت برامج الاعداد وافية بالغرض الذى يسعى إليه أصحاب الفكر ، فإذا أخذنا مايتعلق بموضوعنا وهو الدعوة إلى الإسلام ، فإننا نرى أنه يجب أن يتضمن برنامج إعداد الدعاة : دراسة القرآن الكريم والحديث النبوى دراسة عميقة ، بحيث يؤهل الداعية تأهيلا يمكنه من فهم النصوص ، واستنباط الأحكام منها ويترتب على هذا ضرورة معرفته بالمسائل الفقهية معرفة تامة ، لأن هذه المواد وهى التفسير والحديث والفقه هى بضاعته التى يعرضها للناس ، فإذا لم يكن متمكنا منها كان نشاطه فى حقل الدعوة الإسلامية معوقا لانتشار الإسلام ، إذ أن عدم تمكنه من هذه العلوم يلقى ظلالا قاتمة على طريق الدعوة ، فيضل بسببها مسلمون ، ويكون مصدر قوة للمتشككين والمترددين ، وحاجزا يعجز غير

المسلم عن اجتيازه ليصل إلى ساحة الإسلام .

كذلك يحتاج الداعية إلى إلمام بسيط بمبادىء علم النفس وعلم الاجتماع ، حتى لايضل فى فهم الحالات النفسية لدى الأفراد ، ويتعثر فى تفسير الظواهر الاجتماعية التى تؤثر على اتجاهات الناس وسلوكهم ، فتشكل عاداتهم وتقاليدهم ، إذ أن عدم معرفته بهذه الأوليات يجعله يتخبط فى معالجة مايراه مخالفا للإسلام فى المجتمع ، وجهله بقوانين الاجتماع يصيبه بالعجز عن توجيه حركة المجتمع ناحية الإسلام ، وربما يدفعه إلى تجنب الحديث فى هذه المسائل التى هى من صميم حياة المجتمعات الإنسانية ، والانعزال فى زاوية بعيدا عما يشغل بال الناس ، مقتصرا على ترديد ألفاظ بعيدة عن واقعهم غريبة على مسامعهم ، عديمة الفائدة فى توجيه سلوكهم .

ولاشك أن ذلك يدفع المسلم إلى عدة تساؤلات هى : هل مايعرضه الإسلام ضرورى وصالح لحاضرى ومستقبلى كما كان صالحا للماضى ؟ أم هو حكاية عن ماضٍ يتسلى به الداعية ، أم ضرب من الحقيقة أو الخيال ، أم منهما معا يتلهى به فى الحاضر ؟ أم هو حدس للمستقبل يشد به الإنسان شغلا عن حاضره ومتاعبه ، وربطا له بآمال وأمان عراض ؟ إن الداعية الناجح هو الذى يحمل السامع على ترك هذه التساؤلات ، ويفرض عليه الاقتناع بما يقوله له ، وسلوك مايطلبه منه ، وذلك لايكون إلا إذا فهم الداعية هموم الناس وآلامهم ، وحاول علاجها بأسلوب لايحلق بهم فى سماء الخيال ، ولايطير بهم فى عالم اللا معقول ، بل بما رسمه الإسلام من واقعية ، وبما حدده من أساليب للحياة ، تحفظ كرامة الإنسان ، وتحافظ عليه من الانهيار ، حتى يقتنع المدعوون بأن مايدعو إليه الداعية ضرورى لحاضرهم ، ولازم لبناء مستقبلهم .

فإذا نجح المهتمون بالدعوة إلى الإسلام فى تأهيل فريق من المسلمين تأهيلا علميا بحيث يستطيع كل واحد من المؤهلين لهذا العمل ، أن يكسب ثقة الناس بما لديه من معلومات دينية ــ سواء كان ذلك تفسيرا لآيات القرآن الكريم ، أو بيانا لحديث رسول الله ﷺ ، أو توضيحا لما جاء من أحكام وتشريعات فى مجال الفقه الإسلامى ، مع قدرته على ربط ذلك كله بحياة الناس أفرادا ومجتمعات ــ تمكنه من توجيههم إسلاميا ليتخطوا مايعترض طريقهم من عقبات ، ومايصادفهم من أحداث فى جميع مجالات الحياة ، فقد أدوا ماعليهم فى سبيل المحافظة على عقيدة المسلمين فى المجتمع الإسلامى ، وإرشاد المسلمين فيما يجب عليهم عمله فى شتى شئونهم الحياتية .

غير أن عملهم فى مجال إعداد الدعاة لايقتصر على هذا الجانب ، بل لابد من بذل الجهود لتأهيل فريق من الدعاة يكون قادرا على عرض الإسلام على غير المسلمين وذلك يتطلب ــ إضافة إلى المنهج السابق ــ إعدادهم إعدادا عقليا ، بمعنى أنه ينبغى عليهم أن يدرسوا الفلسفة بجميع فروعها من منطق وأخلاق وعلم نفس وغير ذلك مما له صلة بالعملية العقلية عند الإنسان ، لأن سلاحهم مع غير المؤمنين هو العقل ، إذ هو أداة التفاهم ، وركيزة الأدلة المشتركة بين جميع الناس ، فالمحاجاة ، والمجادلة لاتسير إلا فى القنوات العقلية ، فإذا لم يكن الداعية ملما بهذا الفن ، ضعف عرضه للمبادىء الإسلامية ، ووهنت حجته فى مواجهة أدلة الآخرين واعتراضاتهم ، بل قد يكون فى ضعفه صد عن سبيل الله ، وإبعاد لمن لديه الاستعداد لقبول الإسلام ، لأن الصورة المهلهلة التى يظهر بها الداعية الضعيف علميا كفيلة بإطفاء وميض النور الذى يدفع بعض غير المسلمين إلى الميل للإسلام ، والانجذاب نحوه ، وعاملا من عوامل التشويش على أفئدة من يظهر فى قلوبهم وميض من نور يهديهم إلى أول طريق الإسلام ، ولهذا تكون الآثار السلبية لضعف الداعية فى نفوس غير المسلمين بعيدة المدى ، وعميقة الغور بحيث تقطع ــ فى غالب الأحيان ــ خط الرجعة على من ابتعد عن الإسلام بسببها ، بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من اتخاذ العقيدة الإسلامية دينا له ، ومال إلى اتخاذ نظامها منهجا وأسلوبا لحياته .

ومن هنا يجب على المهتمين بإعداد الدعاة العناية بهذا الجانب عناية تامة ، بحيث يضعون فى مناهج إعدادهم : الفلسفة اليونانية ، والتيارات والمذاهب الفلسفية المعاصرة على اختلاف مناهجها ، والظواهر الفكرية على الصعيد الدولى أيًّا كان موطنها ومضمونها ، والتاريخ الثقافى لمن يدعونهم بما فيه عاداتهم وتقاليدهم ، وعقائدهم ، ومذاهبهم الدينية ، فإن لم يفعلوا ذلك فإن من الأولى عدم طرق هذه المجالات ، لأن الامتناع عن العمل فى مجال الدعوة خارج المجتمعات الإسلامية فى حالة ضعف الدعاة علميا خير من إظهار السوءات التى قد تترك آثارا لاتمحى لأجيال عدة ، وقد تعرقل عمل المؤهلين إذا خاضوا هذا المجال بعد أن شوه الضعفاء من الدعاة صورة الإسلام فى أذهان الناس .

فسبيل الدعوة إلى الله فى مجال غير المسلمين يتطلب من الداعية أن يكون ملما بثقافة تزيد على من يعمل فى حقل الدعوة داخل المجتمع الإسلامى ، أو من يقتصر عمله على تعليم المسلمين وتثقيفهم ، لأن طبيعة المواجهة مع الآخرين تتطلب إعدادا خاصا . وينبغى

ألا تقتصر مناهج هذا الإعداد على قوالب ثابتة ومعينة ، بل يجب أن تتغير طبقا لظروف وأحوال المدعوين ، وتبعا لمتطلبات الأحوال والأزمات ، سواء كان ذلك على المستوى المحلى ، أو على الصعيد الدولى ، ولذلك يتحتم أن تكون برامج إعداد هذا النوع من الدعاة متحركا فى كل اتجاه ، كى يلائم كل ظرف ، ويتواءم مع مقتضيات كل بيئة ، ومعطيات كل عصر .

خلاصة

ليس من السهل قيادة الإنسان فكريا ، بل هى من أصعب الأمور التى تعترض أصحاب الدعوات والمذاهب الفكرية ، لأن الإنسان على الرغم مما يعرف عنه بأنه الكائن الحى الذى يتصرف بحرية ، إلا أنه شديد الارتباط بعاداته وتقاليده الموروثة ، ومتمسك إلى أقصى حد بدين آبائه وأجداده . ولهذا عانى الأنبياء والرسل كثيرا فى سبيل إقناع المدعوين ببطلان عقائدهم ، وضلال أفكارهم التى ورثوها عن الأجداد ، بل إن هذا الجانب استغرق وقتا أطول ، وأخذ جهدا أكبر من الدعاة ، إذا قيس بنشاطهم فى مجال تعليم المؤمنين عقائدهم وأحكام شريعتهم ، فمن ينظر فى تاريخ الدعوة الإسلامية يجد أن محاورة أهل مكة امتدت ثلاث عشرة سنة من سنى الرسالة التى بلغت ثلاثا وعشرين سنة . كذلك نرى أن آيات الأحكام فى القرآن الكريم أقل من الآيات التى ركزت على بيان وجود الله ووحدانيته ، وشرح أسس العقيدة ، وصور المحاورات والمجادلات مع المعاندين .

ومن الملاحظ أن منكرى الرسالة لم يكونوا على درجة واحدة من الذكاء ، ولم تكن محاوراتهم على نمط فكرى واحد ، بل تباينت أسباب معارضتهم ، واختلفت أساليبهم فى الرد على رسول الله ﷺ ، فتارة يعللون إصرارهم على عبادة الأصنام بأنهم وسطاء لهم عند الله : ﴿**مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾(٤٣٥) ، وأخرى تأبى عقولهم أن تتصور وحدانية الله : ﴿**قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**﴾(٤٣٦) ، ثم يخبر القرآن الكريم أن معارضتهم لم تكن على

---

(٤٣٥) الزمر ٣
(٤٣٦) الأعراف ٧٠

أساس منطقى فهم لايكذبون الرسول ﷺ ، لأنه اشتهر بينهم بالصدق ، ولكنهم يجحدون لغير ماسبب ، يقول تعالى : ﴿**فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾[٤٣٧] ، بل إنهم عندما أعيتهم الحيل وعجزوا عن إبداء سبب معقول ، رموه بالسحر تارة ، يقول تعالى : ﴿**ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون**﴾[٤٣٨] ، وتارة ادعوا بأن مايخبرهم به أساطير الأولين ، تلقاه ممن لديهم علم بأخبار السابقين ، يقول تعالى : ﴿**وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما**﴾[٤٣٩] ، بل إنهم أنكروا أن ينزل القرآن على رجل بسيط من القوم : ﴿**وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات**﴾[٤٤٠] .

كما أنكروا أن يكون الرسول الذى اصطفاه الله يباشر من الأعمال مايباشره بقية الناس ، وتساءلوا عما إذا لم يكن من الممكن إنزال ملك معه ليعينه على هذا العمل ، أى أنهم لايؤمنون إلا إذا كان الأمر على مايتصورون : ﴿**وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا**﴾[٤٤١] .

وتوضح هذه الصور أن المجادلين ليسوا على درجة واحدة من الذكاء ، كما أنه ليس لديهم دافع واحد محدد يمنعهم من الإيمان بالرسالة ، ولهذا جاءت اعتراضاتهم متعددة فى صورها ، ومتفاوتة فى أسباب عدم إيمانهم ، إلى حد أن بدت فى كثير من الأحيان ضربا من العناد والمكابرة . وهذه صورة صادقة لرد فعل الناس تجاه أى فكر جديد ، وفى مواجهة أى دين تحمل مبادئه طابع التغيير لما عليه القوم من عادات وتقاليد . ولاتقتصر

---

(٤٣٧) الأنعام ٣٣

(٤٣٨) الزخرف ٣٠

(٤٣٩) الفرقان ٤ ــ ٦

(٤٤٠) الزخرف ٣١ ــ ٣٢

(٤٤١) الفرقان ٧ ــ ٩

هذه الظاهرة على المجتمعات القديمة ، بل إنها لازمة من لوازم المجتمعات البشرية ، وصفة من صفاته فى كل العصور والأزمان ، وليس ماقوبل به الأنبياء من حجج وبراهين فريدا من نوعه ، أو ظاهرة لاتتكرر ، بل هو طبيعة كل مدعو يدعى إلى التسليم بعقيدة جديدة عليه .

فلا يخلو مجتمع من هذه الظاهرة مهما اختلفت العصور ، وتفاوتت الشعوب ، وتباعدت أقطار الأرض وبقاعها ، ولهذا ينبغى أن يهتم القائمون على إعداد الدعاة بتدقيق الاختيار فيمن يؤهلونهم لهذه المهمة ، وهى مهمة محاجاة المعاندين والمستكبرين ومصارعة كل من يتحفز لإلقاء الشبهات فى مجال العقيدة ، والتشكيك فى فاعلية النظام الإسلامى فى الحياة المعاصرة ، فلا يختارون لهذه الدراسة إلا من كان عنده قدرة من الذكاء تمكنه من استيعاب أساليب القوم ، وإجادة الرد عليهم علميا ، وإتقان عملية المناورات الكلامية ، لأن من يظهر عجزه فى هذا الميدان لايصلح أن يكون مدافعا عن الإسلام على الإطلاق فى ميادين المعارك الكلامية ، وساحات الحجج والبراهين العقلية ، ومواطن تلاطم التبريرات والتعليلات الوهمية ، يقول تعالى : ﴿**وجادلهم بالتى هى أحسن**﴾ ، ولايقدر على ذلك سوى نوعية من الدعاة ، اختيرت اختيارا دقيقا وأهلت تأهيلا حسنا .

يبدو أنه قد اصبح واضحا لنا أن مناهج الدعوة ثلاثة : منهج عقلى ، ومنهج وعظى تعليمى ، ومنهج مواجهة بالحجة والبرهان ، وأحيانا بالمناورة والنزال فى ساحة المعركة حسب طبيعتها ومتطلباتها . وقد نص القرآن الكريم على هذه المناهج فى قوله تعالى : ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة * وجادلهم بالتى هى أحسن**﴾[٤٤٢] .

فالمفهوم من الحكمة هو عرض الدعوة على الناس من الجانب العقلى لإقناعهم بأحقيتها وسلامتها كدين ينبغى أن يعتنقه الإنسان ، ويتخذ مبادئه نظاما فى حياته .

والمقصود من المنهج الوعظى التعليمى بيان مبادىء الدين لمن آمن ، وتعليمه أحكامه وتشريعاته ، حتى يؤدى عبادته على وجه صحيح ، ويسلك فى حياته طريق الإسلام ويصاحب هذه العملية غرس الروح الدينية فى المسلم ، وتهذيب اخلاقه ، وشحذ همته نحو خدمة الإسلام ، وتصفية نفسه من شوائب المادية . وأدران الأنانية . ولايكون ذلك إلا بالقول اللين ، واللفظ المؤثر فى نفوس الناس وأرواحهم ، والأسلوب الروحانى الذى يؤثر فى عواطف الناس ، ويحصنهم من الوقوع فى مواطن الزلل ومسالك الشيطان .

---

(٤٤٢) النحل ١٢٥

أما المجادلة بالتى هى أحسن فهى مواجهة المعاندين والمكابرين الذين لايألون جهدا فى محاربة الإسلام بكل الطرق الممكنة لديهم ، فتارة يلقون الشبهات لإدخال الشك فى قلوب المؤمنين وتارة يقذفون الدعاة وصالحى الأمة باتهامات لتشويه صورتهم أمام الناس حتى لايكون لهم تأثير فى مجال الدعوة ، وأخرى يعلنونها حربا كلامية فى وجه الدعاة ، قد تتحول إلى مساجلات ومحاورات تؤدى إلى صدام مسلح ..

فينبغى على الدعاة أن يواجهوا هؤلاء بما يتناسب مع الظروف والملابسات فإن اقتضى الأمر قرع الحجة فعليهم اتباع ذلك ، وإن اضطرتهم الظروف إلى استعمال طرق أخرى فما عليهم إلا استعمالها دفاعا عن الدين . وهم فى كل طريق يسلكونها متبعون مارسمه الإسلام للدعاة .

فطلب القرآن الكريم من المسلمين أن يجادلوا خصومهم بالتى هى أحسن لايخرج عن سلوك المنهج الذى يتطلبه الموقف ، وتحتمه الظروف ، وتقتضيه ملابسات المواجهة .

ومما لاشك فيه أن لكل منهج أناساً يستطيعون العمل به ، فالمنهج الوعظى التعليمى يتطلب من الداعية :

أن يكون عالما بأحكام الشريعة الإسلامية وتعاليمها ، وبتاريخ المسلمين وأخبارهم .

وأن يكون ملما بقدر كبير من علم النفس والعلوم الاجتماعية بما يساعده على تأدية مهمته على الوجه الأكمل .

ويتطلب المنهج العقلى أن يدرس الداعية :

تاريخ الفكرى البشرى ، ويقف على مضمون ومناهج الاتجاهات الفكرية من فلسفة ومنطق وأخلاق وغيرها ، مما له صلة بالعملية العقلية ، القديم منها والمعاصر ، حتى تتكون لديه الملكة العقلية التى تمكنه من عرض الإسلام على غير المؤمنين من زاوية العقل لامن زاوية النص .

أما المنهج الثالث وهو ماعرف بالمجادلة فيتطلب :

معرفة أساليب المحاورة فى تاريخ الفكر البشرى وخاصة ماكان بين الأنبياء ومعارضيهم ، لأن ذلك يؤهله للقيام بهذا العمل على الوجه المطلوب ، وكلما كان الداعية متمكنا من معرفة أساليب الحوار الفكرى على امتداد التاريخ البشرى ومتقنا لما دار بين الأنبياء والمعارضين مع فهمه لخلفيات كل موقف كلما كان قادرا على مواجهة المعارضين .

وعليه فمجالات الداعية ثلاثة :

ـــ دعوة غير المسلمين إلى الإسلام .

ـــ وشرح تعاليم الاسلام للمسلمين وتذكيرهم بما وعد الله الطائعين ، وأعده للمذنبين

ـــ ومواجهة المعاندين والمعارضين .

ويفهم من هذا أن حقل عمله ثلاثة أصناف من الناس :

ـــ مسلمين ..

ـــ غير مسلمين لايعرفون شيئا عن الاسلام .

ـــ غير مسلمين من المعارضين والمناوئين للإسلام .

لكن قد تجتمع هذه الأصناف فى المجتمع الإسلامى ولدى المسلمين ، إذ يلاحظ أن هناك فريقا من المسلمين يميل إلى عدم التسليم بشىء من المبادىء ، والتعاليم إلا إذا أقرها العقل ، فيجب على الداعية أن يجنح إلى استعمال الأدلة العقلية مع هؤلاء حتى يزيل ماعلق فى إذهانهم من شبهات .

كما أن هناك فريقا آخر من المسلمين وقع تحت تأثير تيارات فكرية أجنبية ، فطفق يثير الشبهات حول تعاليم الإسلام ، فيجب على الداعية أن يسلك المنهج الثالث مع هؤلاء .

وعلى المهتمين بإعداد الدعاة أن يأخذوا بعين الاعتبار طبيعة التجمعات السكنية ، ودرجة ثقافة أفرادها ، فيرسلوا الداعية المؤهل تأهيلا يتناسب مع مالدى القوم من اخلفيات ثقافية وتيارات فكرية ، كما أنه ينبغى على الداعية من جانب آخر أن يراعى فى دروسه مايحتاج إليه المدعوون ، فيتناول من الموضوعات مايتناسب مع ثقافتهم وفكرهم واهتماماتهم ، آخذا بعين الاعتبار أنه بمثابة الجندى فى الميدان ، فهو لايستعمل سلاحه إلا بالقدر الذى تمليه ظروف المعركة ، فلا يتقدم حيث يجب عليه التريث ، ولا يولى الأدبار فى الظروف التى تحتم عليه مواصلة الزحف إلى الأمام . ومن المسلم به أن من أهل تأهيلا عاليا يستطيع التعامل مع الطرف الآخر بحكمة واقتدار .

ولهذا نركز دائما وباستمرار على وجوب العناية بتأهيل الدعاة تأهيلا عاليا حتى يكون لعملهم أثر طيب على الفرد والمجتمع : **﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين * أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا اسألكم عليه أجرا ، إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾**[٤٤٣] .

(٤٤٣) الأنعام ٨٩ ـــ ٩٠.

الفصل الحادى عشر

القــدوة

بين النظرية والتطبيق

تمر المذاهب والتيارات الفكرية فى المجتمعات البشرية ــ وكذلك كل مايطبقه الإنسان فى مجالات حياته المختلفة ــ بأربع مراحل ، وهى : التفكير والتنظير والتطبيق والانتشار ، إذ أن كل نظام أو أسلوب للحياة كان فى الأصل فكرة فى الذهن ، ثم لما تبلورت الفكرة ونضجت خرجت إلى الوجود على شكل نظرية ، تحدد معالمها ، وتوضح مضمونها ، وتبرز أهميتها فى حياة الإنسان ، فإذا كانت متطابقة مع طبيعة الإنسان ، ومنسجمة مع حياة المجتمعات ، حيث تلبى حاجات الفرد ، ولاتتصادم مع أساسيات الاجتماع ، أمكن تطبيقها وانتشارها بين الناس ، ثم تصبح عادة يألفونها ويتمسكون بها ، ويدافعون عنها ، بل يصل الأمر أحيانا إلى بذل الأرواح فى سبيل بقائها ، لو هددت بفكرة أخرى لايقبلها الناس ، ولا يشعرون نحوها بانعطاف أو انسجام .

فطبيعة الفكرة ، ومدى وضوح نظريتها المعبرة عنها ، وتلبيتها لحاجات الناس ، وتفوقها على مالديهم من قيم وعادات فى مجال الحياة العملية ، تلعب دورا كبيرا فى مدى اقتناع الناس بها ، وسرعة استجابتهم لها ، والتفانى فى تطبيقها ونشرها بين الناس ، إذ غالبا مايبذل المقتنع بفكرة ما ، أو المؤيد لنظام معين ، جهدا كبيرا فى مجال إقناع الناس بهذه الفكرة وكسب أكبر عدد من الناس إليها ، حتى يؤمن استمرارها فى الوجود ، ويرى قوة تمكنها فى حياة المجتمع لأنه يشعر بأنها أصبحت جزءا من ذاته فكلما قويت وانتشرت أحس بأن هذه القوة ــ وذاك الانتشار ــ تمده بالحياة ، وتساعده على تحقيق ذاته ، وتثبيت كيانه ، ولهذا يحاول دائما سد الثغرات التى يتسرب الضعف منها ، ويعمل على تطويرها باستمرار حتى لايتسرب إليها وهن الشيخوخة ، وضعف التقادم ولايصيبها

التحلل بسبب جمودها أمام حركات التغير المستمر ، وموجات التيارات المتجددة باستمرار .

هذه هى معالم أى مذهب ، أو نظام بشرى فى المجتمعات الإنسانية ، سواء كان دينيا أو غير دينى : فكرة ، فنظرية ، فتطبيق ، فانتشار ، فتغيير وتبديل لاستمرارية الوجود . فلو كانت الفكرة غير مكتملة استحالت صياغتها فى نظرية ، ولو صيغت فى نظرية وكانت غير موائمة لحياة الإنسان ، كأن كانت خيالية غير قابلة للتطبيق ، أو تصامدت مع متطلبات الحياة وضروراتها ، لعجز المعتنقون لها عن تطبيقها ، فإذا اجتمع فيها جميع مقومات الصلاحية ، وفقد المؤيدون لها ، الولاء لها ، أو تهاونوا فى بيانها للناس عجزت عن الوصول إلى أفكار الناس وأفئدتهم ، فوئدت فى مهدها . كذلك لو لم يتعهدها المؤيدون بالتجديد والتطوير لتكاثرت عليها موجات التطور المتلاحقة ، فطوقتها بما يزهق روحها ، ويقضى على آثارها .

فهل يخضع الإسلام باعتباره فكرا ونظاما للحياة لهذا القانون ؟

لايمكن الإجابة على هذا السؤال بـ «نعم» أو بـ «لا» لأن عناصر هذا القانون متعددة ، بعضها لايمكن تطبيقه على الإسلام ، والبعض الآخر يجوز أن يرى المرء ملامح له فى مجال الدعوة الإسلامية ، ولكنها تختلف فى مضمونها وأهدافها عما هو ملاحظ فى النظم الفكرية والمذاهب والأديان البشرية المنتشرة فى المجتمعات الإنسانية ، ذلك أنه إذا كان من المسلم به أن كل نظام كان فى مبدئه فكرة ، ثم لما نضجت أصبحت نظرية ، فلا يجوز تطبيق هذا على الإسلام بأى وجه من الوجوه ، لأن مبادىء الإسلام وتشريعاته وحى من الله ، فمن المحال ، أن نقول : إنه كان فكرة فى عقل الله ثم صاغه نظرية ، كما يحدث فى مجال إنتاج العقل البشرى . إذاً فالمرحلتان الأوليان ليستا موجودتين فى الإسلام ، وحل محلهما كون الإسلام وحيا من الله سبحانه وتعالى ، فابتداء الخيط فى سلسلة الدعوة الإسلام الاقتناع بأن مبادىء الإسلام وتشريعاته منزلة من عند الله على رسوله الصادق فيما بلغ عن ربه ، فقد ثبت صدقه ، وتأكدت نبوته ، فما بلغه هو من الله الذى يعلم مايحتاج إليه البشر ، وما يتناسب مع طبيعة الناس ، ويلبى حاجتهم ، فهو قابل للتطبيق ، لأنه ليس مغرقا فى الخيال ، ولا متصادما مع ماتتطلبه الحياة الإنسانية . وعلى المسلمين بيان هذا للناس حتى يقفوا على هذه الجوانب فى العقيدة والشريعة . وأول عمل فى هذا المجال هو : «القدوة الحسنة» لأنها أبلغ من القول فى اقناع الناس فكريا ، وأشد تأثيرا على عواطفهم وأحاسيسهم ، وأكثر فاعلية فى تطويع جوارحهم لتعاليم الله وتشريعاته .

فكيف تكون القدوة الحسنة ؟
ومن ينبغى الاقتداء به ؟
ذلك ماسوف نفصله ...

رسول وقدوة

إذا كان ثبوت إمكانية تطبيق أى نظرية من النظريات ، يؤثر تأثيرا كبيرا من مجال إقناع الناس بها ، مما يجعله الدليل الرئيسى الذى يعتمد عليه مروجوها والمدافعون عنها ، فإنه يعتبر المحور الذى تدور عليه فعالية الدعوة فى مجال الأديان ، بل إنه يحتل المكان الأول فى الدعوة الإسلامية ، لكنه لايعرف فى تعاليم الإسلام ، وأوساط المسلمين بهذا الاسم بل يطلق عليه : «القدوة الحسنة» .

فالقدوة الحسنة هى المنارة الأولى التى تنير الطريق لإقناع الناس بصدق من أوحى إليه ، وتوضح لهم بالتطبيق العملى أن تعاليم الإسلام ممكنة التطبيق وتؤكد لهم أن ماجاء على لسان رسول الله ﷺ ، ومايردده المسلمون من بعده ليس كلاما نظريا فحسب ، لايرى مدلوله فى أعمال المسلمين وسلوكهم ، ولا شعارات يرفعها أرباب الدعوة ليكسبوا من ورائها غنما ماديا ، أو جاها وسلطانا أدبيا ، وليس بينهم وبين تطبيقها عمليا فى حياتهم ، إلا كما بين المتضادين ، أو المتنافرين ، لايجتمعان فى مكان واحد . إنها ـــ أى القدوة الحسنة ـــ الأسلوب البليغ فى مجال الدعوة ، والطريق المثلى فى ساحات تصارع الأفكار وتضاربها ، وتطاحن الدعوات وتدافعها للاستيلاء على مشاعر الناس وأفئدتهم .

ويأتى صاحب الدعوة فى مقدمة من ينبغى أن يكونوا قدوة صالحة ، ومصباحا وضاء ، ومنارة هادية للناس على طريق الحق ، حتى تزلل العقبات ، وتزال الحواجز من أمام الناس ، ليدخلوا فى دين الله ، ولهذا عنى الحق تبارك وتعالى بتربية أنبيائه ورسله حتى يصبحوا المثل الصادق لقومهم ، ويشتهروا بين مواطنيهم بالأخلاق الحميدة ، والشمائل الكريمة ، والأعمال الصالحة ، والنوايا الحسنة ، ويعرف الناس عنهم عزوفهم عن الرذائل ، وبعدهم عن الشبهات ، وحرصهم على الالتزام بالفضائل ، فهم صادقون فيما يخبرون ، وأمناء على الأموال والأعراض ، فلا يعتدون على مال أحد ، ولا يخوضون فى عرض إنسان ، وهم شجعان لايعرفون الجبن ، ولايرضون على أنفسهم التخاذل فى مواطن إقدام الرجال . كانت هذه صفات الأنبياء بين أقوامهم ، وعلى رأسهم خاتمهم محمد ﷺ .

فقد كان الصادق الأمين ، اشتهر بين قومه بكل صفة حميدة ، وماعرف الناس عنه ميلا إلى رذيلة من الرذائل ، أو ترددا ، أو تخاذلا عن بذل الجهد والمال لكل من يحتاج إليه . وجاء التعبير عن فضائله فيما قالته له السيدة خديجة — رضى الله عنها — عندما أخبرها بما حدث له فى غار حراء عند نزول أول آية من القرآن الكريم ، تطمئنه على أنه لن يمسه سوء : «كلا والله لايخزيك الله أبدا ، إنك لتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق» .

كما اشتهر بين قومه بأنه الصادق الأمين ، وذلك لما عرف عنه من الاستقامة وحسن الخلق ، والتعفف عن كل مايمارسه الشباب من نزوات وشطحات فى عالم اللهو . لقد كان بين أقرانه مثلا فريدا فى خلقه وتعامله معهم ، وبين أصدقائه وأقربائه نموذجا يحتذى به كل من يريد الترفع عن الدنايا ، كى ينال قسطا من احترام المحيطين به ، مما كان له الأثر الكبير فى إيمان كثير منهم بدعوته ، فقد آمنت خديجة لما عرفت عنه من صدق وأمانة وحسن خلق ، وآمن به أبو بكر لأنه عرفه عن قرب ، فاستبعد عليه الكذب على الله ، لأن من لايكذب على الناس يستحيل أن يكذب على الله ، وكذلك كان الحال مع على بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة وغيرهما ممن كانوا ملازمين له قبل البعثة فمعرفتهم له عن قرب أقنعتهم بأنه لايمكن أن يكون كاذبا فى دعوته . فتأديب الله لمحمد ﷺ قبل البعثة ، كان له أثر كبير فى نشر الرسالة ، حتى بين المعارضين والمنكرين لرسالته ، إذ أنهم لم يجرءوا على رميه بالكذب فى دعواه ، يقول تعالى : ﴿**فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾(٤٤٤) ، لم يستطيعوا تكذيبه لأنه اشتهر بينهم بالصدق ، فرموه بالسحر تارة ، وبالجنون تارة أخرى ، مما يؤكد أهمية امتثال الداعية للمبادىء والتعاليم التى يدعو إليها ، لأنه هو محور اهتمام من يدعون إلى هذه المبادىء ، فلو كان كفار قريش يعلمون جانبا من حياة محمد ﷺ ، يمكن أن يصلوا من خلاله إلى اتهامه بالكذب لفعلوا . فكانت سيرته قبل البعثة عاملا مؤثرا فى مجال دعوته إلى الله ، وتلك من لوازم القدوة الحسنة التى يتحتم وجودها لنجاح أى دعوة فى المجتمع الانسانى .

كان الرسول ﷺ المثل الأول للاقتداء ، والنموذج الأمثل للسير على منواله ، فعمله كان تطبيقا لدعوته كما كانت سيرته نبراسايحتذىبه المسلمون فى حياتهم ، ومنارة يهتدى بها

---

(٤٤٤) الأنعام ٣٣

الحائرون فى مشاكلهم ، يقول تعالى : ﴿**لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**﴾(٤٤٥) ، كذلك كانت أقواله المدعمة بأفعاله أدلة دامغة للمعاندين والمكابرين ، وتنبيها وإيقاظا للغافلين والحيارى فى طريق اختلطت فيه الأفكار والاتجاهات ، وتشابكت فيه أصوات الحق مع صرخات الباطل ، إذ أن طريقة حياته فى بيئته ، وتعامله مع من حوله ، وعلاقته بالمغريات المحيطة به ، وأسلوب معاملته مع الأنصار والأعداء ، لدليل واضح وحجة دامغة ، وبيان صريح على أنه رسول من عند الله ، لأن مايتحلى به لايكون إلا أخلاق نبى ، وصفات من أرسلهم الله بعد أن هيأهم لهذه المهمة العظيمة يقول تعالى : ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾(٤٤٦) ، ويقول هو عن نفسه : «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**» .

إذا كان من المسلم به أن لأخلاق صاحب أى دعوة — حتى ولو كانت لاصلة لها بالأديان — تأثيرا كبيرا فى انتشارها إيجابا وسلبا ، فإن سيرة محمد ﷺ تكاد تكون محور هذا الانتشار ، فقد كانت بعيدة الأثر فى إقناع معاصريه بالإسلام ، كما تُعدّ أحد ركنى الدعوة إلى الإسلام فى كل عصر وزمان ، فإذا كان القرآن الكريم هو سلاح الداعية الأول ، فإن سيرة رسول الله ﷺ سلاحه الثانى ، يستخرج منها من الأمثال مايقنع المدعوين ، ومن الأحداث مايرقق قلوبهم ، ويهذب مشاعرهم ، ويؤثر فى أحاسيسهم بحيث ينقادون لتعاليم الإسلام ، فينفذون أمر الله عن رضا واقتناع .

فلو تتبعنا سيرته ﷺ لاستخرجنا كثيرا من الصفات التى ينبغى على الداعية أن يتحلى بها لينجح فى رسالته ، لكن المقام يقتضينا أن نذكر أهم ماجاء فى سيرته ، مما يكون له بالغ الأثر فى مجال الدعوة لو اقتدى به الدعاة فى ذلك .

الصبر

إن من أهم ماينبغى على الداعية أن يقتدى فيه برسول الله ﷺ ماكان يتحلى به ﷺ من الصبر ، لأن لذلك أثرا كبيرا فى مجال نشر الدعوة . لقد ضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى فى الصبر ، امتثالا لأمر الله له ، إذ وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحثه على الصبر على أذى قريش يقول تعالى : ﴿**واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا**

---

(٤٤٥) الأحزاب ٢١
(٤٤٦) ن ٤

جميلا﴾[٤٤٧]. ويقول : **﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾**[٤٤٨] ، ويقول : **﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ، ولامبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين * وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾**[٤٤٩] . فمنذ بدء الدعوة إلى الرسالة كان الصبر مطلوبا من الله لرسوله الكريم ، ومأمورا به إياه ، لأنه عامل رئيسى فى النجاح وفى دفع الهزيمة ، ولكى يؤكد القرآن أهمية الصبر فى النجاح يأتى قوله مخاطبا المؤمنين : **﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾**[٤٥٠] ، فصفة الصبر لاتجعل العدد القليل عند اللقاء والمواجهة يساوى فى القوة : العدد الكثير ، بل تجعله يتفوق عليه ، ولذا يكون النصر للجانب الذى صبر مع قلة عدده ، ضد الجانب الآخر مع كثرته العددية .

إن القوة المعنوية هى أشد فعالية من القوة المادية ، لأنها فى حقيقة الأمر هى قوة الإنسان ، والقوة الإنسانية هى دائما قوة نافذة ومستمرة لغيرها ، وفى كل ماينصح به الإسلام فى سبيل القوة يركز على القوة المعنوية والإنسانية فى الدرجة الأولى : **﴿ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين * ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لاتشعرون * ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾**[٤٥١] ، فهو ينصح بالصبر والصلاة فى القتال فى مواجهة الاعداء ، وينصح بالصبر والصلاة فى مواجهة أزمات الحياة والشدة التى تطرأ بسبب الخوف ، والجوع ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات .. ثم يعد بالنصر فى القتال ، وباجتياز الأزمات والشدائد فى سلام لأولئك الصابرين ويخص الصبر بالذكر هنا ، لا لأن أهميته تفوق أهمية الصلاة فى النجاح ، ولكن فقط ليؤكد أهمية الصبر ودوره فى الإنقاذ والنجاة ، ثم الاستمرار فى الحياة .

---

(٤٤٧) المزمل ١٠
(٤٤٨) الأحقاف ٣٥
(٤٤٩) الأنعام ٣٤ — ٣٥
(٤٥٠) الأنفال ٦٥
(٤٥١) البقرة ١٥٣ — ١٥٦

أمر الله رسوله ﷺ بالصبر على مايلاق فى سبيل الدعوة فامتثل لأمر الله ، واستمر فى دعوته غير عابىء بعناد المناوئين ، ولا متأثر بإصرارهم على الباطل ، فكان ثباته على الحق مثلا أعلى لكل من يسير على هداه فى دعوة الناس إلى الحق ، وأى مثل أعلى من تصرفه حين عرضوا عليه من الاغراءات المادية والعروض الدنيوية مايسيل له لعاب أى إنسان ، ويسقط تحت بريقه أكثر الناس تمسكا بالمبادىء ، وأعلاهم صوتا بالدعوة إلى الاصلاح . لقد ثبت محمد ﷺ أمام عروض قريش المغرية ، وأعلنها صريحة مدوية أنه لايرضى بدعوة الحق بديلا ، فقد حدث أن قريشا أرسلت وفدا من علية القوم — وعلى رأسهم أبو سفيان — إلى أبى طالب ، وقالوا له : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فانك على مثل مانحن عليه ، من دين وعقيدة ، فقال لهم أبو طالب قولا بليغا وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه ، لكنهم عندما رأوا أنه لم يفعل شيئا مشوا إليه مرة أخرى ، فقالوا : ياأبا طالب : إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وقد رجوناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل ، فإنا والله لانصبر أكثر مما صبرنا على شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين . عظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا بأن يسلم رسول الله ﷺ لهم فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له : ياابن أخى إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق .

وظن رسول الله ﷺ إن أبا طالب قد اضطرب فى أمره ، وضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال : **«ياعم : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ماتركته»** واستعبر رسول الله ﷺ فبكى ، ثم قام ، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل ياابن أخى فأقبل رسول الله ﷺ فقال له : اذهب ياابن أخى فقل ماأحببت ، فو الله لاأسلمك لشىء أبدا .

كذلك كررت قريش محاولتها مع النبى ﷺ لصرفه عن دعوته فعندما رأت أن أصحابه يزيدون ويكثرون استأذن عتبة بن ربيعه قريشا — وفى رواية أنهم هم الذين كلفوه — أن يأتى رسول الله ﷺ فيكلمه ويعرض عليه أمورا ، لعله يقبل بعضها فيعطونها له ، ويكف عنهم ، وأذنت له قريش واستخلفته . وجاء عتبة إلى رسول الله ﷺ فجلس إليه ، وقال : ياابن أخى : إنك منا حيث قد علمت ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به من

جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .

فقال رسول الله ﷺ : «قل ياأبا الوليد «أسمع» قال : ياابن أخى . **إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا ، سودناك علينا ، حتى لانقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان الذى يأتيك رئيا تراه لاتستطيع رده عن نفسك ، طلبنا له أطباء ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .**

فلما فرغ عتبه ، قال رسول الله ﷺ : أو قد فرغت ياأبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع منى قال : افعل فقرأ رسول الله ﷺ آيات من سورة «فصلت» إلى السجدة ، فلما سمع منه عتبة ، أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها ، يسمع منه ، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها ، سجد ، ثم قال : قد سمعت ياأبا الوليد ماسمعت فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله قد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم ، قالوا : ماوراءك ياأبا الوليد ؟ فقال : ورائى أنى سمعت قولا ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يامعشر قريش . أطيعونى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه ، فاعتزلوه ، وقالوا : سحرك والله ياأبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه فاصنعوا مابدا لكم .

هذه أمثلة واضحة تدعو الدعاة إلى الصبر اقتداء برسول الله ﷺ ، فلا ييأسوا من قسوة الناس وأذاهم ، ولايضعفوا أمام المغريات المادية ، أو يحيدوا عن طريق الدعوة فى مقابل مكاسب أدبية ، بل عليهم أن يصبروا فى دعوتهم ، ويقاوموا مايعترض طريقهم من عقبات ومعوقات : اقتداء برسول الله ﷺ ، فذلك هو الأسلوب الأمثل لنجاح الدعوة فى المجتمع .

ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى فى سبيل الدعوة إلى الناس ، فكما صبر فى مكة على أذى قريش ، ومعارضتها له ، كذلك صبر فى المدينة على مؤامرات المنافقين ، سواء كان ذلك فى مجال تشكيك المسلمين فى دينهم ، أو فى مجال ترويج الشائعات لإحداث فتنة ، أو إلحاق ضرر بسمعة المؤمنين والمؤمنات ، ذلك أنماابتلى به النبى ﷺ فى المدينة هو : النفاق والمنافقون من جانب ، وترويج الشائعات الضارة من جانب آخر . وقد قابل النبى

هذه الظواهر المرضية بالصبر والحكمة ضاربا المثل الأعلى لمن يأتى بعده من الدعاة ، كى يكون سلوكه نبراسا لهم فى مجال نشاطهم ، ومنارة تهديهم إلى الأسلوب الأمثل فى مواجهة مثل هذه العقبات .

تعرض النبى ﷺ لأذى المنافقين فى المدينة ، ومن أشهر ماروى فى هذا الصدد مافعله عبد الله بن أبى بن سلول ، ويعرف فى تاريخ الإسلام بـ « كبير المنافقين » . والذى دفعه إلى هذا الموقف رواسب أحداث وقعت قبل هجرة المسلمين إلى المدينة ، ذلك أنه كان رجلا ذا منزلة كبيرة بين قومه ، فأجمع الناس على تنصيبه عليهم أميرا ، وقبل أن ينصب رسميا آمن أهل المدينة بالإسلام ، وكانت هجرة الرسول ﷺ إليها ، فتنوسى هذا الأمر .

ولهذا كان يغار كثيرا من الرسول ، ويحمل فى قلبه حقدا دفينا ضده . وقد وضح هذا الموقف فى حادثتين :

الأولى : حادثة الفتنة الخطيرة التى أراد بها التفريق بين المهاجرين والأنصار حتى لايجد المهاجرون لهم مفرا من الخروج بأنفسهم وأهليهم. وتفصيل ذلك أن جهجاه بن سعيد الغفارى ــ وكان أجيرا لعمر بن الخطاب ــ اقتتل على الماء مع أنصارى ــ وهو سنان بن يزيد ــ فنادى سنان : يامعشر الأنصار . ونادى جهجاه : يامعشر المهاجرين : وكادت الفتنة أن تشتعل ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ وقال لهم : **«مابال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة»** . لكن نفاق عبد الله بن سلول دفعه إلى استغلال هذه الفرصة ليفرق بين المهاجرين والأنصار فقال لجماعة من قومه ــ وكان فيهم زيد بن الأرقم ــ : قد ثاورونا فى بلادنا، والله مامثلنا وجلابيب قريش إلا كما قال القائل : « سمن كلبك يأكلك » ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من عنده من قومه وقال : هذا ماصنعتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم . وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها .

فلما سمع ذلك زيد بن الأرقم ، ذهب إلى النبى ﷺ وأخبره بما قال عبد الله بن أبى ، فقال عمر رضى الله عنه ــ وكان جالسا معه فى ذلك الوقت ــ يارسول الله ، مر عباد بن بشر فليضرب عنقه ، فقال رسول الله : فكيف إذا تحدث الناس ياعمر أن محمدا يقتل أصحابه ، ولكن ناد ياعمر : «الرحيل» .

رحل رسول الله ﷺ فى وقت لم يعتد أن يرحل فيها لشدة الحر ، فلقيه أسيد بن الحضير ، فسلم عليه بتحية النبوة ، ثم قال : والله ، لقد رحلت فى ساعة مبكرة ، ماكنت

تروح فيها . فقال رسول الله ﷺ : **«أما بلغك ماقال صاحبك ابن أبيّ ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل»** . قال فأنت يارسول الله العزيز وهو الذليل ، ثم قال : ارفق به يارسول الله ، فو الله لقد جاء الله بك وإنا لننظم الخرز لنتوجه فإنه ليرى أن قد سلبته ملكا . سار النبى صلى الله عليه وسلم بالناس نهاره ، حتى أمسوا وليلته حتى أصبحوا ، وصدر يومه حتى اشتد الضحى ليشغلهم عما كان من الحديث ، ثم نزل بالناس ، فلم يأمنوا أن وجدوا مس الأرض فناموا .

ويروى زيد بن الأرقم أن الرسول ﷺ أرسل إلى عبد الله بن أبى ليسأله عما صدر منه ، فجاء هو وأصحابه وحلفوا بالله ماقالوا ، فكذبنى رسول الله وصدقه ، فأصابنى هم لم يصبنى مثله قط ، وجلست فى البيت ، حتى أنزل الله سورة المنافقين ، فبعث إلىّ رسول الله فقرأها علىّ : ثم قال : **«إن الله قد صدقك»**

كما يروى الرواة أن عبد الله بن عبد الله بن أبى لما بلغه ماكان من أمر أبيه ، أتى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، انه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا ، فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فو الله لقد علمت الخزرج ماكان لها من رجل أبر بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأكون بذلك قد قتلت مؤمنا بكافر فأدخل النار . فقال له رسول الله ﷺ : **«بل نترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا»** .

فقد ضرب رسول الله ﷺ بذلك المثل الأعلى فى السيطرة على القوم ، وقتل بذور الفتنة قبل أن يستفحل شرها ، وذلك بالأمر بالرحيل كما كانت معالجته للموضوع برمته .

ـــ سواء ماتعلق بمروجى الفتنة ، أو ماإتصل بأطرافها : زيد بن الأرقم ، وعبد الله بن أبى (المنافق) وابنه عبد الله ـــ على جانب كبير من السياسة والحكمة التى يجب على الدعاة أن يترسموا خطاها ويسيروا على منهاجها ، فقد رفض رأى عمر ، لماله من آثار سيئة على مسيرة الدعوة ومال إلى تصديق عبد الله بن أُبَىّ عندما أنكر أنه قال مانقله زيد بن الأرقم إليه ، حتى يقضى على ماخلفته تلك المقالة من آثار سلبية على تماسك المجتمع الإسلامى ، ورفض عرض عبد الله بن عبد الله بن أبى بقتل أبيه بيده ، لأنه ، وإن كان عرضا صادقا منه ، إلا أنه ـــ لو حدث ـــ كان سيسبب آلاماً لمؤمن صادق فى إيمانه ، ومخلص لدينه ولرسوله ، فمن الأولى أن يحافظ الرسول على شعوره حتى وإن كان فى ذلك تنازل عن حقوق يقرها الشرع ، وتؤيدها سنة الحياة ، ولقد جمع رَدُّهُ على عبد الله بن عبد الله بن

أى حكمة الأنبياء مع أسلوب الرحماء فى سياسة الأمم والشعوب : « بل نترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا » .

الحكمة فى مواجهة الأزمات

تمر الأمم والمجتمعات بأزمات تتفاوت فى حدتها وتأثيرها على حياة الناس كما تختلف ردود الفعل التى تحدثها باختلاف من تتعلق به فى سلم الوضع الاجتماعى أو المركز الدينى ، إذ كلما ارتبطت الأحداث بشخصيات بارزة فى المجتمع ، كان صداها أوسع ، وآثارها أعمق فى نفوس الناس ، ويبلغ الصدى مداه ، إذا كان الحدث متعلقا بالشخصية التى تحلقت حولها الأمة ، واتخذتها مركزا لحياتها ، ومنبعا لمقومات شخصيتها ، بل إن الأثر يكون عميقا عمقا لايصل التصور الذهنى إلى قراره ، إذا تعلق الحدث بالمبادىء التى قامت عليها شخصية المجتمع وهويته ، ولذلك نرى أن سيرة الزعماء والمصلحين هى مرآة الأمة ، ومحور اهتمامها ، فإذا لوثت أصيب الناس بخيبة أمل قد تقودهم إلى الكفر بالمبادىء التى نادى بها هؤلاء المصلحون ، ودعا إليها الزعماء ، فما بالك إذا استهدف الحدث نبيا من الأنبياء ، وكان مضمونه يتعلق بشىء ركزت دعوته عليه تركيزا كبيرا ، واهتمت به اهتماما بالغا ، إذ من الممكن أن تقوض الدعوة بمثل هذه الأحداث ، أو على الأقل تصاب بداء عضال لاتشفى منه أبدا ، حيث يكون نقطة سوداء فى جبين المبادىء الوضاء ، وغشاوة أمام أعين كثير من الناس تحول بينهم وبين الإيمان بهذه المبادىء .

ومن هذه الأحداث التى بلغت فى خطورتها مبلغا كبيرا : حديث الإفك ، الذى افتراه المنافقون وروجوه فى المجتمع ، ظنا منهم أنهم سينالون من الإسلام بهذا العمل ، إذ اعتقدوا أن لصوق التهمة بأقرب الناس إلى صاحب الدعوة من شأنه أن يهز الإيمان فى قلوب المسلمين . لكن الرسول ﷺ قابل هذه الشائعة بصبر وحكمة وتعامل معها بأسلوب الأنبياء ، فكان ذلك مثلا للمسلمين من بعده ليسيروا فى مثل هذه الأحداث على سيرته ويتبعوا سنته حتى لايستفحل الأمر ، فيعجز المصلحون عن معالجة آثاره السيئة .

وبيان ذلك ماروى عن عائشة أنها قالت : **« كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها ، خرج بها رسول الله ﷺ معه . قالت عائشة رضى الله عنها : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى ، وخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعد مانزل الحجاب ، فأنا أحمَل فى هودجى وأنزل فيه ،**

فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى ، فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع ظفا رقد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى ، فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، ووجدت عقدى بعد مااستمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولامجيب ، فيممت منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلىّ ، فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عيناى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى قد عرس من وراء الجيش فأدلج ، فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى ، فعرفنى حين رآنى ، وقد كان رآنى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى ، والله ماكلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته ، فوطىء على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد مانزلوا موغرين فى نحر الظهيرة ، فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كبره : عبد الله بن أبى بن سلول .

تحدث الناس بحديث الافك ، إذ نشط المنافقون فى إذاعته بين الناس وجدوا فى تصوير الأمر ، وكأنه حقيقة مؤكدة ، كل ذلك وعائشة لاتعلم شيئا عن هذه الإشاعة التى ملأت المدينة ، إلى أن قادتها الظروف إلى حديث بينها وبين رفيقة لها حين عودتها من قضاء الحاجة ليلا ، فعرفت منها أن الناس يتحدثون بحديث الإفك تقول عائشة : **فازددت مرضا إلى مرضى — إذ كانت تمر بأزمة صحية فى ذلك الوقت — فلما رجعت إلى بيتى ، دخل علىّ رسول الله ﷺ ، ثم قال : «كيف تيكم ؟» فقلت له : أتأذن لى أن آتى أبوى ، قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لى رسول الله ﷺ ، فجئت أبوى ، فقلت لأمى : ياأمتاه لماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أى بنية هونى عليك ، فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . فقلت سبحان الله وقد تحدث الناس بها ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لايرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى .**

قالت : فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ، وأسامة بن زيد ، حين استلبث

الوحى ، يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله . قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود ، فقال أسامة : يارسولالله : أهلك ولانعلم إلا خيرا . وأما على بن أبى طالب فقال : يارسول الله : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر ..» .

اشتدت وطأة المحنة على عائشة رضى الله ، خاصة أن رسول الله ﷺ ، استشار بعض أصحابه فى شأنها وسأل عنها المحيطين بها ومكثت فى بيت أبيها حتى جاءها رسول الله ﷺ يوما وقال لها : «ياعائشة ! فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب ، تاب الله عليه» قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته ، قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ، فقال : والله مأأدرى ماأقول لرسول الله ، فقلت لأمى : أجيبى رسول الله ، فقالت : والله ماأدرى ما أقول لرسول الله . قالت : فقلت : ــ وأنا جارية حديثة السن لاأقرأ كثيرا من القرآن ــ : لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم : إنى بريئة ــ والله يعلم أنى بريئة ــ لاتصدقوننى ، ولئن اعترفت بأمر ــ والله يعلم أنى منه بريئة ــ لَتُصَدِّقنّى ، فوالله ماأجد لى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف : ﴿فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون﴾(٤٥٢) . قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، وأنا والله أعلم حينئذ أنى بريئة ، وإن الله تعالى مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ماكنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فىّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها .. قالت فوالله مارام رسول الله ﷺ مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل على نبيه قوله تعالى : ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لاتحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم لكل امرىء منهم مااكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ، وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه

---

(٤٥٢) يوسف ١٨

عذاب عظيم * إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناوهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب اليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون﴾[٤٥٣] .

ينبغى أن يكون أسلوب الرسول ﷺ فى معالجة هذا الحدث نبراسا للدعاة ومنارة للمصلحين ، وطريقا لولاة الأمور ليسيروا على منهجه فى معالجة مايجد فى مجتمعاتهم من أحداث ، إذ أن هذا الحدث بلغ من الخطورة درجة كانت كفيلة بهدم الإسلام فى مهده ، وهدم الرسول ﷺ فى أول طريق دعوته ، لكن حكمته ومعالجته الهادئه للأمور حالت دون مضاعفة الآثار التى كان يمكن أن تعصف بالمجتمع الإسلامى فى قاع التمزق والانهيار ، فقاد السفينة وسط الأمواج المتلاطمة وبين العواصف الهوجاء ، حتى نزل الوحى بتبرئة عائشة رضى الله عنها ، فقضى على الفتنة قضاء مبرما .

ألا فليتخذ الدعاة المصلحون ، وولاة الأمر هدى الرسول ﷺ وسيرته طريقا لهم ، كى يؤدوا ماعليهم بالأسلوب الأمثل ، ففى ذلك ضمان للوصول إلى الهدف ، ألا وهو بناء مجتمع صالح يقوى على مواجهة الأعداء ، ويصمد للعواصف الهوجاء ، أيًّا كان مصدرها ، وعلى أى كيفية كانت طبيعتها وهيئتها .

الرأفة

يجدر بنا بعد الحديث عن المواقف الصعبة التى قابلها رسول الله ﷺ أن نتناول بعضا من صفاته ﷺ ، ليكون الدعاة على بينة منها — أو لتكون تذكرة لهم — فيجعلوها نصب أعينهم ، فإن فى ذلك دعماً لدعوتهم وتقوية لمسيرتهم ، وتسهيلا لبلوغ هدفهم ، فإنهم ، إن اتخذوا صفات رسول الله ﷺ دستورا لهم ، ومنارة لخطواتهم ، فسوف يقتنع الناس بكلامهم ، ويثقون فيهم ، وذلك هو أقصى درجات الدعوة ، وأبلغ أثرا فى نفوس الناس .

---

(٤٥٣) النور ١١ — ١٩

كان رسول الله ﷺ شديد الرأفة بالمسلمين ، كثير المراعاة لاختلاف أحوالهم ، ومايعترى النفوس من فتور وملل ، يقول ابن مسعود رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة كراهة السآمة علينا ، وكان مع شدة ولعه بالصلاة يتجوزها ، إذا سمع بكاء الصبى ، فقد روى عنه أنه قال : إنى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى ، كراهة أن أشق على أمه .

فإذا أراد الداعية أن يتأسى فى ذلك بالرسول ﷺ — بل يجب عليه ذلك — فعليه أن يراعى ظروف الحال ، وطبيعة الموقف ، ويتبين الملابسات ، فلا يلقى موعظة حيث لامحل لها ، ولا يتفوه بكلمات إلا إذا كان متأكدا أن القوم على إستعداد ليسمعوا له ، وإلا فسوف يكون أداة تنفير ، وصوتا يبعث الناس على كراهية الوعظ ، وسماع الوعاظ ، بل ويبعث على الاستهزاء به ، إن لم يكن بالقول المسموع ، فسيكون بالهمس الممقوت . ولايحسبن أن كثرة الكلام ، وفصاحة اللسان هما المعول عليهما فقط فى عمل الواعظ ، بل لابد أن يضاف إليهما حسن اختيار وقت الكلام ومكانه ، وتقدير ظروف الناس ، ومعرفة أحوالهم ، حتى يكون لكلامه أثر طيب ، ولحجته آذان صاغية . كذلك لاينبغى أن يطيل فى الموعظة حتى لايسأم الناس فينصرفوا عنه ، ولا يبالغ فى تأدية العبادات ، لأن فى المبالغة حرجا لبعض الناس فعن ابن مسعود أن رجلا قال : «والله يارسول الله ، إنى لأتأخر عن صلاة الغد من أجل فلان مما يطيل بنا ، فما رأيت رسول الله ﷺ أشد غضبا منه يومئذ ، ثم قال : **«إن منكم منفرين ، فأيكم صلى الناس فليتجوز ، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة»** .

فمن يطيل الصلاة — وهو يؤم الناس — منفر ، ومن يسهب فى إلقاء الموعظة بدون داع منفر ، ومن يقحم نفسه بالحديث عن الإسلام فى موقف غير ملائم ، لايجنى من وراء ذلك إلا السخرية والاستهزاء ، وبالتالى فعمله لاأثر له ، بل له من الآثار السلبية مالا يستطيع محوه إلا بشق الأنفس ، فالدين يسر ، وينبغى أن تكون الدعوة إليه بأسلوب ، لاتنطع فيه ، ولاتكلف ، بل إن القيام بواجباته وفروضه لاتكون مقبولة إلا إذا كانت فى إطار سهل ، ميسر لكل الناس ، فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : **«إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة»** . وقال : **«مه ، عليكم بما تطيقونه ، فو الله مايمل الله حتى تملوا»** . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سئل النبى ﷺ : أى الأديان أحب إلى الله ؟ قال : **«الحنيفية السمحة»** .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : «**هلك المتنطعون**» أى المتشددون ، وقال لبعض من بعثهم للدعوة والتعليم : يسرا ولاتعسرا ، وبشرا ، ولاتنفرا.

فالقدوة برسول الله ﷺ تحتم على الداعية أن يتخير موعظة الناس زمانا ومكانا ، وألا يطيل فى موعظة إلا إذا اقتضت الظروف ، وألا ينفر الناس بكثرة الوعيد ، بل عليه بالتبشير ، ولا يتطرق إلى وعيد الله إلا عند الحاجة القصوى ، وإن أم الناس فليخفف عنهم ، وليكن بالنسبة للناس ، كما كان رسول الله ﷺ : أوسعهم صدرا ، وأكرمهم عشيرة ، وألينهم جانبا ، لاينعزل عنهم ، بل يخالطهم ويحادثهم ، ويجيب دعوة الغنى والفقير ، والكبير والصغير ويعود المرضى ، ويحنو على الضعفاء ، ومن لم يستطع ذلك فلا يقحم نفسه فى مجال الوعظ ، كى لايتسبب فى إحداث مايعوق مسيرة الدعوة فى المجتمع الإنسانى .

الحلم

تتطلب قيادة المجتمع أن يتحلى القائد بصفات يكون لها الأثر الفعال فى التفاف الناس حوله ، وتعلقهم به ، وامتثالهم لأوامره ، واجتنابهم نواهيه . ومن هذه الصفات : الحلم ، إذ يجب أن يكون القائد حليما ، لأن لين الكلام هو مفتاح القلوب والدواء الناجع لأمراض النفوس ، إذ لاينفر الناس من الحليم ، ولاتشمئز نفوسهم ممن يحنوا عليهم ، ويرعاهم رعاية الأب لأبنائه . ولما كان الدعاة فى مركز أكثر حساسية من مركز القائد والزعيم ، فيجب عليهم أن يعالجوا أمراض النفوس بأسلوب هادىء وألفاظ حانية ، فلا يستفزهم الغضب ، ولا يستثيرهم الحمق ، حتى لاتنفر منهم قلوب الناس ، أو تشمئز نفوسهم من خشونة القول ، وغلظة السلوك ، وليكن قدوتهم فى هذا معلمهم الأول محمد ﷺ ، فهو إمام الخلق أجمعين ، ومعلمهم فى حسن الخلق ، وكرم النفس ، والتواضع . وقد سجل الله ذلك فى كتابه الكريم بقوله تعالى : ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾[(٤٥٤)] ، كما بين رسول الله ﷺ هذا الجانب فيما روى عنه أنه قال : «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**» .

فحسن خلق الداعية مع من يدعوهم ــ بأن يحنوا عليهم ، فيعظهم بالقول الحسن ،

(٤٥٤) ن ٤

ويتغاضى عن إساءتهم فى حقه ، ويرشدهم إلى مافيه صلاحهم دون غلظة أو تعنت — أساس النجاح فى دعوته ، ومبعث التفافهم حوله ، وتآزرهم معه على طريق الدعوة إلى الله ، وليتذكر دائما قول الله تعالى لنبيه الكريم ، ﴿**ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر**﴾ . إذ أن سوء خلق الداعية ، وقسوة قلبه على من حوله ، وغلظته فى معاملتهم ، وخشونة أسلوبه فى وعظهم ، تنفر الناس منه ، فيتفرقون عنه ، وينصرفون من حوله ، وبذلك يحرمون من الهداية ، فيعيشون فى جهالة جهلاء ، وعماية ظلماء بسبب السلوك السيء للداعية .

وحسب الداعية تذكيرا بهذا الجانب ماروى فى سيرة سيد الدعاة محمد ﷺ ، فقد ثبت أنه كان مضرب الأمثال فى رحابة الصدر ، وقوة الاحتمال ، بل إن مانقرأ عنه فى هذا الصدد يفوق كل خيال ، ولو لم يرو بطريق صحيح لتطرق الشك إلى إمكان وقوع مثل هذا النوع من السلوك ، لأنه فاق كل مقاييس الحلم المتعارف عليها فى المجتمعات البشرية ، فقد عفا عن ألد أعدائه ، إذ يروى أنه أتى عبد الله بن أبى بن سلول — رأس المنافقين — بعدما أدخل حفرته ، فأمر به رسول الله ﷺ فأخرج ، فوضعه على ركبته ، ونفث فيه من ريقه وألبسه قميصه .

كما كان يعفو ويصفح عمن تدفعه خشونة البداوة إلى تصرف غير سليم ، إذا كان يفهم الدوافع ، ويقدر ماعليه المرء ، فيتنازل عن الإساءة التى تلحق بشخصه ، فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجرانى ، غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجبذه بردائه جبذة شديدة فنظرت إلى صفحة عاتق النبى ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته ، ثم قال : يامحمد ، مر لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء .

كان حلمه ﷺ مضرب الأمثال ، فهو منارة يهتدى بها الدعاة وسلوك يتأسى به المؤمنون ، وحجة لاقناع غير المسلمين بصحة دعوته لحملهم على الاعتقاد بأن ماجاء به هو وحى الله الذى أنزل عليه ، وأمر بتبليغه ، فكان معلما رفيقا بالناس فى بيان ماأمره الله ببيانه للناس ، ومصلحا رحيما بمن يدعوهم إلى طريق الحق ، فلم يؤنب أحدا أخطأ عن جهل ، ولم يغلظ القول لإنسان جانبه الصواب لعدم سابق معرفة ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بال أعرابى فى المسجد فقام الناس إليه ليقعوا فيه ، فقال النبى ﷺ : **« دعوه ، وأريقوا على بوله سجلا من الماء ، أو ذنوبا من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين »**

هذه بعض صور من سلوكه ﷺ مع أعدائه ، ومع أصحابه ، .وفى معرض تعليم وتوجيه من أخطأ عن جهل ، فيجب على الدعاة أن يتأسوا به ، لأنهم نوابه فى الدعوة إلى الله ، فإذا لم يسيروا على خطاه ، ضاعت الأمانة ، وتبددت معالم الرسالة فذهب علمهم هباء منثورا ، وحقت عليهم كلمة الله : **﴿ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾**(٤٥٥) .

العفو

من الصفات التى يجب على الداعية أن يتحلى بها : العفو ، إذ هى صفة ممدوحة ، ومن شأن الداعية أن يتحلى بكل ماهو ممدوح ، لأنه يدعو الناس إلى التحلى بكل ماهو حسن . ولا يكون العفو ممدوحا إلا إذا كان عن قدرة على مواجهة من يعفو عنه ، يقول تعالى : **﴿إن تبدو خيرا أو تخفوه ، أو تعفو عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا﴾**(٤٥٦) .

فقد وصف الله نفسه بالقدرة بعد العفو ، ليبين أن العفو لايعد فضيلة إلا إذا كان الذى يعفو قادرا على مواجهة آثار عدم العفو ، وماذاك إلا ليبين للناس أن العفو عن ضعف لايثاب المرء عليه ، لأنه مضطر إليه ، ولا فضيلة لعمل يضطر إليه الإنسان . أما إذا كان قادرا على عدم العفو ، ثم عفا ، فإن ذلك يكون نابعا من طبيعة خيرة فى ذاته .

وفى سيرة رسول الله ﷺ أمثلة كثيرة للعفو ، فقد عفا ﷺ عمن أنكروا دعوته وآذوه ، وعذبوا المسلمين . ونكلوا بهم فى مكة . ومن أنصع هذه الأمثلة وأكثرها وضوحا وبيانا لأصالة صفة العفو عند رسول الله ﷺ ماجرى بينه وبين أهل مكة بعد أن فتحها الله له ، إذ كان فى استطاعته أن يبيح المدينة لجنوده كما تفعل الجيوش المنتصرة ، ليس فقط فى العصور الوسطى حيث يلتمس المحللون العذر لمن يفعل ذلك بقسوة القلوب فى تلك العصور المتخلفة ، بل وفى العصر الحديث ، بل وفى القرن العشرين ، فقد أبيحت المدن الألمانية لجيوش الحلفاء فنهبوا ثرواتها واغتصبوا نساءها ، وعاثوا فيها فسادا .

لم يقتص ﷺ من المجرمين ــ الذين أجرموا فى حقه ، فآذوه أثناء وجوده فى مكة قبل الهجرة ، وعذبوا من آمن به وسلبوا أموالهم ، فدفعوهم إلى الهجرة إلى المدينة دون أن يأخذوا شيئا مما يملكوه فى مكة ــ فلم ينصب لهم محاكم على غرار محاكم التفتيش فى القرن

---

(٤٥٥) الصف ٢ ــ ٣

(٤٥٦) النساء ١٤٩

الوسطى ، أو على غرار محكمة « نور نبرج » التى اقتصت من قادة الجيش وزعماء الحكم فى ألمانيا فى أربعينيات القرن العشرين ، بل قال لهم قولته المشهورة : « إذهبوا فأنتم الطلقاء » . عفو عام لم يذكر التاريخ مثله على الإطلاق ، فلو بحث الإنسان فى سجلات تاريخ الحروب بين الأمم ، فلن يجد عفوا مثل هذا ، ولا سلوكا يقاربه من أى قائد من قواد الحروب التى وقعت فى تاريخ البشرية .

فإذا علل المرجفون هذا السلوك بأنه ضرورة اقتضتها ظروف الدولة الحديثة ، أو بأنهم أهله وذووا رحمه ، فلابد أن يعفو عنهم ، فعليهم أن يتصفحوا سيرته ﷺ ، فسوف يجدون صورا للعفو ليس فيها هذه المبررات ، فعن جابر رضى الله عنه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة نجد ، فأدركته القافلة ، وهو فى واد كثير العضاة ، فنزل تحت شجرة واستظل بها وعلق سيفه ، فتفرق الناس فى الشجر يستظلون ، وبينا نحن كذلك ، إذ دعانا رسول الله ﷺ فجئنا ، فإذا أعرابى قاعد بين يديه ، فقال : **« إن هذا أتانى وأنا نائم ، فاخترط سيفى ، فاستيقظت وهو قائم على رأسى مخترط صلتا قال : من يمنعك منى ؟ قلت : الله . فشامه « أى رده إلى غمده » ثم قعد فهو هذا »** قال جابر : ولم يعاقبه رسول الله ﷺ .

فهذا مثال للعفو لايوجد فيه تبرير المرجفين ، إذ ليس هذا الحدث عاما حتى يقال : « عفا دعاية » ، وليس هو من أقربائه ، بل أعرابى أراد قتله ﷺ ، ومع ذلك عفا عنه ، وماذاك إلا ليعلم من بعده من دعاة وعامة المسلمين بأن العفو عند المقدرة فضيلة دعا إليها الإسلام ، حتى ولو كانت الاساءة المطلوب العفو منها تتعلق بدم أو عرض ، فقد أمر الله سبحانه وتعالى بالعفو عمن اشترك فى إشاعة حديث الإفك ، إذ يروى أن أبا بكر أراد منع العطاء لنفر من هؤلاء الذين لاكت ألسنتهم أخبار الإفك ، فنزل قوله تعالى : **﴿ولايأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾**[٤٥٧] .

فالقرآن الكريم ينصح المسلمين بالعفو ، وسيرة الرسول ﷺ تدعو إليه ، فيجب على الدعاة أن يتحلوا بهذه الصفة لأنهم المرآة التى يرى الناس فيها تعاليم الإسلام حية ، فهم القدوة، وهم النموذج الذى يقلده المسلمون، فلو بلى، أو فسد ضاعت معالم الطريق،

---

(٤٥٧) النور ٢٢

فضل الناس وتخبطوا فى ظلمات هيهات أن يخرجوا منها ، لأن فساد الداعية داء عضال ، إذا فشا فى الأمة قادها إلى التحلل والانهيار .

الشجاعة

يجب على الداعية أن يكون شجاعا ، لايهاب أحدا فى الجهر بالحق ولايخشى شيئا فى إسماع الناس ماأمر الله بتبليغه لهم ، فلا تأخذه فى نشر الدعوة لومة لائم ، وذلك اقتداء برسول الله ﷺ فلم يهب صناديد قريش ، ولم يخف بأسهم ، ولم يلق بالا لجبروتهم وبطشهم ، بل صدع بالأمر فبلغ الرسالة وصبر ، وصابر على أذاهم ، إذ تذكر لنا صفحات سيرته ﷺ أنه ضرب المثل الأعلى فى الشجاعة ومواجهة المواقف الصعبة ، فقد روى أن عمر بن الخطاب — وكان شديد البطش بالمسلمين قبل الإسلام — ذهب إلى دار الأرقم بن أبى الأرقم بعد أن قرأ الصحيفة عند أخته فاطمة ، فلما طرق الباب وعرف المسلمون أنه عمر ، ارتعدوا ، وخافوا من بطشه لكن الرسول ﷺ فتح له الباب ثم أخذ بجلبابه فجبذه ، وقال له : أما آن لك ياابن الخطاب أن تسلم ! فقد أثبت ﷺ للمسلمين فى هذا الموقف أنه أشجع الشجعان ، إذ لم يخف من عمر ، وقد كان معروفا فى مكة ببأسه وجبروته . وكذلك لم يخش رسول الله ﷺ أحدا فى مكة ، فاستمر فى دعوته ، وفى الجهر بأمر الله، دون أن يلتفت إلى كيد كفار قريش ومؤامراتهم المتعددة ضده وضد من آمن بدعوته .

ربى رسول الله ﷺ أصحابه على الشجاعة ، فذكرهم بأنهم ينبغى عليهم ألا يخافوا فى الحق لومة لائم ، ففى حديث عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على أن نقول بالحق أينما كنا لانخاف فى الله لومة لائم .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ قال : «**إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم : ياظالم ، فقد تودع منهم**» . وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : «**أوصانى خليلى بخصال من الخير ، أوصانى ألا أخاف فى الله لومة لائم ، وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مرا**» . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**لايحقرن أحدكم نفسه**» قالوا يارسول الله . وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : «**يرى أن لله عليه مقالا ، ثم لايقول فيه ، فيقول الله عز وجل يوم القيامة : مامنعك أن تقول فىّ كذا وكذا ؟ فيقول خشية الناس ، فيقول : كنتُ أحق أن تخشى**» .

حقا ، ينبغى على الداعية ألا يكون جبانا فى مواجهة العصاة ، ولا عاجزا عن قول الحق فى وجه الجبابرة والطغاة ، ولا متهاونا فى العمل على تغيير المنكر ، مهما كانت الظروف المحيطة به ، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس ، غير أن عليه ألا يكون متهورا فى شجاعته ولا غليظ القول فى جرأته على قوله الحق ، فلا يسب ، ولايشتم حتى لايقابل برد فعل يكون أشد من المنكر نفسه يقول الله تعالى : ﴿**ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم**﴾(٤٥٨) .

فقد أمر الله المؤمنين على لسان سيد الدعاة بأن يلتزموا فى محاوراتهم مع المشركين بالكلمة التى هى أحسن ، فلا يغلظوا القول لهم ، ولا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، كما بين لهم أن الشيطان قد يحملهم على الغلظة فى الدعوة إلى الله لينفر الناس منهم ، يقول تعالى : ﴿**وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا * ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو أن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا**﴾(٤٥٩) .

فالداعية شجاع لايخشى فى الحق لومة لائم ، فلا يداهن أحدا ، ولايخاف جبارا ولا متكبرا ، وفى الوقت نفسه لين القول ، حسن الأسلوب ، فلا غلظة فى موعظته ولاخشونة فى نصيحته ولا تجريح ولاتلميح لأحد فى كلامه ، بل رءوف بالناس ، عطوف عليهم ، حريص على هدايتهم ، يسلك من الطرق أحسنها للوصول إلى هدفه ، وينهج من الأساليب أرقها مع المدعوين ، كى يقنعهم بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا ، وبالقرآن نظاما ومنهجا لمعاشهم ومعادهم .

تعقيب

كان الرسول ﷺ أسوة لجميع الناس ، يقول تعالى : ﴿**لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**﴾(٤٦٠) ، فهو قدوة لجميع أفراد المجتمع ، كبيرهم وصغيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، وسواء كان حاكما أو محكوما ، إذ

---

(٤٥٨) الأنعام ١٠٨
(٤٥٩) الاسراء ٥٣ — ٥٤
(٤٦٠) الأحزاب ٢١

يستطيع كل إنسان أن يرى الجانب المطابق لحالته ، فيتبع سيرته . وقد بين الاستاذ الندوى ذلك فقال :

لقد مثلت حياة النبى ﷺ أعمالا كثيرة ومتنوعه ، بحيث تكون فيها الأسوة الصالحة ، والمنهج الأعلى للحياة الإنسانية فى جميع أطوارها لأنها جمعت بين الأخلاق العالية ، والعادات الحسنة والعواطف النبيلة المعتدلة والنوازع العظيمة القويمة ، فإذا كنت غنيا مثريا ، فاقتد بالرسول ﷺ عندما كان تاجرا يسير بسلعة بين الحجاز والشام ، وحين ملك خزائن البحرين ، وإن كنت فقيرا معدما فلتكن لك أسوة به وهو محصور فى شعب أبى طالب ، وحين قدم إلى المدينة مهاجرا إليها من وطنه ، وهو لايحمل من حطام الدنيا شيئا ، وإن كنت ملكا فاقتد بسننه وأعماله حين ملك العرب وغلب على آفاقهم ، ودان لطاعته عظماؤهم وذوو أحلامهم ، وإن كنت رعية ضعيفا ، فلك فى رسول الله أسوة حسنة أيام كان محكوما بمكة فى نظام المشركين ، وإن كنت فاتحا غالبا ، فلك من حياته نصيب أيام ظفره بعدوه فى بدر وحنين ومكة ، وإن كنت منهزما — لاقدر الله ذلك — فاعتبر به فى يوم أحد وهو بين أصحابه القتلى ورفقائه المثخنين بالجراح ، وإن كنت معلما فانظر إليه وهو يعلم أصحابه فى صحن المسجد ، وإن كنت تلميذا متعلما ، فتصور مقعده بين يدى الروح الأمين جاثيا مسترشدا ، وإن كنت واعظا ناصحا ومرشدا أمينا فاستمع إليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوى ، وإن أردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف ، وأنت لاناصر لك ولا معين ، فانظر إليه وهو ضعيف بمكة ، لاناصر ينصره ، ولا معين يعينه ، ومع ذلك فهو يدعو إلى الحق ويعلن به ، وإن هزمت عدوك وخضدت شوكته ، وقهرت عناده ، فظهر الحق على يديك وزهق الباطل ، واستتب لك الأمر ، فانظر إلى النبى ﷺ يوم دخل مكة وفتحها ، وإن أردت أن تصلح أمورك ، وتقوم على ضياعك فانظر إليه ﷺ وقد ملك ضياع بنى النضير وخيبر وفدك ، كيف دبر أمورها ، وأصلح شئونها ، وفوضها إلى من أحسن القيام عليها ، وإن كنت يتيما ، فانظر إلى فلذة كبد آمنة وزوجها عبد الله ، وقد توفيا ، وابنهما صغير رضيع ، وإن كنت صغير السن ، فانظر إلى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الحنون حليمة السعدية ، وإن كنت شابا فاقرأ سير راعى مكة ، وإن كنت تاجرا مسافرا بالبضائع ، فلاحظ شئون سيد القافلة التى قصدت « بصرى » ، وإن كنت قاضيا أو حكما ، فانظر إلى الحكم الذى قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الأسود فى محله ، وقد كاد رؤساء مكة يقتتلون ، ثم ارجع البصر إليه مرة أخرى ، وهو فى فناء مسجد المدينة يقضى بين الناس بالعدل ، يستوى

عنده منهم الفقير المعدم ، والغنى المثرى ، وإن كنت زوجا ، فاقرأ السيرة الطاهرة والحياة النزيهة لزوج خديجة وعائشة ، وإن كنت أبا أولاد ، فتعلم ماكان عليه والد فاطمة الزهراء ، وجد الحسن والحسين ، وأيًّا من كنت ، وفى أى شأن كان شأنك ، فإنك مهما أصبحت أو أمسيت ، وعلى أى حال بت أو أضحيت ، فلك فى حياة محمد ﷺ هداية حسنة ، وقدوة صالحة ، تضىء لك بنورها دياجير الحياة ، ويتجلى لك بضوئها ظلام العيش ، فتصلح مااضطرب من أمورك ، وتثقف بهديه أودك ، وتقوم بسنته عوجك ، وإن السيرة الطيبة الجامعة لشتى الأمور هى ملاك الأخلاق ، وجماع التعاليم لشعوب الأرض وللناس كافة ، فى أطوار الحياة كلها ، وأحوال الناس على اختلافها وتنوعها فالسيرة المحمدية نور للمستنير ، وهديها نبراس للمستهدى ، وإرشادها ملجأ لكل مسترشد .

منارات على طريق الدعوة

إذا كانت سيرة صاحب الدعوة ﷺ منارة يهتدى بها المسلمون — وخاصة : من يقوم منهم بواجب الدعوة إلى الله ، إذ يتبعها فى سلوكه ، ويستشهد بها فى أحاديثه ومواعظه ، ويستدل بها فى اقناع المتشككين والمترددين — فإن ماسلكه الرواد الأوائل لايقل أهمية فى مجال الدعوة إلى الله ، إذ يستشهد الدعاة بسيرتهم فى مجال حمل الناس على تعاليم القرآن ومبادىء الإسلام الحنيف ، لأن النفس تتأثر بالجانب العملى أكثر من تأثرها بالجانب النظرى ، كما يلعب سلوك الرواد الأوائل وتطبيقهم لتعاليم الإسلام فى مجالات الحياة المختلفة دورا كبيرا فى إقناع المدعوين إلى الإسلام ، لأنه يبين لهم أن الإسلام ليس شعارات بعيدة عن التطبيق ، فهو ليس نظريات جوفاء ، ولا تعاليم صماء ، بل هو قابل للتطبيق ، فمبادئه لاتتنافى مع طبيعة الحياة الإنسانية ، إذ ليس هناك فجوة بين منطوق التعاليم ، وواقع الحياة الإسلامية . بل إن حياة المجتمع الإسلامى كانت صفحة يقرأ فيها كل مايطلبه الإسلام من المسلمين ، فقد كانت التطبيق العملى لما فى القرآن الكريم من عقائد وأخلاق ، والمثال الحى لصورة المسلم الذى يدعو إليها وحى الله الذى أنزل على محمد ﷺ .

ومن الجدير بالذكر هنا أن من أهم وسائل الدعوة بيان ماكان عليه كبار الصحابة وخاصة الخلفاء الراشدون ، إذ عندما يتحدث الداعية عن الإسلام فإن سيرة هؤلاء تأتى فى مقدمة ماينبغى عليه ذكره ، ليبين للناس أن الإسلام ربى جيلا قل أن يتحدث تاريخ الإنسانية عن مثيل له ، جيل ضرب المثل الأعلى فيما يجب أن يكون عليه سلوك الإنسان

مع أخيه ، ووضح من تاريخه أن مايعتبره الإنسان مستحيلا فى مجال العلاقات بين الحاكم والمحكوم يمكن أن يتحقق لو سار الناس على هدى الله ، واتخذوا هؤلاء الرواد مثلا أعلى لهم ، ينهجون نهجهم ، ويتبعون أسلوبهم فى الحكم والإدارة ، وتحمل المسئولية والحرص على مصالح الرعية ، والمحافظة على الحقوق ، سواء كانت تتعلق بالأمة ، أو بفرد من أفرادها مهما كان مركزه الاجتماعى ، وموقعه الطبقى فى المجتمع .

ولو أردنا سرد أمثلة من هذا النوع لطال بنا المقام ، ولهذا نوصى الدعاة ببيان ذلك للناس ، لأن كل تصرف من تصرفات الصحابة — رضوان الله عليهم — وقرار من القرارات التى اتخذوها يعتبر دستورا للحكام فى هذا العصر ، ومثالا ينير للشعوب طريقها التى تراكمت فوقها ظلمات الولاة والقادة . ولكن لابأس أن نذكر بعض الأمثلة للتذكير فقط ، آملين أن يجد فيها الدعاة خيطا يهديهم إلى ماينبغى عليهم عمله فى هذا المجال ، حتى يتذكر اللاهون ، وينتبه الغافلون .

عندما ولى أبو بكر رضى الله عنه خليفة لرسول الله ﷺ خطب الناس فكان أول كلام قاله لهم هو : «أيها الناس ، إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأطيعونى ، وإن أسأت فقومونى . الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لايدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله ، فإنه لايدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ماأطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم» .

فنرى فى هذه الخطبة مايجب أن يكون عليه أمير الأمة ، فإذا أراد الحاكم المسلم أن يسلك الطريق المستقيم ، فيجب عليه أن يقتدى بأبى بكر رضى الله عنه فلا يظن أن مكانته أسمى من مكانة أى مسلم ، فقد نفى أبو بكر أن يكون أفضل من الرعية فى مطلع خطبته ، كذلك رسم مبدأ نقد الحاكم حين طلب منهم أن يقوموه لو رأوا منه إساءة ، ووضح لهم أن الناس أمامه سواسية ، فلا قوة لأحد إلا باتباعه الحق ، كما أن من يحيد عن الحق لن يجد إلا المساءلة ، مهما كان مركزه فى المجتمع ، ولم ينس نصحهم بأنهم جميعا مسئولون عن حماية الأمة ، فلا يحق لأحد التقاعس عن الجهاد ، وإلا ضرب الله عليهم جميعا الذلة والمسكنة . .

فيجب على كل مسئول أن يتأسى بأبى بكر رضى الله عنه ، ويتخذه قدوة له فلا يتعالى

على مرءوسيه ، ويستجيب لنصحهم بل يحثهم على تقديم النصح له ، دون خوف أو وجل ، وأن يعدل بينهم ، ويسهر على مصالح الناس ، ويحمى المجتمع ، ويحافظ عليه ، كى يحشر مع الزمرة ، الذين اهتدوا بهدى الله ، واتبعوا سنة رسوله ، ونهجوا طريق أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين .

لم تكن خطبة أبى بكر وسيلة دعائية ، يرغب من ورائها الحصول على شعبية فى المجتمع ، كما يفعل الرؤساء فى هذا العصر عندما يتولون الحكم ، إذ تجد فى أول لقاء لهم مع الجماهير رقة فى المشاعر ، وعطفا على الناس ، ووعودا رنانة ، ومبادىء صيغت فى كلمات تسلب لب الجماهير ، وتأسر عواطفهم ، وتستولى على مشاعرهم ، ثم مايلبث أن يذوب هذا كله فى خضم الإجراءات التعسفية ، والقرارات المجحفة ، والسلوك الدكتاتورى ، والحرص على تكوين طبقة من المنتفعين حوله ، بحيث لايرى بؤس الناس ولايحس بآلامهم ، ولايهتم بمشاكلهم ، بل يصبح كل همه المحافظة على السلطة وتقوية مركزه فى الحكم .

لقد كانت خطبة أبى بكر تعبيرا صادقا عما فى نفسه إزاء المسلمين ، وبيانا واضحا للعلاقة التى يجب أن تكون بين الحاكم والمحكوم ، فلا غش ولا خداع ، ولا مداهنة . وكيف يكون ذلك ، وهو صاحب رسول الله ﷺ وخليله ، تربى على مأدبة النبوة ، وغذى من منبع الوحى الأول ، فلم تكن سيرته مخالفة لقوله ، ولم يكن سلوكه بين الناس إلا نابعا من منبع الوحى ، ولهذا نرى فى سيرته العملية بين الناس ، مايحمل المسلمين ــ والمنصفين من غير المسلمين ــ على الوقوف إجلالا وتعظيما لهذه الشخصية الإسلامية ، وتحس عند قراءة تاريخه بالعظمة والإكبار لهذا الرجل الذى يجب أن يقتدى به الحكام ، إن أرادوا الخير لأنفسهم فى الدنيا والآخرة ، ورغبوا فى تحقيق حياة آمنة مطمئنة لرعيتهم .

انطلق أبو بكر رضى الله عنه غداة مبايعته خليفة للمسلمين إلى السوق ساعيا إلى كسب قوته وقوت أولاده ، فلما سأله بعض الصحابة عمن يقوم بأمر المسلمين ، عندما يكون مشغولا بالسعى وراء رزقه ، أجابه بأن واجبه يحتم عليه السعى لإطعام أهله ، فتشاور المسلمون فى ذلك ، ثم اتفقوا على تأمين ذلك له من بيت المال مقابل انشغاله بأمر المسلمين .

أى نفس تلك التى لم تغتر بهذا المنصب الكبير ، فتستغله فى الحصول على الأموال ، بل دفعت صاحبها ــ وهو خليفة المسلمين ــ إلى أن يذهب إلى السوق فيعمل مثل مايعمل

أى مسلم ، لافرق بينه وبين أقل مسلم فى المجتمع ؟

إنها نفس تربت فى مدرسة النبوة ، حيث علمهم النبى ﷺ أن لافضل لأحد على آخر بمركز اجتماعى ، ولا منصب سياسى ، حتى ولو كان خليفة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين ، إنما الفضل بما يملك الانسان من نفس زكية ، وسريرة طاهرة ، وعمل صالح ، فلا فضل إلا بالتقوى ، يقول تعالى : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾(*) .

لم يفكر أبو بكر رضى الله عنه فى أن تكون له ميزة على آخر بهذا المنصب الذى اختاروه له ، بل ظنه تكليفا ومسئولية ، فليس وسيلة لمنفعة مادية ، ولا طريقا لرفع مركزه أدبيا أو اجتماعيا ، بل إنه كان يتصرف مع الناس مثل ماكان قبل توليه الخلافة، فقد كان يأتى لبنات الحى ممن فقدن آباءهن فى الحروب فيحلب لهن غنمهن ويقول : «أرجو ألا تغيرنى الخلافة عن خلق كنت أعتاده من قبل» ، فقد كان يحلب لهم الغنم قبل توليه الخلافة ، واستمر على ذلك بعد ولايتها .

أرسى أبو بكر رضى الله عنه قواعد فى مجال الحكم — على الرغم من قصر مدة خلافته — تعتبر دساتير يجب أن يقتدى به الحكام فيها ، إذ نفذ أمر رسول الله ﷺ فى إرسال جيش أسامة ، ووقف مع المرتدين وقفة تدل على قوة إيمانه ، وصدق عزيمته ، وحرصه الشديد على المحافظة على الأمانة ، التى قبل أن يتحملها أمام الله والمسلمين ، فقال قولته المشهورة : «والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم عليها ، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة» . كما وضع اللبنة الأولى لمبدأ الشورى ، فكان يستشير أهل الرأى فى كل أمر من أمور المسلمين ، فلو سار حكام المسلمين اليوم على طريقته فى الحكم لتجنبوا كثيرا من الإجراءات التى تغضب شعوبهم ، وتثير عليهم معارضيهم .

ومن بين الذين ينبغى الاقتداء بهم ، والالتزام بمنهجهم فى مجال الحكم : عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأسلوبه فى تدبير أمر الدولة فريد فى نوعه ، إذ قل أن يجد المرء له مثيلا فى تاريخ الإنسانية كلها ، فما روى التاريخ أروع ، ولا أبلغ من سيرته مع ولاة المسلمين ، ولا عرفت الإنسانية حاكما أحرص على رعيته منه ، فلم يوجد — ولن يوجد — فى حضارات الأمم كلها مايعدل روعة عمر فى «ديمقراطيته» ، إذ كان يسهر على مصالح المسلمين وهم نيام ، ويهتم بأمر الرعية ، ويقدم خدماته للصغير والكبير على السواء .

(*) الحجرات ١٣

وقد يكون فى سرد بعض ماقام به تذكرة لأولى الألباب ، وتوعية لمن يتولى أمر المسلمين ، لعل وعسى أن يهتدى بسيرته من لايزال فى قلبه ذرة من إيمان ، ويقتدى به من لديه الاستعداد للإصلاح ، فقد حدث أسلم ، خادم عمر ، قال : خرجت مع عمر ليلة ، وبعدنا عن المدينة ، ونحن نتفقد أهل المنازل النائية ، فبصرنا بنار من بعيد ، فقال عمر : إنى أرى هاهنا ركبانا قصر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون (أى يتصايحون ويبكون) ، فسلم عمر ، ثم سأل المرأة : مابالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد . قال : ومابال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع ، قال : وأى شىء فى هذا القدر ؟ قالت : مأأسكتهم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر ، فقال : أى رحمك الله مايدرى عمر بكم ؟ قالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ؟ فأقبل علىَّ فقال : انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلا من دقيق وكبة من شحم ، وقال : أحمله علىَّ . قلت : أنا أحمله عنك . قال : أأنت تحمل وزرى يوم القيامة ، لا أم لك ؟ فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئا ، فجعل يقول لها : ذرى علىَّ وأنا أحرُّ لك ، وجعل ينفخ تحت القدر ، وكانت لحيته عظيمة ، فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته ، ثم طبخ لهم ، ثم أنزلها ، وقال : أبغنى شيئا ، فأتته بصفحة فأفرغها فيها ، فجعل يقول لها : أطعميهم وأنا أسطح لهم (أى أبسطه حتى يبرد) . فلم يزل حتى شبعوا ، وترك عندهم فضل ذلك ، وقام وقمت معه ، فجعلت تقول : جزاك الله خيرا ، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين . فيقول : قولى خيرا ، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله ، ثم تنحى ناحية عنها ثم استقبلها فربض مربضا ، فقلت له ألك شأن غير هذا ؟ فلا يكلمنى ، حتى رأيت الصبية يصطرعون ، ثم ناموا وهدأوا فقام يحمد الله ، ثم أقبل علىّ ، فقال ياأسلم ، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى مارأيت .. أى نمط هذا بين الحكام ؟

إنه نمط فذ فى تاريخ الإنسانية ، لايحدث إلا ممن تربى فى محراب النبوة ، ففقه تعاليم الشريعة الإسلامية ، اسمع مايرويه التاريخ من أنه كان ذات يوم يتفقد — على عادته — الناس ، فمر برحبة من رحاب المدينة . فإذا ببيت شعر ، ينبعث منه أنين امرأة ، وعلى بابه رجل قاعد ، فسلم عليه عمر ، وسأله من هو ، فأجابه بأنه رجل من البادية جاء يصيب من فضل أمير المؤمنين ، فقال عمر : ماهذا الصوت الذى أسمعه فى البيت ؟ قال الرجل وهو لايدرى أنه عمر أمير المؤمنين : انطلق رحمك الله لحاجتك ، ولا تسأل عما

لايعنيك ، فألح عليه عمر ، يريد معرفة الأمر ، فأجابه : امرأة تمخَّض — أى على وشك الولادة — وليس عندها أحد ، فعاد عمر إلى منزله وقال لأمرأته أم كلثوم بنت على رضى الله عنه : هل لك فى أجر ساقه الله إليك ؟ قالت : وماهو ؟ فأخبرها الخبر ، وأمرها أن تأخذ معها مايحتاج إليه الوليد الجديد من ثياب ، وماتحتاج إليه المرأة من دهن ، وأن تأخذ معها قدرا وتضع فيه حبوبا وسمنا . فجاءت به فحمل القدر ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت وقال لامرأته : ادخلى إلى المرأة ، وجلس هو مع الرجل وأوقد النار وطُبخ ماجاء به والرجل جالس لايعلم من هو : وولدت المرأة ، فقالت زوجة عمر من داخل البيت : بشر ياأمير المؤمنين صاحبك بغلام ، فلما سمع الأعرابى ذلك علم أنه أمير المؤمنين ، فكأنه هابه ، فأخذ يبتعد عنه وعمر يقول له : مكانك كما أنت . ثم حمل القدر وأمر زوجته أن تأخذه لتطعم المرأة ، فلما أكلت ناول الرجل القدر ، وقال له : كل ويحك فإنك سهرت الليل كله ، ثم خرجت زوجته ، وقال للرجل : إذا كان غدا فائتنا نأمر لك بما يصلحك ، فلما أصبح أتاه ، ففرض لابنه فى الذرية وأعطاه .

كانت رعاية الخلفاء الراشدين سلوكا نابعا من عقيدتهم ، فلم يكن القصد منه كسب تأييد شعبى ، بل امتثالا لأوامر الله ، وتنفيذا لوصاياه ، كى ينالوا رضاه ويحصلوا على ثوابه ، ولهذا لم تتركز فى جانب دون آخر ، بل شملت جميع جوانب الحياة ، فأقاموا العدل بين الناس دون تمييز بين غنى وفقير ، ولا بين أمير وحقير ، بل إنهم ساووا فى المحاسبة على كل صغيرة وكبيرة بين المسلم وغير المسلم ، فقد روى أن صبيين : أحدهما مصرى قبطى والآخر ابن عمرو بن العاص والى مصر وحاكمها تشاتما ، فأخذت العزة ابن عمرو ، فصفع ابن المصرى ، وقال له : أنا ابن الاكرمين ، فما كان من أبيه إلا أن أخذه وسافر به إلى المدينة ، ليشكو لعمر بن الخطاب .

قطع هذه المسافة الطويلة بوسيلة مواصلات بدائية ، ليرفع شكواه من أمر يحدث كل يوم بين الأطفال ، بل إن الآباء كثيرا مايتغاضون عن مثل هذه الإهانات لأولادهم إذا رأوا بعض مشقة فى رفع الأمر إلى ولى أمر الطفل المعتدى ، لكن القبطى قطع هذه المسافة الطويلة ليتأكد مما يدعيه المسلمون من أن دينهم أمرهم بإقامة العدل ، حتى ولو كان بين أولى القربى والاعداء .

فأثبت له عمر رضى الله عنه بأن الإسلام ليس شعارات ترفع ، وإنما هو مبادىء آمن بها المسلمون ، والتزموا بها ، فاستدعى عمرو ولده ، وأمر ابن القبطى أن يضرب ابن عمرو كما ضربه ، ثم قال كلمته المشهورة : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم

أحرارا» .

فلو بحثنا فى التاريخ القديم والحديث عن موقف كهذا لأى حاكم من حكام المجتمعات الإنسانية قاطبة ، فلن نجد ، لأنه كما كان الإسلام فريدا بين الأديان والنظم فكذلك كان رواده الأول نماذج للإنسانية ، لايرقى إليها أى نموذج على وجه الأرض حتى الآن ، فالحضارة الحديثة — على الرغم من صوت دعاتها الرنان بأنها أرست قواعد حقوق الإنسان فى المجتمع المعاصر — لم يبلغ دعاتها ، والمنتسبون إليها فى تعاملهم مع شعوبهم الدرجة التى كان عليها الخلفاء الراشدون ، وإلا فليخبرنى أحد — إن استطاع — عن حادثة تشبه ماحدث لعلى بن أبى طالب — وهو أمير المؤمنين — مع مواطن عادى ليس على دينه ؟ فقد سقطت درع على فالتقطها نصرانى ، فعرفها علىٌّ معه ، فقال : هذه درعى . ولكن الرجل أنكر وادعى أنها ملكه ، فلم يملك أمير المؤمنين إلا أن يقول للنصرانى : بينى وبينك القضاء وذهبا إلى القاضى شريح . وبعد سماع الخصمين طلب القاضى من الخليفة بينة على دعواه ، أو شهودا ، فلم يكن عنده ، فما كان من القاضى إلا أن حكم للرجل للنصرانى بالدرع بحكم وضع يده عليه .

ودهش النصرانى لهذا الحكم الذى لم يكن يتوقعه ، فقال : أشهد أن هذه أحكام أنبياء . أمير المؤمنين يذهب معى إلى قاضيه — وهو الذى ولاه ، ويملك عزله — فيحكم لى عليه وهو يعلم أنه لايكذب .. أما إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. الدرع درعك ياأمير المؤمنين ، سقطت منك فأخذتها . قال على : أما قد أسلمت فهى لك .

فى أى مجتمع يحدث هذا ؟

وفى ظل أى حضارة يمكن أن يرى المرء مثل هذا الإجراء القضائى ؟

هل يتصور الإنسان المعاصر ، ابن القرن العشرين — حيث بلغت الإنسانية أوج عظمتها ، وتعالت أبواق دعايتها بما تدعو إليه من عدل وإخاء ومساواة بين الأجناس البشرية — أن يعامل رئيس دولة أحد رعاياه بمثل هذه المعاملة على الرغم من تأكده بأنه لاحق له فيما يدعيه ؟

إن هذا فوق مايتصوره العقل ، ويعترف به المنطق . لكن العقيدة الإسلامية كان لها من القوة والنفوذ فى نفوس من آمنوا بها ، فهذبت أخلاقهم ، وقومت سلوكهم ، فأصبحوا نماذج فوق مستوى ماعرفته الإنسانية ، بل لازالوا أرقى مايمكن أن يصبو إليه الإنسان على المستويين : الفردى والجماعى . فعلى المسلمين أن يسيروا على هداهم ويقتفوا

أثرهم فى جميع مجالات الحياة .

ليس وجوب القدوة بالخلفاء الراشدين فى كيفية قيام الحاكم برعاية أمور الرعية قاصرا على المسلمين منهم ، بل يجب أن تشمل الرعاية كل من يعيش فى المجتمع الإسلامى ، بصرف النظر عن عقيدته وجنسه ، فقد بين لنا عمر رضى الله عنه فى سلوكه مع رعيته أن عطفه وحمايته أظلت كل من عاش فى المجتمع الإسلامى ، حتى ولو لم يكن مسلما ، لأن الإسلام أوجب على الدولة الإسلامية أن تحمى أماكن عبادة اليهود والنصارى ، وحرم على المسلمين أن يتدخلوا فى عقائدهم ، كما أمر أولى الأمر أن يسووا بينهم وبين المسلمين فى الحقوق والواجبات العامة ، وأن يصونوا كرامتهم وحياتهم ومستقبلهم ، كما تصان كرامة المسلمين وحياتهم ومستقبلهم .

كانت حياة الخلفاء الراشدين وتصريفهم لأمور الدولة تطبيقا لهذه الأوامر والوصايا التى أنزلها الله فى كتابه الكريم ، ووردت فى سنة رسوله ﷺ ، فاعتنوا بأمر الرعية دون تفريق بين مسلم وغير مسلم ، فقد روى أن امرأة مسيحية جاءت إلى عمر بن الخطاب فشكت له أن عمرو بن العاص قد أدخل دارها فى المسجد كرها منها ، فسأل عمرو عن ذلك ، فأخبره بأن المسلمين كثروا ، وأصبح المسجد يضيق بهم ، وفى جواره دار هذه المرأة ، وقد عرض عليها ثمن دارها وبالغ فيه فلم ترض ، مما اضطره إلى هدم دارها وإدخالها فى المسجد ، ولكنه وضع قيمة الدار فى بيت المال وأخبرها بأن لها أن تأخذه متى شاءت .

هذا إجراء تبيحه القوانين المعاصرة ، فلا أحد يعترض على نزع الملكية الخاصة فى سبيل المصلحة العامة ، فكان من المتوقع أن يُقِرَّ عمر بن الخطاب مافعله عمرو بن العاص ، لأن ذلك من الأمور الضرورية ، ولو فعل ، ماكان أحد يستطيع أن يلومه ، ولا يجرؤ أحد من النقاد فى العصر الحديث أن يعترض على ذلك ، لأنه من الأمور المسلم بها على جميع الأصعدة المحلية والدولية ، إذ لايوجد من يحرم ذلك ، أو يوجه أدنى لوم لمن يتخذ مثل هذا الاجراء . لكن عمر بن الخطاب خالف هذا ، إمعانا فى بيان عدالة الإسلام ، وبيانا واضحا لحكام المسلمين من بعده بألا يصادروا ملكية أحد إلا برضاه واقناعه بأن ذلك فى سبيل مصلحة الدولة ، وبأن يأخذوا بعين الاعتبار أنه لايجوز لهم أن يفرقوا فى ذلك بين مسلم وغير مسلم .

لم يرض عمر بما فعله عمرو بن العاص فأمر بهدم البناء الجديد من المسجد ، وإعادة البيت إلى صاحبته المسيحية . أين هذا مما تفعله سلطات الاحتلال فى جميع بقاع الأرض ،

من هدم لمنازل المواطنين أصحاب الأرض الحقيقيين بدون سبب ، وانتزاع المواطنين من أرضهم التى ولدوا فيها ، واختلط عرقهم بترابها ، وإعطائها لمن ليس لهم حق فيها ؟

إن مانبينه فى مجال القدوة الحسنة من صفحات ناصعة فى حياة حكام المسلمين فى الصدر الأول للإسلام ،لدعوة واضحة للمجتمعات الإنسانية المعاصرة ـــ التى فقدت الإحساس الإنسانى ، فطغت ، وبغت ، وتجبرت ، واستكبرت ـــ بأنه لن يخرجها من بؤسها وشقائها إلا بالاقتداء بما كان يفعله أولئك الرواد الذين تربوا فى رحاب النبوة ، فساروا سيرة حسنة بين الناس ، عطفوا عليهم ، وأحسنوا إليهم ، وحافظوا على حياتهم ومالهم ومستقبلهم ، كما قدموا العون للمحتاجين دون تمييز على أساس الجنس ، أو العرق أو الدين ، فعاش كل الناس تحت مظلة الإسلام آمنين مطمئنين .

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى فى السوق شيخا كبيرا يسأل الصدقة فقال له : ماأنت ياشيخ ؟ قال : أنا شيخ كبير أسأل الجزية والنفقة . وكان يهوديا من سكان المدينة . فإذا بعمر يقول له : ماأنصفناك ياشيخ ، أخذنا منك الجزية شابا ثم ضيعناك شيخا ، وأخذ بيده إلى بيته فرضح له ماكان من طعامه ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال يقول : «افرض لهذا وأمثاله مايغنيه ، ويغنى عياله» .

فلو اتخذ حكام اليوم الخلفاء الراشدين قدوة لهم ، لأراحوا واستراحوا ، ولعم الخير جميع الناس .

واقع المسلمين فى مجال القدوة

تركز حديثنا حتى الآن حول القدوة على الاستشهاد بسيرة النبى ﷺ ، وعلى سرد ماكان عليه الخلفاء الراشدون ، وهذا فى حد ذاته جزء هام جدا فى مجال القدوة ، غير أنه لايؤثر تأثيرا كبيرا فى مجال عرض الإسلام على المجتمع الدولى فى الوقت الراهن ، ذلك أن مثل هذه الاستشهادات لايكون لها أثر كبير إلا على الدارسين والمهتمين بالشئون الثقافية العالمية ، وهؤلاء لايمثلون إلا نسبة ضئيلة جدا فى المجتمعات الإنسانية ، أما سواد الناس فوسائل التأثير عليهم فى هذا المجال تختلف عن هذا المنهج ، إذ أننا لو اعتبرنا القدوة وسيلة من وسائل الدعوة فى المجتمع الإسلامى ، أو أسلوبا من أساليب الإقناع مع المهتمين بالثقافات العالمية من أبناء الأديان الأخرى ، فإنها لاتصلح وسيلة للدعوة مع عامة الناس ، لأنهم لايعيرون اهتماما كبيرا لما حدث فى الماضى ، ولا لما يحتويه التراث من مبادىء

وتعاليم ، بل يركز اهتمامهم على صورة الحياة فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، فإن كانت قائمة على أسس تتناسب مع طبيعة الحياة البشرية ، وتلبى حاجات الفرد والمجتمع ، وتحافظ على كل مامن شأنه أن يرفع قدر الإنسان فى إطار حياة إجتماعية قائمة على أساس العدل والمساواة ، وتكافؤ الفرص فى كل ماهو متاح للإنسان فى الطبيعة المحيطة به ، سواء تعلق ذلك بالاقتصاد ، أو بالحكم ، أو اتصل بالسلم الطبقى فى المجتمع ، فإنه يميل إلى التعرف عليها ، والبحث عما وراءها من أفكار ، ومحاولة معرفة المبادىء والتعاليم الدينية التى تحكم هذا الإطار السليم للحياة البشرية . أما إذا رأى صورة المجتمع الإسلامى تتنافى مع طبيعة الحياة البشرية ، وتتصادم مع المبادىء الأولى لكيان الإنسان ، فإنه سوف ينفر من هذه الصورة ، ويحتقر أهلها ، بل ويربط بين مافيها من سلبيات وبين العقيدة ، وبالتالى سوف يرمى هذه العقيدة بكل ماعنده من نقائص ، وينسب إليها كل مافى المجتمع من انحرافات وانهيارات فى الهيكل السياسى والاجتماعى ، ويرجع أسباب التخلف فى المجتمع إليها .

ومن هنا نرى أن صورة المجتمع الإسلامى ، بما فيه من أنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية .. وغيرها تلعب دورا كبيرا فى مجال الدعوة إلى الإسلام فى المجتمعات الدولية ، بل نكاد نجزم أنها الوسيلة الوحيدة فى العصر الحديث للدعوة إلى الله . فعلى الرغم من أن إنسان العصر الحديث واقع تحت تأثير الدعاية الكلامية — عن طريق استخدام وسائل الاتصال الحديثة فى المجال الإعلامى — إلا أن أسلوب الحياة فى المجتمع الإسلامى بالغ الأثر على ذلك الإنسان ، وخاصة إذا عرفنا أن أعداء الإسلام يستخدمون هذه الوسائل المتطورة فى مجال الدعاية لإبراز الجوانب السلبية فى المجتمع الإسلامى ، كى يوهموا العامة أنه دين لايصلح للحياة المعاصرة . فلو التزم المسلمون فى حياتهم داخل مجتمعهم بالتعاليم الإسلامية ، لأسهموا فى الدعوة إلى الإسلام ، إن لم يكن بالإعلان بذلك عن الإسلام ، فلا أقل من الحد من استعمال الوسائل الحديثة فى الاتصال لإبراز مساوئهم وكشف عوراتهم أمام أعين الناس فى المجتمعات الدولية .

ولكن ماهى معالم الحياة التى يجب أن يسير عليها المسلمون فى مجتمعهم حتى يكونوا قدوة لغيرهم ، أو يكونوا صورة تقنعهم بصلاحية الإسلام للحياة فى العصر الحديث ؟

رسم الاسلام لحياة الإنسان داخل المجتمع صورة متعددة الجوانب ، ومتشابكة مع عدة أطراف ، ومع ذلك أعطى لكل حقوقه ، كما طلب منه واجبات يؤديها . وعلى أساس هذا

التبادل بين الحقوق والواجبات تقوم الحياة فى المجتمع الإسلامى ، ويستقر المجتمع بالتوازن بينها ، فلو طغت إحداهما على الآخرى اختل التوازن ، فتضطرب الحياة ، وينهار المجتمع ، وبالتالى يضيع الفرد بين الانهيار والاضطراب . وحتى لاتكون القضايا عامة يحتار المرء فى تحديدها ، نريد أن نبين الأسس اللازمة لحياة المجتمع وهى بلاشك تلعب دورا كبيرا فى إثبات أن الإسلام يصلح للحياة المعاصرة ، وبالتالى سيكون بيانها دليلا واضحا على أهمية تطبيقها فى المجتمع الإسلامى ، كى تكون عنوانا له ليهتدى الآخرون ، بعد أن يدركوا فعالية الإسلام فى المجتمع المعاصر .

أولى هذه الأسس : الحرية ، إذ بها قوام الفرد والمجتمع ، فمن لا حرية له ، فلا حياة له ، ولهذا منحها الله للإنسان فلم يجبره على اعتناق عقيدة الإيمان به وتوحيده ، بل ترك له الحرية فيما يعتقد ، حتى وإن أنكر وجوده ، أو أشرك معه آلهة أخرى ، يقول تعالى : ﴿**لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**﴾(*) ، وينكر على محمد ﷺ حرصه الشديد على أن يؤمن الناس ، حرصا يكاد يبلغ حد الإكراه ، فقال له : ﴿**ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾(**) .

الحريـة

ترفع الحضارة الحديثة كثيرا من الشعارات ، مدعية أنها حققت للإنسان مالم يكن فى متناول يده على مر التاريخ البشرى ، ومن هذه الشعارات : ادعاؤها بأنه أرست قواعد الحرية فى المجتمع ، وثبتت دعائمها فى المجتمعات الإنسانية ، فبعد أن كان الإنسان مستعبدا لزعيم القبيلة فى العصور الأولى ، ومن بعده للملوك والأمراء ، صار اليوم حرا فى حياته ، يستطيع أن يكيفها حسبما يشاء ، وعلى أى كيفية يريد ، بل إن مايحتل المركز الأول فى وسائل الإعلام الحديثة ، ويحظى باهتمام كثير من المحللين السياسيين والمعلقين الاعلاميين هو التركيز على حرية الإنسان فيما يعتقد ، والتأكيد على حقه فى التعبير عن أفكاره وآرائه دون خوف من حاكم ، ولا وجل من رئيس ، إذ يستطيع الفرد فى ظل الحضارة الغربية أن يدلى برأيه فى جميع شئون الحياة ، حتى ولو عارض أرباب السلطة ، وأصحاب الهيمنة ، مهما كانت قوتهم وسلطانهم .

استقر هذا الرأى فى أذهان الناس ، على الرغم مما فيه من مبالغات تتنافى مع الحقيقة ، لدرجة أنهم أصبحوا يُقَيِّمُونَ المجتمعات والشعوب على أساس مايتمتع به أفرادها فى مجال التعبير والنقد ، فإذا رأوا مجتمعا يسيطر عليه نظام لايسمح بهذا التعبير ، أو لايتقبل النقد ،

(*) البقرة ٢٥٦ (**) يونس ٩٩

فإنهم ينظرون إليه من عَل ، أى أنهم يعتبرونه من المجتمعات المتخلفة ، التى لم ترق بعد فى سلم الحضارة إلى حد احترام الحرية الشخصية ، والاعتراف بحق الإنسان فى التفكير بصوت عال ، فهم يعتبرون أن هذا هو اللبنة الأولى ــ والأساسية ــ فى التقدم والرق ، فمن لاحرية له فى الكلام فهيهات أن تكون له مقومات بناء حضارى .

وانطلاقا من هذا المفهوم فإنهم يصنفون المجتمعات طبقا لنظرتها إلى قضية الحرية ، ويميزون بينها على أساس قوة الحركة الفكرية فيها ، وشدة تفاعلها ، بما فيها من تدافع ، وتحاور ، وتصارع على الساحة الفكرية ، حيث تنطلق منها كل الطاقات التى تمد قطاعات المجتمع المختلفة بما يدفعها إلى الأمام باستمرار ، فتتطور وتتجدد دون أن تتوقف ، أو تنكمش ، أو تتجمد ، إذ أن حرية الفكر تذيب تجمدها ، وتحول دون توقفها ، وتعمل على استمرارية دفعها إلى الأمام ، فلا تعرف نقطة تقف عندها ، بل هى مستمرة فى التقدم إلى اللانهائى .

فإذا بحثنا عن وضع المجتمعات الإسلامية فى رأى هؤلاء ، فإننا نجدهم قد وضعوها فى ذيل قائمة تصنيف المجتمعات فى هذا المجال ، مدعين أنها مجتمعات لايتمتع أفرداها بأى نوع من أنواع الحرية الشخصية ، إذ لا يستطيع المواطن أن يدلى برأيه فيما يدور حوله من أحداث ، حتى ولو كانت تتعلق بحياته بصورة مباشرة ، ففى داخل الأسرة يقرر الأب مصير أبنائه دون اعتبار لرغباتهم ، بل دون سماع لرأيهم فى بعض الحالات ، وليس من المبالغة إذا قلنا : إن كثيرا من الآباء لايحاولون استشفاف ميول أبنائهم ، حتى عن طريق الملاحظة من بعد ، فهو يمارس معهم «ديكتاتورية» مطلقة ، فيرسم لهم أسلوبهم فى الحياة ، ويحدد لهم طريق مستقبلهم ، بل أحيانا يتدخل بشكل سافر فى حملهم على تفضيل نوع من الطعام على آخر .

كذلك يعامل الرجل زوجته على اعتبار أنها ملك يده ، فيتجاهل مشاعرها ، ويلغى إرادتها ، ويرفض رأيها فى اتخاذ القرارات التى تحدد مصير الأسرة .

وهذه الصورة هى انعكاس للظاهرة العامة فى المجتمع بما فيه من علاقات بين الرئيس والمرءوس ، وبين الحاكم والرعية ، بل بين الاستاذ والتلميذ فى الفصول الدراسية وقاعات البحث العلمى .

وعلى الرغم مما فى ذلك من مبالغات ، أدى إليها عدم معرفتهم بفلسفة العادات والتقاليد فى المجتمع الإسلامى ، فإن مما يثير انتباهنا أن يربط هؤلاء هذه الظواهر بالإسلام ، ثم

يصلوا إلى نتيجة مفادها : أن الإسلام لايعترف بالحرية فى المجتمع ، سواء كان ذلك فى محيط الأسرة ، أو على مستوى الحياة العامة ، إذ أنه قد أعطى للأب الحق فى تربية أبنائه على هذا النحو الذى لايسمح لهم بالتعبير عن آرائهم — وخاصة المخالفة لرأيه — ولابتحديد مستقبلهم ، كما أنه جعل المرأة ملكا للرجل يتصرف فيها كما يتصرف فى متاعه .

ولاشك أن هذا التصور يحول بينهم وبين الإسلام ، إذ أنه يمنعهم من التفكير فى تعاليم الإسلام ، وبالتالى لن يفكروا فى اعتناقه دينا .

فما مدى صحة هذا التصور بالنسبة للإسلام ؟

وهل يمكن أن تكون حياة المسلمين فى المجتمعات الإسلامية صورة صادقة للإسلام ، حتى تعتبر نموذجا إسلاميا يحمل غير المسلمين على التفكير فيه ، ذلك التفكير الذى يؤدى بهم إلى اعتناقه ؟

ليس صحيحا مايشاع بين العامة من أن الإسلام أعطى للرجل الحرية المطلقة فى توجيه أبنائه دون أى اعتبار لميولهم واتجاهاتهم ، فقد بيَّن الرسول ﷺ للمسلمين الفصل فى هذه المسألة التربوية التى اختلف فيها المتخصصون قديما وحديثا ، فقد قال ﷺ : « **لاعب ابنك سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ثم اترك حبله على الغارب** » ، إذ يلاحظ فى هذا الحديث أن التوجيه النبوى قام على أساس متطلبات كل مرحلة من مراحل حياة الإنسان ، فبين أن سن الطفولة يناسبه اللعب والمداعبة ، فإذا مابلغ الصبى سن السابعة ، وهى سن التمييز ، لزم أن يؤدب بالطرق التى تغرس فى نفسه المبادىء والقيم ، وتحمله على ترسيخ العادات والتقاليد فى نفسه ، حتى لاينحرف عنها ، فيسوء حاله ، وتضطرب حياته ، فتضيع شخصيته وينمحى كيانه فى المجتمع .

فإذا وصل إلى مشارف المرحلة الثالثة وهى الرابعة عشرة ، فينبغى على الأب أن يراعى فى توجيهاته ونصائحه أنه يكلم إنسانا قادرا على التفكير والموازنة بين الخيارات المتعددة ، إذ بلغ من النضج الفكرى مايمكنه من إدراك السلبيات والإيجابيات ، غاية الأمر أنه محتاج فى هذه المرحلة إلى من يبينها له بحكم خبرته ، ومن أوائل من يبينها له : الأب ، بالاضافة إلى المدرسة والمؤسسات الثقافية والمصادر الإعلامية فى المجتمع .

ولما كانت هذه المرحلة من أخطر مراحل العمر ، حيث يميل النشء فيها إلى التأكيد على الذات ، فيرفض كل مايحمل طابع الأمر والإلزام له ، ويتذمر على كل وصاية تفرض عليه ، فقد نصح الرسول ﷺ الآباء بألا يكون تصرفهم مع النشء فى هذه المرحلة قائما

على أساس الأمر والطاعة ، أى أن الأب يأمر ، وعلى الابن — والبنت — أن يطيع ، دون أدنى مناقشة ، بل نصحهم بأن يكون التفاعل بينهما قائما على أساس المشاورة والنصح ، وليس على الإلزام من طرف ، والالتزام من طرف آخر ، حتى لايصاب الولد — أو البنت — بالكبت ، فينفجر ، ويتمرد على الأب ، أو يقوم بعملية موازنة بين الطرف الضاغط عليه من جهة الأب ، وبين توازن القوى الكامنة فى داخله لتأكيد الذات ، فيقع فيما يشبه أن يكون انفصاما فى الشخصية ، إذ يتظاهر أمام أبيه بالرضوخ لأمره ، فإذا مابعد عن عينه ، مارس كل مايؤكد ذاته ، غير عابىء بما ينتج عن ذلك من آثار سلبية . بل إن رد الفعل العنيف لحالة الكبت التى تحيط به فى محضر أبيه ، يجعله يندفع اندفاعا شديدا فيما حرم عليه على أساس ديكتاتورى ، عندما يغيب عن أبيه وماأكثر الأوقات التى يقضيها بعيدا عن رقابة الأب .

ولهذا بين الرسول ﷺ للمسلمين أنه ينبغى أن تكون تربيتهم لأبنائهم فى هذه المرحلة قائمة على أساس التفاهم والتشاور ، كما لو كانا صاحبين ، وليس على أساس الإجبار والإلزام ، انظر إلى قوله ﷺ : «... وصاحبه سبعا ..» أى اتخذه صاحبا وصديقا ، فكما أنه ليس بين الصديقين طرف ملزم ، وآخر ملتزم ، بل يكون الوصول إلى قرار فى أى أمر من الأمور التى تربطهما على أساس النصيحة والفهم ، بعد المناقشة والتشاور ، فكذلك ينبغى أن تكون سمة العلاقة بين الأب والابن فى المرحلة الثالثة . وهى التى تبدأ فى سن الرابعة عشرة . ثم تأتى مرحلة الاستقلال التام عن الأب التى تبدأ فى سن الحادية والعشرين ، لأن نضجه قد اكتمل ، فأصبح قادرا على الإدراك والتمييز بين الخير والشر ، والنافع والضار .

أظن أنه لايمكن لأحد بعد هذا البيان أن يقول : إن الإسلام يميل إلى الديكتاتورية ، مستدلا على ذلك بما يشاهده فى المجتمع الإسلامى المعاصر من تحكم الآباء فى الأبناء ، وممارسة سلطة الديكتاتورية فى تربيتهم وتوجيههم ، إذ ليس مايمارسه المسلمون حجة على الإسلام ، لأنهم — ككل شعوب الأرض فى تطبيق مبادىء العقيدة — قد ينحرفون عن جهل ، أو خضوعا لتقاليد لاصلة لها بالإسلام . وقد تختفى معالم الإسلام نتيجة لعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية . ولهذا ينبغى على الدعاة أن يركزوا فى دعوتهم للمسلمين على أن يراعوا مبادىء الإسلام فى أسلوب حياتهم ، حتى يكونوا صورة صادقة للإسلام ، تجذب غير المسلمين إلى التفكير فى العقيدة التى هذبت أخلاق المسلمين ، وقومت سلوكهم ، وإلا فسوف ينفرون من الإسلام بسبب مايفعله المسلمون ، وبذلك يصبح

سلوك المسلمين وسيلة إعاقة فى طريق نشر الدعوة ، بدل أن يكون نموذجا يقتدى به من يريد الصلاح والإصلاح فى المجتمع الإنسانى .

وضع المرأة

حظى موضوع المرأة باهتمام كبير من المشتغلين بالقضايا الفكرية والاجتماعية ، بل إنه يكاد يحتل المقام الأول لدى المهتمين بوصايا الأديان ومبادئها ، ويأخذ مساحة كبيرة من صفحات الهجوم على الإسلام ، فلا يبدأ كاتب غير مسلم بتناول القضايا الاسلامية إلا ويتخذ وضع المرأة فى الإسلام نقطة انطلاق للهجوم عليه ، بل إن كثيرا من العامة فى البلاد غير الإسلامية لايعرفون عن الإسلام سوى أنه يبيح للرجل عددا من الحريم ، ويحرم الخمر ولحم الخنزير ، وماذاك إلا من كثرة إبراز مفكريهم لهذه القضايا ، فهم يتخذون وضع المرأة فى المجتمع الإسلامى المعاصر مادة للهجوم على الإسلام ، فيذكرون أنه أباح للرجل أن يتخذها سلعة ، يبيعها الأب للزوج بثمن يتمتع به هو ، دون أن ينالها منه شىء . ويعاملها الزوج كما يتعامل مع مايملكه من أثاث ومتاع ، فلا رأى لها ، ولا اعتبار لوجودها عند اتخاذ قرار زواجها ، ويضرب بمشاعرها وأحاسيسها عرض الحائط ، فلا يهتم الزوج بما تميل إليه ، أو ترغب فيه فى مسائل الحياة وشئونها .

ويقدم المجتمع الإسلامى لهؤلاء مادة يستدلون بها فى هجومهم على الإسلام ، ذلك أن السائد بين المسلمين ــ وخاصة فى أوساط من يتظاهرون بالتمسك بالدين ــ أن لا رأى للمرأة فى زواجها ، فأبوها يختار لها زوجها ، أو يوافق على من يتقدم إليها ، دون أن يستشيرها ، فإن عارضت أجبرها بالقوة على الرضوخ لأمره . فتساق إلى زوجها كما تساق الأنعام إلى مذبحها . كما أن بعض الآباء يستولى على مايدفعه الراغب فى الزواج منها من مهر ، لأنه يعتقد أن من حقه أن يأخذه لقاء تربيتها ، وليست حياتها عند زوجها بأفضل منها عند والدها ، فلا تستشار فى أمر من أمور الحياة ، بل عليها السمع والطاعة حتى فى أخص شئونها .

ولا يتفق هذا الوضع مع ماأعطاه الإسلام للمرأة من حقوق ، فهو لم يفرق بين الذكر والأنثى فيما فرضه على الآباء وأوصاهم بالقيام به لأبنائهم .

فالتعليم حق للبنت كما هو حق للولد ، فإذا حرم أب ابنته من هذا الحق فلا ينبغى أن يتعلل بما يفرضه الإسلام على سلوك المرأة ، لأن ذلك يسىء إلى صورة الإسلام بين

الراغبين فى دراسته والبحث فيه عن حقيقة فقدوها فى مجتمعاتهم ، فينصرفون عنه إلى وجهة أخرى ، أو يهاجمونه إن كانت لديهم وسائل الهجوم ، فيشوهون صورته أمام الغامة من قومهم .

كما نص الإسلام على أخذ رأى المرأة فى زواجها ، فإن رفضت فلا يحق لأحد أن يجبرها ، بل إنه لايصح العقد إلا بموافقتها ، إذ أن من شروط صحة العقد أن توافق المرأة عليه ، ولهذا يجب على الولى عند عقد الزواج أن يبدأ بأخذ رأيها ويتأكد من رضاها قبل العقد ، لأن الزواج معاشرة دائمة ، وشركة قائمة بين الرجل والمرأة ، ولايدوم الوئام ، ويبقى الود والانسجام ، مالم يكن كل طرف راضيا بهذه الشركة ، ومن ثم منع الإسلام إكراه المرأة — بكرا كانت أم ثيبا — على الزواج ، وإجبارها على الارتباط بمن لارغبة لها فيه ، وجعل العقد عليها قبل استئذانها غير صحيح ، وأعطاها الحق فى المطالبة بفسخه وإبطال تصرفات الولى إذا عقد عليها بدون استئذانها .

فعن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**لاتنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن**» قالوا : يارسول الله .. كيف إذنها ؟ قال : «**أن تسكت**» .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لاتنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن» قالوا : يارسول الله .. كيف إذنها ؟ قال : «أن تسكت» .

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت : إن أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته . قال : فجعل رسول الله ﷺ الأمر اليها . فقالت : قد أجزت ماصنع أبى ، ولكنى أردت أن أعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شىء ..

كانت المرأة فى الجاهلية مهضومة الحق ، مهيضة الجناح لدرجة أن وليها كان يتصرف فى مالها ، فلا يدع لها فرصة التملك ، ولا يمكنها من التصرف ، فجاء الإسلام برفع هذا الظلم عنها ، إذ أعطاها الحق فى التصرفات المالية ، كما فرض لها مهرا عند الزواج ، وجعله حقا خالصا لها ، فليس لأبيها ، ولا لأقرب الناس إليها أن يأخذ منه شيئا إلا برضاها واختيارها ، قال تعالى : ﴿**وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا**﴾[٤٦١] ، أى وآتوا النساء مهورهن عطاء مفروضا لايقابله عوض ، فإن أعطين شيئا من مالهن خوفا أو خديعة فلا يحل أخذه ، يقول تعالى : ﴿**وإن**

---

(٤٦١) النساء ٤

أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾(٤٦٢) .

فلو ظهر فى المجتمع الإسلامى مايخالف هذه الوصايا ، كأن يأخذ والد الفتاة مهرها ولايعطيها شيئا منه ، أو يسترد الزوج منها ماأخذه بأسلوب التأثير النفسى ، أو بطريق التلميح بالتهديد والوعيد ، فإن ذلك يتنافى مع مبادىء الإسلام ، ومن يمارسه فإنه يرتكب اثما مبينا . وعليه فلا يمثل هذا التصرف جانبا إسلاميا ، بل هو انعكاس لتقاليد بعيدة عن الإسلام ، واتباع لعادات أعلن الإسلام الحرب عليها منذ أن نزل الوحى على محمد ﷺ . وماتفرضه التقاليد والعادات التى لاتمت إلى الإسلام بصلة ، لايعد حجة على الإسلام وتعاليمه ، ويجب على الباحثين أن يفرقوا بين النصوص الإسلامية ، وبين مايجرى على أيدى المسلمين فى المجتمعات الإسلامية ، لأنهم — مثل غيرهم من أتباع الأديان الأخرى — قد ينحرفون عن مبادىء دينهم ، وسلوك المنحرف لايمثل عقيدته المنتمى إليها رسميا ، لأنه — طبقا لمبادئها وتعاليمها — قد بعد عن إطارها ، وخرج عن ساحتها .

وعندما تنتقل المرأة إلى بيت زوجها ، تجد الإسلام قد كفل لها من الحقوق مايحفظ كرامتها ، ويحمى شعورها ، ويؤمن سعادتها . ذلك أنه أمر الزوج بأن يرعى حقها فى العيش حتى يسود الوئام بينهما ، وتظلهما مظلة السلام ، يقول تعالى : **﴿وعاشروهن بالمعروف﴾**(٤٦٣) ، أى يجب أن يكون الزوج رقيقا مع زوجته ، فلا يعاملها بغلظة وخشونة ، ولايجرح كرامتها ، أو يسىء إلى سمعتها ، يقول رسول الله ﷺ : **«أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم»** ، فإكرام المرأة دليل على الشخصية المتكاملة ، وإهانتها علامة على الخسة واللؤم ، يقول رسول الله ﷺ : **«ماأكرمهن إلا كريم ، وماأهانهن إلا لئيم»** .

إن السلوك القائم على احترام كل للآخر ، وحفظ حقوق المرأة فى جميع أطوار حياتها مطلب إسلامى ، رفع به الإسلام مكانتها ، بحيث أصبح لها من الحقوق ماليس لمثيلتها فى الأديان والمذاهب الأخرى، فقد أعطى لها الحق فى أن تحتفظ بمالها لنفسها، وتستثمره كما

---

(٤٦٢) النساء ٢٠ — ٢١
(٤٦٣) النساء ١٩

تشاء دون أن يتدخل الرجل فيفرض رأيه عليها ، أو يرغمها على اتجاه معين ، فهى مستقلة فى المعاملات المادية استقلالا تاما . كذلك مكنها الإسلام من التعبير عن رأيها دون خوف أو خجل ، وفى التاريخ الإسلامى أمثلة تثبت هذا الحق وتؤكده ، فقد اعترضت امرأة على عمر بن الخطاب أمام الناس جميعا ، ولما تبين له صواب رأيها رجع عن رأيه ، ولم يحدث مثل هذا الموقف فى المجتمعات الإنسانية إلا فى القرن العشرين ، بعد أن قطعت البشرية شوطا كبيرا فى طريق التقدم ، ومع ذلك فلا يقع اليوم إلا فى حدود ضيقة . فإذا افتخر المتحدثون باسم الحضارة الحديثة بأن المرأة فى ظل حضارتهم تمكنت من إبداء رأيها ، بعد طول كبت وتحكم فيها ، وتسلط على إرادتها ، فلا ينبغى أن ينسوا أن الإسلام مكنها من ذلك منذ أربعة عشر قرنا .

فالمرأة حرة فى اختيار شريك حياتها ، ولها الحق فى تصريف شئونها وتدبير أموالها بنفسها ، فلا يتدخل أحد فى هذا الأمر إلا بإذنها ، ولايحق لأحد أن يجبرها على شىء لاترضى عنه ، كما أن لها الحق فى إبداء رأيها فى الشئون العامة والقضايا الاجتماعية ، ومن ثم فلا ينبغى أن يعتمد الباحثون على واقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، لأن معظم مافيها من عادات وتقاليد ليست إسلامية محضة ، فهى تحمل فى كثير من جوانبها معالم غير إسلامية ، دخلت هذه المجتمعات فى عصور الضعف والانحلال .

كما أن على المسلمين أن يدركوا أن واقع حياتهم يؤثر على الدعوة الإسلامية سلبا وإيجابا ، لأنه ليس فى إمكان العامة التفريق بين المبادىء ، وبين سلوك معتنقيها ، فصورة الدين تنطبع فى ذهنهم طبقا لما عليه سلوك المؤمنين به ، فإن كان سلوكا طيبا حبب الإيمان إلى قلوبهم ، وإلا نفروا منه ، وكفروا به .

حرية النقد

رسم الإسلام معالم العلاقة بين أفراد الأسرة على نحو يحفظ لكلٍّ استقلاله الشخصى فى إطار الحياة الجماعية داخل هذه الخلية التى يتكون منها المجتمع ، فلا يجوز لأحد أن يطغى على شخصية الآخر فيتحكم فى أسلوب حياته تحكما يلغى كيانه ، أو يمنعه من التعبير عن أفكاره واختيار مايلائمه ، وماتميل إليه عواطفه وإحساساته ، بشرط ألا يخرج عن الإطار العام الذى يحفظ تماسك الأسرة ، ويحميها من التفكك والانحلال ، ويقيها من الضعف والهزال ، ولايكون ذلك إلا باعطاء حق حرية التعبير لكل فرد من أفرادها ، واختيار

مايراه مناسبا له ، مع الاحتفاظ بحق رب الأسرة فى التوجيه والإرشاد فى اتخاذ القرارات المناسبة بعد بيان أسبابه ومبرراته .

ولما كانت الأسرة هى نواة المجتمع ، فإن ماقرره الإسلام داخل الأسرة ، لايختلف عن الإطار الذى رسمه للعلاقة بين الناس فى الحياة العامة . فقد أعطى كل مسلم حرية النقد والتوجيه ، حتى ولو تعلق ذلك برئيس الدولة نفسه ، فليس لأحد الحق فى منع الناس من نقد أى شخصية ، سواء كانت عامة أو خاصة ، ذلك أن نقد المسىء ومحاولة إبعاده عن السلوك المعوج فرض على كل مسلم بموجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن لم يقم المسلمون بهذا الواجب ، فقد حقت عليهم لعنة الله ، ويوم القيامة يعاقبون على ذلك بأشد العقاب . فلن يعفو الله عمن لايمارس الحرية التى أعطاها الله له لتقويم المعوج ، إلا إذا كان عاجزا حسيا أو معنويا عن تأدية هذا الواجب ، يقول تعالى : ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا * إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوًّا غفورا** ﴾(٤٦٤)، فلا يعفى من الإسهام بالرأى فى الحياة العامة، وإبداء النصح لأولى الأمر — وإن اقتضى الأمر مجاهدتهم بالكلمة والقلم ، إن انحرفوا فى تسيير أمور الدولة — إلا هذه الفئة التى لاتقوى على هذا الأمر ، وهم النساء ، والصبيان والضعيف من الرجال ، فمن لم يندرج تحت هؤلاء فعليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وبالتعبير المعاصر : لايعزل نفسه عن الحياة العامة ، بل يسهم فيها بالرأى والتوجيه دون خوف من حاكم ، أو خشية من أمير ، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إذا هابت أمتى أن تقول للظالم : ياظالم، فبطن الأرض خير لهم من ظهرها** »، أى أن حياتهم أصبحت لامعنى لها ، فصاروا فى وضع يكون الموت فيه أشرف وأكرم من هذه الحياة التى لايملكون فيها شيئا ، حتى مجرد إبداء رأيهم فى القرارات التى تشكل مصيرهم .

فحرية التعبير ليست حقا فقط فى المجتمع الإسلامى ، بل هى واجب على كل قادر ، فمن يستطع ممارسة هذه الحرية بالقول — عن طريق اللقاءات والندوات — فلا ينبغى أن يتكاسل عن هذا العمل ، بل يجب عليه السعى بكل ماأوتى من قوة وجهد لايصال كلمة الحق — أو مايعتقد أنه حق — إلى أكبر عدد من الناس ، ومن يرى أن بإمكانه التعبير عن

---

(٤٦٤) النساء ٩٧ — ٩٩

رأيه بالقلم ، فعليه أن يستخدم كل وسيلة ممكنة لنشر آرائه على الناس . فإن فرط أفراد الأمة فى هذا الواجب ، سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، فيسقيهم مرا ، ويطعمهم حنظلا ، ويومئذ لايستطيعون الخروج من سجنه ، ولا التخلص من زبانيته ، يقول رسول الله ﷺ : **«والذى نفسى بيده لاتقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة ، ووزراء فجرة ، وأعوانا خونة ، وعرفاء ظلمة ، وقراء فسقة ، سيماهم سيماء الرهبان ، وقلوبهم أنتن من الجيف ، أهواؤهم مختلفة ، فيفتح الله عليهم فتنة غبراء مظلمة ، فيتهاوكون فيها . والذى نفس محمد بيده ، لينقضنّ الإسلام عروة عروة ، حتى لايقال : الله .. الله .. لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم يسومونكم سوء العذاب ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم ، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليبعثن الله عليكم من لايرحم صغيركم ولا يوقر كبيركم»** ويقول ﷺ : **«والذى نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد السفيه ، ولتأطرن على الحق أطرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضا ، ثم ليلعنكم كما لعنهم»** .

لا يوجد نظام على وجه الأرض — سواء كان فى الأمم السابقة أو فى الأمم المعاصرة — يفرض على أتباعه أن يُقوِّموا المعوج — حتى ولو كان حاكما — بالكلمة والقلم سوى الإسلام ، إذ يرى الإسلام أن من رأى انحرافا ولم يعمل على تقويمه — وهو قادر على ذلك — فعليه لعنة الله . فإذا افتخر أنصار الحضارة الحديثة بأنها أعطت الفرد حرية التعبير عن رأيه بالقول وبالقلم ، وتباهوا على النظم الأخرى بأن إعطاء الفرد هذا الحق هو اعتراف بكيان الإنسان ، وتقدير لدوره فى الحياة ، الأمر الذى لم يحدث من قبل على امتداد التاريخ الإنسانى ، فحق للمسلم أن يعلو فوق هذه الادعاءات ، ويتقدم ركب هؤلاء الذين يتغنون بفضل الحضارة الحديثة فى هذا المجال ، بل له الحق فى أن يعلن على الملأ أن ماوصلت إليه الحضارة الحديثة فى مجال تأمين حرية الكلمة لايدانى ماأعطاه الإسلام للإنسان ، إذ أنه لم يعطه هذا الحق فحسب ، بل أوجبه عليه ، وأنذر من يتقاعس عنه بالويل والثبور ، وأنذره بأن حياته فى هذه الحياة سوف تنقلب إلى عذاب أليم ، لو سكت عن الحق ، ولم يمارس حرية النقد لما يراه غير مستقيم فى المجتمع . ومما لاشك فيه أن من يهيىء لك الأخذ بأسباب الكرامة ، أقل قدرا ممن يحثك بكل وسائل الترغيب والترهيب على ممارسة مايُكوِّن شخصيتك ، ويثبت كرامتك ويعمق إحساسك بإنسانيتك ، فشتان بين من يعرضها عليك ويعطيك الحق فى ممارستها ، وبين من يحملك عليها حملا ، ويدفعك إلى ممارستها دفعا .

وليس هذا هو الفرق الوحيد بين حرية التعبير فى المجتمعات المتحضرة ، وبين مافرضه الإسلام على المسلم فى هذا المجال ، ذلك أن التطبيق الكامل للحرية لم ير النور بعد فى المجتمعات المعاصرة ، فكثيرا مايرى المرء فى كثير من جوانب الحياة ، أن الأمور فيها محكومة بقواعد وأساليب تتنافى مع حرية الرأى ، بل إن دعاة الحرية أنفسهم يتنكرون لها إذا ماتعلقت بشعوب أخرى ، وأجناس غير أجناسهم ، أو إذا ماتصادمت مع مصالحهم على الصعيد الدولى . أما فى الإسلام فقد مارس المسلمون فى الصدر الأول نوعا من الحرية لم تعهده البشرية على طول تاريخها ، فقد رسم أبو بكر رضى الله عنه ــ وهو أول «حاكم» للمسلمين بعد رسول الله ﷺ ــ إطارا للحرية لم يتطرق إلى ذهن أحد من الحكام قبله ، فقال : «أيها الناس : إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى .. أطيعونى ماأطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم» .

وكذلك طلب عمر بن الخطاب من المسلمين أن يقوموه إن رأوا فيه اعوجاجا . فهذه دعوة من حاكم إلى رعيته ليمارسوا نقد مايرونه غير صالح ، ولاتكون إلا من نفس عالية ، تربت على مائدة النبوة ، وتشربت بمبادىء الإسلام .. ثم نرى تجاوبا من الرعية ، فيروى أن رجلا أجابه فى هذه الخطبة قائلا : «والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا» ، فهذا التعليق ، وإن بدت فيه جفوة الأعراب ، وحِدَّة البدائيين ، إلا أنه يعبر عن مدى حرية الكلمة فى ظل الدولة الإسلامية ، بل إن رد عمر عليه يعتبر وساما من الأوسمة التى تتحلى بها الأمم فى تاريخها ، وضوءاً ساطعا فى صفحات المسلمين ، يطغى على ادعاءات المتحدثين باسم الحرية السياسية فى هذا العصر ، إذ لم يتصد رجال الأمن للرجل فيخرسوه ، أو يخرجوه من الاجتماع ، لأنه لم يلتزم الأدب فى مخاطبة الرجل الأول فى الدولة ، ولم يسحلوه ، أو يزجوا به فى غياهب السجن ، حيث يفقد أهله أثره ، بعد أن غاب عنهم شخصه ، كما تفعل معظم أنظمة الحكم فى هذا العصر الذى يفخر أبناؤه بالرقى والتقدم ، بل قال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه قولته المشهورة : «الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يُقوِّم اعوجاج عمر بسيفه» .

فإذا لم تكن هذه هى معالم الحياة السياسية فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، فهى لاتمثل الإسلام على الإطلاق ، بل انحرفت عنه وتنكرت له ، وأصبحت بذلك عقبة كأداء فى طريق الدعوة إلى الله ، وإن ادعى القائمون عليها أنهم يطبقون الإسلام .

ومن هنا نرى أن مهمة الدعاة فى توضيح التناقض بين واقع المجتمعات الإسلامية

المعاصرة وبين الإسلام صعبة للغاية ، لأن صدى حياة المسلمين وسلوكهم أبعد أثرا ، وأعمق غورا فى نفوس غير المسلمين من كلمات يلقيها الداعية فى جمع من الناس ، أو بيان ينشره فى كتاب لايقرؤه إلا عدد قليل منهم .

ومما يزيد فى ضعف الدعوة فى هذا المجال أن كثيرا من الدعاة رفضوا استعمال وسائل الاتصال الحديثة فى نشر الدعوة ، ومن قبل منهم ذلك لم يستطع التعامل معها بما يتفق ومتطلبات العصر ، وما يناسب الظروف والاحوال .

معالم الحرية السياسية

تقوم ظاهرة الحرية السياسية فى المجتمع الإسلامى على مبدأ عام فى الإسلام فهى لاترتبط بشخص معين ، ولا تتعلق بزمن دون آخر ، لأن القرآن الكريم أرسى دعائمها بدعوة المسلمين إلى أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، وبينها رسول الله ﷺ شرحا وتفصيلا وتطبيقا ، فقد وردت أحاديث عدة تحث المسلمين على التصدى للباطل ، حتى ولو كان الأمر يتعلق بالحاكم ، يقول رسول الله ﷺ : **«إذا هابت أمتى أن تقول للظالم : ياظالم . فقد تودع منهم»** ويقول : **«مامن قوم يعمل فيهم بالمعاصى ، هم أعز وأكثر ممن يعمله ، لم يغيروه إلا عمهم العذاب»** ولايوجد فى مجال التطبيق أوضح مما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجرانى ، غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجبذه بردائه جبذة شديدة ، فنظرت إلى صفحة عاتق النبى ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته ، ثم قال : يامحمد . مر لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء .

فى أى حرية يمكن أن يحدث هذا فى ظلها ؟

وفى أى مجتمع — مهما بلغت فيه درجة التحضر والمدنية فى المجال السياسى — يستطيع مواطن من الطبقة السفلى — حسب التقسيم الاجتماعى المتعارف عليه فى المجتمع البشرى — أن يقترب من الحاكم ، فضلا عن أن يتجرأ فيجبذه من ردائه بهذا العنف ؟

ومن من الحكام يسمح لأحد من رعاياه أن يخاطبه باسمه ، فضلا عن توجيه الألفاظ العارية عن قواعد السلوك والآداب اليه ؟

لقد سمعنا — وعاصرنا وابتلينا — فى العصر الحديث — وهو الذى يتغنى أربابه بمظاهر الحرية السياسية فيه — بقوانين عجيبة مثل : قانون العيب فى الذات الملكية ، قانون

العيب ، قانون الطوارىء ، قانون سيادة الدولة ، قانون أمن الدولة .. وغير ذلك من الإجراءات التى توئد الحرية فى مهدها ، بل تجهضها قبل أن ترى نور الحياة ، أو يحس بوجودها المعذبون فى الأرض ، والمضطهدون فى ظل الديكتاتورية السياسية . لكنها النبوة ، هى التى وجهت محمدا ﷺ إلى السلوك فى هذا الطريق ، كى يعلم المسلمين مايجب أن تكون عليه العلاقة بين الحاكم والمحكوم !

علاقة فيها شفقة الأب على ابنه ، وحنان الأم على وليدها ، وحب الأخ لأخيه ومسامحة الصديق صديقه ، ورحمة الكبير الصغير .

كما أنها تقوم على الوقوف فى وجه الطغاة ، بالنصح تارة ، وبالتصدى لهم بالقوة ، إن اقتضى الأمر تارة أخرى ، وهم فى كل ذلك ملتزمون بقول رسول الله ﷺ : «الدين النصيحة» ، وعندما سأله الصحابة عمن تكون له النصيحة ، أجابهم بقوله : **«لله ، ولرسوله ، ولكتابه ، ولأئمة المسلمين وعامتهم»** . روى أن عمر بن الخطاب خطب يوما فقال : «أيها الناس .. اسمعوا وأطيعوا فقال رجل : لانسمع ولانطيع ، أنت ترتدى جلبابا طويلا ، وأنت رجل طويل وعملاق ، والملابس التى جاءت لاتكفى الواحد منا مع قصره ، فمن أين لك هذا ؟ فقال عمر : قم ياعبد الله بن عمر ، حدِّث الناس، فأخبرهم عبد الله بأنه أعطى قطعته لأبيه فجعل منها ثوبا ، فقال الرجل : قل : فالآن نسمع ونطيع . فالنصح للأئمة وهم قادة الدولة يعبر عنه فى العصر الحديث بالنقد ، فإذا جاز للمسلمين أن ينقدوا الحاكم ، فذلك هى الحرية السياسية ، ولو كان ذلك فرضا عليهم ، كان مبدأ الحرية من معالم البنية الأساسية فى المجتمع .

عرف المسلمون هذا ، فساروا على هديه ، واتبعوا طريقه ، فكان للحرية مكان فى مجتمعاتهم ، ولم تقتصر هذه الظاهرة على عهد الخلفاء الراشدين ، بل وجدت فى كل عصر عرف الوالى فيه طريقه إلى الله ، فلم يوجد تفاضل فى الدولة الإسلامية إلا على أساس العمل الصالح ، إذ لم يميز الحاكم عن الرعية فى أى جانب من جوانب الحياة ، إذ لم يكن له ميزات اجتماعية أو مالية ، بل إن الإسلام خول لأفراد الأمة سلطات على الحاكم بما لهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — وبالتعبير المعاصر : النقد والمعارضة أى الحرية السياسية — تطبيقا لقول رسول الله ﷺ : **«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»** .

ولما كان من العسير أن يقوم كل واحد بمهمة النقد ومعارضة الحاكم فيما يراه خطأ ،

فقد جعله الإسلام فرض كفاية ، أى يجوز أن ينوب عن الجميع من يستطيع القيام بهذه المهمة ، فكل من يجد فى نفسه القدرة على ذلك ، فعليه أن يبذل كل مافى وسعه لتقويم الحكام والولاة . والحيلولة بينهم وبين الاعتداء على الحقوق الفردية ، والحريات العامة .

ولا يملك الحاكم فى ظل الدولة الإسلامية إلا تنفيذ ماجاء فى القرآن الكريم ، وماوصى به رسول الله ﷺ ، فإن احتمل النص أكثر من وجه ، فعليه أن يلتزم برأى جمهور العلماء (أى الأغلبية فى الجهاز التشريعى وهو بمثابة البرلمان فى العصر الحديث) ، ولا يجوز له إصدار قرار ، أو اتخاذ إجراء ، إلا بعد استشارة من حوله من أهل الخبرة والاجتهاد كل فى تخصصه ، وعليه سماع الرأى المعارض ، ومناقشته بصدر رحب ، وأن يهيىء الظروف الأمنية للمعارض ، حتى يستطيع التعبير عما عنده دون ضغط أو تلميح بالبطش والتعذيب .

هذه هى المرتكزات الأصلية التى يجب أن يقوم عليها الحكم فى الإسلام ، فمن يلتزم بها كان معبرا عن روح الإسلام ، ومطبقا له وبالتالى يمكن للدعاة أن يوضحوا لغير المسلمين أن هذا هو النموذج الذى ينشده الإسلام فى مجال الحكم ، فعليهم أن يدرسوه ويتفهموه إن هم رغبوا فى معرفة مبادىء الإسلام فى هذا المجال .

أما إذا تنكر الحكام لهذه المبادىء ، فسوف ينفرون الناس من الإسلام ، لأن غير المسلم ينظر إليهم على أنهم يمثلون الإسلام ، وبالتالى فما يمارسونه إنما هو تطبيق لتعاليم هذا الدين .

ومن هنا تبدو أهمية التزام الحكام بمبادىء الإسلام حتى يكونوا قدوة يسير على نهجها المسلمون ، ويهتدى بها غير المسلمين .

تصحيح

يشيع أعداء الإسلام ــ ومن يدور فى فلكهم من المسلمين ــ فى المجتمع الدولى أن مبادىء الإسلام وقواعده فى مجال الحرية السياسية لاتصلح لهذا العصر ، فمعارضة الحكام التى تحدثت عنها كتب التراث لاتخرج عن كونها أسلوبا اقتضته ظروف العصر ، وأنماط الحياة السياسية فى القرون الأولى ، وهى لاتتناسب مع حياة المجتمعات فى العصر الحديث ، ومن ثم فلا يصلح فى مجال السياسة اليوم إلا النظام الديمقراطى الغربى ، وهو القائم على أساس تعدد الأحزاب ، وانتخاب هيئة تشريعية ــ وهى التى يطلق عليها :

البرلمان — لسن التشريعات والقوانين الملائمة للعصر ، ولتقوم بدور الرقابة على الهيئة التنفيذية بما فيها رئيس الدولة نفسه . ولما كان الإسلام أو بتعبير أدق : رجال الدين الإسلامى لايجيزون قيام مثل هذه المؤسسة بدعوى أن المشرع هو الله ، فقد أثبتوا بذلك أنهم يريدون للمجتمع أن يعود إلى الوراء أربعة عشر قرنا . الأمر الذى يعوق مسيرتنا عن التحرك ، فنقف جامدين أمام متطلبات العصر ، ويكون مآلنا إلى التخلف ، بل إلى موت فى جميع مناحى الحياة .

وتبدو هذه المقولة لمن لاعلم له بتعاليم الإسلام مقبولة ، ومسلم بها فى جميع جوانبها ، غير أن أهل الذكر يرونها عارية عن الصحة ، ولا يقبلها إلا السذج من الناس الذين لاعلم لهم بتطور الحياة وسنتها ، واختلاف الأقطار وسكانها ، ذلك أن النظام الديمقراطى الغربى لايصلح للتطبيق فى جميع الظروف ، وعلى امتداد مختلف الأزمنة ، فهو وإن كان مناسبا لحياة كثير من سكان الأرض ، فقد لايناسب حياة بعض المجتمعات . وعلى فرض أنه ممكن التطبيق فى جميع المجتمعات المعاصرة ، فقد تطرأ أمور تجعله غير صالح ، مما يؤكد أنه نظام مؤقت بظروف وملابسات معينة ، ومالنا نحمل هذه النتيجة على احتمال مستقبلى قد لايحدث ، وأمامنا مايبين لنا بما لايدع مجالا للشك أنه ليس نظاما عاما وشاملا فحياة المجتمعات الإنسانية ، فى القرون الأولى — وبالتالى فيما يشبهها اليوم فى بعض مناطق الأرض — لم تكن مناسبة لتطبيق هذا النظام ، وعليه فهو محدود بأطر معينة من معالم الحياة الإنسانية ، فإذا ضاعت هذه الأطر صار غير ملائم للتطبيق . وذلك هو شأن التفريعات والجزئيات فى كل نظام يتعلق بالإنسان ، لأن اختلاف البيئات وتباين أشكال الحياة يقتضى التغيير والتبديل فى جزئيات النظام وتفاصيله ، أما المبادىء العامة والمرتكزات الأساسية فهى عامة ومشتركة بين الناس جميعا .

وهذا هو ماجاء به الإسلام ، فقد حرم الاستبداد بالرأى ، حتى على النبى نفسه ، فقال تعالى : **﴿وشاورهم فى الأمر﴾**(٤٦٥) . ويؤخذ من هذا عدم أحقية أى حاكم فى الانفراد بالسلطة ، أو الاستبداد برأيه ، لأن الله أمر من هو أعلى منه قدرا وأقوى بصيرة ، وأكثر حكمة بأن يشاور أصحابه ، فأولى بمن هو دون النبى أن يلتزم بالشورى . كذلك أمر المسلمين بأن يكون الأمر بينهم شورى ، فقال تعالى : **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾**(٤٦٦) .

---

(٤٦٥) آل عمران ١٥٩
(٤٦٦) الشورى ٣٨

فالقاعدة فى المجتمع الإسلامى أن تكون السيادة للشورى بين الحاكم والرعية وبين المسلمين بعضهم مع بعض ، فلا انفراد برأى ، ولا استبداد بسلطة ، بل نقاشا ومشاورة ، واستطلاعا للرأى ، واتفاقا على القرار .

ولكن بأى أسلوب تكون المشاورة ؟ أتكون بالمداولات الفردية ؟ أم بعقد لقاءات مهنية ؟ أم على هيئة مناقشات يشترك فيها كل الناس ؟ أم بواسطة نواب يختارهم الشعب ؟ .

لم يحدد الإسلام أسلوبا معينا ، وذلك لاختلاف ظروف الناس ومشاكلهم وملابسات معيشتهم ، إلا أنه بين أن من يستشار ، أو من يكون له الحق فى إبداء الرأى ، ينبغى أن تكون له القدرة على فهم أبعاد المسألة التى يدلى فيها برأيه ، حتى يكون رأيه قائما على أساس علمى ، ومرتكزا على تصور سليم ، يقول تعالى : ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون**﴾ فيسأل الفقهاء فى المسائل الشرعية ، والمهندسون فى مجال الهندسة : تطبيقية ، أو مدنية أو إنشائية .. أو .. أو .. الخ كل فى مجال تخصصه والزراعيون فى الزراعة ، والاقتصاديون فى عالم التجارة والمال ، وهكذا فلا يسأل — ولا يستشار — إلا من يكون على علم ودراية بما يسأل فيه .

كذلك ينبغى على من لاعلم لهم ألا يقحموا أنفسهم فى مجال ليس مجالهم ، فلا يدلوا برأى لايدركون أبعاد نتائجه ، لأنهم يكونون بذلك من العصاة الذين لم يلتزموا ماحدد لهم بحكمة خبرتهم، يقول تعالى: ﴿**هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم**﴾[٤٦٧] . ويقول : ﴿**وإن كثيرا ليضلون باهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمهتدين**﴾[٤٦٨] . ويقول : ﴿**ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا**﴾[٤٦٩] .

الشورى أساس الصلاح

إذا طبق المجتمع مبدأ الشورى فى مجالات الحياة ، سواء كانت أسرية أو اجتماعية ، أو سياسية ، أو غير ذلك من الأنشطة الإنسانية المختلفة والمتنوعة ، استقامت حياة الناس

---

(٤٦٧) آل عمران ٦٦
(٤٦٨) الأنعام ١١٩
(٤٦٩) الاسراء ٣٦

واستوت على الطريق المستقيم فلا ظلم ولاعدوان ، ولا استغلال ولا استعباد ، إذ تسد الطرق أمام الجبابرة والطغاة ، فلا يستطيعون فرض رأى أو تطبيق مالا تراه الأغلبية صالحا لحياتهم جميعا ، وتوصد الأبواب أمام الطامعين والمغامرين فلا يملكون من الوسائل مايمكنهم من استغلال العامة للاستيلاء على أموالهم ، وليس لديهم فى ظلها مايهيىء لهم الظروف لاستنزاف طاقات العمال لصالح خزائنهم ، أو يمهد لهم الطريق للسيطرة على وسائل الإنتاج ، والتحكم فى أسواق التصريف لينمو رصيدهم وتزداد ثروتهم تضخما على حساب عامة الناس من المستهلكين والمتعاملين فى مجال الحركة الاقتصادية ، لأن الشورى هى مفتاح الأمان فى المجتمع ، تضبط مسار المال ، وتقوّم المعوج فى دهاليز الحركة المالية ، وتحافظ على الطاقات الإنتاجية ، بحيث لايأخذ أحد أكثر من حقه ، ولايجار على حق أحد ، فيستغل مجهوده لحساب آخر ، فهى بمثابة عجلة القيادة ، تضبط العلاقات فى المجتمع ، حتى لاتنحرف مسيرة الحياة فتطغى طبقة على أخرى ، أو تستأثر مجموعة بالموارد الاقتصادية ، بينما يعيش باق الشعب على الفتات الذى لايسمن ولا يغنى من جوع ، أو يزاحم أصحاب الهيمنة والسلطان ذى الكفاءات والطاقات المنتجة ، فيختل التوازن ، وتهتز القيم ، فيهوى المجتمع فى قاع سحيق ، يحول بينه وبين الاستمرار فى التقدم على طريق الحضارة .

كذلك يتمتع الإنسان فى ظل الشورى بالكرامة الإنسانية ، فلا تهان آدميته ، ولا يمتهن وجوده ، إذ تعطيه الحق فى المشاركة بالرأى والفكر فى بناء مجتمعه ، وتهيىء له وسيلة الشعور بقيمة الحياة داخل إطار مجتمع يحس أفراده جميعا بأنهم شركاء فى تقرير مصيرهم ، ومتكافئون فى تحديد مسار حياتهم ، ومتعاونون — كل على حسب طاقته وكفاءته — فى بناء مستقبلهم ، فلا حرمان لأحد من المشاركة فى هذا المجال بحجة العزل السياسى ، أو المحافظة على أمن الدولة ، أو بسبب الاضطهاد الدينى ، أو العداء الفكرى ، أو الانتساب إلى طائفة معينة ، أو مجموعة محددة ، بل لكل من يعيش فى المجتمع حق الاسهام بما يستطيع فى تكوين وتطوير شكل الحياة الاجتماعية ، بشرط ألا يخرج عن الإطار العام الذى رسمه الإسلام للناس ، وذلك هو المفهوم من قوله تعالى : ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ .

ويلاحظ أن الأمر بالشورى ورد فى القرآن الكريم كمبدأ عام — شأنه فى ذلك شأن كثير من المبادىء والتعاليم الإسلامية — فلم يحدد الإسلام لتطبيق الشورى شكلا معينا ، ولم يرسم لها نموذجا خاصا ، بل أطلقها ، وذلك لأن حياة المجتمعات ليست واحدة فمشاكلهم وظروف حياتهم مختلفة ومتنوعة ، فلو حدد لها شكلا خاصا لكان فى ذلك

إحراج لمن لا تصلح حياتهم لتطبيقه ، فإما أن يطبقوه فتسوء أحوالهم ، وإما أن يتركوه ويطبقوا مايناسبهم من الأنظمة ، فيكونون بذلك قد خالفوا تعاليم دينهم .

ولهذا اهتم الإسلام بتثبيت المبدأ العام وهو : الشورى ، وترك صورة تطبيقها للناس ، يكيفون صيغتها حسب ظروفهم وأحوالهم . ولا شك أن هذا هو أحد الأدلة التى تثبت للناس جميعا ــ سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ــ أن الإسلام عالمى زمانا ، ومكانا ، فهو صالح للتطبيق فى كل المجتمعات ، رغم اختلاف أحوال الناس ، وتباين بيئاتهم ، كما يتناسب مع متطلبات كل عصر ، مهما بلغت فيه درجة التقدم والحضارة .

بين العلمانيين ورجال الدين

تدور معارك فى كثير من الأقطار الإسلامية بين العلمانيين وبين رجال الدين حول الأخذ بمبدأ الديمقراطية الغربية ، إذ يرى العلمانيون أن هذا النظام هو النموذج المثالى لحكم الشعوب فى العصر الحديث ، ذلك أنه يتيح لكل فرد فرصة اختيار نوابه عن طريق تعدد الاتجاهات ، وتنوع البرامج الحزبية ، فهو مخير بين عدة خيارات يختار منها مايلائم حياته ، ومايحقق مصلحته ، ومايتفق مع نظرته للحياة ، وموقفه من الوجود كله ، فإذا مافاز اتجاه برأى الأغلبية ، فعلى الجميع أن يسلموا بأحقيته فى تسيير دفة الحكم ، مع إعطاء الاتجاه المعارض حق مناقشة القوانين واللوائح التى يتقدم الحاكمون بها إلى المجلس المنتخب لإقرارها كأساس لتطبيق النظام فى المجتمع ، وبهذا لاينفرد شخص بتقرير مصير أمة ، ولا يكون لمجموعة ، أو هيئة ، أو حزب حق الاستيلاء على السلطة ، بدون تفويض من الشعب ، كما لايجوز للسلطة التنفيذية اتخاذ أى إجراء يتعلق بمصالح الناس إلا إذا أجازه من اختارهم الشعب ليمثلوه فى توجيه أمور الدولة ، فالتوازن بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية يحفظ نظام الدولة من التداعى والانهيار ، والاعتراف بحق نواب الشعب فى مساءلة رجال الإدارة والحكم فيما يمارسونه بحكم وضعهم الوظيفى يحمى المواطنين من قسوة الحكام وظلمهم ، ويحافظ على مصالحهم ، ويؤمن حياتهم ، ويرسى قواعد الاستقرار فى الأمة .

بينما يرى بعض رجال الدين أن هذا من النظم التى أقرتها العلمانية ، ومادامت العلمانية لاتعترف بوجود الدين ــ كما هو الحال فى العلمانية المتطرفة ــ أو لاترى بأسا من وجوده ــ كما هو الحال فى العلمانية المعتدلة ــ غاية الأمر أنه ينحصر فى ظلها فى مجال العبادات ، فليس له سلطان على التشريعات واللوائح التى تضبط مسيرة الحياة وإنما مركز

التشريع ومصدره هو البرلمان المنتخب من الشعب ولا مصدر غيره ، فلا يجوز لشعب مسلم أن يقر هذا النظام كنموذج له فى الحكم ، لأن المشرع هو الله ، وليس البرلمان . ثم يتطرق المتطرفون من رجال الدين إلى مظاهر هذا النظام المتعددة فيحرمونها كلها ، إذ يرون أن نظام تعدد الاحزاب ليس إسلاميا ، لأنه يفرق الأمة شيعا وأحزابا ، ولذلك فهو غير جائز ، كما أن تسمية البرلمان بالهيئة التشريعية حرام ، لأن المشرع هو الله .

ربط العلمانيون — على غير أساس علمى تاريخى — هذا الموقف بما كان عليه الحال فى أوروبا إبان العصور الوسطى ، إذ تصوروا وضع السلطة البابوية ، آنذاك ، يوم أن كان البابا والمطارنة والقسس يحللون مايشاءون ، ويحرمون مايشاءون ويدخلون الجنة من يريدون ، ويقذفون فى النار من يكرهون . وتراءى فى أذهانهم صور صكوك الغفران والحرمان حيث قاسى منها الحكام والأمراء الكثير من المتاعب والآلام ، بل إن الشعوب نفسها اكتوت بنارها وذاقت جحيم أوارها وسعيرها ، فتصوروا — أى العلمانيون — أن تطبيق الشريعة الإسلامية فى مجال الحكم والإدارة سيخلق مثل هذا الوضع فى المجتمع الإسلامى ، حيث يتحكم رجال الدين فى كل شيء دون أن يكون لأحد الحق فى الاعتراض أو المناقشة ، لأنهم محصنون بسياج قدسى لايجرؤ أحد على تخطيه ، اللهم إلا من خلع رداء الإيمان .

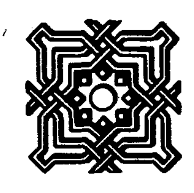
فأى مسلم يستطيع أن يضع نفسه فى هذا الموقف ؟

لا أحد .

وتكون النتيجة القضاء على كل صوت معارض فتترعرع الديكتاتورية الدينية ، وتضيع حقوق الناس بين فكيها ، وتهدر كرامة الإنسان تحت أقدامها كما حدث فى القرون الوسطى ، حيث كانت الكنيسة تبسط سلطانها على جميع مجالات الحياة .

إن هذه الصورة لاوجود لها فى الإسلام على الإطلاق ، إذ لايعرف فى تعاليمه هذا المصطلح المسيحى : رجل دين ، وغير رجل دين ، لأن الكل فى ظل الإسلام مسلمون ، لافرق فى الحقوق والواجبات بين رجل وآخر ، وليس فى الإسلام عصمة لأحد من الخطأ كما هو الحال فى المسيحية بالنسبة للبابا ، فكل مسلم خطاء ، ومادام الأمر كذلك فلكل أحد الحق فى المعارضة ، لأنه لايوجد رأى لايجوز معارضته ، وبهذا تنتفى شبهة العلمانيين فى إمكان قيام ديكتاتورية دينية ، إذ مادام الإسلام قد أعطى كل مسلم الحق فى المعارضة ، فلن تقوم فى ظله ديكتاتورية .

أما بالنسبة لما يراه بعض رجال الدين من تحرير النظام البرلمانى لأنه يدعى لنفسه حق التشريع بينما المشرع هو الله ، فلا ينبغى أن يفهم وضع البرلمان على هذا النحو ، ذلك أن تعاليم الإسلام ومبادئه العامة لايجوز المساس بها ، فهى بمثابة الدستور الذى لايجوز للبرلمان أن يوافق على تشريع قانون يتعارض مع مبادئه ، فالتشريع يدور فى أمور فرعية تندرج تحت ظل مبادىء الدستور العامة ، فإذا أردنا أن نبين طبيعة عمل البرلمان فى ظل تطبيق الشريعة الإسلامية . فإننا نرى أنها لاتخرج عن إقرار تفسير لنصوص القرآن الكريم دون آخر ، وماأكثر آراء العلماء فى التفسير والتأويل ، فنصوص القرآن لايجوز الخروج عليها صراحة ، كما هو الوضع بالنسبة لعدم الخروج عن الدستور ، وإنما يجوز لأعضاء البرلمان إقرار قانون يتفق مع رأى عالم ، ورفض رأى عالم آخر ، وبهذا يكون دور البرلمان هو الاختيار والانتقاء من آراء العلماء بما يناسب طبيعة الحياة وظروف العصر .



○ أهم المراجـع ○

١ ــ أبو الحسن الندوى : السيرة النبوية .
٢ ــ د / إسماعيل البدوي : دعائم الحكم فى الشريعة الاسلامية والنظم الدستورية
٣ ــ توماس آرنولد : الدعوة إلى الإسلام
ترجمة : د / حسن إبراهيم وآخرين
٤ ــ د / حسن الترابى : الايمان : أثره فى حياة الانسان
٥ ــ صلاح عبد القادر البكرى: القرآن وبناء الانسان
٦ ــ د / عبد الجليل شلبى : الخطابة وإعداد الخطيب
٧ ــ د / عبد اللطيف حمزة : الاعلام فى صدر الاسلام
٨ ــ علال الهاشمي : الاسلام وأيديولوجيات الفكر المعاصر
٩ ــ على محفوظ : هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة
١٠ ــ د / عماد الدين خليل : حول إعادة تشكيل العقل المسلم
١١ ــ د / عون الشريف قاسم : الاسلام والثورة الحضارية
١٢ ــ د / محمد البهى : من مفاهيم القرآن فى العقيدة والسلوك
١٣ ــ د / محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى
١٤ ــ د / محمد شامة : الاسلام كما ينبغى أن نعرفه
١٥ ــ د / محمد شامة : الاسلام فى الفكر الأوروبى
١٦ ــ د / محمد شامة : الاسلام قوة الغد العالمية
١٧ ــ د / محمد شامة : بين الاسلام والمسيحية
١٨ ــ د / محمود محمد سفر : الحضارة تحدٍّ
١٩ ــ د / مصطفى السباعى : من روائع حضارتنا
٢٠ ــ د / يوسف القرضاوي : حتمية الحل الإسلامى

﴿فهرست الموضوعات﴾

الفصل الخامس
التطور والتجربة

الفصل السادس
حرية العقيدة في الاسلام

الفصل السابع
أثر العقيدة في الحياة

الفصل الثامن
العقيدة تكرم الانسان

الفصل التاسع
حقوق الانسان في الاسلام

الفصل العاشر
الدعوة إلى الله

الفصل الحادي عشر
القـدوة